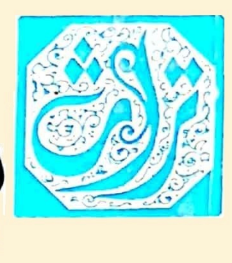



حكايات من أغانى الأصفهانى



# يوميات المغنين والجوارى

كمال النجمى

كل من كان ذا هيام وحزن فقد برا

غير محبوبة الق ... الموت يشترى

دار الهلال

حكايات من الأغانى

# يوميات المغنين والجوارى

●

بقلم

كمال النجمى

●

دار الهلال

الغلاف بريشة

الفنان بهجت عثمان

# مقـــدّمة

قبل الف سنة كتب أبو الفرج الاصبهانى ، أو (( الاصفهانى )) كتـــاب الاغانى ، فصار من أشهر الكتب فى عصره ، ولبث محتفظا بسهرته وقيمته هذا الزمان الطويل ، وسوف يبقى كذلك ..

فان (( كتاب الاغانى )) موسوعة ممتعة باهرة ، للادب والفن والتـــاريخ والاخلاق والمروءة والفكاهة والشجاعة ، وكل شيء تقريبا .. شـــهد بذلك طلاب العلم وطلاب القراءة وطلاب التسلية ، على امتداد العصور التى قرىء فيها هذا الكتاب الممتع الفريد .

وطوال مئات السنين ، حاول كثير من الادباء (( اختصار )) كتاب الاغانى، او (( تلطيف)) حجمه الضخم،بتجريده من العنعنة والاســـتطراد والتكـرار وبعض الحكايات ، فاجتمعت فى المكتبة العربية عـدة مختصرات للاغانى ذهب أصحابها مذاهب مختلفة فى الاختصار والتجريد والانتقـاء ، وظن كل منهم أن عمله أوفى بالغرض من سواه ، واجتهد فيه ما وسعه الاجتهاد ..

وفى عصرنا وجد كاتبو (( الدراما )) مادة لاعمالهم فى (( كتاب الاغانى )). فانقلبت صفحات كثيرة من هذا الكتاب العظيم ، الى مرئيات ومســـموعات درامية ، ولكن ما يصلح للدراما من هذا الكتاب يحتاج الى التصرف الواسع، بالحذف أو الاضافة أو التخيل أو التعمل الذى يخرجه عن أصله ! ..

ولم يبق بعد هذا كله مجال لا للتجريد والاختصار ، ولا للاعمال الدرامية الا فى القليل ، ولا يحسن أن ننســـج على نفس المنـــوال فنختصر أو ننتقى او نجرد أو نبنى من صفحات الكتاب العظيم أعمالا درامية ، فذهبنـا فى النظر اليه مذهبا آخر ، يعلو فيه قدره فوق الاختصار والتجـــريد ، وفوق التمزق مرئيا أو مسموعا ، وحاولنا أن نقدم الكتاب جديدا جذابا ، ولـكن بلا هدم لأصله فى اللغة والرواية والروح الادبيـــة والفنية التى كتبه بها قبل ألف عام صاحبه الاديب الفنان العبقرى أبو الفرج الاصفهانى .

لهذا جاء كتابنا هذا الجديد ، فى شكل يوميات للشخصيات التى تعيش على صفحاته ، ولكن القصص الكبيرة والحـــوادث التـــاريخية ثابتة فيه متماسكة ، وان لم تتعاقب وتتشابك ، كتعاقب الليل والنهار ، ســـاعة بعد ساعة ! ..

فاذا قرأنا الفصول الزاخرة التى كتبها ابو الفرج ، راعتنا كثـرة الايام التى تفصل بينها الايام والشهور والسنون .. فتجرء حكاية من الحكايات

فى هذا اليوم ، ثم تتلوها حكاية فى ذاك اليوم ، وبينهما عشرون عاما ، فمن هنا تفاوتت أيام كتاب الاغانى وتباعدت وتقاربت وتداخلت ، وعلى هذا الاساس جمعناها فى كتابنا هذا ، فجعلنا الحكاية يوميات ، وجعلنا اليوميات تتسع فى الزمان أو تنقص كما يقتضى المقام ، فقد تنبسط يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تتركز فى أيام أو ساعات ..

وكتاب الاغانى حافل بقصص وحكايات عن القادة والزعماء والعلماء والصلحاء والشعراء والادباء ، فضلا عن المغنين والمغنيات ، وقد آثرنا أن نبدأ بما كتبه عن المغنين والمغنيات فى هذا الجزء الذى نرجو أن تتلوه أجزاء تستكمل بقية قصص الكتاب عن اهل الغناء من المطربين والجوارى ثم عن غير هؤلاء من أبطال الكتاب الذين تتألف من سيرتهم صورة تامة الملامح لمجتمع العصر العباسى الاول وما قبله من العصور الاسلامية والعربية ..

والغناء هو أصل كتاب الاصبهانى ، وانما استطرد من قصص الغناء الى القصص الاخرى .. فجاء بما لم يسبقه اليه أحد فى التأليف ، وجعل كتابه هذا معرضا للغة الصحيحة والبيان الرفيع ..

وحين أخذت فى كتابة هذه اليوميات الغنائية ، بدا لى أن أحاول الاقتراب بأسلوب الكتابة قدر الاستطاعة ، من أسلوب مؤلف الاغانى العظيم الذى هو امام فى البلاغة ، ونسيج وحده فى صياغة الكلام ، والتعلق به يمنح كتابنا هذا نفحة من عبق التاريخ ، مع التزامنا بتقريبه الى قارئنا المعاصر ، لهذا أبقيت شذرات واضحة من أصول الكتاب العظيم العريق يتنسم القارىء عبيرها خلال السطور ، وحاولت تطويع النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى الذى تم فيه تأليف (( كتاب الاغانى )) لمقتضيات الكتابة فى أيامنا ، لكيلا يقع فى كتابنا هذا تفاوت بين طبقات التعبير ، أو تنافر بين القديم والجديد .

ولست أظن طريقتى هذه أمثل الطرائق ، ولكنها - فيما يبدو - غير مسبوقة فى بابها ، وقد لا تكون كذلك ، اذ لم نطلع على كل ما أخذه المؤلفون من كتاب الاصبهانى ، ولكنى أرجو لها على أية حال كرم القبول من قرائها ، وسماحة الاغضاء عن هناتها ..

ولعلنا بهذه الطريقة نسهم فى عقد صداقة بين القارىء العصرى وبين كتاب عظيم قرأته الاجيال اكثر من الف سنة .. كتاب الاغانى للاصفهانى ، او الاصبهانى ! ..

كمال النجمى

# حكاية أول مطرب فى المدينة

## ● اليوم الاول :

انا ـ ولا فخر ـ أول من رفع عقيرته بالغناء فى المدينة المنورة بعد أن خرجت من ظلام الجاهلية الى نور الايمان !

لا أضرب بالعود مثلما يفعل الآخذون من غناء الاعاجم ، كابن مسجح فى مكة ، وسائب خاثر فى المدينة ، ولكنى أنقر بالدف وأتمشى به خلال الغناء بين صفوف المستمعين ، أحسن مشية ، على مذهب أهل الحجاز فى التمشى على نقر الدفوف ! ..

صوتى أجمل الاصوات ، كما يقول العرفاء بالغناء ، ولو أنصفنى الدهر لاغتنيت من صناعة الغناء . ولكنى ـ لكى أعيش ـ أجمع الى هذه الصناعة الجميلة ، صناعة الاضحاك والتسرية عن السراة من أهل المدينة وانى لاكسب من أضاحيكى ونوادرى أكثر مما أكسب من غنائى ! .. فان الناس لايتحرجون من سماع النوادر والاضاحيك أما الغناء فيتأثم منه اكثرهم ، الا من كانت فى طبيعته سماحة وأريحية كعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشد الناس معرفة بالدين وعملا بأحكامه ! .. وقد انتزع للمغنى سائب خاثر عطاء من الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، أخرجه له من بيت المال مع أعطيات أهل المدينة ، وقال ابن جعفر لمعاوية وهو يذكر له أحقية سائب خاثر فى عطاء من بيت المال

ـ حسب هذا الرجل من فضل ، تحسينه الشعر بصوته وألحانه !

لم يعترض معاوية ، وأعطى سائب خاثر ما اقترحه له ابن جعفر من عطاء ! ..

أما أنا فما أخذت درهما واحدا من بيت المال ، فلا عطاء لى ، بل أنا مطارد متهم بالعبث والفساد ! ..

اسمى عيسى بن عبد الله ، ولقبى « طويس » وقد نسى الناس اسمى فلا يذكرون الا لقبى أصلى عجمى ، وسادتى من بنى مخزوم فى قريش .. نشأت بالمدينة أدخل بيوتها فلا يحجبوننى ، فعرفت دخائلهم ، وحفظت أنسابهم ، وصحبت أمى فى طوافها ببيوتهم تخدمهم وتمشى بالنميمة بينهم ، فتعلمت منها النميمة والوقيعة ، ومشيت بهما بين الناس كما مشت

امي من قبل حتى اتقوني لحدة لساني وطوله وخوضه بالوشاية والنميمة في كل مجال ! .. ولكنني ـ والله ـ افعل كل ذلك بحسن نية ! ..

وانا ممتع الحديث حاد الفهم ، أرعي واحفظ حق المجالسة ، واعظم موالي من بني مخزوم ومن اليهم من سائر قريش .. مسالم لا أحب التحكيك بأحد ، الا من ظلمني ، فاني انتصف منه ، والبادىء أظلم ! ..

ابناء المهاجرين والانصار في المدينة يكتنفونني ويحبـون مجالستي وينصتون الى حديثي ، ويشتهون غنائي .. ولولا ما أشاعه أعدائي حولى من سوء القالة لما بقي أحد من قريش والانصار الا أدناني واعطاني ! ..

يقولون اني على ظرفي وحلاوة غنائي ، مشئوم ! .. فقد ولدت يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم ، وفطمت يوم مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وختنت يوم طعن أبو لؤلؤة المجوسي عمـر بن الخطـاب أمير المؤمنين وتزوجت يوم قتل الثائرون عثمان بن عفان ، وانجبت ولدا يوم مقتـل علي ابن أبي طالب .. وولدا آخر يوم مات الحسن بن علي رضي الله عنهما ! .

وانا رجل طويل أحول ، ولدتني امي بعين واحدة هي هذه العين الحولاء أما الاخرى فولدتني بها عمياء ! .. لكنني برغم ذلك أحسن الناس علما وظرفا وحسن غناء وجودة نقر بالدف ، واضحك الثكلى بنوادري ! ..

أقرأ كتاب الله ، ولست مثل ذلك الشـخص المخنث الذي قبض عليه حاكم المدينة فقال له

ـ أيها الرجل هل تقرأ أم الكتاب ؟!

فقال المخنث :

ـ والله ما اقرأ بناتها ، فكيف أقرأ امهن !

فقتله حاكم المدينة ، وكان محقا في قتله ! .

وبعض الناس يحاولون أن ينسبوني الى هذا النوع من الاشخاص ، وكل من ينسبني اليهم فهو عدو لي أو حاسد .. والله بيني وبينه .. وسأتعلق برقبته يوم القيامة أطلب الاخذ بحقي منه !

## ● اليوم الثاني :

جاء ابان بن عثمان بن عفان أميرا على المدينة من قبـل الخليفة عبد الملك ابن مروان .. فلما دنا منها تلقاه أهلها ، وخرجت معهم فسلمت عليه وهو يعرفني وقد سمع غنائي مرات .. فقلت له أيها الامير ، اني كنت أعطيت الله عهدا لئن رأيتك أميرا لاخضـبن يدي بالحنـاء الى المرفقين ثم انقر بالدف بين يديك واغني وأمشي على نقراته أحسن مشية رآها أهل الحجـاز كله ! ..

ثم أخرجت يدي مخضوبتين ، واخرجت دفي وتغنيت

ما بال اهــلك يا رباب

خزرا كانهم غضــــاب

فطرب ابان بن عثمان حتى كاد أن يطير ، وجعل يقــول لى : حســبك يا طاوس ، ولا يقول لى : يا طويس ، حتى لا يصغر اسمي ، ثم أمرنى بالجلوس ، وقال لى متبسطا متفكها :

ـ قد زعموا انك كافر ياطويس ! ..

قلت :

ـ جعلت فداءك ! .. والله .. انى لاشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأصلى الخمس ، وأصوم رمضان ، وأحج البيت ! ..

قال الامير :

ـفانت أكبر سنا أم اخى عمرو بن عثمان بن عفان ؟!

قلت :

ـ أنا والله كنت غلاما صغيرا أتعثر فى أذيال نســـــاء قومى يوم زفت « أمك المباركة » الى « أبيك الطيب » ! ..

فاستحيا الامير ابان بن عثمان وأطرق الى الارض عندما ذكـرت له زفاف أمه الى أبيه !

غير انه أعجب بفطنتى وحــذقى ورقة أدبى ، فانى لم أقل له : « أمك الطيبة » الى « أبيك المبارك » .. لان ذلك يحمل معنى فى لغة العــرب ، يعرفه الرجل اذا خلا بالمرأة « الطيبة » التى تلذ الخلوة بها ! ..

ثم قال لى وقد رفع رأسه :

ـ يقولون انك مشئوم .. فما بلغ من شؤمك ؟! ..

فذكرت له ما يتناقله الناس عنى فى هــذا البــاب ، فضــحك وقال لى مداعبا :

ـ اخرج عنى ، أبعدك الله ! ..

## ● اليوم الثالث :

أمطرت السماء اليوم مطرا شديد الغزارة أســال كل شىء حتى صــار وادى العقيق بالقرب من منــزلى فى المدينة يرمى ماؤه بالزبد كأنه نهــر الفرات ، فخرجت أتنزه فى هــذا اليوم المطير الذى يطيب فيه الهــواء ، فوجدت عند العقيق عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ســيد بنى هاشم يتنزه هناك مع صحب له بينهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ..

استدنانى ابن جعفر ، والسماء تنهمر انهمارا بالغيث ، فقال لاصحابه :

ـ هذه سماء خليقة ان تبل ثيابنا ، فهــل لكم فى منزل طويس فانه قريب ، فنستكن فيه ، ويحدثنا ويضحكنا ويغنينا ؟! ..

قال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

ـ جعلت فداءك ، وما تريد من طويس المخنث عليه غضب الله ؟!

قال له عبد الله

ـ لا تقل ذلك ، فانه مليح خفيف ، لنا فيه انس ! ..

غاظني كلام عبد الرحمن بن حسان ، ولكن لم أكد أسمع قول عبد الله ابن جعفر حتى تعجلت الى منزلي فقلت لامرأتي

ـ ويحك ! قد جاءنا عبد الله بن جعفر سيد الناس ، فما عندك من طعام ؟! ..

قالت

ـ نذبح هذه العنز السمينة !

فذبحناها واختبزنا خبزا رقاقا ، وخرجت فتلقيت عبد الله بن جعفر مقبلا وصحبه ، ومشيت بين أيديهم حتى نزلوا داري ، فحدثتهم واضحكتهم حتى جاء الطعام ، فأكل ابن جعفر وأكل القوم ، فأعجبه وأعجبهم طعامي .. فلما غسلوا أيديهم ، استأذنته في أن أغني شيئا .. ثم غنيت :

يا خليلي نابني سهدي
لم تنم عيني ولم تكد
فشرابي ما أسيغ وما
اشتكي ما بي الى احد
كيف تلحوني على رجل
انس تلتذه كبدي ؟!
نظرت يوما فلا نظرت
بعده عيني الى احد

فطرب القوم وقلت لابن جعفر

ـ أتدري يا سيدي لمن هذا الشعر ؟!

قال :

ـ لا والله ، ما أدري لمن هو ، الا اني سمعت شعرا حسنا في غناء حسن

قلت :

ـ هذا الشعر لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وكانت تتعشق عبد الرحمن بن الحارث المخزومي فقالت فيه هذا الشعر !

فنكس عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رأسه الى الارض حتى التصق رأسه بصدره خزيا ، فلو انشقت الارض له لدخل فيها ، من سوء ما سمعه عن عمته ! ..

هكذا انتقمت منه لنفسي ، اذ وصفني بالتخنث ودعا علي بغضب الله ، ونهى عبد الله بن جعفر من النزول في داري ! ..

## ● اليوم الرابع :

قدم مطرب مكة المشهور عبيد بن سريج المدينة فغنى أهلها فاستحسنوا غناءه ، وقدموه على كل من غناهم من المطربين ، وطلعت عليهم فسمعتهم يبالغون في مدحه ، وهو بينهم منتفش كالديك ، فاستخرجت دفا من حضني ونقرت به وغنيتهم حتى طربوا ، وصاح ابن سريج

ـ هذا والله أحسن الناس غناء ، وان كان لا يضرب بالعود ولا يعرف نغماته ! ..

وابن سريج هذا هو أحد فحول المغنين الذين أخذوا من فنون الفرس والروم في ضرب العود ، وعربوا هذه الفنون ، واستبعدوا منها ما لا يتفق وذوق العرب ولغتهم وباطن قلوبهم ونفوسهم .. وقد رأيت من هؤلاء المغنين في المدينة نشيطا الفارسي وسائب خاثر وجميلة المغنية البارعة .. أما في مكة فأستاذهم ابن مسجح ، وعنه أخذ ابن سريج ثم زاد عليه حتى لم يعد أحد يذكر ابن مسجح ! ..

قلت لابن سريج

ـ أنا والله أول من صنع غناء الهزج والرمل ، والناس يضربون بي المثل فيقولون « أهزج من طويس » ! ..

قال ابن سريج

ـ صدقت والله ، وما سمعت قط مثل هزجك ، ولكني في الرمل ـ بفتح الميم ـ أبرع خلق الله !

فعجبت لثنائه على نفسه ، ثم ذكرت انى سبقته بالثناء على نفسي ، فزال عجبى !

## ● اليوم الخامس :

رأيت جارية حسنة المشية ، جميلة الوجه ، فتبعتها ، فراوغتني ولم تكلمني ، فلم أنقطع عنها ، فأسرعت في المشي لتبعد عنى فلم أنقطع عنها ، فلما مرت بمجلس حافل بالناس ، وقفت فقالت لهم

ـ يا هؤلاء .. لى صديق ولى زوج ولى مولى يملكني ، فسلوا هذا الصفيق ما يريد منى ؟! ..

فخجلت من قولها حتى تمنيت انى لم أمش وراءها خطوة واحدة ! .. ثم تمالكت جاشي حين انصرفت المرأة فغنيت القوم غناء جميلا حتى انسيتهم قبح ما صنعت معها ، فلما طربوا وضعت دفي في حضني وقلت لهم

ـ اكتموا على هذه الزلة ، فاني ما تبعت هذه المرأة لريبة ، ولكن أعجبتني مشيتها ! ..

قالوا

قد سترنا عليك هذه الزلة فلا تعد الى مثلها !

# أستاذ المطربين

## ● اليوم الاول :

الناس يسمعون غنائى فيطربون أشد الطرب ويقولون لى انك يا سعيد ابن مسجح لمنقطع القرين فى صناعة الغناء ، والمقدم بين المطبوعين البارعين فيها وانك لتغنى على مذهب فى هذه الصناعة اشتققته لنفسك على غير مثال سابق فى غناء العرب ، فكيف تم لك ذلك ؟!

ارجع بذاكرتى الى أيام طفولتى وأقول لهم كنت فى صباى مملوكا لبعض السادة فى مكة ، أخلو بنفسى فأترنم ، فسمعنى مولاى مرة فأعجبه غنائى وقال لى ليكونن لك يا غلام شأن ، فان لك حلقا طيب المسموع ، كأنك طويس أو سائب خاثر

ولم أكن فى ذلك العهد أعلم شيئا عن طويس أو سائب ، ولا أعرف كيف يغنيان ، فانهما مطربان كبيران فى المدينة المنورة ، وأنا غلام صغير أسود مسكين فى خدمة سيد من سادات مكة !

فاتفق بعد ذلك أن معاوية بن أبى سفيان ، وقد صار خليفة ، أراد أن يبنى بيوتا له فى مكة ، ولم يكن فيها من البنائين من يتقن بناء المنازل الملوكية الفخمة ، بالآجر الاحمر والجص الابيض والرخام ، فاستجلب معاوية بنائين من بلاد فارس ، فكنت أسمعهم يتغنون فى أثناء البناء بالاغانى الفارسية ، فأعجبنى الكثير من غنائهم ، فلزمتهم ، أصيخ اليهم ، وأنقل ما أنتخبه وأستحسنه من ألحانهم الى الشعر العربى ، متصرفا فى اللحن على مقتضى الذوق العربى الذى ينفر من تنطع الاعاجم !

سمعنى مولاى بعد أن برعت فى تركيب الالحان الفارسية على الكلام العربى فقال لى : من أين لك هذا الغناء العجيب ؟!

قلت سمعت هذه الاعاجم التى تبنى بيوت أمير المؤمنين تتغنى بالفارسية فقلبت بعض ما استحسنت من ألحانهم الى الكلام العربى ! .. فهتف بى سيدى معجبا اذهب فأنت حر لوجه الله !

صرت حرا فطلبت الشعر والادب واتسعت فى الغناء ، وصنعت لنفسى الحانا لم أسمعها من الفرس ولا من غيرهم فافتتن الناس فى مكة بما صنعت وقالوا لى أنت زهرة أصحاب هذه الصناعة ، وانك فيها لخير من مطربى المدينة فهذا الذى تعمله هو نظام هذه الصناعة وقوامها وعمادها ،

وسيتبعك في هذا الطريق كل مغن ومغنية فى مكة والمدينة ! ..

هكذا استفتحت باب الخير في صـــناعتى وانقلبت الى الرفاهية والرغد والسعد في الحياة ، وصار لى تلاميذ يتعلمون منى ، فمنهم ابن سريج أحسن الناس صوتا ، ومنهم الغريض النائح المطرب وغيرهما ! .. وصرت بحمد الله أستاذ المطربين ..

ثم رحلت الى الشام واخذت من الحان الروم شيئا وحورته الى الذوق العربى وزدت عليه من صناعتى ، وقصدت الى فارس فتعلمت ضرب العود واشتريت عبدانا كثيرة ، ثم عدت الى مكة وقد أخذت محاسن تلك النغم ، وصدفت عما استقبحته من النبرات والانغام ، وهى كثيرة فى غناء الروم والفرس ، تخرج عن غناء العرب ولا توافق أعاريض أشـــعارهم وقوافيها وتوزينات كلماتهم واستنبطت مذهبا فى الغناء العـربى ، جديدا متقنـــا ولحنت الاشعار فيه ، وتبعنى المغنون فى هذا المذهب حتى تكاثروا

## ● اليوم الثاني :

تنقضى الايام وصـــناعة الغنـــاء فى مكة تزدهر ، وأنا على رأسها ، وقد رحلت الى المدينة مرات وسمعت مطـــربيها وليس فيهم حتى الآن من يتقن الغناء على العود ، ولكن بعضهم سمع الغناء الفـارسى والرومى وأخـذ منه شيئا وبنى عليه غناء عربيا ، فكأنه كان معى فى ذلك على ميعاد ..

ونحن الآن فى زمان ممرع معشب بالفتن الجسام     مات معاوية وابنه يزيد ومروان ، وجاء اثنان يتنازعان الخلافة أحدهما فى دمشق وهو عبد الملك بن مروان .. والآخر فى مكة وهو عبد الله بن الزبير ..

والحرب بينهما لا تنقطع ، وفى بلدنا مكة تغيرت أحوال كثير من الناس، فاصاب الخمول اناسا ، وارتفع آخرون ، وان خمول مائة من فضلاء الناس لأهون عندى من ارتفاع شخص واحد من السفلة !

احترق المسجد الحرام فى معـــارك ابن الزبير وابن مروان .. فان ابن الزبير سمع ذات ليلة أصواتا فوق الجبل فخاف أن يكون جند ابن مروان قد وصلوا الى مكة ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة صعبة ورعد وبرق، فرفع نارا على رأس رمح لينظر ما يجرى من حوله ، فاطارت الريح النـــار فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها وتساقطت الكعبـــة ، وماتت امرأة من قريش فى الحريق ، فخرج أهل مكة كلهم فى جنازتها خـــوفا من أن ينزل الله العذاب بهم ، وسجد عبد الله بن الزبير ، يدعو ويقول « اللهم انى لم أتعمد ما جرى ، فلا تهلك عبادك بذنبى ، وهذه ناصـــيتى بين يديك » !

فلما مضى يوم ولم ينزل العذاب على الناس ، ابتدأ ابن الزبير يهـــدم ما تبقى من الكعبة ، وتبعه الفعلة ، حتى بلغوا الى قواعدها ! ..

ثم دعا بنائين من الفرس والروم ، فأخذوا فى بنائها !

مررت بالمسجد الحرام وهؤلاء الروم والفرس يبنونه وينشدون أغانيهم

فأعادنى ذلك الى صباى ، حين سمعت أغانيهم لاول مرة ، وبنيت عليها مذهبى فى الغناء !

تبدو لى أغانى هؤلاء الناس الآن ساذجة كثيرة النشاز ، متشابهة فقيرة الالحان ! •• وأين هى مما صار اليه الغناء العربى فى وقتنا هذا من الثراء النغمى الباذخ والايقاعات المبتكرة التى لا يعرفها الفرس ولا الروم ! ••

لقد اتخذ الغناء العربى سمتا خاصا به ، وارتفع شأنه ، وانحدر غناء هؤلاء الاعاجم والموالى وعافته أسماع العرب ، فلا تجد أحدا الآن يصغى اليه ! ••

## ● اليوم الثالث :

وضعت الحرب أوزارها بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، بعدما رأينا الحجاج بن يوسف قائد المروانيين يرمى الكعبة بحجارة المجانيق فتتهدم مرة أخرى عقب أن بناها ابن الزبير •

انتهت الفتنة بهزيمة عبد الله بن الزبير ومصرعه ، ودخلت مكة كما دخل الحجاز كله فى طاعة عبد الملك بن مروان ، ووطأ الحجاج الثقفى له المنابر، وفتح له بحد السيف قلوب الرجال ، فملأها رهبا ورغبا ••

وجاء الينا فى مكة وال جديد من رجال عبد الملك ، فأسرع اليه بعض حسادى يزعمون ان فتيان مكة انشغلوا بى عن كل شىء ، وانفقوا أموالهم على سماع غنائى !! •• فكتب الوالى الى الخليفة فى أمرى ، وحرضه على اخراجى من مكة ومعاقبتى ، فأرسل اليه الخليفة يأمره بمصادرة أموالى وتسييرى الى دمشق ليحاسبنى بنفسه على جنايتى ! •• فأمرنى الوالى أن أمضى الى الخليفة فى دمشق ، وحذرنى مغبة أمرى ان توانيت أو هربت !

دخلت دمشق بعد رحلة طويلة شاقة ، وليس فى كيسى الا دريهمات بقيت لى بعد المصادرة ، فوقفت عند مسجدها فسألت أحد الخارجين من الصلاة :

ــ من أخص الناس بأمير المؤمنين هنا ؟!

قال :

ــ هؤلاء النفر من قريش من بنى عمه !

فسلمت عليهم وقلت

ــ يا فتيان •• من فيكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟!

نظر بعضهم الى بعض ، وسمعت أحدهم يقول ضاع والله موعدنا مع « برق الافق » ! ••

تثاقلوا عن اجابتى ، على ما فيهم من كرم ، الا فتى منهم هزته أريحيته العربية فقال : أنا أضيفك أيها الحجازى ! ••

ثم قال لاصحابه

ـ انطلقوا أنتم الى دار برق الافق ، وأنا أذهب مع ضيفي الى داري ..
قالوا

ـ لا .. بل تجيء أنت وضيفك معنا ! ..

ذهبنا جميعا الى بيت برق الافق ، وهي مغنية في دمشق ، تقتني في دارها جواري مغنيات تبرزهن لعلية القوم من بني أمية ، فيتغنين لهم ويفزن بجوائز وهدايا وتفوز ربة الدار بنصيب الاسد ! ..

فلما أتوا بالغداء قلت لهم على استحياء :

ـ اني رجل اسود ، ولعل فيكم من لا يحب الاكل معي ، فأنا أجلس ناحية وأتناول طعامي ! ..

فلما فرغوا من تناول الطعام ، وفرغت أنا أيضا ، جيء بالشراب ، فشربوا وشربت ، ثم أخرجت « برق الافق » لنا جاريتين من جواريها المغنيات ، فكأنها أطلعت علينا قمرين مضيئين ، أو شمسين تبهران العيون .. فتمثلت هذا البيت

فقلت اشمس ام مصابيح بيعة
بدت لك خلف السجف ام أنت حالم

فغضبت احداهما وقالت

ـ أيضرب هذا الاسود بنا الامثال ؟!

وقال لي بعض الحاضرين

ـ قم فانصرف فقد ثقلت علينا !

فلما تهيأت للقيام أمسك بي الرجل الذي أضافني وقال

ـ بل اقم معنا واحسن ادبك !

غنت احدى الجاريتين لحنا مشهورا من الحاني يتردد على حناجر المغنين والمغنيات من مكة الى المدينة الى دمشق ، فأساءت اداءه وكثر خطؤها حتى استفزني فوثبت قائلا

ـ أخطأت وأسأت !

فنظر القوم الى نظرا منكرا ، واعتذروا للجارية الغاضبة ، فلم تقبل اعتذارهم وامتنعت من الغناء ..

وغنت الجارية الاخرى لحنا من الحاني أيضا فاخطأت في بعض اقسامه ، ولكنها كانت أفضل من الجارية الاولى ، فقلت لها :

ـ أحسنت ، ولكنك لم تكملي احسانك ! ..

ثم اندفعت بغير اذن منهم ، فغنيت هذا اللحن على وجهه الصحيح ، فوثبت الجارية تصيح

ـ هذا والله أبو عثمان سعيد بن مسجح ! ..

قالوا لها

ـ ومن أدراك ؟!

قالت

ـ هذا الاحسان فى الغناء لا يبلغه الا ابن مسجح ! ..

قلت :

ـ انى والله أنا هو !

فالتف القوم حولى وقد أكبروا شأنى ، فغنيت لهم الى آخـر الليــل ، ثم سالونى عما أقدمنى الى دمشق فأخبرتهم ، فقال الرجل الذى أضافنى

ـ انى أسمر غدا مع أمير المؤمنين ، وهو لا يسمع الغناء ، فهل تحسن الحداء ؟!

ـ نعم ! .. وان كنت لم أحد قافلة ولا جملا واحدا طوال حياتى !

ومضى صاحبنا من الغد الى عبد الملك بن مروان وحدثه عنى ، وعن براعتى فى الحداء .. فلما مثلت بين يديه حدوت :

**انك يا معاذ يا ابن الفضل**
**ان زلزل الاقدام لم تزلزل**

فقال عبد الملك لصاحبه القرشى

ـ ان حداءه لحسن ، فمن هو ؟!

ـ رجل حجازى قدم قاصدا أمير المؤمنين !

ـ قال لى الخليفة

ـ هل تغنى غناء الركبان ؟!

فغنيته واستحسنه .. فقال

ـ هل تغنى الغناء المتقن ؟!

فغنيته بعض ألحانى فاهتز الخليفة طربا وقال لى وهو يتفحصنى

ـ من أنت ؟! .. ان لك لقصة !

ـ نعم يا أمير المؤمنين أنا المظلوم الذى صودر ماله وأخرجه والى مكة من وطنه ! .. أنا سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى

فتبسم عبد الملك وقال

ـ قد وضح الآن عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم !

وأمر لى بجائزة ، وكتب الى عامله فى مكة أن يرد الى أموالى ، وألا يتعرض لى بسوء ! ..



# وجه الباب

## ● اليوم الاول :

الناس يلقبونني « وجه الباب » وأنا لا أغضب من هذا اللقب ، أما اسمي فهو أشهر الاسماء في المدينة ومكة والحجاز والشام ، فانا « ابن سريج » أمير الغناء في عصري هذا ، لا يباريني أحد ، حتى الذين سبقوني الى الغناء المتقن ، فان لهم فضلهم ، ولكني زدت عليهم بما اخترعت وأضفت الى هذا الفن !

يتعجب الناس من العود الذي أضرب عليه وأغني وفق نغماته ، وهو على مثال عيدان الفرس ، وقد رأيت مثله مع العمال العجم الذين قدم بهم عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة بعد ان احترقت وتهدمت .. وأنا في الضرب بالعود أشد حذقا من كل المطربين ، ولم يسبقني أحد الى الاخذ عن غناء العجم الا ابن مسجح في مكة وسائب خاثر في المدينة ، ولكني تقدمت عليهما .. ثم انتهى أمرهما وبقيت !..

اذا غنيت أسدلت قناعا على وجهي ، ذلك انني أحول ، ولا أحب أن يرى الناس الحول في عيني فانه يزداد حين أغني ! ..

وأنا أحمر الوجه لان أبي كان مملوكا تركي الاصل ، نشأ عند سادته من بني نوفل بن عبد مناف .. وعاش في مكة ، وولدت له فيها ، ونشأت هناك وتكلمت بفصاحة قريش ، ورأيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأنا طفل ، وحضرت الفتن والقلاقل في عهده وبعد عهده ..

اسمي « عبيد » .. وابي هو « سريج » وكان يكنى « أبا يحيى » واسم أمي « رائقة » ولا أصل لي في مكة الا أبي وأمي ، وصناعتي هي التاج الذي أضعه فوق رأسي ! ..

مرت الايام فصار لي منافسون .. أما في مكة فمعي مطرب ملحن قدير اسمه « ابن محرز » .. وأما في المدينة فان فن الغناء فيها قد انتهى الى اثنين بارعين أولهما « معبد » والآخر تلميذه « مالك بن أبي السمح » .

ويعترف الجميع لي بالسبق والاستاذية ، فان معبدا – على فضله وعلو قدره – اذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجي .. أي كأنه « ابن سريج » في احسانه وبراعته ! ..

وسمعت بعض المعجبين بي يقول

ـ ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحذق بالغناء من ابن سريج ! ..

وقال لى آخر

ـ كأنك يا ابن سريج قد خلقت من كل قلب ، فأنت تغنى لكل انســان ما يشتهى قلبه ! ..

وأنا لم أبدأ حياتى مغنيا ، بل بدأتها نائحا ، يدعونى الناس لانوح على موتاهم ، ثم أرسل الحاكم الفاسد يزيد بن معاوية جيشه الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة فقتل أهلها وأباحها لجنده ثلاثة أيام يفتكون فيها ويهتكون كأنها من بلاد الكفار وهى مدينة رسول الله وموطن أصحابه من المهاجرين والانصار !

فلما وقعت هذه الحادثة الفاجعة التى هزت الاسلام والمسلمين ، صعدت جبل أبى قبيس فنحت بهذا البيت

**يا عين جودى بالدموع السـفاح**
**وابكى على قتـلى قريش البطاح**

فبكى الناس من اللوعة ، ونكأ غنائى جراحهم ، وكان هذا أول شهرتى ، وتقدمت على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانوا كثيرين ! ..

ثم بعثت سيدتى سكينة بنت الحسـين الى دارى بمملوك لها اسـمه عبد الملك ، اعلمه النياحة ، فلم أزل أعلمه مدة ، ثم توفى عمها محمد بن على الملقب « ابن الحنفية » ، وكنت عليلا علة صعبة فلم أقدر على النيـاحة فى مأتمه ، فانتدبت للنياحة مملوكها عبد الملك الذى تعلم على يدى ، فكان نوحه عند سامعيه غاية فى الجودة ، وقيل وقتئذ هذا نوح غريض ، فلقبوا عبد الملك هذا بالغريض ، وقال لى بعض الناس يغيظنى :

ـ والله لقد ناح عبد الملك أجود نياحة ، حتى فضله الناس عليك ! ..

فحلفت الا أنوح بعد ذلك اليوم ، وتركت النـوح الى الغناء .. وبدأ به مجدى الحقيقى ، ولكن نغصنى ان « الغريض » أيضا عدل عن النياحة الى الغناء ، فصارت بيننا منافسة ، وهو تلميذى ! .. ولكننى تفـوقت عليه وتقدمت عند جميع الناس !

● **اليوم الثانى :**

لقيت الفقيه العظيم عطاء بن ابى رباح ، فى موضـع بمكة وأنا ألبس ثيابا مصبغة وفى يدى جرادة مشدودة الرجل الى خيط أطيرها به ثم أجذبها كما يفعل الاطفال فى العابهم ، فقال لى الفقيه العالم الزاهد العظيم :

ـ يا فتان ! .. ألا تكف عما أنت عليه ؟! كفى الله الناس مؤنتك !

قلت

ـ وما على الناس من تلويني ثيابى ، ولعبى بجرادتى ؟! ٠٠
قال :

ـ تفتنهم أغانيك الخبيثة ! ٠٠

قلت له :

ـ سألتك بحق من تبعتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا ما سمعت منى بيتا من الشعر ، فان سمعت منكرا أمرتنى بالامساك عما أنا فيه ٠٠ وأنا اقسم بالله لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالامساك عما انا عليه لافعلن ذلك فلا أغنى أبدا ٠٠

فطمع الفقيه العظيم فى اقلاعى عن الغناء ، فقال لى

ـ اذن قل

فاندفعت أغنى فى شعر جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعنى عطاء بن ابى رباح ـ وهو الزاهد فى الدنيا وزخرفها ـ اضطرب اضطرابا شديدا ، ودخلته أريحية ، وحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه الا بهذا الشعر ، وصار الى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الاخبار ، لا يجيبه الا بأن يضرب يده على الاخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب ٠٠ ولم يعد بعد ذلك الى التعرض لى فى أمر الغناء ٠٠

وقد أعجبنى ذلك جدا ، فان ابن أبى رباح هو الفقيه الجليل الذى سمعت مناديا فى موسم الحج ينادى بأمر الخليفة
ـ لا يفتى الناس فى الموسم الا عطاء بن أبى رباح ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

حج يزيد بن عبد الملك فى هذه السنة بالناس ـ وهو ولى عهد ـ وخرجت مع الشاعر عمر بن أبى ربيعة على جملين ملبسين بالديباج فجعل عمر بن أبى ربيعة يتلقى الحاج ويتعرض للجميلات من النساء كعادته التى عرفها الناس الى أن أظلم الليل وطلع القمر فجلسنا على كثيب رمل مرتفع ، واندفعت أغنى صوتا لى جديدا ، فطلع علينا رجل راكب فرسا فارها فسلم علينا وقال لى :

ـ ايمكنك ـ أعزك الله ـ أن تعيد هذا الصوت ؟!

فأعدته عليه ، فقال لى

ـ بالله أنت ابن سريج ؟!

ـ نعم

ـ حياك الله !

والتفت الى عمر وسأله

ـ بالله أنت عمر بن أبى ربيعة !؟

ـ نعم !

ـ حياك الله !

ـ فقال له عمر

ـ وانت فحياك الله ! ·· قد عرفتنا فعرفنا نفسك ! ··

قال

ـ انا يزيد بن عبد الملك

فوثب اليه عمر فاعظمه ، ووثبت أنا فقبلت ركابه ، فنزع حلته وخاتمه فدفعهما الى ومضى يركض حتى لحق ثقله !

فدفعت الحلة والخاتم الى عمر وقلت له :

ان هذين بك اشبه ، وأنت بهما أحق ! ·

فأخذهما عمروأعطانى ثلثمائة دينار وغدا فيهما الى المسجد الحرام ، فعرفهما كثير من الناس ، وجعلوا يتعجبون ويقولون

ـ كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه !

وعمر بن أبى ربيعة من أعطر الناس وأحسنهم هيئة ، وقد اتخذ بعيرا عظيما مخضوبا بالحناء ، والرحل من فوقه يتضوأ بلون ذهبى ·· ومع عمر غلام يقود فرسا له أدهم أغر محجلا يسميه « الكوكب » فى عنقه طوق من ذهب وأنا معهما أركب بغلة شقراء جميلة والناس يعجبون من حسن هيئتنا ! ··

كذلك كنا فى موسم الحج ! ·· فللّه تلك الايام ! ·· وشتان بينها وبين أيام كان يحكم فيها مكة عبد الله بن الزبير ، قبل هزيمته ومقتله وقيام حكم بنى أمية فيها ··

فقد خرج ابن الزبير ليلة الى جبل أبى قبيس فسمع غناء ، فلما انصرف وجده أصحابه مضطربا فقالوا ان بك لشرا ! ·· قال انه ذاك ! ·· قالوا ما هو ؟! ·· قال لقد سمعت من الجبل صوتا ان كان من الجن انه لعجب ·· وان كان من الانس فما انتهى منتهاه شىء ! ··

قالوا له انه ابن سريج !

فى تلك الايام كنت أجد القوت بصعوبة فقد منع ابن الزبير الغناء وحرمه ، فكنت اذا أردت أن أغنى لنفسى خلوت ليلا فى الجبل فغنيت وبكيت ! ··

## ● اليوم الرابع :

بعد ذهاب دولة ابن الزبير ، دعاني فتية من بني أمية ، فدخلت اليهم وأنا في ثياب غلاظ جافية ، وهم في ملابس الوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية تلمع في الشمس ، فغنيتهم وأنا محتقر لنفسي قول الاحوص

**دعي القلب لا يزدد خبالا من الذي**
**به منك أو داري جــواه المكتما**
**ومن كان لا يعدو هواه لســانه**
**فقد حل في قلبي هــواك وخيما**
**وليس بتزويق اللسان وصـوغه**
**ولكنـه قد خـالط اللحـم والدما**

فتضاءل فتيان بني أمية في عيني لما داخلني من الزهـو بغنـائي حتى ساويتهم في نفسي ، ورأيتهم يعظمونني ويطـربون ويتواضعون لي ، وظللت اغنيهم حتى رقصوا طربا ثم جلسوا بين يدي وخلعوا حللهم كلها حتى غطوني بها ، فمثلت لي نفسي انني الخليفة وأن أبناء الخلفاء هؤلاء هم بعض أتباعي، فملأني التيه حتى خشيت أن أفتضح ! ··

ذكرت هذا اللقاء الذي مضت عليه سنوات طوال حين زارني اليوم في منزلي بمكة بعض شبان بني أمية قادمين من دمشق وكانوا قد سمعوا بالمدينة مالكا ومعبدا فاعجبوا بهما ·· فلما دخلوا بيتي وجدوني مريضا فقالوا :

ـ أتينا مسلمين عليك ، وكنا نشتهي أن نسمع غناءك !

ـ اني مريض كما ترون !

ـ ان الذي نكتفي منك به يسير !

فخجلت وأنا أعرف أقدار هـؤلاء العلية من القـوم أن أردهم ، فقلت يا جارية هاتي جلبابي وعودي ! ·· فاتتني الخادمة بهما ، وأسدلت قناعا على وجهي كما أفعل عادة عندما أغني ، لقبح ما صار اليه وجهي بعد ماكبرت سني وسقط شعر رأسي وازداد الحول في عيني ··

فغنيت حتى اكتفوا ، وعدت أعتذر اليهم بمرضي ، فقالوا

ـ والله ما سمعنا قط أحسن مما أسمعتنا ، فأحسن الله عليك ، ومسح مابك من العياء !

وأجزلوا لي العطاء ، وانصرفوا يتعجبون مما سمعوا من غنـائي على ما بي من المرض !

فبلغني انهم لما مروا بعد ذلك بالمدينة منصرفين الى الشام ، غناهم معبد ومالك ، وكانوا قد طربوا لهما قبل أن يسمعوا غنائي ، فلما سمعوا منهما هذه المرة جعلوا لا يطربون ولا يستحسنون شيئا مما يغنيه معبـد ومالك ، فقال أهل المدينة لهم

ـ نحلف بالله انكم سمعتم ابن سريج فى مكة قبل قدومكم

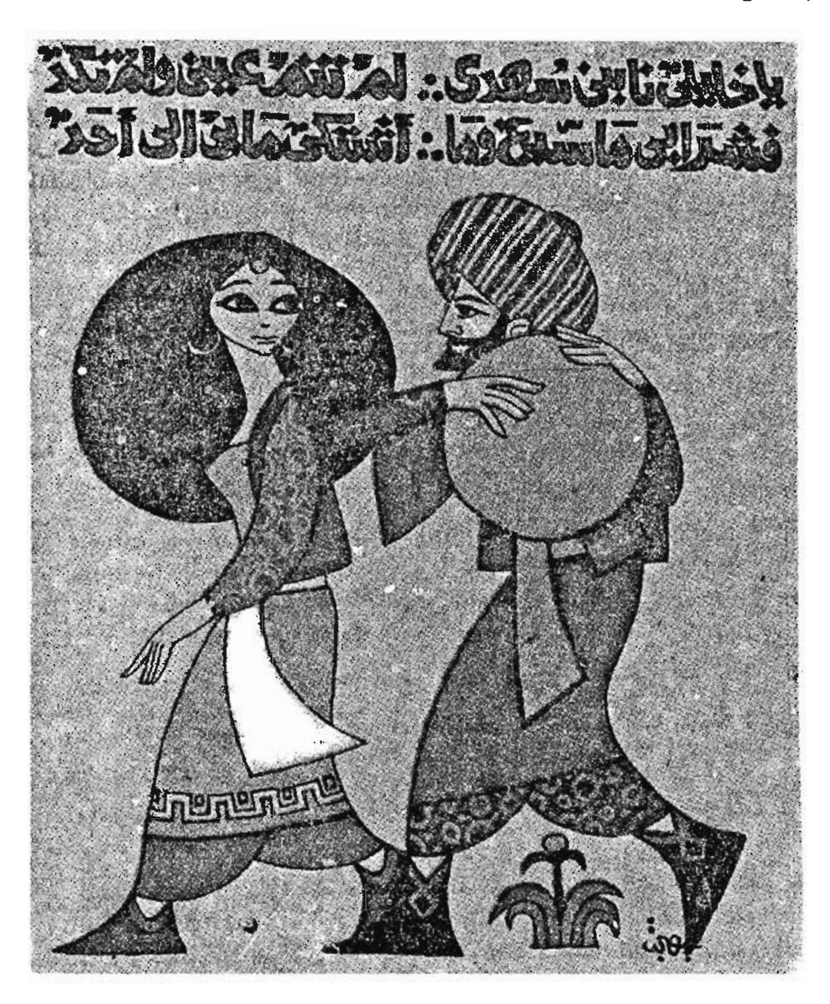
قالوا :

ـ أجل      سمعناه ، فسمعنا ما لم نسمع مثله قط ، ولقد نغص علينا كل غناء نسمعه بعد غنائه مهما كان جميلا ! ··

تذكرت اللقاء الاول ··

وجاءنى خبر الاثر الذى تركه هذا اللقاء الثانى

وأعجبتنى نفسي ، وان نفسى لتعجبنى حتى أخاف أن يقتلنى الاعجاب بالنفس ! ··



# ابن الرومية

**• اليوم الاول :**

نشأت خلاسيا ، مديد القامة ، أحول ٠٠ أمي بيضاء ٠٠ أبي اسود ، وأنا منهما بين الاسود والابيض كان أبي من الخدم الارقاء عند بعض أتباع الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت أمي جارية رومية بيضاء عنده ، زوجها لابي فجئت أحمل من لونه ولونها هذا المزيج الاسمر الذى يصفه بعض الناس بالجمال ، ويقولون لولا ان معبدا أحول ، شديد الحول لكان من أجمل الناس بلونه وامتداد قامته !

جئت الى الدنيا محكوما بالرق مثل أبي وأمي ، فرعيت لسادتي أغنامهم وابلهم وأنا صغير ، وسافرت البلاد بتجارتهم وأنا كبير ، وعدت اليهم بأرباحها ، ولم أربح منها الا شرف الخدمة !

كنت مع ذلك أختلف أحيانا الى المغنى الفارسى (نشيط) الذى كان يقيم بالمدينة المنورة ، فأتعلم منه شيئا ثم أجلس الى (سائب خاثر) المغنى الحاذق ، مملوك عبد الله بن جعفر الهاشمي فأرى كيف يغنى ويصنع صنعته فى فن الغناء العربى ، وكان هذا الفن وقتئذ فى نشأته يرتفع ويتسع على أيدى أمثال نشيط وسائب خاثر ، حتى أخذت منهما ما شئت من أسرار الصناعة واشتهرت بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت وصنعت الالحان فأجدت وتفوقت عليهما ، وصار لى فى ضرب العود واستنباط الالحان طريقة انفردت بها فتقدمت على أهل عصرى من عرفاء هذه الصناعة ٠٠

كان الغناء العربى المتقن قد نشأ بمكة أيضا كما نشأ عندنا فى المدينة ، وشق طريقه ومهده هناك العبقرى ابن مسجح ، وسار على طريقته ابن سريج والغريض وغيرهما فتجاوبت أصداء فحول المغنين على الطريق بين القريتين ٠٠

يقول الناس الآن : ليس فيمن يغنى بالمدينة ومكة والحجاز والشام ، أحد أعلم بالغناء من معبد ! ٠٠

والحق انه لولا الاوائل الذين فتحوا لنا باب الغناء العربى المتقن ، ما بلغت فى هذه الصناعة شيئا ٠٠ وما زلت أذكر كيف كنت غلاما مملوكا لبعض موالى الخليفة معاوية وكانوا تجارا يكلفوننى برعاية تجارتهم ،فكنت

اذا تعبت أسندت راسي الى صخرة ، فأسمع وأنا نائم صـــوتا يجـرى فى مسامعى ، فأقوم من النوم فأحكيه كأنى تلقنته وحفظته نائما ! ٠٠

وسمعت مرة بعض من يحبون غنائى يقولون ان معبداً من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة وأحسنهم حنجرة وحلقا وهو فحل المغنين وامام أهل المدينة فى الغناء ، لا يدانيه الا فحل المغنين وامام أهل مكة فى الغنـاء « ابن سريج »

وسئل مالك بن ابى السمح وهو من أحسن المغنين أنت أحسن غنـاء أم معبد ؟! ٠٠ قال مالك والله ما بلغت قط شراك نعل معبد ! ٠٠

ويعجبنى الانصاف والصدق فى القول ، وان مالكا على تواضعه هذا لى ، لمن أحسن المغنين فى المدينة ومكة وسائر الامصار

● **اليوم الثانى :**

تعلمت منى الغناء جارية تدعى « ظبيـــة » ٠٠ وجـاء رجـل من أهـل العراق فاشتراها ثم علمت انه باعها فى البصرة لرجل من أهـل الاهـواز فعاشت معه فى منزله هناك واعجبته كل الاعجاب وحفظت عنها جـواريه أكثر الالحان التى تعلمتها منى ٠٠ وكانت كلما طارحتهن لحنا قالت لهن : هذا من صنعة أستاذى معبد فيقول لها سيدها لقد شوقتنا الى رؤيته يا ظبية !

ثم ماتت ظبية وانقطعت عنى أخبار هـــذا الرجل الذى لم اره قط ولا أعرفه

خـرجت اخـيرا من مكة أريد البصرة ، ثم بدا لى فى البصرة أن أقصـــد الاهواز فنزلت فى سفينة امتلأت بالجوارى وليس معهن الا رجل واحد هو صاحبهن ، وهن ملك يمينه ٠٠

فلما صرنا فى نهر « الابلة » أمر الرجل جواريه فغنين وســـمعتهن مليا وأنا ساكت ، حتى غنت احداهن لحنا من الحانى فغلطت فيه ، فصـحت بها يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم !

فغضب مولاها وقال لى

ــ صه ! ٠٠ ما شأنك أنت بالغناء ؟!

فعدت الى السكوت ، فغنت جارية أخرى لحنا لى من شعر عبد الرحمن ابن أبى بكر

بابنة الازدى قلبى كئيب
مستهام عنـدها ما ينيب
ولقد لاموا فقلت : دعونى
ان من تنهـون عنه حبيب

انما أبلى عظامى وجسمى

حبها والحب شىء عجيب

فاختلت بعض أقسام اللحن فى حلق الجارية ، فقلت لها مغضبا

ـ يا جارية لقد أخللت بهذا الصوت ! ..

فصاح الرجل

ـ ويلك ! .. ما أنت والغناء ! الا تكف عن هذا الفضول ؟!

ثم غنت الجارية الثالثة لحنا لى فى قول كثير عزة

خليلى عوجا فابكيا ساعة معى

على الربع نبلغ حاجة ونودع

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى

وللعين : أذرى من دموعك او دعى

فلا عيش الا مثل عيش لنا مضى

مصيفا أقمنا فيه من بعد مربع

فقلت لها ما قلته لزميلتيها وبينت لها خطأها فوجدت صاحب الجوارى يكاد يسل سيفه ليقتلنى من شدة غيظه منى ، فاندفعت أغنى هذا الصوت على وجهه الصحيح ، واجتهدت فى أدائه وتحفظت ، فصاحت الجوارى وقد زلزلت السفينة عليهن وعلى صاحبهن طربا وعجبا ، ووثب الرجل فقبل رأسى ، وقال

ـ سيدى اخطانا عليك ولم نعرف موضعك وقدرك ، وأنا أعتذر اليك مما جرى !

فقبلت اعتذاره وسألته

ـ ممن أخذت جواريك هذه الالحان ؟!

ـ من جارية كانت لى ، وقد ماتت ، وكانت ـ رحمها الله ـ قد اخذت هذه الالحان من « معبد » سيد مطربى المدينة

ـ أكان اسمها « ظبية » ؟!

ـ نعم ! فمن أدراك ؟!

ـ هى من تعليمى وتخريجى فأنا معبد ؟!

فاكب الرجل والجوارى على يدى ورجلى يقبلونها ويقولون

ـ كتمتنا نفسك طول الوقت حتى جفوناك في المخاطبة ، وأسأنا عشرتك ، وأنت سيدنا ومن كنا نتمنى على الله أن نلقاه ! ..

ثم قام الرجل فجاءنى بخلعة من أفخر ملابسه ، وأعطانى ثلثمائة دينار وهدايا وطيوبا ، وانحدرت معه فى السفينة الى الاهواز وأقمت فى منزله أطارح جواريه الحانى حتى حفظنها وبرعن وصارت فيهن واحدة أو اثنتان

فى مثل براعة « طبية » رحمها الله ! ••

كان أهل الحجاز طوال هذه المدة يسألون عنى ويبحثون حتى عدت اليهم وقد انقضت شهور كثيرة ! ••

### ● اليوم الثالث :

جاء البريد من دمشق الى المدينة يطلبنى ••

قال لى صاحب البريد : ان أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، قال : لقد اشتقت الى معبد !! ••

دخلت على أمير المؤمنين ، فاذا هو جالس عند بركة قد ملئت بماء ورد قد خلط بمسك وزعفران فقال : غننى يا معبد :

**لهفى على فتيــــه دان الزمان لهـم**
**فما يصـــيبهم الا بما شـــاءوا**
**مازال يعدو عليهم ريب دهـرهم**
**حتى تفانوا وريب الدهر عـداء**

فما غنيت اللحن ، حتى نزع ثيابه وألقى نفســـه فى بركـة ماء الورد والمسك والزعفران ، فغاص فيها ، ثم خرج منها ، فاستقبلته الجـــوارى بثياب غير الثياب الاولى ••

ثم شرب وسقانى من ابريق ، وقال : غننى يا معبد :

**يا ربع مالك لا تجيب متيمـــا**
**قد عاج نحوك زائرا ومســـلما**
**جادتك كل سحـــابة هطـالة**
**حتى ترى عن زهرة متبســـما**
**لو كنت تدرى من دعاك أجبتــه**
**وبكيت من حــــرق عليه اذن دما**

فغنيت اللحن واجتهدت فى غنائه بملء صـــوتى واحساسى ، فرأيته قد أخذته رعدة الطرب ، فألقى نفسه بثيابه فى البركة فغاص فيها ثم خـرج ، فنزعت الجوارى ثيابه وألبسته غيرها ، ثم شرب قدحا وسقانى ، وقال لى :

— بحياتى غننى :

**عجبــــت لمــا أرتنى**
**اندب الربع المحيـــــلا**
**واقفـــا فى الدار ابكى**
**لا أرى الا الطـــــلولا**
**كلمــا قلت اطمــأنت**
**دارهم قالوا : الرحيـــلا**

فلما غنيته وثب فى البركة ثم خرج يرتعد ، لا أدرى أمن الطـرب أم من برد أصابه لكثرة ما رمى بنفسه فى الماء ، فجاءت الجوارى بالمجامر والبخور حتى سرى فيه الدفء فسكن وشرب قدحا وسقانى ! ..

وانتشى الوليد ، وبان فى وجهه السرور بى فى ذلك اليـوم ، وقال لى مبتهجا مبتسما :

ـ يا معبد سررتنى ، وأسمعتنى شيئا لم أسمعه من حلق مغن ولا مغنية ، ولا أظن انى أسمع مثله أبدا ..

ثم دعا بخمسة عشر الف دينار فصبها ذهبا نضـارا يبرق بين يدى .. وقال :

ـ يا معبد .. من أراد أن يزداد عندنا حظوة فليكتم الاسرار !

قلت :

ـ ذلك ما لا يحتاج سيدى الى ايصائى به ! ..

## ● اليوم الرابع :

تمضى الايام ، وتزحف الشيخوخة على جسـدى كله ، وبخاصة حنجرتى وحلقى ، فأنا الان أكاد أعجز عن الغناء وهو حياتى ! ..

اصابنى الفالج ، ارتعشت أوصالى .. بطل صوتى .. صـار من كان يطرب لى ، يهزأ بى ويضحك اذا حاولت أن أنطق حرفا ..

أمر أمير المؤمنين الوليد بن يزيد بحملى اليه حين سمع بحالى ، وقال لى :

ـ لو كانت الصـحة والعـافية مما يمكن شراؤه ، لاشـتريتهما لك بالنفائس ! ..

وانزلنى أمير المؤمنين فى قصره ، لتعتنى بى الجارية المغنية الحـاذقة سلامة القس التى تعيش هناك منذ اشتراها أبوه الخليفة يزيد بن عبد الملك هى وزميلتها « حبابة » التى توفيت منذ بضعة وعشرين عاما ..

وقفت سلامة على سريرى تبكى وتغنى بصوت خافت لحنـا لى تندبنى به والموت يحوم على سريرى :

قد لعمـرى بت لى
كاخى الداء الوجيع
ونجى الهـم منى
بات أدنى من ضجيعى
كلما ابصرت ربعـا
خاليا فاضت دموعى

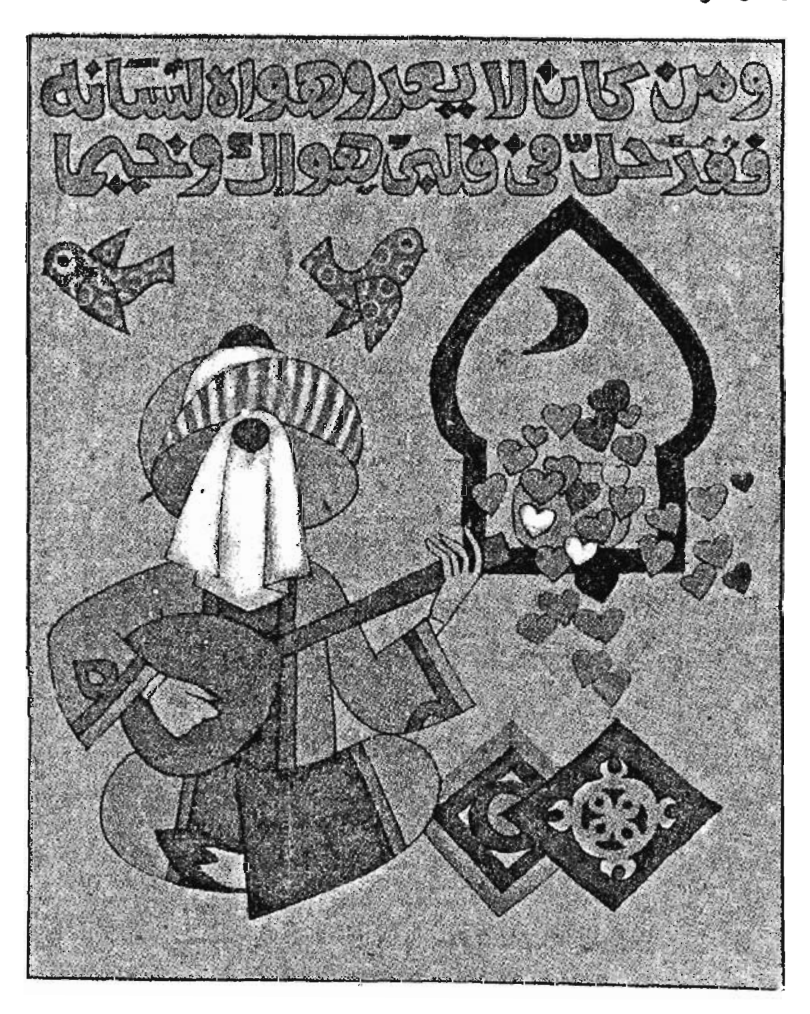
قد خلا من سيد كان

لنا غير مضـــــيع

ففاضت دموعى حزنا وطربا وأنا على قيد أنملة من الموت ٠٠ ورأيت الخليفة وبعض اخوته قد تجردوا فى قمصانهم وأرديتهم الخفيفة يحفون بسريرى ! ٠

وما أبالى ان ياخذنى الموت بعد ساعة او بعض ساعة ، فقد أخذت نصيبى من الدنيا ، وما فرطت فى أمر الآخرة من شيء ! ٠٠

الموت يزحف ، وسلامة تغنى وتبكى ٠٠ والخليفة مشـــمر فى أمرى ، يريد أن يخرجنى بنفسه الى موضع قبرى ، تكـريما لى ! ٠٠ فالحمـد لله أولا وآخرا ٠٠



# بطـــة الأفــــراح

## ● اليوم الاول :

نشأت في ( الحيرة ) من أرض العراق ·· منزلي الآن بمدينة الكـــوفة ، وأهلي من قدماء العرب سكان هذا الاقليم منذ الجاهلية ، عاشـوا فيه تحت حكم ( المناذرة ) ملوك الحيرة المشهورين ، حتى جاء الاسلام فدخل فيه أكثر اهل الحيرة مع أكثر أهل العراق ، وبقي على دينهم القديم أناس ··

في صباى الباكر كنت خفيفا رشيقا حسن المنظر ، أبيـــع الفـــاكهة والرياحين ، أحملها الى قصور الامراء والكبراء في الكوفة ، فيأذنون لى أن أستمع عندهم الى جواريهم المغنيات اللاتى جلبن من الحجاز والشـام ·· ولا يطردونني لما عرفوا عني من خفة الروح واللباقة والهيام بالغنـاء حتى لاستغنى به عن الطعام والشراب وكل لذائذ الحياة ! ·· ويسـمحون لى - في عطف بالغ - بالوقوف قرب مجالسهم أصيخ الى المغنيات ، حتى حفظت الكثير من الالحان ·· وكنت منذ صباى مطبوعا على الغناء ، حسن الصوت، سريع الحفظ ، فاشتريت عودا وتعلمت الضرب عليه ·· ثم أردت الزيادة من العلم بالغناء فرحلت الى بعض نواحي الحجاز وأخـذت من أهـل هـــذه الصناعة كثيرا من أسرار صناعتهم حتى دخلت في الصنعة وأحكمتهـــا ·· وصرت وحدى مطرب العراق كله ، فليس في العراق غيرى من الكـــوفة الى البصرة الى النجف ·· الى شرقه وغربه ، الا بعض الضعفاء ممن لا يؤبه لهـم في هذه الصناعة ولا يطلبهم أحد من الكبراء وأهل الثراء ! ··

ومع صناعة الغناء ، لم أنقطع عن عمل آخر لى ، فاني آكـرى الابل الى الشام وغيرها ، وكنت دائما جمالا نشيطا ، لان صناعة الغناء كانت تكسد في العراق أحيانا ، حين يجيء الينا أمير لا يحب الغناء فيأمر بمنعه ! ··

وأنا اتنقل بين الكوفة والحيرة والنجف والبصرة ، أحمل عودى وأرتزق وما أصعب الارتزاق بالغناء في العراق ! ··

يقول الناس ان مطربي الحجاز يكسبون عشرات الالوف من الدراهم في سهرة واحدة ·· واذا طلبهم الخليفة في دمشق انفتح لهم باب الثراء ! ·· وأين أنا من ابن سريج ومعبد والغريض ومالك ابن أبي السمح وابن عائشة وحكم الوادى وغيرهم ممن سمعنا عن ثرائهم ؟! ··

هؤلاء أغناهم عملهم بين مكة والمدينة ودمشق ، ولم يكســد بينهم الا

( ابن محرز ) على تفوقه فى الغناء والتلحين ، لانه منعزل فى بيته لايقصد الناس الا قليلا ..

وقد جاء ابن محرز أخيرا الى الكوفة قاصدا أميرها ، فتلطفت له حتى دعوته الى منزلى وغنيته لحنى :

انا حنين ومنزلى النجف
وما نديمى الا الفتى القصف

اقرع بالكاس ثغر باطية
مترعة تارة واغترف

من قهوة باكر التجار بها
بيت يهود قرارها الخزف

والعيش غض ومنزلى خصب
لم تغذنى شقوة ولا عنف

فلما سمعنى ابن محرز وهو البصير بالغناء ، قال لى :
ــ أحسنت يا حنين والله ، ولم تبق شيئا جميلا لم تأت به ، من الشعر الى اللحن ! ..

فشكرته وسألته أن يسمعنى بعض غنائه ، فغنانى هذا اللحن :

وحر الزبرجد فى نظمه
على واضح الليت زان العقودا

يفصل ياقوته دره
وكالجمر ابصرت فيه الفريدا

فسمعت من غنائه ما هالنى وحيرنى ، وأذهلنى تلحينه وجمال حنجرته ، فخشيت أن يسمعه الامير ثم يسمعه الناس فيستولى عليهم بروعة غنائه ويسقط غنائى وتبور بضاعتى .. فقلت له :

ــ كم تمنيت من المال حين فارقت بلدك قاصدا العراق ؟! ..

ــ ألف دينار ! ..

ــ فانك لا تجمع هذه الدنانير كلها الا بعد أن تغنى بضعة أشهر فى فى العراق ، ولك منى هذه الدنانير الخمسمائة فخذها عاجلة ضربة واحدة تملأ بها كيسك ، وانصرف راشدا الى بلدك ! .. ثم احلف لى انك لا تعود الى العراق مرة أخرى فانه مورد رزقى ، ولك فى الحجاز والشام متسع !.

أخذ ابن محرز ما أعطيته وانصرف .. ولو أعطيته أقل من ذلك لرضى به لانه لا يحب معاشرة الملوك ولا السعى الى الناس ، ولا يؤثر على الخلوة شيئا ! ..

## ● اليوم الثانى :

جاء الى الكوفة أمير جديد اسمه خالد بن عبد الله القسرى ، فأبطل الغناء بالعراق كله ، فصرت لا أستطيع الغناء عند أحد من الناس ، حتى ساءت حالى وانقطعت كارها الى صناعتى الاولى ، اكرى الابل بين العراق والشام ·· وهى صناعة لا يكفينى رزقها ··

انتظرت طويلا ، فلم يرحل عنا هذا الامير كأنما خلت الدولة الاموية من الامراء فلا ترسل الينا بأمير آخر يكون له رأى حسن فى الغناء وأهل صناعته ! ··

فلما طال الانتظار ، وساءت الحال ، وأحوجت الخصاصة ، دخلت اليه يوما مع عامة الناس حين أذن لهم بالدخول ، ومعى العود أخبئه فى ثيابى، فقلت له :

ـ أصلح الله الامير ·· كانت لى صناعة اعود بها على عيالى ، فحرمها الامير فاضر ذلك بهم وبى ! ··

قال الامير :

ـ وما صناعتك ؟! ··

فكشفت عن عودى وقلت : هذا ! ··

فعبس الامير فظننت أنه سيأمر بقتلى أو سجنى ، ولكنه قال لى وقد زال عبوسه :

ـ غن ! ··

فحركت أوتار عودى وأنا أقول فى نفسى : « هذا رجل صالح يحب من يعظه ويذكره بالموت والآخرة » ·· ثم غنيت فى هذا المعنى :

**أيها الشامت المعير بالدهر**
**أأنت المبرأ الموفور**
**أم لديك العهد الوثيق من الايام**
**بل انت جاهل مغرور**
**من رأيت المنون خلدن أم من**
**ذا عليه من أن يضام خفير**

فبكى الامير مما ورد عليه من الاتعاظ بذكر الموت فى هذا الغناء ، ولا أظنه طرب لغنائى أو التفت الى لحنى ·· ثم قال لى :

ـ قد أذنت لك وحدك خاصة بالغناء ·· فلا تجالس سفيها ولا معربدا فى غنائك ! ··

قلت :

ـ نعم ·· أصلح الله الامير ! ··

ومضيت فرحا فقد فتح الامير من جديد باب الرزق لى وكأنه يظن انى سأغنى الناس عن « الموت » كما غنيته هو ، وأننى سأجلس فى أفراحهم أضرب العود وأغنى بالمواعظ بينما العروس فى الجلوة ، والناس يضجون بالسرور .

## ● اليوم الثالث :

نقل الخليفة أميرنا خالدا القسرى ، وجاءنا غيره ، فلم يكد يجلس في دار الامارة بالكوفة حتى سأل عنى ، فأسرعت اليه أقول له : لبيك سيدى !

وكنا ليلة في سهرة عند هذا الامير ، فاذا حاجبه يدخل ويقول له ان الفقيه العظيم « الشعبى » يطلب الاذن بالدخول ، فأشار عليه بعض الحاضرين ان يعتذر له من عدم لقائه في هذه الساعة من الليل ، حتى لا يرى ما نحن فيه من الغناء ..

ولكن الامير اذن للفقيه الامام الشعبى فدخل .. وقال له الامير :

ـ يا أبا عمرو .. لو كان غيرك لم آذن له ونحن على هذه الحال ! ..

قال الشعبى في ذكائه ولباقته وحلاوة منطقه المأثور عنه :

ـ أصلح الله الامير ، عندى لك الستر لكل ما أرى منك ، والشكر على ما توليني ان شاء الله .

ـ كذاك الظن بك يا أبا عمرو .. وأنت أنت ! ..

ثم التفت الشعبى نحوى فتضاءلت وانكمشت كأننى أريد أن أختبىء منه ولو في جوف عودى ! .. فابتسم وقال لى :

ـ كيف أنت يا أبا كعب ؟! ..

قلت :

ـ بخير يا سيدى أبا عمرو ! ..

قال لى :

ـ أحزق الزير فى عودك وأرخ البم ، فذلك أفضل لنغمة هذين الوترين !

ففعلت ذلك ، وضربت فوجدت نغمة العود أحلى ، فقال الامير لاصحابه هامسا :

تلومونني على أن آذن لهذا الشيخ الجليل بالدخول فى كل حال ؟! .

ثم أقبل الامير على الشيخ الامام الشعبى قائلا :

ـ يا أبا عمرو .. من أين عرفت حزق الزير وارخاء البم فى أوتار العود؟!

قال الشعبى باسما

ـ ظننت ان الامر هناك ! ..

قال الامير :

ـ فان الامر كما ظننت هناك كله ! •

ثم قال له الامير غامزا بعينه :

ـ فمن أين عرفت حنينا ؟! •••

فالتفت الى الشعبي وقال :

ـ هذا بطلة أعراسنا وأفراحنا فكيف لا أعرفه ؟!

فضحك الامير وجلساؤه ، وغنيت فاجدت وأطربتهم ورأيت الشعبي ينصت منبسط الاسارير ، وأعجبني جدا انه قال عني : هذا بطلة أفراحنا •

أمر لى الامير بجائزة كبيرة •• وكانت ليلة لم أر مثلها ، ولا استمتعت بشيء في الدنيا أمتع منها ، لوجود الشعبي فيها ، وهو من هو بين الناس، خاصتهم وعامتهم ! ••

## ● اليوم الرابع :

اجتاز أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك الكوفة في طريقه الى الحج ، فوقفت له في بعض الطرقات ومعي عودي والى جانبي زامر يزمر لى ، وأنا اغنى :

امن سلمى بظهر الكوفة
الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على
جفون الصيقل الخلل

فقال هشام لمن معه :

ـ من هذان ؟! ••

قالوا :

ـ حنين المغنى وزامره ! ••

فامر بى وبالزامر فحملنا في محمل على جمل ، وسار بنا ، فغنيت وهشام يسمع •

صاح هل ابصرت بالخبتين
من اسماء نارا
موهنا شبت لعينيك
ولم توقد نهارا
كتلالى البرق فى المزن
اذا البرق استطارا
اذكرتنى الوصل من سعدى
وأياما قصارا

فلم أزل أغنى لهشام حتى نزل ، فأمر لى بمائتى دينار ، وللزامر بمثلها !

وكانت عطية قليلة ، فان بعض الامراء يعطون المغنين أضعافها ، ومع ذلك حسدنى بعض الناس وقالوا لى :

ـ أنت تغنى منذ خمسين سنة ، ما تركت لكبير من الكبراء مالا ولا دارا ولا عقارا الا أتيت عليه ! ..

قلت لهم :

ـ بأبى أنتم ! .. انما هذه أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلوموننى ان أغلى بها الثمن ؟! ..

## ● اليوم الخامس :

جاءتنى دعوة من ابن سريج ومعبد والغريض أن أزورهم فى الحجاز ، فخرجت اليهم ، فلما كنت على مرحلة من المدينة جاءوا مع جمع هائل يتلقوننى ، وذهبوا بى الى منزل السيدة سكينة بنت الحسين ، فلما دخلنا أذنت للناس كلهم أن يدخلوا فغصت بهم الدار وصعدوا فوق السطح ، ثم سألونى أن أغنى لحنى الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » .. فغنيتهم وازدحم الناس على السطح ليسمعونى فسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعا وخرجوا أصحاء ! .. الا أنا فقد تهشمت عظامى ! ..

وسمعت سكينة بنت الحسين تقول :

ـ لقد انتظرنا حنينا مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه الى الموت ! ..

وأرانى لابد ميتا ، فانى أشعر بالموت يتمشى فى جسدى علوا وسفلا ! .. وأرى بعينى شبح الموت ! .

# غلام من اليمن

**● اليوم الاول :**

**أول ما عرفت قسوة الدنيا كنت غلاما صغيرا ، هاجرت من بلدى فى اليمن مع أمى واخوتى واخواتى الايتام ، لا نملك شيئا ، قد أجدبت أرضنا ، وأخذ الجوع بخناقنا .. فنزلنا « المدينة » وهى يومئذ مزدهرة بأهلها الاماثل الذين كثر فى أيديهم المال مما يغمرهم من أعطيات الخلفاء ، وصاروا مضرب الامثال فى التنعم والرفاهة وطيب العيش ! ..**

**أوينا الى خص على مشارف المدينة المنورة ، وقالت لى أمى :**

**ـ اذهب يا مالك فاسأل الناس ، فانهم متى رأوا بؤسك أشفقوا عليك وأعطوك مما أعطاهم الله ! ..**

**فكنت قليلا ما أسأل الناس ، الا على مقربة من دار بعض أحفاد عبد الله ابن الزبير ، فسمعت يوما صوتا عجبا ينبعث من هذه الدار ، فوقفت على بابها أتسمع ، فاذا غناء لم أسمع مثله قط ، سألت بعض خدم الدار عنه فقالوا لى : هذا « معبد » أشهر المغنين فى المدينة ! ..**

**صار دأبى بعد ذلك الا أسأل الناس احسانا الا وأنا واقف على باب هذه الدار التى ينبعث منها غناء « معبد » كل ليلة تقريبا .. فاذا عدت الى أمى واخوتى الجياع ، لم أعد الا بقليل من الزاد لا يشبعهم ، فتقول لى أمى غاضبة :**

**ـ كأنك لا تطوف بالمدينة ولا تطلب من أحد شيئا ، بل تقف فى مكان واحد لا تريم ، فمن مر بك وأعطاك أخذت منه ، ومن منعك لم تلحف عليه فى السؤال ، والناس لا يعطون الا لمن يسألهم الحافا ..**

**قلت لامى :**

**ـ هو ذاك والله ! .. وانى يا أماه لمشغول البال بما هو أجدى علينا من استجداء الناس ! ..**

**قالت غاضبة**

**ـ وأى شىء أجدى علينا من أن تنشط فى السؤال لى كل مكان بالمدينة ؟! .. وماذا يشغلك أيها الاحمق الجاهل عن طلب العيش لاخوتك الصغار الجياع المساكين ؟! .**

قلت لها :

ـ غناء أسمعه من دار بعض آل الزبير بن العوام ، لا يتعلق به أحد من المغنين في المدينة كلها ! ..

فلطمت أمي خديها وصاحت :

ـ اخوتك وأخواتك يقتلهم الجوع وأنت واقف على باب أولئك السادة تسمع الغناء ؟! .. أية مصيبة يا ربي حلت بنا من حماقة هذا الغلام وبلادة حسه ؟! ..

● **اليوم الثاني :**

ضربتني أمي ضربا مبرحا لاني لم أكتسب شيئا امس ، ولكنني لا أبرح موضعي على باب آل الزبير ، استمع الى معبد ، فاحفظ ألحانه ، ولا أتبين كلمات الشعر الذي يغنيه ، فاكتفي بحفظ النغمات دون الكلمات ، فاذا رددت اللحن مترنما كان لحنا خالصا لا أعرف له كلاما ! ..

واليوم رآني صاحب الدار واقفا عند بابه كعادتي كل يوم وليلة فقال لي :

ـ اظنك تقف على بابي لتسمع غناء معبد ؟! .

ـ نعم يا سيدي ! ..

ـ من أنت ؟! ..

ـ غلام من اليمن ، اسمي مالك بن أبي السمح أصابنا الجدب فجئت المدينة ومعي أمي وأخواتي واخوتي الصغار ، وأنا أسأل النـاس لهم ، وقد لزمت باب دارك ، أسمع معبدا وأسأل الناس ! .

ـ فكيف وجدت ملازمتك لبابنا ؟! ..

ـ أما الغناء الذي أسمعه فلا شيء مثله ، وأما العيش فوالله ما شبعت على بابك شبعة قط ، ولا انقلبت منه الى أهلي بخير ! ..

جزع الرجل وتجهم ، وأمر لي ولامي واخوتي بمنزل ورزق يجري علينـا وكسوة ، وخادم يخدمنا ، وعبده يحمل الينا الماء ! .. وقال لي :

ـ هل تستطيع أن تغني شيئا مما سمعت ؟!

كان معبد قد حضر كعادته ، فجلس يسمعني وأنا أترنم بالحـانه دون كلمات ، فاديتها كلها بما فيها من نبراته وتعليقاته وصـيحاته وقراراته وعطفاته ومداته ولياته ، نغمة نغمة .. حتى رأيت الدهشة في وجه معبد كما رأيتها في وجه النبيل الزبيري الذي أدخلني داره بعد أن وقفت على بابها اياما وليالي !

قال الرجل لمعبد :

ـ خذ هذا الغلام فخرجه واطلعه على أسرار الغناء ، فاذا عرفه الناس يوما،

كانت محاسنه منسوبة اليك وقالوا : هذا خريج معبد وتلميذه ! ..

### ● اليوم الثالث :

مضت مدة منذ اجلسني معبد لاول مرة يطارحني الالحان ويعلمني ، وقد مهرت وحذقت حتى أدهشت معبدا بحذقي ومهارتي .. ووجدني معبد أقلده في التلحين ، فنصحني الا أفعل ذلك ، ولكني لم أنتصح ، وصرت ألحن على طريقته ، فاذا سمعني الناس قالوا : هذه ألحان معبد ، فأقول لهم : بل ألحاني ! ..

غضب معبد وذهب الى صديقه الزبيري وقال له :

ـ هذا الغلام قد عرف طريقتي وادعاها لنفسه ، وهو يتزايد على الايام لانه ما زال شابا ، وأنا أشيخ وأضعف ، ويجف حلقي ، ويتغير صوتي حتى يتجافاني من كان يشتهي سماعي ! .

قال له يواسيه :

ـ سيقول الناس انك عوضتهم من نفسك بهذا الغلام الذي يجرى في نهجك !

قال معبد وهو منكسر :

ـ صدقت أيها الامير !

فأمر الرجل لمعبد بجائزة وكسوة حتى طابت نفسه ، وقمت أنا الى معبد فقبلت رأسه ، وقلت له :

يا أبا عباد .. أساءك مني هذا الغناء الذي أجرى فيه على طريقتك ؟! .. والله لا أغني لنفسي شيئا أبدا الا نسبته اليك وقلت للناس : هذا من صنعة معبد .. فطب نفسا وارض عني !

قال معبد :

ـ أوتفعل هذا ، وتفي به يا مالك بن أبي السمح ؟! ..

قلت :

ـ أي والله وأزيد عليه ان شئت ! ..

قال معبد :

ـ ان رأيت ألا تفعل ذلك كان أقرب الى العدل ، فانك أحق بثمرة عملك !

### ● اليوم الرابع :

سافرت الى مكة أغني عند بعض نبلائها من قريش ، فنزلت بدار صديق لي ، فسمعت غناء من غلام يشتغل حائكا عنده ، فقلت للغلام : أعد علينا هذا الغناء ، فغناه حتى حفظت اللحن فأخذته ووجدت كلامه رديئا فاخترت له شعرا جيدا والبسته هذا اللحن فصار جميلا رائقا ، وغنيته للناس فرأيتهم

يقولون : هذا لحن مالك ، ووالله ما هو الا ما سمعته من ذلك الحائك ولا أدرى من أين وقع له ، ولعله من فطرته وطبعه فى الغناء ! ..

افتتن الناس هنا بغنائى حتى مدحنى شاعر منهم فقال :

**لاعيش الا بمالك بن أبى السمح**
**فـــلا تلـــحنى ولا تلـــم !**
**ابيض كالبدر أو كما يلمع البارق**
**فى حـــالك من الظـــلم**
**من ليس يعصيك ان رشدت ولا**
**يهتك حق الاســـلام والحرم**
**يارب ليل لنا كحاشـــية البرد**
**ويـــوم كـــذاك لـــم يـــلم**
**نعمت فيه ومالك بن أبى الســـمح**
**الكـــريم الاخـــلاق والشـــيم**

صنعت فى هذا الشعر الجميل لحنا طرب له الناس ، وربحت فى هـذا اللحن ثناء الشاعر وثناء كل من سمع الشعر واللحن ! ..

وقال لى أحد العارفين بصناعة الغناء :

ـ يا أبا الفضل .. ان الناس ينسبون الحانك الى معبد ، فما تقول ؟! ..

ـ انى آخذ ألحانه فاحسنها وأهيئها فينسبها الناس لى ..

ـ ليس الامر كذلك والله يا أبا الفضل ولكنك تفى لمعبد بما وعدته حين كان يعلمك الغناء ، من نسبتك ألحانك اليه عرفانا بجميله ! ..

ـ أترى ذلك ؟!

ـ نعم ، فان لك صنعة كثيرة حسنة ، تجرى فى أسلوب واحد ، ويشبه بعضها بعضا ، ولو كنت تدعى الالحان لاختلف غناؤك .. وقد ســـمعنا لحنك : « لاعيش الا بمالك بن أبى السمح » .. فهل هذا أيضـا من تلحين معبد ؟! ..

فلم أحر جوابا ولزمت الصمت ! ..

## ● اليوم الخامس :

أشخصنى أمير المؤمنين الوليد بن يزيد اليه فى دمشـق ، فغنيتـه أول مرة فلم يعجبه غنائى واحتبس صوتى تهيبا له ، فلما خرجت من حضرته قيل له :

ـ يا أمير المؤمنين ان هذا المغنى قد هابك فاحتبس لسانه فأبعث اليه مرة أخرى ..

فلما أرسل يطلبنى ، وقفت قبل دخولى مجلسه فى دهليز بالقصر ، فقلت

للفراش : اسقني قدحا من شراب ولك دينار ، فسقاني وأخذ الدينار ، ثم زادني قدحين آخرين واخذ دينارين أيضا .. حتى انتشيت ودخلت على الوليد ابن يزيد أخطر في مشيتي فلم أسلم عليه وأخذت بحلقة الباب فقعقعتها ، ثم رفعت صوتي فغنيت :

لاعيش الا بمالك ابن أبي السمح
فلا تلحني ولا تلم ! ..

فطرب الوليد ، ورفع يديه ، حتى بدا ابطاه ، وقام فاعتنقني وقال لي : ادن يا ابن أخي .. وأمرني فأعدت اللحن مرات ، وهو يزداد طربا ، وأجزل صلتي ..

ثم غني المطرب القدير ابن عائشة ، فازداد طرب الوليد ، وهو يفضل ابن عائشة على غيره من المغنين ويقول ان غناءه يتركه كأنه يتقلب على الجمر من فرط حرارته ! ..

وابن عائشة يظن نفسه أعقل الناس ويتهمني بالحمق ، وما الحمق الا في رأسه هو ! ..

فبينما نحن في سرور عند أمير المؤمنين الوليد وقد فرغنا من الغناء وفزنا بالجوائز ، هجم على القصر جماعة الثائرين على أمير المؤمنين ممن يتهمونه بشتى التهم ، وأولها انشغاله بالغناء والنساء والشراب وتبذيره في أموال الدولة وتبديدها في لذاته ! ..

ولما رأيت السيوف مصلتة في أيديهم تريد رأس الوليد التفت الى ابن عائشة فقال لي :

— اثبت بنا في مكاننا فان هؤلاء لا يقصدوننا !

قلت له :

— بل اهرب بنا أيها الغبي المتعاقل !

فجادلني في ذلك الموقف الضنك وقال لي : لماذا نهرب نحن ، وماذا يريدون من أمثالنا ؟! ..

قلت له وقد نفد صبري وملأني الخوف والسيوف تقترب :

— لو أخذوا رأسينا لجعلوا بينهما رأس الوليد ، ثم جمعوا الناس وقالوا لهم تحسينا لفعلتهم : أمسكنا بهذا الفاسق ، ومعه هذان الفاسقان يغنيانه ويشربان في مجلسه .. فجمعنا رءوس الثلاثة ! .. فيكون قولهم هذا تبريرا وتحسينا لامرهم عند العامة ! ..

فرأيت ابن عائشة قد فهم كلامي ، وجرينا كفرسي رهان في دهاليز القصر حتى خرجنا ونحن لا نصدق اننا نجونا ! ..

قال لي ابن عائشة وقد ابتعدنا عن دمشق وأخذنا طريقنا الى الحجاز :

— ما رأيت منك عقلا ولا حكمة قط الا في ذلك اليوم ! .. فلو بقينا مع

الوليد ، لرفع القتلة على رماحهم ثلاثة رءوس لا رأسا واحدا ! ٠

## ● اليوس السادس :

تمضى الايام ٠٠ يتناقص صوتى ويجف حلقى كما حدث لمعبد وغيره من شيوخ المطربين ! ٠٠

مررت امس بفتية من قريش جلوسا فسألونى أن أغنيهم فاعتذرت بذهاب صوتى وضيق أنفاسى ، فقالوا : يكفينا منك القليل ! ٠٠ فرفعت صوتى فلم أقدر ، ثم خفضته فلم أقدر ، فبكيت وجعلت أصيح : واشباباه ! ٠٠

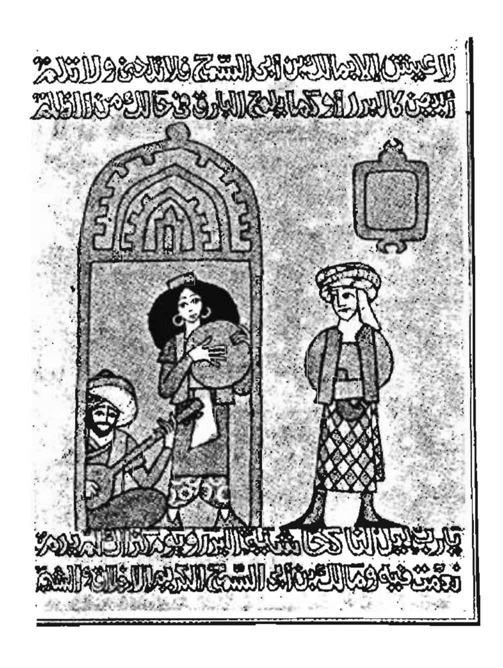
ضعف بصرى فصرت كفيفا ، فبينما أنا فى الحمام الكبير بالمدينة ، وصاحب الحمام يدعك جسدى وينظفه ، سمعت حس انسان بجانبى يقول لى : ياعماه ٠٠ من أحسن الناس غناء ؟!

قلت له : كم بلغت من السن أيها الفتى ؟

قال : عشرين سنة ! ٠٠

فبكيت وصحت بما تبقى فى صوتى :

ـ واشباباه !



# الزرقاء تلتقط اللؤلؤتين

**● اليوم الاول :**

تتحدث الكوفة كلها عني الآن ، ويقول ظرفاؤها وعشاق الجمال فيها : ما على وجه الارض مثل سلامة الزرقاء ، حسنا وحلاوة ورقة وبراعة فى الغناء ، فلا يلحقها الوصف فى ضرب من ضروب جمالها وفتنتها !

وافتتن بى محمد بن الاشعث الكاتب الكوفى ، فقال هذه الابيات التى ملأت الكوفة وسارت بها الركبان الى مكة والمدينة ودمشق والبصرة :

**امسى لسلامة الزرقاء فى كبدى**
**صدع مقيم طوال الدهر والابد**
**لا يستطيع صناع القوم يشعبه**
**وكيف يشعب صدع الحب فى الكبد**
**الا بوصل التى من حبها انصدعت**
**تلك الصدوع من الاسقام والكمد**

وقد صنعت لحنا فى البيت الثانى من هذه الابيات وغنيته محمد بن الاشعث فصاح وقد تملكه الوجد والطرب :

ـ كيف يشعب صدع الحب فى كبدى يا سلامة ؟! .. كيف يشعب صدع الحب ؟! ..

وأنا مع ذلك غير سعيدة فى حياتى ، فما أنا الا جارية فى دار عبد الملك ابن رامين تاجر الجوارى فى الكوفة ، ومعى جاريتان جميلتان تحسنان الغناء هما « ربيحة » و « سعدة » وعدد من الوصائف ..

وأغنياء الكوفة وأهل الشرف والوجاهة يدخلون دار ابن رامين ويخرجون .. يسمعون جواريه يغنين أو يتحدثن .. وهو يبيع الوصائف الجميلات ولكنه يحتفظ بى وبزميلتى ربيحة وسعدة ، ليجمع المال من هؤلاء الوجهاء الكرام بعد غنائنا بين أيديهم ..

وأمس اجتمع عندنا معن بن زائدة وروح بن حاتم وعبد الله بن المقفع وبعض ذوى الرياسة فى الكوفة من رجال الدولة الاموية ، فقال لى سيدى ابن رامين :

ـ يازرقاء .. غنى .

اية حال يا ابن رامين

حال المحبين المساكين

فغنيت هذا الصوت ، ورددته مرارا حتى استبد الطرب بالقوم ، فقام معن بن زائدة فصب بين يدى عشرة آلاف درهم ، ثم قام روح بن حاتم فصب مثلها .. ولم يكن فى يد ابن المقفع ساعتئذ مال ، فأخرج صك ضيعة له وقال لى : هذه ضيعة لى خذيها ، فليس عندى من الدراهم شىء يصلح لك ! ..

فلما انقضى المجلس ، اجتمع لابن رامين عشرون ألف درهم وضيعة كبيرة ولم يكن لى فى هذا كله الا جهد الغناء ، وعناء استخراج المال من خزائن أصحابه ! ..

## ● اليوم الثانى :

يعاملنى ابن رامين الآن معاملة طيبة ، فأنا أكبر موارد رزقه .. يجىء الناس الى داره لسماع صوتى والنظر الى وجهى .. ثم يصدرون عن داره وقد ملأوها أموالا ..

وهو يعطينى بعض المال الذى يكسبه من المعجبين بى ! ..

وقد جاءنا محمد بن الاشعث الذى اكسبنى شعره شهرة فى العراق والشام والحجاز ، وهو من ظرفاء الكوفة وفتيان قريش فيها ، وحبه للجوارى لا يقف عند حد ..

لم يكد ابن الاشعث يجلس حتى بصر باحدى الوصائف الجميلات فاعجبته ، فقال لى : هبى لى هذه الجارية يا زرقاء ! .. فوهبتها له ، فلما أخذها ومضى بها الى بيته ، نظرت أرى أثر ذلك فى ابن رامين وهو صاحب الجارية ومالكها ، فوجدته لا يتكلم ولا يعارض ما صنعت ، كأننى أنا المالكة لهذه الجارية أتصرف فى أمرها كيف أشاء ، وأهبها لمن أشاء ، فيخسر ابن رامين ثمنها وما أنفقه عليها ..

لقد أدرك ابن رامين أخيرا ان ما يدخل خزانته من المال ، انما هو من عملى، فصار لا يبالى أن أهب لاحد أصدقائى جارية جميلة لا يقل ثمنها عن ثلاثين ألف درهم ! .. وما وهبتها له الا نكاية فى ابن رامين ! ..

## ● اليوم الثالث :

غنيت الليلة ساعة أو ساعتين لبعض وجهاء الكوفة ، ثم جاء الخادم يستأذننى فى دخول يزيد بن عون الصيرفى الملقب بالماجن .. فأذنت له .. وقد صار الاذن لى دون مولاى ابن رامين ، فأنا صاحبة الامر فى هذا بعد أن كان هذا اليه وحده ! .. ان شئت اذنت بالدخول ، وان شئت منعت ! ..

دخل يزيد بن عون الصيرفى ، فأقعى بين يدى ، وهو أثير عندى لظرفه وكرمه وحبه لى وتمييزه الجيد من الردىء فى الغناء تمييزا دقيقا لم أره عند

أحد سواه ممن يغشون بيت ابن رامين لسماعي ، مع كثرة العارفين بالغناء منهم ..

ادخل « الماجن » الصيرفي يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين ، وقال لي :

ـ انظري يا زرقاء .. جعلت فداك ! ..

نظرت الى اللؤلؤتين ، فحلف لي انه نقد فيهما بالامس اربعين الف درهم . قلت له :

ـ فما أصنع بذلك ياماجن ؟! ..

قال :

ـ أردت أن تعلمي ! ..

فغنيت صوتا تأنقت في أدائه تأنقا خلاف ما كنت أفعل قبل حضوره ، حتى أحس ذلك وفهمه كل من حضر ، ثم قلت له :

ـ يا ماجن .. هب لي اللؤلؤتين .. ويحك !

قال :

ـ ان شئت والله وهبتهما لك !

قلت :

ـ قد شئت !

قال :

ـ اليمين التي حلفت بها لازمة لي أن آخذتهما الا بشفتيك من شفتي يا زرقاء ! ..

تهامس الحاضرون ، يقول بعضهم لبعض :

ـ ان أصحاب هذا البيت انما يتكسبون مما ترون ، ولولا الماجن وأمثاله لما جمع ابن رامين ما جمع من الذهب والفضة .. واللؤلؤ ..

ولم يتثاقل الحاضرون في الانصراف ،فقد فهموا اني لا أريدهم شهودا لمنظر التقاطي اللؤلؤتين بشفتي من شفتي الصيرفي الماجن ! ..

ووثب ابن رامين يقول متكلفا سببا للانصراف :

ـ يا غلام .. ضع لي ماء للوضوء ! ..

ثم خرج ليخلي المكان .. وكانت على رأسي جارية تخدمني فأومأت اليها أن تخرج ، فانصرفت مستأذنة كأنها تريد حاجة ! ..

وخلا المجلس الا مني ومن يزيد الصيرفي الملقب بالماجن ! ..

فمشى على ركبتيه وكفيه ، واللؤلؤتان في شفتيه فقال لي : هاك ! ..

فلما ذهبت آخذهما بشفتي صد عني يمينا وشمالا ليستكثر من ملامستهما ، فلما وجدته يزوغ مني مرة بعد مرة أمسكته حتى انتزعت

بشفتى اللؤلؤتين من شفتيه ، وقد رشح جبينى عرقا حياء من ذلك ! ..

فلما أخذتهما أردت أن أعرفه اننى غلبته ، وأنه المغبون فى هذه الصفقة فقلت له :

ـ المغبون منا من خسر اللؤلؤتين ! ..

فقال لى :

ـ اما أنا فما أبالى .. لا يزال طيب هذه الرائحة فى أنفى وفمى أبدا ما حييت ! ..

وقد فرح ابن رامين باللؤلؤتين ، وأخذهما ليضيفهما الى كنوزه ! ..

## ● اليوم الرابع :

سقطت الدولة الاموية .. واضطربت أحوال الكوفة ، اذ صارت عاصمة الدولة الجديدة ، دولة بنى هاشم أو بنى العباس ، وبدأ ابن رامين يبيع جواريه ، فباع ربيحة وسعدة لبعض الهاشميين الحكام الجدد .. وباعنى أنا للهاشمى جعفر بن سليمان بن على .. ومضى بى جعفر الى البصرة التى أصبح والده واليا عليها ..

لم يكن الوالى سليمان بن على يعلم ان ابنه جعفرا اشترانى حتى وشى بنا بعض الوشاه ففاجأنا الرجل ليلة وأنا أغنى والعود بين يدى ، وجعفر يصيح طربا .. فقال الرجل لابنه :

ـ ويحك .. أما علمت ان عبد الله بن على قد تحرك بالثورة ، وقد يهجم علينا وينتزع منا البصرة ، ويقتلنا جميعا ، وأنت على هذا الحال ومعك جارية تغنيك قد اشتريتها كما بلغنى بثمانين ألف درهم ! ..

فوثبت الى الوالى فأكببت على رأسه فقبلته ودعوت له بالنصر على أعدائه وأظهرت له فى كلامى من العقل والفهم ما أعجبه ، فانصرف ولم يعد الى مغاضبة ابنه فى شأنى ! ..

وبعد أن استقرت الاحوال ، وأخفق الثائرون على الدولة ، دعا جعفر أباه ليسمع غنائى ، فاقترح الرجل أن أغنيه :

اذا ما أم عبد الله

لم تحلل بواديه

ولم تشف سقيما هيج

الحزن دواعيه

فقلت للشيخ :

ـ فديتك . قد ترك الناس مثل هذا الغناء منذ زمان .. ولكنى احفظه وأغنيه ! ..

ثم غنيت له هذا اللحن القديم ، فرأيته يهز رأسه طربا ٠٠ فعجبت لقلة علمه بالغناء المتقن ٠

## ● اليوم الخامس :

لم أر مثل هذا اليوم منذ صرت جارية لجعفر بن سليمان ، فقد انفجرت غيرته فجأة ، ومضى يستجوبني ، ويمطرني بالسؤالات العجيبة عن أيامي الماضية في بيت ابن رامين ، ولم تقنعه جواباتي ، حتى قال لي :

– هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة في بيت ابن رامين ؟!

فعلمت من سؤاله هذا ان شيئا قد بلغه ، وعزمت أن أصدقه ، ايثارا للسلامة ، فقلت له :

– لا والله ٠٠ الا يزيد بن عون الصيرفي الملقب بالماجن ، فانه قبلني قبلة !

ورويت له باختصار شديد قصة هذه القبلة واللؤلؤتين ! ٠٠

فرأيت وجهه قد احتقن ، ولم يتكلم ، وخرج ولم يعد الا بعد وقت طويل ! ٠٠

ويا عجبا ! ٠٠ كيف يطلب هذا الرجل من جارية كانت في كل وقت معروضة للبيع ، أن تبقى مصونة لا تمس طوال ماضيها قبل شرائه اياها !

## ● اليوم السادس :

ليتني لم أعش حتى أرى هذا اليوم ! ٠٠

جاء جعفر بن سليمان بيزيد الصيرفي الماجن ، بحيث أرى وأسمع ما يجري له ٠٠

وسأله عن أمور لفقها له ، فدافع الماجن عن نفسه ونفى كل تهمة ٠٠

ولم يدر الماجن ان تهمته الحقيقية التي يستجوبه عنها هي قبلة اللؤلؤتين التي مضت عليها سنوات ! ٠٠

لم يستطع جعفر أن يمسك الماجن بجرم ، ولكنه أصر على اتهامه بجرائم ملفقة ! ٠٠

وأمر جعفر الجند فخلعوا ثياب الماجن ، ووثبوا يضربونه بالسياط ! ٠٠

ووضعت أصابعي في أذني حتى لا أسمع صراخ الماجن ، وقد زاد عدد السياط التي ضربوه بها على خمسين سوطا ٠٠

ثم خفت صوته حين جاوز عدد السياط مائتين ٠٠ ثم كفوا عن ضربه ٠٠ وحملوه ميتا ٠٠ والامير جعفر يغمره الارتياح ، فقد قتل غريمه المسكين !

# مجلس الطرب والفكاهة

**● اليوم الاول :**

زميلتى « مكنونة » جارية مغنية حاذقة ، جميلة الوجه ، لكنهــا نحيفة مكشوطة من وراء ! ..

اذا رايتها من خلف وهى تمشى رأيت فى قوامها استواء تاما كاستواء خشبة صلبة ، من ظهرها الى عجزها الى فخذيها ، حتى قال لها بعضهم مازحا : يا مكنونة .. ظهرك جميل الاستواء كظهر الطست ! .. .

ولكن مكنونة لا تبالى ما يقولون عن ظهرها ، فهى بارزة الصدر ، حسنة البطن ، مكتملة الحسن فى كل شىء تواجه به الناظرين .. وتمشى مشية لطيفة ، تشد قوامها فيكون صدرها متقدما عليها ، كأنه يقــول عنهــا للناس : أنظروا ! أو يقول لهم : افسحوا لها الطريق ! ..

وأنا والله أجمل منها وجها ، وأحسن غناء ، ولكن حظها عظيم ، وحظى قليل ، فان « المهدى » ولى عهد الخليفة ابى جعفر المنصور ، اشتراها بمائة ألف درهم ، ولا علم لابيه بذلك ، ولو علم ، لانتزعها منه وباعها واسترد دراهمه ، فان أباه هذا بخيل متشدد ! ..

والناس يسموننى « بصبص » .. ولا أعلم اسما لى غيره ، وأعيش منذ طفــولتى فى دار مولاى يحيى بن نفيس فى المدينــة ، ويجىء الاشراف والظرفاء فيسمعون غنائى ، وغناء زميلاتى جــوارى ابن نفيس ، ولــكنى أبرعهن جميعا ، وأشدهن تقدما فى الغناء ..

وممن يغشى دارنا ليسمعنى ، محمد بن يحيى ، حفيد الامام الحســين ، وعبد الله بن مصـــعب من آل الزبير بن العــوام ، وكثير من الهاشــميين والقرشيين ! ..

وأبخل زوارنا وأبعثهم للضحك اســـمه « مزبد » .. يبلغ فى بخله حد الجنون ، الا انه لطيف خفيف ! ..

قلت لجلسائى أمس : أنا آخذ لكم من مزبد درهما كاملا لا ينقص وزنه شعرة واحدة ! ..

فصاحوا :

ـ والله ما يقدر الشيطان نفسه أن يأخذ درهما من مزبد ، ولا مقــدار حبة شعير من الدرهم ! ..

وقال لى سيدى ابن نفيس :

ــ أنت حرة لئن أخذت منه درهما ، ان لم اشتر لك قلادة ذهب وجوهر بمائة ألف دينار ، وثياب وشى بما شئت من المال العظيم ، ثم اجعل لك مجلسا بالعقيق خارج المدينة عند العشـــب والماء ، فانحر فيه لك ناقة أو بقرة ، وأجمع لك ظرفاء المدينة ! ..

فقلت له :

ــ جىء به وارفع عنى الغيرة ، مهما داعبته ! ..

قال :

ــ أنت حرة فاصنعى ما شئت ، فقد رفعت عنك الغيرة ! ..

فذهب عبد الله بن مصعب الى مزبد فقال له :

ــ أبا اسحاق .. أما تحب أن ترى بصبص جارية ابن نفيس ! ..

فتوسل اليه أن يصحبه الى مجلسى ! ..

فلما جاء وغنيت صوتا شرب ابن نفيس والقوم معه أقداحا ، وتصنعوا السكر وتناوموا ، فأقبلت على مزبد فقلت :

ــ يا أبا أسحق ، كأنك تشتهى أن أغنيك :

**لقد حثوا الجمال ليهربوا**

**منـــــا فلـــم يئلـــوا**

فألقى الرجل نظرة على القوم النائمين فاطمأن وهمس :

ــ هل تعلمين الغيب ؟! .. فهذا والله ما أشتهى ان أسمعه الســـــاعة منك ! ..

فغنيته وهو ينعر ويصفق طربا ، وأنا أسأله الا يفعل ، حتى لا يصحو النائمون ! ..

ثم نظرت فى عينيه وقلت له :

ــ أبا اسحاق ! .. أليس فى نفســـــك أن أقوم فأجلس لصـــــيقة بك وأغنيك !

**قالت وابثثتها وجدى فبحت به**

**قد كنت قدما تحب الستر فاستتر**

**ألست تبصر من حولى فقلت لها**

**غطى هـــواك وما ألقى على بصرى**

فصاح طربا ، وقال :

ــ كأنك تعلمين مافى الارحام ، وما تكســـب الانفس غدا ، وبأى أرض تموت ! .. وكأنك .. وكأنك ..

قلت له :

ـ استغفر ربك يا أبا اسحاق ، ولا يخرجنك الطرب الى مثل هذا القول ثم غنيته هزجا :

**انا ابصرت بالليل**
**غلاما حســـن الدل**
**كغصن البان قد اصبح**
**مســـــقيا من الطـــل**

فكاد يخرج من ثيابه طربا ، وصاح :

ـ كأنك نبية مرسلة فى هذه الصناعة ! ..

فقلت له وقد قربت منه جدا : « قد نهيتك عن مثل هذا الكلام .. فالان برح الخفاء ، وظهر ما احتجب من حبك لى ، وأنا أعلم انك تشتهى أن تقبلنى قبلة شق التين » ! ..

فدنا منى ، فنحيته متلطفة ، وقلت له وقد ملكته كخاتم فى أصبعى :

ـ أبا اسحاق ! .. ارايت أسقط من هؤلاء النـــائمين .. يدعـونك ويخرجوننى اليك لاغنى ولا يشترون ريحانا بدرهم ؟!

يا أبا اسحاق : هلم درهما نشترى به ريحانا ! ..

فتغير وجهه حتى كلح وصار كوجه الكلب حين يتهيأ للعض أو العراك ، ثم وثب صارخا مستغيثا :

ـ واحرباه ! .. أيتها الخاطئة ! .. والله لو غنيتنى مائة صـــوت ، ومنيتنى مائة من « شق التين » .. ما كان ذلك كفاء درهم ولا دانق يخرج من كيسى ! .. الان انقطع والله عنـك ذلك الوحى الـذى كنت ظننت انه يوحى اليك ! ..

فضج القوم بالضحك ، وخرجوا من تناومهم ، وركبـوا الرجـل بالدعابة والسخرية ، وقالوا لى :

ـ أما حذرناك من درهمه ودانقه . وقلنـــا لك انه لو علم ان الجنـــة لا يدخلها الا بدرهم ، لزحزح نفسه عنها الى النار ! . .

## ● اليوم الثانى :

كثر المعجبون بى ، وكلهم يزعم انه انما يحب غنائى ، ولكن أشـــعارهم تنم عليهم ، وتشى بعشقهم لى لا لغنائى ! ..

هذا شاعر يقول :

**بصبص انت الشـــمس مزدانة**
**فان تبـذلت فانت الهـــلال**
**ســـــبحانك اللهم ما هكـذا**
**فيما مضى كان يكون الجمـــال**

اذا دعت بالعود فى مشـــــهد
وعاونت يمنى يديها الشـــمال
غنت غناء يســــــــتفز الفتى
حذقا وزان الحذق منها الدلال

وبالامس حضر مجلسى أبو السائب المخزومى فغنيت :

قلبى حبيس عليك موقوف
والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بغصتها
قد شف ارجاءها التساويف
ان كنت بالحسن قد وصفت لنا
فاننى بالهوى لموصـــوف
يا حسرتا حسرة أموت بها
ان لم يكن لى لديك معروف

فطرب السائب وبكى ولطم خديه وقال :

ـ لاعرف الله قدرى ان لم أعرف لك معروفك ! ٠٠ بأبى والله أنت ! ٠٠ انى لارجو أن تكونى عند الله من الشهداء لما تولينا من السرور !

وجعل يصيح : واغوثاه ! ٠٠ واغوثاه ! ٠٠ يالله لما يلقى العاشقون ! ٠٠

فلما هدأ السائب المخزومى ، سألت فتى فى المجلس أعرف انه يحبنى ، أن يأتينى بحاجة ، فقام ليأتى بها فنسى أن يلبس نعله ومشى حافيا ، فقلت له : نسيت نعلك ! ٠٠ فتنبه ولبسها وقال لى :

ـ أنا والله كما قال الشاعر :

وحبك ينسينى عن الشىء فى يدى
ويشــــــغلنى عن كل شىء احاوله

فظننت به حمقا ، لا عشقا ، لانه يذكرنى والنعل فى بيت واحد ! ٠٠

● **اليوم الثالث :**

قدم أمير المؤمنين المنصـــــور المدينة منصرفا من الحج ، وقيل ان بعض حاشيته يزعم أن زميلتى « مكنونة » التى اشتراها ولى العهد « المهدى » قد حظيت عنده ، حتى نافست زوجته « الخيزران » ٠٠٠ وان مكنونة قد ولدت بنتا سمتها « علية » وانها تعلمها الغناء منذ طفولتها ٠٠ فليت شعرى ، أتظن مكنونة ان ابنتها الصغيرة هذه ، ستكون مغنية تباع فى ســـوق الرقيـق مثلها ، فهى تنشئها على ما نشأت عليه ؟! ٠٠

استقبل أهل المدينة مقدم الخليفة بفتور ، ولما أخذ يتأهب للرواح ، قال

عبد الله بن مصعب ، حفيد عبد الله بن الزبير :

**ارائح انت ابا جعفـــــر**
**من قبل ان تسمع من بصـــبصا**
**هيهات أن تســمع منها اذا**
**جاوزت العيس بك الاعوصـــا**
**احلف بالله يمينـــــا ومن**
**يحلف بالله فقد أخلصـــا**
**لو انهـا تدعــو الى بيعـة**
**بايعتها ثم شققت العصـــا**

فبلغت الابيات الخليفة ، فغضب ودعا عبد الله بن مصعب فقال له :

ـ أما انكم يا آل الزبير قديما ما قادتكم النساء ، وشققتم معهن العصا ، حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ! ..

يشير الخليفة فى كلمته هـــذه الى خروج جد هـــذا الفتى « الزبير بن العوام » رضى الله عنه ، فى وقعة الجمل مع السيدة عائشة رضى الله عنها، مع ان الزبير انصرف من الوقعة تائبا ولم يحارب وقتلوه غدرا ! ..

وجاءنى عبد الله بن مصعب فسألته عن حاله بعد غضـــب الخليفة عليه فقال : والله لا أبالى .. ولئن خرجت عليه يابصبص لابايعنك ، فما هو عندى بأفضل منك ! ..

## ● اليوم الرابع :

رحل المنصور ، فبلغنى من بعض من شيعوا موكبه خـارج المدينة ، انه قال : « يعجبنى الحداء ، فانه أحسن فى السمع من غناء بصبص وأمثالهـا من القيان المتبذلات ، وأحرى أن يختاره أهل العقل ! ..

ثم أمر فحدا به الحادى :

**انى وان كان ابن عمى كاشحا**
**لمـــزاحم من دونـه وورائـه**
**وممـــده نصرى وان كـان امـــرأ**
**متزحزحا فى ارضـــه وســـمائه**
**واذا تريش فى غنـــاه وفـــرته**
**واذا تصعلك كنت من قرنائه**
**واذا غدا يوما ليركب مركبـــا**
**صـــعبا قعدت له على سيسائه**

فقال المنصور :

ـ هذا والله أحث على المروءة ، وأشبه بأهل الادب من غناء بصبص التى

يزعم ذلك الزبيرى الاحمق انه يبايعها بالخلافة ! ..

ثم أراد أن يتكرم على الحادى فأمر باعطائه درهما واحدا ! ..

فقال له الحادى :

ـ يا أمير المؤمنين .. حدوت بهشام بن عبد الملك منذ سنين فأمر لى بعشرين الف درهم ، وتأمر لى أنت بدرهم واحد ؟! .

فقال المنصور :

ـ ذلك رجل ظالم كان يغتصب الخلافة ويأخذ مال الله من غير حله ، وينفقه فى غير حقه ! .. وانى آمرك بأن ترد المال الذى أخذته منه ! ..

فبكى الحادى وقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، قد مضت لهذا السنون ، وقضيت به الديون ، وتمزقته النفقات ، وما بقى عندى منه شىء ! .

فلم يزل المقربون الى الخليفة يسألونه ان يعفى الحادى من رد المال الذى أخذه من الخليفة الاموى هشام ، حتى كف عنه ، على أن يحدو به ولا يأخذ شيئا ، واسترد منه الدرهم اليتيم الذى كان أعطاه ! ..

فهذا الخليفة والله أشنع بخلا بدراهمه من « مزبد » .. وأقبح منه فى معاملة الناس ! .. فهل يلام ذلك الفتى الزبيرى الذى حلف يمينا لو اننى شققت العصا على هذا الخليفة لخرج معى عليه وبايعنى بالخلافة ؟! ..

# تلميذة الموصلي وجارية الرشيد

## ● اليوم الاول :

نشأت فى بيت واسع يموج بالجوارى والغلمان ، صغارا وكبارا ٠٠ كل يوم أرى جارية أو غلاما يخرج من هذا البيت ولا يعود ، ثم يجىء غلام أو تجىء جارية لا نعرفها ولم تكن معنا من قبل فى البيت ! ٠٠

صاحب البيت اسمه « قرين » صناعته « نخاس » يبيع الجوارى والغلمان ويشتريهم ٠٠ وهو من هذه التجارة فى ربح ينهمر عليه كالمطر بلا انقطاع !

جوارى « قرين » النخاس ٠٠ قسمان : أحدهما قسم الجوارى الفاتنات والمغنيات ، والآخر قسم جوارى الخدمة ، ومن لا موهبة لهن الا موهبة الفتاة العادية ٠٠ وشتان بين الثمن الذى تباع به الجارية من القسم الاول ، والثمن الذى تباع به جارية القسم الثانى ! ٠٠

وكذلك الغلمان ! ٠٠ .

فمن كان منهم مغنيا أو ذا موهبة ترفع من ثمنه عند المشترين ، اهتم به « قرين » النخاس وجاء اليه بالمدرسين ومن يثقفه ويعلمه أصول الحياة فى بيوت السادة ٠٠ ومن لم يكن كذلك باعه كيفما اتفق ، ورضى فيه بما تيسر من الربح ! ٠٠

كنت صغيرة السن حين اشترانى « قرين » من سوق الرقيق وضمنى الى جوارى بيته ٠٠ وبدت له منى مخايل الذكاء ، فضلا عن جمالى ، وقد عرف النخاس الذكى اللماح الذى حنكته التجارب أن جمالى هذا سوف يصبح باهرا ساحرا بعد سنوات قلائل ٠٠ فقال لى يوما وهو يلاطفنى :

ـ يا ذات الخال ٠٠ أراك أجمل الناس وجها ، ولك خال على خدك لم ير الناس أحسن منه فى موضعه ، وانك لجديرة بأن تباعى للسراة والاعيان والكبراء ، ولكنى أحب ان اسمعك تغنين لحنا مما تحفظين ، فان رأيت أن لك حنجرة عذبة ، جئت لك بمن يطارحك الالحان ويعلمك الغناء ، فانك عندئذ تصبحين من أغلى الجوارى ثمنا ، فأبيعك لعظماء بغداد ، وأربح أنا ، وتعيشين أنت فى قصورهم معززة مكرمة ! ٠٠

فلما غنيته ما أحفظ من الالحان ، نعر وصفق ورقص ، وقال لى والبهجة تعصر ملامح وجهه فرحا وطمعا :

ـ ويحك يا ذات الخال .. والله انك لجميلة الصوت جمالا مفـرطا ، كأنما اتفق صوتك ووجهك على أن يتقاسما مافى الدنيا من متاع الاسماع والابصار ، ومثلك ـ أكرمك الله ـ لا يصلح لتثقيفه فى الغنـاء الا كبير المغنين فى بغداد ورأس صناعتهم ، ابراهيم الموصـلى ! .. وان غلا ثمن الدروس عنده ! ..

### ● اليوم الثانى :

جاءنى سيدى « قرين » النخاس بكبير المطـربين والملحنـين ابراهيم الموصلى ، وأفرد لى حجرة خاصة ، فسيحة مريحة ، واشترى لى عودا .. وأسرف فى برى واكرامى ، كأننى أعز أولاده وبناته :

تأملنى الموصلى وقال لى والاعجاب بجمالى يطفر من عينيه :

ـ ما اسمك يا صبيحة الوجه ؟! ..

ـ ذات الخال ! ..

ـ أهذا اسمك أم لقبك ؟! ..

ـ اسمى « خنث » .. ولكنى لا أسمعهم هنا ينادوننى الا بذات الخال ، لما ترى من موضع الخال على خدى هذا ..

وأشرت الى خدى ، والخال الاسود الجميل الذى يتخذ فيه موضعا بديعا يلفت العيون والقلوب ..

اهتز الموصلى طربا لجوابى هذا ، وافتتن بظرفى وحلاوة اشـارتى .. وقال لى :

ـ والله لاعلمنك حتى تحذقى بالصناعة فلا يفوتك منها شىء ، ولا تفوقك فيها مغنية فى بغداد كلها ..

ثم بدأ الموصـل درسه الاول .. وتعلمت فى هذا الدرس الاول كيف أمسك بالعود وأضرب عليه ضرب المبتدئين ! ..

فلما أتم الموصلى الدرس ، تنفس كأنه يزفر من الوجد ، وسـلم وحيا وانصرف ، وهو لا يريد أن يصرف عنى عينيه ! ..

ثم توالت الدروس فى أيام كثيرة حتى برعت فى الغناء وضرب العـود ، وأخذت عن الموصلى ألحانا كثيرة من غناء الفحول القدماء ومن غنائه هو ..

وتوثقت علاقتنا حتى صارت حبا .. وما كنت أظن أن مثله فى شهرته وثروته وجاهه يتعلق بمثلى ، ولا ظننت انى أتعلق بمثله ! ..

### ● اليوم الثالث :

جاء الموصلى يطارحنى الالحان ، فقال لى :

ـ أتعلمين من يريد شراءك الآن يا خنث ؟!

ـ لا أعلم ! ..

ـ هارون الرشيد ! ..

هزني الخبر ، سألته بلهفة وقد تعاظمني الخبر حتى ظننت أن الموصلي يمزح :

ـ ومن أدراه بي وبمكاني يا سيدى ؟! ..

ـ أنا ! ..

صمت ابراهيم الموصلي ، ونظرت اليه باهتة ، فقال لى متلطفا باسما :

ـ لا تعجبي ، فما يصلح لك أن تعيشى الا فى قصره ، وما يعرف قدر غنائك وصنعتك أحد كالرشيد ..

وجاء من القصر قهرمان اشترانى من قرين النخاس ، فاشتط فى الثمن حتى باعنى بسبعين ألف درهم ، وقد كان يقول لى من قبل انه اشترانى بخمسين درهما وأنا طفلة صغيرة ! ..

ووجدت فى القصر جاريتين اصطفيتهما من دون سائر الجوارى هما : ضياء .. وسحر .. « بكسر السين » ..

كانتا من أحب الجوارى الى الرشيد ، فصرت معهما ، وحظيت مثلهما .. ثم تفوقت عليهما بتقدمي فى صناعة الغناء ! ..

ويزعم بعض الناس ان الرشيد قال شعرا فينا نحن الجوارى الثلاث ، ويدعون أن هذا الشعر بيتان هما :

ان سحرا وضياء وخنث
هن سحر وضياء وخنث
اخذت سحر ولا ذنب لها
ثلثى قلبى ، وترباها الثلث

لم يقل الرشيد هذا الشعر ، ولكن لفقه عليه بعض الوضاعين الذين كثروا فى بغداد وكثر وضعهم للشعر ونحله للشعراء ولغير الشعراء .. وأشد من هذا امعانا فى التلفيق قولهم ان الرشيد قال فينا هذه الابيات:

ملك الثلاث الآنسات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
واطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك الا ان سلطان الهوى
وبه عززن أعز من سلطانى

وانما قال هذا الشعر العباس بن الاحنف ، كأنه يتفكه ، فلم يجىء الا بما يسمج عند سامعه ممن يعرف الرشيد وحفاظه وهيبته ! ..

## ● اليوم الرابع :

سهر الرشيد ، فدعانى فوافيته فى مجلسه فلم أجد معه الا الموصلى ، فقال لى الرشيد :

ـ يا خنث غنى صوت « الروم » ..

فغنيت هذا اللحن وكان يسميه « صوت الروم » لانه يصف الجوارى الروميات :

جئن من الروم وقاليقلا
يرفلن فى المرط ولين الملا
مقرطقات بصنوف الحلى
يا حبذا البيض وتلك الحلى

فاستحسن غنائى ، ثم أمر الموصلى ، فغنى :

جزى الله خيرا من كلفت بحبه
وليس به الا المموه من حبى
وقالوا لها : هذا محبك معرضا
فقالت : أرى اعراضه أيسر الخطب
فما هو الا نظرة بتبسم
فتنشب رجلاه ويسقط للجنب

فرغ الموصلى من غنائه ، فصرفه الرشيد ولم يأمر له بجائزة .. وصمت برهة ثم قال لى :

ـ يا خنث .. أسألك عن شىء ، فاصدقينى ! .. هل كان بينك وبين ابراهيم الموصلى شىء حين كان يطارحك الالحان فى دار النخاس « قرين » ؟!

دهمنى سؤاله وحيرنى ، فتلكأت فى الجواب ، ولكننى لم أستطع أن أكذب لكيلا يسأل ويتحرى ويعرف الحقيقة ويعاقبنى .. قلت :

ـ نعم ! .. مرة واحدة .. ولم يكن شيئا ذا بال ! ..

وجم الرشيد ، وقال :

ـ فلهذا نظم الموصلى فيك وغنى هذه الاشعار الكثيرة التى يرويها الرواة ويغنيها المغنون ! ..

ورأيت الكراهة فى وجهه ، وأرسل من فوره الى « حموية » الوصيف فى القصر ، فقال له :

ـ يا حمويه .. قد وهبت لك هذه الجارية فخذها ..

## ● اليوم الخامس :

جاءنى حمويه اليوم يقول لى :

ـ سأحدثك بما يسرك ويشرح صدرك ! ..

ـ خيرا .. ان شاء الله ..

ـ طلبني أمير المؤمنين منذ ساعة فقال لى : ويلك ياحموية ، أوهبنـا لك الجارية لتسمع غناءها وحدك ؟! .. فقلت له : يا أمير المؤمنـين : مر فيهـا بأمرك ! .. قال : نحن عندك غدا ! ..

قلت لحمويه :

ـ قد كنت في قصره لا أغنى له الا وأنا في الوشى والديباج والجـوهر والذهب .. فأى شيء أرتديه أو أتحلى به ، وأنا عندك ؟! ..

قال :

ـ لا تبتئسى ، فوالله لن تبرزى اليه الا فى أبهى الحلل ! ..

ثم مضى حمويه فاستأجر من بعض الجوهريين فى الكرخ ملابس فاخرة مما اعتاد أصحاب الجوارى استئجاره لهن فى الافراح والليالى والاعراس .. ثم مضى الى بعض من يعرفهم من الجوهريين البغداديين ممن يهابونه لمنزلته فى القصر ، فاستأجر لى منهم عقودا من اللؤلؤ والجوهر ثمنها اثنا عشر ألف دينار ! ..

فلما جاء الرشيد وأخرجنى اليه ، تعجب الرشيد لحسن منظرى ، وقال لحمويه :

ـ ويلك يا حمويه ! .. من أين لك هذا وما وليتك عمـلا تكسب فيه ما تشترى به هذا الجوهر الثمين وهذه الثياب التى أراها على جاريتك ؟! ..

فأخبره حمويه بما فعل من استئجار الجواهر والثياب حتى تبدو فى زى لائق فى حضور أمير المؤمنين ..

فجلس الرشيد ، فغنيته ما اقترح من الالحان حتى اكتفى ، وأمر لى بجائزة عظيمة ، وقضى لى حوائج كثيرة ، ثم بعث الى التجار أصحاب الجوهر فأحضرهم واشتراه منهم ، ووهبه لى ! ..

فلما هم بالانصراف قال لى فى عطف بالغ :

ـ أبقيت لك حاجة ؟!

قلت فى امتنان :

ـ لم تبق لى حاجة الا قضيتها لى يا أمير المؤمنين ، ولكنى أسألك أن تولى حمويه عملا فى بلاد العجم بضع سنين !

فولاه الرشيد الحرب والخراج في بعض المواقع هنـاك ، وأن حمويه لمن احسن وأبرع أرباب السيوف فى عسكر الرشيد ..

## ● اليوم السادس :

بينما نحن فى أسـعد الاوقات بقصرنا فى هذه الجهـة من بلاد فارس ،


لو أنها تدعو إلى بيعة
بايعتها ثم شققت العصا

سمعت وسمع حمويه صوت مغن يأتى من دار قريبة منا ، يغنى هذه الابيات من شعر ابراهيم الموصلى وصنعته :

**تقــول ذات الخــال**

**لى : يا خــلى البــال**

**فقلت : حاشـاك من ان**

**يكــون حـالك حـالى**

**اعرضــت عنى لمـا**

**اوقعتنى فى الحبــال**

**ان الخــلى هو الفـا**

**فل الذى لا يبـالى ! ..**

فلما فرغ المغنى من اللحن ، تفكر حمويه قليلا ثم قال لى وقـد اعتكـر مزاجه وتربد وجهه :

ـ لولا أن يقول الناس : قتل حمويه جاريته لريبة ، لقتلتك الساعة ، لما ورد على قلبى من هذا الشعر وهذا الغناء ! .. فمن صاحبهما ؟! ..

قلت :

ـ هذه من مداعبات ابراهيم الموصلى حين كان يطارحنى الالحـان ، وأنا أستحق بهذا الشعر التكرمة والاعزاز منك ! .. ألا تراه يعترف بأننى قد أعرضت عنه وأننى غافلة عنه غير مبالية به ؟! .. فما ذنبى ؟! ..

تهلل وجه حمويه ، وقال :

ـ نعم .. صدقت ! .. ليس لك ذنب ! .

# السجن طريق الشهرة

## ● اليوم الاول :

ما فكرت يوما أن أحترف الغناء ، ولا تصورت انى امسك بالعود واضرب على أوتاره واغنى للناس وأتلقى استحسانهم ثم أتلقى أجر الغناء قليلا كان أو كثيرا ..

غنيت تلذذا بالغناء ، اطرب نفسى واصحابى ولا اكسب شيئا .. وهربت في صباى من جميع الكتاتيب التى الحقنى بها أهلى ، أسعى وراء المغنين ، أسمع منهم ، وأتعلم وأتطرب ولا أتكسب .. ونسيت في غمرة طلبى للغناء أن أتعلم القراءة والكتابة ، فعشت حتى مطلع شبابى اميا أجهل كيف أكتب اسمى ..

واستبد بى حب هذا الطريق ، حتى صار يطرقنى في المنام طيف رائع الجمال ، لا أدرى أهو جنى أم انسى .. فيغنينى ألحانا لم أسمع مثلها حلاوة وبراعة فى الصنعة والاداء والنبرات وامتداد الانفاس ، مع ضرب بالاوتار كأنه يخرج من أصابع ساحر مبين ! ..

وكنت أسأله :

ــ لماذا أصحو من نومى فأجدنى غير قادر على أداء ما تسمعنيه من هذه الالحان ؟! ..

فيجيب دائما :

ــ ستجدها متفرقة فى الحانك طوال حياتك .

فأعود أسأل :

ــ وهل ستكون لى ألحان ؟!

فيضحك وينصرف ! ..

وقلت له يوما وقد تجارينا فى الكلام عن الغناء وكان قد غنانى لحنا كاد أن يذهب بعقلى :

ــ هب لى هذا اللحن حتى أحفظه واغنيه ، ثم لا تهب لى بعده شيئا ! .

فشملتنى منه نظرة حنان كأنى طفل وقال لى :

ــ يا بنى لو حفظته فغنيته الناس لاصيبوا بالجنون .. فما حظك من ذلك ؟! ..

ثم انصرف الطيف فى لمحة عين ! ..

## ● اليوم الثانى :

كنت جالسا وقد أغلقت باب بيتى ، ومجلسى ليس فيه غيرى ، وعودى فى يدى أترنم وأجس أوتاره ، وأنشط نفسى للغناء ، فلا تنشط !

واذا بشيخ ذى هيئة وجمال ، فى قدميه خفان قصيران وعلى بدنه قميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة قد لزقت برأسه كأنها منه ، وبيده عكازة من الفضة ، ورائحة المسك تفوح منه حتى ملأت البيت ، فأذهلتنى المفاجأة ، وهممت أن أسأله كيف دخل والباب موصد ، فسبقنى فسلم فأحسن السلام ، فرددت عليه ، ودعوته الى الجلوس ..

وحدثنى فوجدت عنده أدبا وظرفا .. فسألته : هل لك فى الطعام ؟! .. فقال : لا حاجة لى فيه ، فقلت : هل لك فى الشراب ؟! .. فقال : ذلك اليك ..

شربت فى قدح كبير ، وأعطيت ضيفى مثله ، فلما شربه ، قال لى :

هل لك أن تغنى شيئا من صنعتك أو من صنعة الاوائل ، فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت ما لا يحسن أحد من المطربين أن يغنى مثله ، فلم يزد الشيخ على أن قال : أحسنت ! ..

غاظنى استحسانه الفاتر لغنائى ، فهممت به ، ولكنه بادر يقول مبتسما : هل لك أن تزيدنا ؟! .. فنظرت اليه مستهينا بعقله ، وقلت فى نفسى : ظننت الشيخ ممن يعقلون هذه الصناعة ، وهو لا يكاد يعرف شيئا فيها ، واندفعت أغنى لحنا ، مجتهدا فيه لا مبالاة بهذا الشيخ المتطفل على بيتى ، وانما تفننا فى الصنعة وتطريبا لنفسى ! ..

لم أفرغ من اللحن حتى قال لى : أتأذن لى فى الغناء ، فهذه نوبتى ؟! .. فاستصغرت هذا الشيخ جدا ، واستضعفت عقله اذ يغنينى بعد الذى سمعه منى ، وخطر لى ما قد يجىء فى غنائه من سخف فضحكت حتى استغربت من الضحك ، فقال : ما يضحكك ؟! .. قلت : شىء خطر ببالى ، فامض لما عزمت عليه من الغناء .. أمتعنا الله بك ! ..

أمسك الشيخ بالعود فجسه وربط أوتاره ، وضرب .. فوالله لكأنه ينطق بلسان عربى مبين ، ثم انطلق يغنى ، فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله انى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى .. ثم غنى صوتا ثانيا فكاد عقلى أن يذهب طربا وارتياحا لما سمعت .

وفرغ الشيخ من غنائه ، فنظر لى مليا ثم قال : هذا غناء وهبته لك فغنه للناس ، فقلت متلهفا : أعده يا سيدى حتى أحفظه ! .. فقال : لست تحتاج الى اعادته منى فانك حفظته وأحكمت حفظه ! .

فالتفت ورائي أطلب شيئا ، وما كانت لفتتي هذه الا كلمحة البرق ، وأقبلت بوجهي على الشيخ فاذا به قد اختفى من المجلس في هذه اللمحة ، فارتعت وقمت أعدو وأصيح نحو الباب فوجدته مغلقا كما تركته قبل ظهور الشيخ في البيت ، ففتحت الباب وعدوت الى البواب أسأله ، فقال لي : أي شيخ تسأل عنه ؟! .. ما دخل اليك اليوم أحد ! ..

**● اليوم الثالث :**

قعدت أتأمل أمري ، فاذا صوت يقول ولا أرى صاحبه : لا بأس عليك يا صديقي ! .. أنا الطيف الذي تسمع غناءه في نومك ! .. وأنت الان أحسن المغنين ، فلا تحجم عن احتراف الغناء ، فان هذا العصر هو عصرك ، وأنت رأس هذا الفن منذ اليوم ..

واختبرت نفسي فوجدتني أحفظ ما غنانيه هذا الشيخ ، وأنا الى ذلك أحسن الناس صنعة في الغناء وأغزرهم غلما به .. وصرت أغني لبعض كبراء الهاشميين من رجال الدولة ، حتى سمع عني أمير المؤمنين المهدى ، فطلبني ولازمته أغني في مجلسه ، وما سمع قبلي أحدا من المغنين الا اثنين لا أكثر .. فقد مضى عهد أبيه الخليفة المنصور من قبله ولم يكن يسمع الغناء، وكذلك كان الخليفة عبد الله السفاح من قبله .. فانقضت خمس وعشرون سنة لا يدخل المغنون قصر الخليفة العباسي ، اذ كانت خلافتهم في أول أمرها ، وهم انما ثاروا على بني أمية لما كان من تعاطيهم الشراب ، وادمانهم سماع الغناء والملاهي وتضييعهم أموال المسلمين في اللهو والسماع .

فلما جاء ثالث الخلفاء العباسيين المهدى ، سمع الغناء وأجاز عليه .. ولكنه كان لا يشرب النبيذ ولا غيره من الاشربة ، فلما صرت في بطانته أرادني على ترك الشرب فأبيت عليه ، وكنت أتغيب عنه الايام ، فان جئته جئته منتشيا ، فضربني وحبسني مدة وتعلمت القراءة والكتابة في الحبس ، وكنت قبل أن أتعلم فصيحا ألهج بالشعر كبني تميم لاني تربيت في بعض بيوتهم ، فاكتملت فصاحتي بالقراءة والكتابة ..

هكذا بدأت قصتي في الغناء .

وصرت في بطانة الخليفة المهدى فلم أجد فيها سعادة ولا راحة ، وكنت أظن أنني وقد وصلت الى الخليفة وصرت ثالث من يغني للخلفاء العباسيين وأولهم اتقانا للصنعة والاداء ، قد بلغت أعظم ما أرجو لنفسي في الحياة ! ..

ضيق المهدى على الخناق ومنعني أن أغني للناس ، حتى اجترأت يوما فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين ، انما تعلمت هذه الصناعة للذتي وعشرتي لاخواني ، ولو أمكنني تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل ! ..

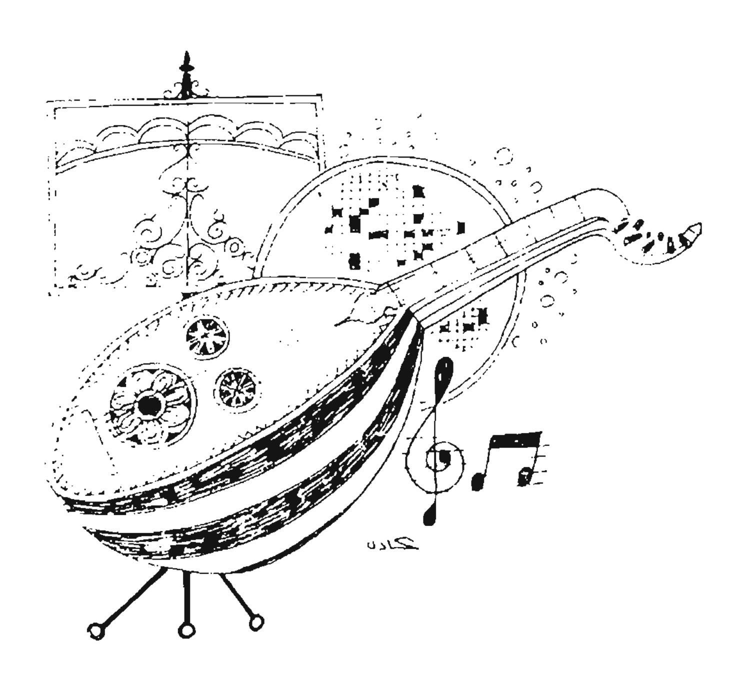
فغضب المهدى غضبا شديدا من جرأتي هذه وشدد على النكير ! ..

وكان وليا عهد المهدى ، موسى الهـادى ، وهارون الرشـيد شـابين صغيرين ، فكانا يحبان سماعى سرا ، حتى وشى بهما أحد الخـدم وقـال لابيهما انهما لا يكتفيان بسماع الغناء ، بل يضيفان الى سماعه شرب النبيذ ويستهتران بشربه مع الموصلى ٠٠

فجىء بى الى الخليفة فأمر بضربى ثلاثمائة وستين سوطا ، وقيدنى بأغلال ثقال حتى ظننت اننى سأموت من هذا العذاب ، فاجترأت وقلت للمهدى :

ـ يا أمير المؤمنين ٠٠ ان جرمى ليس من الاجـرام التى يحل لك بها سفك دمى ! ٠

فاستشاط الخليفة غضبا ، ووثب فضربنى بالسـيف وهو فى قرابه ، فشجنى به ، وسقطت مغشـيا على ٠٠ فلما أفقت أخرجـونى وأنا ارى الدنيا صفراء وحمراء وخضراء من حر ضرب السياط ، وألبسونى على جلدى الممزق جلد كبش ذبيح لتهدأ جراحى ! ٠٠



# لعبة الجارية

## ● اليوم الاول :

المال عندي ـ بحمد الله ـ كثير لا ينفد ، ولكني أخاف من نفاده اذا حبس عني أمير المؤمنين الرشيد عطاءه ولو شهرا واحدا أو بعض شهر وقد سافر ـ أعزه الله ـ لغزو الروم منذ مدة ، فاعتراني خوف من الفقر ، على كثرة ما عندي من المال ، فقلت في نفسي : أقصد الى جعفر بن يحيى البرمكي الوزير ، فانه محب لي ، وهو كريم لا يراني حتى يأمر لي بجائزة ..

كانني كنت ناسيا من شدة خوفي على المال الذي في خزانتي ، وشدة رغبتي في المال الذي في خزانة جعفر بن يحيى ، فما خطوت خارج داري حتى تذكرت ان جعفرا يصحب الرشيد في غزاته هذه التي لا أدري متى يفرغ منها ، فانه عبأ الجيش ومضى ليؤدب « كلب الروم » ـ كما يسميه ـ مع انه « ملك الروم » العظيم « نقفور » الذي يقال انه أقوى الملوك ! .

قلت في نفسي : أذهب اذن الى الفضل بن يحيى البرمكي فانه لا يقل كرما عن أخيه جعفر ! .. ركبت دابتي ومضيت اليه تتنازعني الآمال ! .

قلت له ، وقد غنيته صوتا شرب عليه وطرب

ـ يا أبا العباس ، جعلت فداك ، هب لي دراهم أو دنانير ، فان الخليفة في الغزو ، ولا أعلم متى يعود ! ..

قال الفضل

ـ ويحك يا أبا اسحاق .. ما عندي من المال ما أرضاه لك ، ولئن أعطيتك قليلا ، ليقولن الناس : الفضل بن يحيى أعطى ابراهيم الموصلي عطاء البخلاء ! ..

جزعت وقلت للفضل :

ـ فما العمل أيها الامير ؟!

تفكر شيئا فقال

ـ ها هنا فرصة طيبة ! .. أتانا رسول من صنعاء ، يحمل الينا ولاء حاكم اليمن ويرفع الينا حوائجه .. ووجه الينا صاحب اليمن بخمسين الف دينار يشتري بها محبتنا ، وهو يعلم اننا لا نأخذ منه هذا المال ،

فالتمس منا أن يشترى لنا به ما نشاء من أسواق بغـداد ! ·· وقد علمت انك تعرض جاريتك « ضياء » للبيع ، فأنا اقول لرسول صاحب اليمن : أذهب الى ابراهيم الموصلى فاشتر منه جاريته ضياء ، وجئنا بها فاننا نقبلها هدية من سيدك صاحب اليمن ! ··

ثم قال لى الفضل :

ـ يا ابراهيم ·· اذا جاءك هذا الرجل يشترى جاريتك فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار !

## ● اليوم الثاني :

بكر على دارى رسول صاحب اليمن ومعه صـــديق لى يتشفع به عندى ، فقال لى الرسول :

ـ يا أبا اسحاق ·· جاريتك ضياء ، هل تبيعها ؟! ··

قلت :

ـ لا والله ، فقد تعبت فى تعليمها حتى صارت فى الغنـاء حاذقة راوية محسنة كل الاحسان ، وقد طلبها منى الامراء والوزراء فأبيت أن أخرجهـا من دارى ! ··

فوثب صديقى الذى جاء معه فقال :

ـ يا أبا اسحاق ·· قد تشفع الرجل بى عندك فشفعنى !

فلم أجبه بشيء ، واغمضت عينى كأنى افكر واقلب وجوه الرأى ، فقال لى صديقى :

ناشدتك الله أن تقبل وتشفعنى ، فقلت له :

ـ قد شفعتك ! ··

فوثب رسول صاحب اليمن فسألنى :

ـ فبكم تبيعنى الجارية ؟!

قلت :

ـ بخمسين الف دينار ، لا أنقص منها دينارا واحدا ··

قال الرجل :

ـ هل لك فى ثلاثين الف دينار مسلمة لك معجلة ؟! ··

فلما وقع فى سمعى ذكر ثلاثين الف دينار ، ارتج على ، ولحقنى خوف وشبه ارتعاد ، كأننى أصبت بالحمى ، وقلت فى نفسى وأنا أعالج اضطرابى ورعدتي : قد كان شرائى هذه الجارية على أربعمـــائة دينـار فقط ، فالربح فيها بأكثر من تسعة وعشرين الف دينار ! ··

وأشار على صديقى الذى معه بالبيع ، وركبتنى الوســـاوس فخفت أن

تموت الجارية فى تلك الساعة قبل أن أبيعها ، أو أموت أنا ، أو يموت الفضل بن يحيى ، أو يموت رسول صاحب اليمن هذا : فيضيع المال !

فقلت للرجل :

هات المال ـ وخذها بارك الله لك فيها ! ..

## ● اليوم الثالث :

بكرت على الفضل بن يحيى فى قصره ، فاذا هو جالس وحده ، فلما بصر بى ضحك كثيرا ، ثم قال لى :

ـ يا ضيق الحوصلة ! .. يامتسرع ! .. يا شديد الحرص ! .. حرمت نفسك عشرين الف دينار ؟! ..

قلت :

ـ جعلت فداك ! .. دع ذا عنك ، فوالله لقد داخلنى شيء أعجز عن وصفه لك ، وخفت أن تحدث بى حادثة ، أو بالجارية أو بالمشترى .. أو .. بك ! .. أعاذك الله من كل سوء ، فبادرت بقبول الثلاثين ألف دينار ! ..

فلم يغضب الفضل وقال لاحد غلمانه :

ـ جيء بالجارية ضياء ! .

فجاء الغلام بجاريتي وكان رسول صاحب اليمن قد أهداها اليه بعقب شرائها وخروجه واياها من دارى ..

وقال لى الفضل :

ـ خذ جاريتك مباركا لك فيها ، فانما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية !

فلما نهضت وأخذت الجارية ، ضحك الفضل وقال لى :

ـ مكانك يا ابراهيم ، فان رسول صاحب ولاية أرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ، وجددنا خدمته ، ونفذنا كتبه .. وقد ذكر انه جاءنا بثلاثين ألف دينار يشترى لنا بها ما نحب .. وسأرسله اليك فاعرض عليه جاريتك هذه ولا تنقصها عن ثلاثين ألف دينار ! ..

## ● اليوم الرابع :

طرق بابى رسول صاحب امارة أرمينية ، فقلت للغلمان : لا تجيبوه ولا تفتحوا الباب له حتى يتعب ! ..

فلما تعب الرجل من وقوفه على بابى ، أمرت الغلمان فادخلوه ، وكان معه صديق آخر لى يتشفع به عندى كما فعل رسول صاحب اليمن من قبل ! ..

فقاولني الرجل بالجارية ، فقلت له متأففا :

ـ ثمنها ثلاثون ألف دينار ، لا أنقصها دينارا ! ..

قال :

ـ معي عشرون ألف دينار تأخذها معجلة مسلمة لك في مجلسنا هذا !

فلم أكد أسمع كلام الرجل حتى اعتراني من الخوف مثل الذى اعتراني عند لقائي برسول صاحب اليمن ، وجهـدت أن أتماسك وأصر على الثمن الذى أمرني به الوزير الفضل بن يحيى ، فما استطعت شيئا ، وأخذت المال من الرجل .. عشرين ألف دينار فقط ، وسلمته الجارية ، ومضى بها الرجل ليهديها الى الفضل ! ..

مكثت في بيتي أياما لا أجرؤ على زيارة الفضل ، حتى أرسل يدعوني ، فلما رآني ضحك حتى ضرب الارض برجله وقال :

ـ ويحك يا ابراهيم ! .. حرمت نفسك عشرة آلاف دينار ؟!

قلت :

ـ أصلحك الله ! .. خفت والله ما خفت في المرة الاولى !

فعاد الفضل يضحك ثم قال :

ـ لا ضير ! .. يا غلام .. اخرج جارية ابى اسحاق اليه ..

فأخذت الجارية ، وعدت الى داري فقلت لها :

ـ أنت حرة لوجه الله تعالى ! .. كسبت لى في أقصر مدة خمسين الف دينار ! ..

ولما صارت الجارية حرة ، تزوجتها على صداق قدره عشرة آلاف درهم!

## ● اليوم الخامس :

جاءني بعض خدم الخلافة يقولون :

ـ أجب أمير المؤمنين ! ..

قلت مبتهجا :

ـ أو قد عاد أمير المؤمنين من غزاته ؟!

قالوا :

ـ انه يدعوك أن تسافر اليه في الشام ، فانه عاد من الغزو ، وهو الآن يريح الجيش هناك ! ..

فلما بلغت معسكر الرشيد في الشـام ، دخلت اليه في مجلس لم أر

احسن منه ، مفروش بأنواع الرخام ، فهنأته بالنصر على « كلب الروم » وهو لا يقبل من أحد أن يسمى ملك الروم الا بهذا الاسم ! ..

دعاني الرشيد الى طعامه ، ثم توليت منادمته الى العصر ، وغنيت له حتى طرب وانتشى ، وخلع على خلعة من فاخر ثيابه ، وأمر لى بجائزة كبيرة ! .

ثم قال لى

ـ يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى فى بغداد ؟!

فقصصت عليه قصة جاريتى ضياء ، وما صنعته ، وما صنع الفضل ابن يحيى ، ورسولا صاحب اليمن وصاحب أرمينية ، فضحك الرشيد ، حتى ظننته لا ينقطع عن الضحك ! ..

ودخل جعفر البرمكى ، فوجده مستغرقا فى الضحك ، فالتزم الصمت حتى فاء الرشيد الى نفسه ، فأمرنى أن أقص عليه قصتى مع شقيقه الفضل ! ..

وعاد الرشيد يضحك ، يشاركه فى ضحكه جعفر ! ..

ثم قال الرشيد

ـ يا جعفر .. قد أخذ ابراهيم من الفضل خمسين الف دينار فى أقصر وقت ، فكم تعطيه أنت على هذه القصة ؟! ..

# إقطاعية ذى الرُّمّــة

## ● اليوم الاول :

سمعت الوزير جعفر بن يحيى البرمكي يقول أن أمير المؤمنين الرشيد يحفظ ديوان الشاعر ذى الرمة كاملا ، حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ويحب أن يسمع الغناء فيه ! ..

فلما كانت السهرة فى قصر الرشيد ، غنيته لحنا فى شعر لذى الرمة فأطربه .

وأمر لى بجائزة عظيمة ، فقمت بين يديه فقلت له :

ــ يا أمير المؤمنين : لى حاجة بعد هذه الجائزة التى أكرمتنى بها ، وهى حاجة تقوم عندى مقام كل فائدة ! .

قال :

ــ أى شىء حاجتك هذه ؟! ..

قلت :

ــ تقطعنى شعر ذى الرمة ، أغنى فيه ما أختاره ، وتحظر على المغنين جميعا أن يداخلونى فيه ، فانى أحب شعره واستحسنه ، ولا أحب أن ينغصه على أحد منهم ! ..

تبينت السرور فى وجه الرشيد لما قلته ، وأجابنى الى ما سألته ، وقال :

ــ ما سألت شططا يا ابراهيم ! .. قد أقطعتك شعر ذى الرمة كله خالصا لك وحدك لا ينازعك فيه أحد من المغنين ! .

فرأيت المغنين من حولى يضحكون ويستصغرون عقلى ، ويقولون هازئين :

ــ لقد استضخمت القطيعة يا ابراهيم .

فلم ألتفت اليهم ، وقلت للرشيد :

ــ أتأذن لى فى التوثق يا أمير المؤمنين ؟!

قال الرشيد وقد بان التعجب فى ملامحه :

ــ توثق كيف شئت ، فما سألتنا الا قطيعة سهلة لا قيمة لها ولا منفعة

فيها لاحد ! ..

قلت :

ـ بالله وبحق رسوله وبتربة أمير المؤمنين المهدى ، الا جعلتنى على ثقة من ذلك ، بأنك تحلف لى انك لا تعطى أحدا من المغنين جائزة على شيء يغنيه فى شعر ذى الرمة ، فان ذلك وثيقتى التى تثلج صدرى !..

فضحك الرشيد ، وحلف لى مجتهدا لئن غناه أحد من المغنين فى شعر ذى الرمة ، لا أنابه بشيء ، ولا سمع غناءه ! ..

شكرت أمير المؤمنين ، وانصرفت بعد ذلك مع زملائى المغنين ! .

فلما كنا فى بعض الطريق قال لى اسماعيل بن جامع ، ذو الصوت الذهبى والصنعة الجميلة فى الغناء :

ـ يا أبا اسحاق ! .. والله لقد هزئت بك كما هزىء بك سائر المغنين فى مجلس الرشيد ، عند طلبك شعر ذى الرمة خالصا لك دون جميع أهل صناعتك ، ثم تنبهت الى خبثك وبراعة تدبيرك حين رأيتك تستحلف أمير المؤمنين الا يسمع غيرك أحدا يغنى فى شعر ذى الرمة ، ولا يجيزه بشيء ، فقد دلنى ذلك على انك علمت ان الرشيد يحب هذا الشعر ، ويحب أن يسمع الغناء فيه ، فأردت أن تستأثر بجوائزه كلها ..

قلت :

ـ هو والله كذلك ! ..

قال :

ـ ما رأيت أشد حمقا من هؤلاء المغنين فقد علموا من قديم دهاءك ودقة تدبيرك ، وفاتهم أن يتبينوا ما وراء تدبيرك فى شعر ذى الرمة عند أمير المؤمنين ! ..

## ● اليوم الثانى :

لم أستطع أن أنظم شعرا أغنى فيه لحنا جديدا للرشيد ، وخانتنى قريحتى فلم تسعفنى ببيت واحد من الشعر ، على غزارة ما تفيض به حين لا أكون محتاجا الى فيضها ! ..

دخلت الى بعض حجرات دارى مغموما ، فاسبلت الستور ، وغلبتنى عينى فنمت فتمثل لى فى النوم شيخ عجيب الخلقة ، فقال لى : يا موصلى مالى أراك مغموما ؟! .. قلت : لانى لا أجد شعرا أغنى فيه الرشيد الليلة؟! .. قال : وأين ذهب عنك قول ذى الرمة :

الا يا اسلمى يا دار مى على البلى
ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وان لم تكونى غير شام بقفــرة
تجر بها الاذيال صـــيفية كـدر
اقامت بها حتى ذوى العود فى الثرى
وســاق الثريا فى ملاءته الفجــر

ثم غنانى الشيخ لحنا جميلا فى هذا الشعر وكرره حتى حفظته وأحكمته وانتبهت من النوم وأنا أتغنى به كأننى أنا الذى صنعته ، فناديت جارية لى فأحضرت لى عودا ، وما زلت أترنم بالصوت حتى استوى لى على أحسن وجه .. وطارحته الجارية حتى حفظته وأتقنته ! ..

فلما جلست فى السهرة بين يدى الرشيد ، غنيته هذا اللحن ، فطـرب واستعادنيه فأعدته مرات .. وأسكت المغنين جميعا ، وما زال ليلته كلهـا يستعيدنى هذا اللحن .. ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم ! ..

● اليوم الثالث :

جلست الليلة بين يدى الرشيد ، وعن يمينى « زلزل » أعظم ضـــاربى العود .. والى يسارى « برصوما » أبرع زامر ، وغنيت :

صحا قلبى وعــاد الى عقـــل
واقصر باطل ونســـيت جهـل
رايت الغانيات وكن صـــورا
الى هجـــرننى وقطعن حبـــل

وضرب زلزل على غنائى أحسن ضرب بالعود سمعته قط ، وزمر برصوما فى الناى أحسن زمر يقدر عليه الانسان ، حتى ظننت ان الجـــدران من حولنا تتحرك طربا لما تسمع من هذا الغناء والضرب والزمر ، واشتد طرب الرشيد حتى وثب على رجليه وصاح : ياآدم .. لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسررت بهم ! .

ثم فاء الرشيد الى نفسه فجلس وقال : أستغفر الله ! ..

والرشيد على شغفه بالغناء ، كثير الذكر لله عز وجل ، وما رأيته أسرف فى الطرب مرة ، الا شفع ذلك بالاستغفار ! ..

وهذا الشعر الذى غنيت فيه ، من نظم أبى العتــاهية ، وكـان حاضرا مجلسنا فرأيته يبكى حتى أخضلت لحيته ، ولكنه كف عن الطرب والبكاء عندما أمر الرشيد لى ولزلزل وبرصوما بجوائز ضخمة ، ولم يامر له بشىء، وهمس لى :

— عجبت لامير المؤمنين .. أليس ما غنيته فيه من كلامى ؟! ..

فكيف يامر لك بجائزة وينسانى ..

قلت له

ـ انه لا يعرف انك صاحب هذا الشعر يا أبا العتاهية ! •

قال لى :

ـ فاذكر له اذن انى صاحبه ! ••

فلما ذكرت ذلك للرشيد ، ابتسم •

وقال لابى العتاهية كأنه يعاتبه :

ـ انما طربت للغناء والضرب والزمر • لا لشعرك ! ••

فأوشك أبو العتاهية أن يقع مغشيا عليه من الغم والكمد ، حتى أسعفه الرشيد قائلا :

ـ ولك أنت أيضا يا أبا العتاهية جائزة ! ••

## ● اليوم الرابع :

قال لى الرشيد الليلة قبل أن يجتمع عنده المغنون فى السهرة :

ـ أتلعب بالنرد ؟!

قلت :

ـ نعم يا أمير المؤمنين ، ولكنى اذا قمرت من الاعبه أخذت حقى منه ، واذا قمرنى أخذ منى حقه ! ••

قال :

ـ ويحك ! •• أتلعب القمار ؟! ••

قلت :

ـ فهذا والله هو الشرط ! ••

فلعبنا ، على الثياب التى كانت على بدنى ، والثياب التى كانت على بدن الخليفة • فلما رأيت الرشيد أقل معرفة منى بالنرد ، تقامرت له ، فقمرنى وقلت له :

ـ لقد غلبتنى يا أمير المؤمنين ، وحكم النـرد الوفاء بشرطه ، فأنا الآن أخلع ثيابى فتلبسها فقال لى :

ـ ويلك ! •• أنا ألبس ثيابك كأننى بعض المغنين ؟! ••

قلت :

ـ أى والله ، اذا أنصفتنى يا أمير المؤمنين ! •• واذا لم تنصفنى أمكنك ذلك ! ••

قال :

ـ ويلك ! .. الا تقبل منى فدية ؟! ..

قلت :

ـ بلى .. وما الفداء ؟!

قال :

ـ أعطيك كل ما على جسدى من ثياب !

قلت :

يأمر لى أمير المؤمنين بذلك ، وأنا استخير الله ! ..

فضحك الرشيد ، ودعا بغير ما عليه من الثياب فلبسه ونزع ما كان عليه فأخذته فاذا شيء عظيم القيمة جدا ! ..

ثم قال لى الرشيد فجأة :

ـ يا ابراهيم .. ما رأيت أحذق منك فى كل شيء .. أتظن انى غفلت عن براعتك فى النرد ، وانك تقامرت لى فغلبتك وأنا قليل الاهتمام بالنرد وليس لى به شغل يجعلنى أغلب فيه أصحابه والمشتغلين به من أمثالك ؟! .

فقلت بسرعة أحاول تبرئة نفسى :

ـ والله يا أمير المؤمنين ، ما فاتنى انك لا تهتم بالنرد ولا تشتغل به ، ولكنك فى هذه المرة غلبتنى وقمرتنى بحق ،فان هيبتك منعتنى من استحضار الذهن ، فصرت كأننى لم أر النرد فى حياتى ! ..

قال ضاحكا :

ـ ما يغلبك أحد يا ابراهيم .. فما فعل شعر ذى الرمة عندك ، وكم كسبت منه حتى يومنا هذا ؟!

فورد على قلبى من سؤاله هذا الذى فاجأنى به ، ما أوشك أن يسكت قلبى عن الخفقان ، وعلمت انه لم يفته معنى استحلافى اياه الا يسمع مغنيا غيرى فى شعر ذى الرمة وان الرشيد لبالغ الذكاء ، ولكنه يدارى ذكاءه أحيانا ، ليبلغ ما يريد بلوغه من أمر .. وقد ظننت انه لم يكن متنبها الى معنى استئثارى فى مجالسه بالغناء فى شعر ذى الرمة ! ..

استحثنى الرشيد :

ـ أجب يا ابراهيم .. كم بلغ ما أخذت على غنائك فى شعر ذى الرمة ؟!

قلت :

ـ ألف ألف درهم .. يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك !

فضحك وقال :

ـ لقد أقطعناك ما أحببت ! ..

ثم أمر الرشيد فدخل المغنون وبدأت السهرة ، وكنت قد أعددت لها لحنا جديدا فى شعر ذى الرمة ! ..

# غضبُ الرشيد وكرمه

## ● اليوم الاول :

مررت عصرا ببستان مزدهر أنيق ، مفتوح الباب ، واذا مغن يصدح فى البستان بصوت جميل وصنعة متقنة ، وحوله مستمعون قلائل تبدو عليهم نضرة النعيم ، وقد تملكهم الطرب فهم يتصـــايحون ويشربون ، وأراهم من كثب ولا يرونني لانشغالهم بأمرهم ، فحدثتني نفسى أن أدخل عليهم بغير اذن ، فقلت لنفسى أعظها وأحذرها مغبة التطفل : قد علمتنا مجالسة الخلفاء والكبراء ومنادمتهم ، أن نستأذن فى كل دخول أو خـــروج ، بل فى كل نطق أو سكوت ! ٠٠ فقالت لى نفسى : ولكن هؤلاء الجالســين مع مغنيهم فى هذا البستان ليسوا بخلفاء ولا كبراء ، وان بدت عليهم النعمة ، ووالله ما أنت فى هذا بخير من ابن ذى الجناحين الطيار فى الجنة ! ٠

قلت لنفسى :

ـ تعنين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ؟!

قالت :

ـ نعم ٠٠ هو بعينه ٠٠ عليه السلام وعلى آل بيت رسول الله ٠٠

قلت :

ـ ويحك يا نفسى ٠٠ وأين أنا منه ؟! ٠٠ وهذا نسبه الشريف يجمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى جده عبد المطلب ؟! ٠ وكيف أساميه فأكون أحمق من بشار بن برد حين زعم انه لو ملك من المال ما كان يملكه ابن جعفر ، لســاماه فى الجود ولم يترك فقيرا الا أعطــاه من دراهمــه ودنانيره ! ٠

ضحكت نفسى وقالت :

ـ دع هذا عنك ، فلا أكلفك أن تساميه فى الجـــود ولا فى الحســب والنسب ! ٠٠ ولكن أقول لك : اصنع كما صنع هذا الشريف حين ســمع مرة غناء عند قوم فدخل عليهم بغير اذن وقال لهم :

ـ انما ادخلنى عليكم مغنيكم لما سمعته يغنى :

قل لكـــرام ببابنـــا يلجـوا
مافى التصابى على الفتى حرج

قلت لنفسى : افعل اذن .. غير متشبه بابن عم رسول الله ، فأين أنا منه ، بل اين منه خليفتنا هارون الرشيد نفســـه ، وهو ملك المشرقين وسلطان الخافقين ، وهو ابن عم رسول الله أيضا ؟! .

دخلت البستان على استحياء ، فلما صرت أقرب ما أكون منهم ، وجدتنى لا أعرف أحدا منهم الا مغنيهم فانه تلميذى ومريدى هاشـم بن سليمان ، ووجم القوم لرؤيتى ولعلهم قالوا فى أنفسهم : من هذا الطفيلى الذى يقتحم علينا بلا اذن منا ؟! .. ولعلهم هموا بزجرى وطردى ، الا ان هاشما المغنى وثب من بينهم يجرى حتى لقينى ، فعانقنى وقبل يدى ، وســـلم تسـليم صديق مشتاق شديد المحبة لصديقه ! ..

جلست الى القوم ، فرحبوا وانطلقت أساريرهم بعد تجهم ، الا أنهم لم يعرفونى .. فقلت لهم :

ـ انى اجتزت بكم فسمعت غناء هاشم بن سليمان فاســتخفنى وأطربنى فدخلت اليكم ، واثقا بأنه لا يعاشر الا فتيانا ظرفاء مثله ، وها أنتم هـؤلاء تغمروننى بظرفكم وحلاوة شمائلكم ..

قال أحدهم :

ـ ان نفوسنا صارت متعلقة بك وبمعرفتك ، فمن أنت ، أمتع الله بك ؟!

فصاح هاشم المغنى :

ـ ويحكم ! .. اما تعرفون أبا اسحاق ابراهيم الموصلى ؟!

بهت القوم لحظة ثم وثبوا فغمروا رأسى بالقبـلات ، وقـالوا : انعمت علينا وسررتنا وبذلت لنا مودتك ، وأجلستنا منك مجلسا يتمناه الاشراف والكبراء ولا يظفرون به ! ..

● **اليوم الثانى :**

قلت اليوم لابنى اسحاق وقد رأيته منتفشا بما صار اليه من الحذق فى التلحين والغناء ومعرفة تراث الاقدمين فى هذه الصناعة

ـ أما سمعت اللحن الجديد الذى صنعته فى قول عمر بن ابى ربيعة :

**ليت هندا انجزتنـــا ما تعد**
**وشفت انفســـنا مما تجد**

فنظر الغلام الى نظرة منكرة وقال :

ـ لا والله يا أبت ما سمعته ! ..

قلت وانا أفكر فى نظرته النكراء هذه ، ما سببها ؟! ..

ـ اسمعه اذن .. ثم هات رأيك بصراحة !

غنيته الصوت مجتهدا فى أدائه كل الاجتهـــاد ، كأننى أغنى فى حضرة

خليفة أو ولى عهد أو وزير ، لعلمى بما بلغه ابنى هذا من العلم بالالحان ورواية غناء القدماء ، فضلا عن جودة صنعته ودقة غنائه وأدائه على صغر سنه ··

فلما فرغت من اللحن ، وضعت العود جانبا ، وتطلعت الى ابنى انتظر رأيه ، كأننى والله كنت فى امتحان هو فيه الاستاذ وأنا التلميذ ! ·

لكنه لم ينطق ، ونكس راسه متجهما مفكرا ، فصحت به أستحثه :

ـ الا تقول شيئا ؟! ·

فتململ كأنه يعالج هما ثقيلا يحاول زحزحته عن صدره ، ثم قال فى صوت خافت :

ـ يا أبت ·· ان الملحنين والمغنين من حولك يعدون عليك انفاسك ، ويعيبون محاسنك ، وأنت عنهم فى شغل ·· ولو سمعوا لحنك هذا لخاصموك فيه وعابوه وانتقصوا من قدرك وأنت رأس هذه الصناعة ، وهم ذيول وزعانف ! ··

قلت : ولم ذلك لله أبوك ؟! ··

قال : لان ابن سريج امام القدماء من أهل الصناعة قد عمل فى هذا الشعر لحنا رائعا وجئت أنت فعارضته بهذا اللحن الذى لا يقاربه · ولن يترك الناس لحن ابن سريج افتتانا بلحنك هذا ·· وستجد منهم من يقول: قد جرى الموصلى فى غبار ابن سريج فكبا دون مداه ، وظهر تقصيره ، وثبت لابن سريج فضله وتقدمه ! ·

قلت لابنى وقد أخذتنى العزة :

ـ انترك كل شعر صنع فيه ابن سريج لحنا فلا نصنع فيه لحنا جديدا ، لكيلا يقال اننا نعارضه بألحاننا فنقصر عنه ؟!

قال هادئا :

نعم ·· نترك ما تداوله ابن سريج والقدماء من الشعر فى غنائهم الذى يرويه الرواة ، ونأخذ فى غيره ، فان الشعر كثير ، ولخير لنا أن ننظم الشعر ونلحنه ، من أن نعمد الى شعر صنع منه القدماء الحانا فائقة ، فنصنع فيه ما يتركنا نحجل وراءهم كأنما أصابنا الكساح !

غضبت أشد الغضب من جراة هذا الولد ، فانه جعل ابن سريج قمة الغناء ، وجعلنى السفح أو دون السفح ، وجعله فرسا يجرى فى الرهان ، وجعلنى كسيحا أحجل وراءه ، فما أشعر الا ويدى تمتد الى الغلام فتلطمه على وجهه لطمة هائلة ، فنهض لا يتكلم ، وخرج ! ·· وبقيت فى مكانى خزيان اسفا ، لا أدرى ما أقول ولا ما أصنع ! ·

## ● اليوم الثالث :

اعتكفت العشية فى منزلى ، فجاءنى خادم من خدم الخليفة الرشيد

فاستحثنى بالركوب اليه ، فخرجت اليه شبيها بالراكض حتى دخلت عليه فاذا هو جالس على كرسى فى صحن واسع بالدار ، ليس عنده الا خادم يسقيه ، فلما رآنى هش لى وسر وقال : « يا موصلى ٠٠ انى اشتهيت أن أجلس اليوم ، وأحببت الا يكون معى ومعك أحد » ٠٠ ثم صاح بالخدم ، فوافاه مائة وصيف كانوا مستترين بالاعمدة ، فجاءنى بعضهم بمقعد فجلست عليه تجاه الرشيد ، وقال لى : « بحياتى أطربنى بما قدرت » !٠٠ ففعلت واجتهدت فى ذلك ورجوت الجائزة ، فبينما أنا كذلك ، جاء الخادم مسرور الكبير فأسر فى أذن الخليفة كلمة ثم تنحى ، فاستشاط الخليفة غضبا ، واحمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ثم صاح :

« حتام اصبر على آل بنى ابى طالب ؟! » ٠

ذعرت من صيحة الرشيد ، وكدت أموت خوفا من منظره غاضبا ، ووعيده لآل أبى طالب بالقتل الذريع ٠٠ وقلت فى نفسى : أنا لله ٠٠ ليس عند هذا الملك الجبار الساعة أحد يخرج غضبه عليه سواى ٠٠ وأحسبه سيوقع بى ويقتلنى ، فيذهب دمى هدرا ، فما أنا من آل ابى طالب فأكون شهيدا ، وانما أنا مغن جاء يغنيه ويسليه ! ٠

ثم حملنى الطمع فى النجاة من القتل على أن أندفع مغنيا هذه الابيات :

نعم عونا على الهموم ثلاث

مترعات من بعدهن ثلاث

بعدها اربع تتمة عشر

لابطاء لكنهن حثاث

فاذا ناولتكهن جوار

عطرات بيض الوجوه خناث

تم فيها لك السرور وما طيب

عيشا الا الخناث الاناث

صاح الرشيد فى وجهى وقد هاجه الغناء :

ـ ويلك ! ٠٠ اسقنى ثلاثا لا أمت هما ! ٠٠

فشرب ثلاثا متتابعات ، وقال : « غن هذه الابيات مرة أخرى ٠٠ ويلك »

فلما غنيتها ثانية ، هدأ قليلا وقال : « هات ثلاثا أخرى ٠٠ وأعد غناء الابيات » فأعدتها ، فقال : « حث على بأربع تتمة العشر كما يقول الشعر »

وأتم الرشيد العشر فانتشى وانبسطت أساريره ، وعادت اليه أريحيته ، وانقشع غضبه ، ونسى المؤتمرين به من آل أبى طالب ـ أبناء عمومته ـ ثم نهض مثقلا بالنشوة خفيفا بها فى وقت معا ، وقال لى : « قم ياموصلى فانصرف الى بيتك » !

فقمت يملؤنى الغم لضياع الجائزة ، فلم أكد أخطو خطوة حتى نادى

الرشيد مسروزا الخادم فقال بلسان ينطق فى نشوة ، وبلهجة متوسلة لا يحتاج اليها خليفة فى اصدار أمره النافذ الى خادمه المطيع :

ـ يا مسرور ٠٠ أقسمت عليك بحياتى ، وبحقى ، الا سبقت الموصلى الى منزله بمائة ألف درهم ، لا استأمر فيها ولا فى شىء منها !

فلم أصدق ما سمعت من كلام الخليفة لخادمه ، ولكننى أمنت من خوف ، ومضيت الى منزلى متمهلا ٠٠ فما دخلت من الباب حتى وجدت مسرورا وأعوانه يخرجون منه وقد سبقونى الى منزلى بالمائة الالف درهم ٠



# تاجـر الجـوارى

● **اليوم الاول :**

كثير من زملائى فى صناعة الغناء يحسدوننى ويقولون : فاز والله ابراهيم الموصلى بنصيب الاسد من جوائز الخليفة هارون الرشيد .

ويعلم زملائى علم اليقين اننى واياهم مضطرون الى الاشتغال بأعمال تجارية ، وأعمال أخرى متنوعة ثقيلة على النفس ، نمارسها سرا وعلانية لنجمع نفقات حياتنا الباهظة التى لا تفى بها مكاسبنا من صناعة الغناء وحدها ، مهما كثر ما يحصل عليه المغنى من جوائز الخليفة وهدايا الامراء والكبراء ..

وقد غمرتنى عطايا الخلفاء والوزراء والنبلاء ، حتى بلغ ما أعطانيه الخليفة موسى الهادى ـ رحمه الله ـ مائتى ألف دينار من خالص الذهب فى يومين اثنين فقط ! .. كان ذلك كرما منه لم يحظ بمثله مغن آخر غيرى ، ولو عاش الهادى لبنيت حيطان منزلى بالذهب والفضة ، ولكنه لم يعش فى الخلافة الا عاما وبعض عام ، وجاء يعقبه أخوه هارون الرشيد ، وهو بالقياس الى الهادى يعد شبه بخيل وان كان من الاجواد بالقياس الى الاغنياء الاشحاء فى هذا الزمان ، ولا استثنى الا البرامكة الكرام ! ..

لو عاش الهادى لاكتفيت بصناعة الغناء وما يأتينى من جوائزه الهائلة ، أما الآن فان جوائز الرشيد لا تكفى مطالب الحياة المرهقة فى بغداد ، وسط البذخ الذى يتقلب فيه سادتنا الذين نغنى لهم !

فهل يلومنى أحد على احترافى التجارة فى الجوارى المغنيات .. أعلمهن أصول الغناء وأصقلهن حتى يصلحن لحياة القصور ثم ابيعهن للنبلاء من بنى هاشم ، والاثرياء من العرب والعجم المستعربين المتحكمين فى المناصب العليا للدولة ! ..

وأحمد الله اننى أبيع الجوارى بيعا شرعيا ، لا أقدمهن للهو والسهر فى ليالى بغداد ، ثم أقودهن فى مطلع الفجر عائدات الى بيتى ! ..

وأنا أجتلب الجوارى من أسواق الرقيق ، صغيرات جميلات الوجوه والاجساد ، واشترط فى لون بشرتهن البياض أو الشقرة أو السمرة المائلة الى البياض .. ولا أشترى الجوارى الصفر المجلوبات من الصين ، ولا القاتمات الالوان المأخوذات من الهند والسند ، ولا الزنجيات المستوردات

من افريقية ، فان هؤلاء الصفر والسود لا يصلحن الا للخدمة فى المطبخ ، او كنس المنازل ، أو رعاية الاطفال ..

وأنا أول من ذهب فى تقسيم الجوارى هذا المذهب ، فجعلت السود للخدمة ، والبيض للغناء والمنادمة ..

وكان الناس قبل ذلك يجلبون الجوارى البيض الحسان للمتعة أو « لتبييض النسل » على حد قول جفاة الاعراب الباحثين عن زوجات أو اماء من غير نساء البادية الجافيات ! ..

وأما الغناء فكان الناس يعلمونه لذوات الاصوات الجميلة من الجوارى الصفر والسود ، وحجتهم فى ذلك ان الرجل لا حاجة له فى الجارية السوداء أو الصفراء الا الغناء وحده ، وليس به حاجة عندها الى شىء سوى الغناء .

وقد استطعت أن أقلب هذه القاعدة فى نخاسة الجوارى واستخدامهن ، فصارت البيضاء والشقراء للغناء والمنادمة ، وانصرفت السوداء والصفراء الى الخدمة فى البيت والمطبخ ! .

ثم نشأت طائفة من الجوارى الصفر والسود حظين عند سادتهن وولدن لهم البنين والبنات ، حتى كثر الخلاسيون من نسلهن ، وكلما رأيت زميلنا فى الصناعة « الامير ابراهيم بن المهدى » وهو أخو الخليفة الرشيد ، تذكرت هذا الصنف من الجوارى ، فان ابراهيم بن المهدى اسود اللون ، لا يشك أحد فى لون من ولدته من الجوارى اللاتى كن فى ملك الخليفة المهدى رحمه الله ! .. وان زميلنا الامير ابراهيم بن المهدى ليشمخ علينا مع هذا ، ويفخر بأنه هاشمى النسب من أحفاد عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وان كان غارقا الى أذنيه مثلنا فى صناعة الغناء ! ..

وقد نفقت بضاعتى عند الخلفاء والامراء والوزراء والاثرياء ، وبعت الجوارى البيض المغنيات بأثمان عالية ، واقتدى بى المطربون والملحنون جميعا وامتلأت مقاصير بيوتهم بالجوارى الحسان البيض والشقر من بنات الروم والكرد والفرس والارمن وغيرهن ! ..

## ● اليوم الثانى :

ضحكت حين سمعت صديقا شاعرا لى يهجونى ، لانه اعتبرنى مسئولا عن غلاء اسعار الجوارى المغنيات .. كان هذا الشاعر قد أحب جارية فأراد شراءها من مولاها فأغلى عليه ثمنها حتى أعجزه عن شرائها ! .. هذه الجارية تعلمت الغناء على يدى وبعتها لمولاها هذا الذى يغالى بها السوم حتى يبلغ أقصى ربح يستطيعه ..

ولما يئس الشاعر من الحصول عليها قال معرضا بى

**لا جزى الله الموصلى أبا اسحاق**
**عنا خيرا ولا احسانا**

جاءنا مرسلا بوحي من الشـيطان
اغـــلى به علينــــــا القيـــانا
من غناء كأنه ســـــكرات الحب
يصـــــبى القلـــــوب والاذانا

وسمع هارون الرشيد عن جارية مغنية عندى ، فطلبها واشـــتراها منى بستة وثلاثين الف دينار ، فاقامت عنده ليلة واحدة ، ثم أرسل الى حاجبه الفضل بن الربيع يقول له : اننا اشترينا هذه الجارية من ابراهيم ونحن نحسب انها من « بابتنا » وتصلح لنا فيما يصح به مزاجنا ، وليست كما ظننتها ، وما قربتها ، وان كنت سمعت بعض غنائها . وقد ثقل علينـــا ثمنها ، فاذهب الى ابراهيم فقل له أن يحطنا من ثمنها ستة آلاف دينار .. فجاءنى ابن الربيع فى منزلى وأخبرنى بما قاله الرشيد ، فقلت له : أراد أن يبلو قدرك عندى ، فقال ابن الربيع : ذاك أراد ! .. فقلت : قد حططتـك اثنى عشر الف دينار !

فرجع الفضل بن الربيع الى الرشيد بالخبر فقال له الرشيد : ويلك ! .. أدفع الى هذا الرجل ماله ، فما رأيت سوقة قط أنبل منه نفسا ! ..

وكان ولدى اسحاق قد علم بما حططته من المـال ، فاستكثره وقال لى : ما كان لحطيطة هـــذا المال معنى ! .. فقلت له : أنت أحمـق ، فوالله لو أخذت ثمن الجارية ولم أحطط منه شيئا لما أعطانيه الرشيد الا وهو كاره، ثم يحقد على وأكون عنده صغير القدر ، ولكنى مننت عليه ـ وهو الخليفـة العظيم ـ ومننت على حاجبه أيضا ، فانبسطت نفسه وعظم قدرى عنده ، ثم دفع الى المال كله لا ينقص دينارا واحدا ، وانما اشتريت هذه الجارية من سوق الرقيق بأربعين ألف درهم تساوى ثلاثة الاف دينار أو أقل ، فربحت فيها هذا الربح العظيم ! .

ثم قلت لولدى :

ـ كيف رأيت يا اسحاق ؟! .. من البصير .. أنا أم أنت ؟! ..

قال :

ـ بل أنت .. جعلنى الله فداءك ! .. وقد تعلمت منك درسا يفيـدنى مدى عمرى ! ..

## ● اليوم الثالث :

يمتلىء منزلى الآن بالجوارى المغنيات اللاتى أودعهن أصحابهن عنـدى ، وهم جميعا من المطربين والملحنين اصدقائى الذين يسافرون الى الامصـــار للارتزاق ثم يعودون ..

هؤلاء الاصدقاء يسافرون الى أقصى البلدان آمنين على جواريهم فى بيتى، ولا يأمنون عليهن فى بيت احد سواى من أهل صـــــناعتنا .. حتى بلغ

ما اجتمع منهن عندى الآن ثمانين جارية مغنية ، كلهن ودائع لاصدقاء أعزاء يأكلن ويشربن ويكتسين من مالى ، وأرى أن ذلك واجب لابد لى من أدائه لاصدقائى الذين استودعونى جواريهم وهن رأس مالهم ، أو جزء كبير من رأس مالهم ! ..

وكل جارية حين ترد الى مولاها ، لابد لى من كسوتها واعطائها بعض المال ، حتى تعود اليه وهى فى أحسن حال ، فضلا عما تكتسبه من زيادة العلم بصناعة الغناء ..

وهذا ما جعل الرشيد يقول مرة فى مجلس الغناء أمام جميع الحاضرين : ما أعرف احدا أكثر أصدقاء من ابراهيم ! ..

وهو يصفنى بأننى اكثر السوقة نبلا ، وانما يقصد بالسوقة عامة الناس ممن ليسوا من أولاد الخلفاء ولا من بنى هاشم ولا من طبقة الحكام ! ..

## ● اليوم الرابع :

اصبحت السماء متغيمة ، تطش طشا خفيفا ، فنشطت للصبوح ، والغناء .. واذا بتلميذى « مخارق » صاحب الصوت الذهبى يدخل منزلى فيسلم ويجلس وهو يترنم ببعض النغمات ..

فقلت له :

ــ يا مخارق .. ان صناعة الغناء ما عادت تفى بمعيشتى ! .
فدهش مخارق وقال :

ــ وكيف ذلك يا أستاذ وأنت أقرب أهل الصناعة الى الخليفة وعظماء الدولة ، ولك من عطائهم نهر يجرى بلا انقطاع ! .. ولك من بيع الجوارى المغنيات نهر اخر يجرى بالزيادة لا بالنقصان ، وقد سمعتك مرة تقول ان ما دخل خزائنك من بيعهن بلغ عشرين ألف ألف درهم .. فمن الذى يملك هذا المال كله ويشتكى ضائقة العيش أيها الاستاذ ؟! ..

قلت له :

ــ اسمع ويحك ، أنت حدث غر لا تدرى من هذه الدنيا شيئا .. أقعد ويحك ! فقد أتانى خبر ضيعة تجاورنى فتمنيت أن أملكها ، ولكن ثمنها مائة الف درهم ! ..

قال مخارق ..

ــ وما تكون مائة ألف درهم ، وفى خزائنك اضعاف اضعافها والحمد لله ؟!

قلت :

ــ صدقت .. ولكن نفسى لا تطيب بدفع هذا المال ، فاجلس وخذ عنى هذا اللحن :

نام الخليون من هم ومن سقم
وبت من كثرة الاحزان لم انم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا
اعمد ليحيى حليف الجود والكرم

فلما أخذ مخارق هذا اللحن منى وأحكمه ، قلت له : امض الساعة الى باب يحيى بن خالد البرمكى الوزير ، فاستأذن عليه ، وحدثه بخبر الضيعة وأعلمه انى صنعت هذا اللحن ولم أر أحدا يستحقه الا « فلانة » جاريته ، فانه سيدعوها حتى تطرح عليها الصوت وتحفظه ..

ففعل مخارق ذلك ، فأمر له الوزير بعشرة الاف درهم ، وأمر الخدم بأن يحملوا الى دارى مائة ألف درهم ثمن الضيعة ! ..

● **اليوم الخامس :**

جاء مخارق وقال : ما أراك الا سارعت فاشتريت الضيعة ! .. قلت : لا والله .. فما كدت أرى المال محمولا على رءوس الخدم حتى شححت به فصار مثل أموالى التى حوتها خزائنى ! .. فاجلس حتى ألقى عليك صوتا يفوق ذلك الصوت :

ويفرح بالمولود من آل برمك
بغاة الندى والسيف والرمح ذو النصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

فسمع منى مخارق ما لم يسمع مثله قط من روائع الالحان ، فلما احكم حفظه أمرته أن يذهب الى الفضل بن يحيى البرمكى ويعلمه بخبر الضيعة وما وصلنى أمس من مال أبيه .. فلما سمع الفضل القصة قال ضاحكا : أخزى الله ابراهيم فما ابخله على نفسه مع كرمه على الناس ! .. ثم دعا جارية فأخذت منه اللحن ، وقال له : أحسن والله أستاذك الموصلى التلحين وأحسنت أنت الغناء ، ثم أمر لمخارق بعشرين ألف درهم ، وأمر لى بمائتى ألف درهم ، لم أكد أراها حتى شححت بها على الضيعة ، فلما جاءنى مخارق قال لى : والله ما أظن أحدا نال فى هذه الدولة ما نلته يا أبا اسحاق ، فلماذا تبخل على نفسك بشىء تمنيته دهرا وقد ملكك الله أضعاف ثمنه ؟!

ثم اننى ألقيت على مخارق لحنا ثالثا فذهب فغناه جعفر بن يحيى وقص عليه قصة الضيعة فأمر لمخارق بثلاثين ألف درهم ، وأمر لى بثلاثمائة ألف درهم !.

وجاء مخارق فقال لى : ما خبر الضيعة ؟! .. فان عندك الان من يحيى البرمكى وولديه ستمائة ألف درهم ، ستة أمثال ثمن الضيعة ! ..

فقلت له : هذا صك الضيعة ! .. لم أشترها من هذه الستمائة ألف درهم ، بل اشتراها لى الوزير يحيى بن خالد البرمكى من ماله وكتب الى

قائلا : « قد علمت يا أبا اسحاق ان نفسك لا تسخو بشراء الضيعة من مال يحصـــل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها من مالى ووجهت لك بصكها » ! ٠٠

فنظر مخارق فى وجهى مبهوتا متحيرا ، فانفجرت باكيا أحر بكاء ، وظللت أبكى حتى اشتفيت ، ومخارق يبكى معى ! ٠٠

ثم قلت له : يا مخارق اذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، واذا غنيت فلمثل هؤلاء ! ٠٠ هذه ستمائة ألف درهم ، وضيعة بمائة ألف ، ولك أنت ستون ألفا ٠٠ حصلنا ذلك اجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه ، فمتى يدرك زماننا أحدا مثل هؤلاء ؟! ٠٠



# الليالى الأربع

## ● اليوم الاول :

ضج الخدم واستيقظت الجوارى فى بيتى فوثبت مذعورا أصيح فيهم : ما أيقظكم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وقد نام الناس وليس فى بغداد كلها يقظان غيركم ؟! .

دنا خادم منى وقال بصوت يرجف رعبا :

ـ هذا أمير المؤمنين هارون الرشيد يقف على باب دارك وحوله ما لا يحصيهم الا الله من الخدم والاتباع ! ..

ارتديت ملابسى كلمح البرق .. جريت والخدم تفتح الابواب .. تضاربت فى نفسى الظنون ! .. فما الذى يحمل الخليفة العظيم على زيارتى ، وأنا خادمه وصنيعته ، ولو بعث فى طلبى ، لكنت عند قدميه فى أية ساعة من ليل أو نهار ؟! ..

أسرعت الى الباب وبى مثل الجنون من الخوف والزهو والفرح وسوء الظنون ، فتلقيت أمير المؤمنين فأهويت على حافر حماره فأشبعت حافر الحمار تقبيلا ، ثم رفعت رأسى أقول :

ـ يا أمير المؤمنين ، أفى مثل هذه الساعة تظهر ؟! .

قال :

ـ نعم .. شوق طرق لك بى ! ..

ثم نزل فدخل وجلس فى طرف من الايوان وأجلسنى الى جواره ، فقلت له :

ـ سيدى أتنشط لشىء تأكله ؟!

فأصاب من الطعام شيئا يسيرا ، ثم دعا بشراب كان خدمه يحملونه ..

فلما فرغ قلت :

ـ سيدى ، أؤغنيك ، أم تغنيك اماؤك ؟!

قال :

ـ بل الجوارى ..

فأخرجت اليه كل جارية مغنية فى بيتى ، فأخذن مجلسا قبالته وفى أيديهن عيدانهن ..

فقلت :

ـ يا سيدى .. أيضربن كلهن ، أم واحدة واحدة ؟!

قال :

ـ تضرب اثنتان ، اثنتان .. وتغنى واحدة فواحدة .

فضربت الجوارى وغنين ، والرشيد يسمع ولا ينشط لضرب ولا غناء ، فانه سمع فحول المغنين جميعا ، وصار له بالغناء بصر وذوق ودقة فهم لم أجد مثلها فى أحد ، الا فى الوزير جعفر البرمكى ..

فلهذا عجزت الجوارى عن اطرابه ، على أن فيهن بعض المجيدات لكنهن أقل مما يطلبه فى الغناء اجادة وحذقا ..

فخشيت أن يخرج من بيتى متكدرا ، حتى غنت جارية صغيرة كانت آخر من غنى :

يا مورى الزند قد اعيت قوادحه
اقبس اذا شئت من قلبى بمقباس
ما اقبح الناس فى عينى واسمجهم
اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فطرب الرشيد لغنائها ، واستعاد اللحن مرارا ، وشرب عليه ، ثم سأل الجارية :

ـ من صاحب هذا اللحن ؟!

فرجوت أن تكذب الجارية فى الاجابة لان الصدق فى هذا المقام قد يغضبه ، الا انها أمسكت عن الكلام ، ونضح جسمى عرقا وعلمت أن الرشيد لا يخرج من بيتى حتى يعرف اسم صاحب اللحن ، وهو ما أخشى أن يعرفه!

فاستدناها فتقاعست ولم تقترب منه خوفا ، فامر فاقيمت حتى وقفت بين يديه فأخبرته بشىء أسرته اليه ! .

انتفض الرشيد واقفا ، ولم ينظر ناحيتى ، وخرج من بيتى ، فدعا بحماره فركبه ، ثم التفت فقال لى :

ـ يا ابراهيم .. ما ضرك الا تكون خليفة ! ..

ثم انصرف وحوله الخدم والحشم يضيئون الظلام بمشاعلهم ويوقظون ليل بغداد ! ..

كدت أموت خوفا وجزعا ، فان الجارية أخبرته ان اللحن من صنعة أخته الاميرة عليه بنت المهدى .. وكانت علية قد وجهت الى بهذه الجارية لاطارحها بعض الحانى لتحفظها وتحكمها وتؤديها اليها ..

فهذا ما أسخط الرشيد ، لانه شديد الغيرة على حرمه ، وانه ليسمع غناء أخته علية ولكنه يغار عليها ، ويتقصى أخبارها ، ويضيق عليها فى شراء الجوارى والغلمان ، وان كان يأذن لاخيها ابراهيم بن المهدى بالغناء مع سائر

المغنين ويهب له الجوائز كما يهبها لهم ٠٠

قبل طلوع الشمس ركضت الى قصر الخلافة فالتقيت بمسرور الفرغانى خادم الرشيد ، فسألته :

ــ أكنت على علم بما انتوى أمير المؤمنين من زيارتى فى تلك الساعة ولم تخبرنى ؟!

قال مسرور :

ــ لا والله ! ٠٠ ولكن أمير المؤمنين هب من نومه ليلا ، فدعا بحماره الاسود القريب من الارض فركبه ، وهو يؤثر ركــوبه ويرتاح على ظهـــره ، ولبس دراعة من الوشى وتلثم بعمامه موشاة والتحف بازار من الوشى أيضا ، ونادانى فقلت له : أين يريد أمير المؤمنين فى هذه الساعة من الليل ؟ ٠٠ قال : أريد منزل ابراهيم الموصلى ! ٠٠ فخرج وأنا بين يديه ومعى أربعمائة خادم أبيض سوى الفراشين ، كما رأيت عندما وصلوا الى دارك ! ٠٠

فقلت لمسرور

ــ أرايته غاضبا بعد انصرافه ؟!

قال :

ــ ولماذا يغضب ؟! ٠٠ لقد نشط لتلك الحركة فى الليل ، وسر بها ، فلما كان الصباح ، استدعى أخته علية ٠ وأمرنى أن أقف على الباب ٠٠ ثم لم ألبث أن سمعت علية تغنى لحنا كانه اللحن الذى غنته جاريتها التى سمعها فى بيتك ؟!

قلت لمسرور

ــ أكنت تعرف يا مسرور ان هذه من جوارى علية أخت أمير المؤمنين ؟!

قال مسرور فى خيلاء :

ــ لو جهلت ذلك لما استحققت ثقة أمير المؤمنين ! ٠٠

## ● اليوم الثانى :

جاءنى اليوم مخارق ، وهو مطرب صغير السن ، مطبوع بديع الصــــوت ٠٠ لم أسمع صوتا يقاربه أو يساويه الا صوت اسماعيل بن جامع ، وصوت ابراهيم بن المهدى ٠٠

هؤلاء الثلاثة أجمل الاصوات فى أيامنا ، وقد أخذ عنى مخــارق فنـــونا كثيرة ، وعرف الصنعة حتى برع ، فصار يحب سماعه ٠٠ وكان مخارق قبل ذلك خادما بقصر الخلافة فى غمار الخدم الذين لا يحصيهم الا الله ٠٠

جلس مخارق بين يدى ، فطارحته لحنا فى شعر للاحوص حتى أخذ اللحن وحفظه وأحكمه ، ثم غناه لى ، فسمعت والله أطيب غناء يخرج من حلق هذا الفتى الناشىء ، فجعلت أبكى وأقول له :

ــ يا مخارق ٠٠ أنت والله بعدى صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

خرجت ركضا من بغداد الى قرية فيها امرأة تصنع أطيب النبيــذ ، لها بنت من أجمل النساء وجها وقواما وافتنهـم حديثـا ، لا يراها ذو قلب الا استحلاها وتعلق بها ٠٠ ولو كانت جارية تباع لاشتريتها بما أملك من المال ولو كانت تقبل التزويج لتزوجتها ٠٠

**قلت لها :**

ـ انك يا خليلى رجل ظالم ، زعمت انك تهوانا ثم هجرتنا ! ٠٠

قلت لها

ـ انى أستجير بك من ظلمك ! ٠٠

ثم عدت من هناك وأنا أردد بيتين نظمتهما

**وزعمت انى ظالم فهجــرتنى**
**ورميت فى قلبى بســهم نافذ**
**ونعم ظلمتك فاغفرى وتجاوزى**
**هذا مقام المستـجير العائذ**

ثم عكفت على تلحين ما نظمت ، ولعله يعجب أمير المؤمنين ٠٠

## ● اليوم الرابع :

ضربت اليوم خادما من خدم الخليفة ضربا مبرحا ، ثم ركبت الى الخليفة لاخبره قصته ٠٠

وفى طريقى الى القصر تذكرت كيف أننى منذ شهر بكرت على أمير المؤمنين حتى تصطبح ، فاذا أنا به خاليا وبين يديه جارية حلوة المنظر ، فقال لها : غنى فقد جاء الموصلى ! ٠٠ فغنت فى شعر أبى نواس :

**توهمه قلبى فاصــــبح خـــده**
**وفيه مكان الوهم من نظــرى أثر**
**ومر بفكرى خاطــرا فجـــرحته**
**ولم أر جسما قــط يجرحه الفكـــر**
**وصـــــافحه قلبى فآلم كفــه**
**فمن غمـز قلبى فى اناملة عقـــر**

فذهبت الجارية والله بعقلى لحسن غنائها ، حتى كدت أفتضح فقلت : من هذه يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ؟! ٠

فقال ضاحكا :

ـ هى التى يقول فيها الشاعر :

**لها قلبى الغـــداة وقلبها لى**
**فنحن كذاك فى جســدين روح**

ثم غنت مرة أخرى ، فطار عقلي شعاعا ، حتى تنبه الرشيد وأدرك أن قلبي تعلق بالجارية ٠٠ فشرب وسقاني وسقاها ، ثم قال : غن يا ابراهيم فغنيت حسب مافي قلبي غير متحفظ من شيء :

تشرب قـــلبي حبهـــا ومشى به
تمشي حميا الكأس في جسم شارب
ودب هواها في عظـــامي فشـــفها
كما دب في الملسوع سم العقـارب

ففطن الرشيد بتعريضي هذا ، وكانت جهالة مني ، فأمـرني بالانصراف ، ولم يدعني الى مجلسه شهرا ، ثم دس الى خادمه هذا الذى ضربته اليوم ٠٠ جاءني هذا الخادم برقعة مكتوب فيها :

قد تخوفت أن امـوت من الوجـد
ولم يـدر من هـــــويت بمـا بي
يا كتابي فاقر الســلام على من
لا أســـمي وقل له يا كتـــابي
ان كفـــا اليـــك قـد بعثتني
في شـقاء مواصـــل وعــذاب

فلما قرأت الرقعة فطنت لما وراءها وقلت للخادم : ما هــذا ؟! ٠٠ قال : رقعة الجارية فلانة التي غنتك بين يدى أمير المؤمنين ! ٠٠ فوثبت على الخادم وضربته ضربا مبرحا ، ولما ركبت الى الرشيد وأعطيته الرقعة ، ضحك حتى كاد يستلقي ، ثم قال : « على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك » ٠٠ ثم أمر لي الرشيد بجائزة عظيمة ! ٠٠

والله يعلم اني ما فعلت الذى فعلت من ضرب الخادم وتسـليم الرقعة الى الخليفة ، جنوحا الى العفاف ، وزهدا في الجارية الحسناء ، ولكن خوفا من القتل ، فاني لم أكد أقرأ تلك الرقعة حتى عرفت ان الخليفة يمتحنني ! ٠٠

# بـائع الأهـزاج

## ● اليوم الاول :

كأنني مللت طول البقاء في الدنيا ، علي ما اجد من حب الملوك لى : وحب الخاصة والعامة لغنائي والحاني ، وبخاصة أهزاجي ، فكلهم يقــول : مافى الدنيا مثل « حكم الوادى » في تلحين الاهزاج وغنائها •
ولكن الزمان امتد بى •• من عهد الامويين •• الى عهد الرشـيد فى دولة بنى العباس •• وان ثمانين عاما عشتها وعانيتها ، لطويلة بقيمه •

كان ابى « يحيى بن ميمون » رجلا فارسي الاصل اشتراه الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك وأعتقه ، فعمل حلاقا للوليـد يهذب شـــعر راسه ولحيته •• فرأيت فى طفولتى نعمة الخلفاء ، ولما بلغت الشباب صرت طويل القامة ولكن فى احدى عينى حولا فكنت أسمع الناس يقولون : ما أحسن هذا الفتى لولا انه أحول ! •• ولم أكن أظن انى أصير مغنيا فى يوم من الايام ، فقد كنت وأنا صغير السن ، أكترى الابل وأنقل عليها الزيت من الشـام الى المدينة المنورة وجدة وغيرهما من مدن الحجاز •

ثم أخذت الغناء من عمر الوادى فى وادى القرى بين الشـــام والمدينة ، فكنت أقطع هذا الوادى أغنى بالاهزاج ، من أول قــرية فى الوادى الى آخــر قرية ، وهو من أوله الى آخره قرى منظومة متتابعه لا تنقطع ، فعــرفنى الناس هناك ، وسميت « حكم الوادى » ! •• ثم صارت كنيتى « أبا يحيى »!

ولست أكتب الآن يوميات ، ولكنى أكتب ذكريات فى يوميات ، فقد انقضى العمر الا ذبالة الشمعة التى أوشكت أن تذوب ثم يبلغ الكتاب أجله ، وأمضى فى الذاهبين ! ••

عمرت طويلا جدا •• حسبك أن تعلم اننى عشت من زمن بنى عبد الملك فى دولة بنى أمية ، حتى غنيت هارون الرشيد خامس خلفاء بنى عبــاس ، فرأيت الدهر يتقلب تحت عينى ، والدنيا تتغير من حال الى حال والناس من باطلها فى غرور ! ••

كان أكبر أساتذتى فى شبابى عمر الوادى ، ولكنى رأيت ايضا وسمعت جماعة من حذاق المغنين ، منهم عمر بن زاذان الذى كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك يشير اليه حين يغنى فى حضرته ويقول : « هــذا جامع لذتى » •• لان هذا المغنى كان يجمع فى غنائه لذات الطرب كلها ، فاستحق ان يصفه الوليد ويجزل له المكافأة ••


وما مر يوم أرتجي فيه راحة

سمعت في وادى القرى مغنين اخرين وكل هؤلاء كان يصنع الالحان ويغنى فيحسن فيما يصنع ويغنى ! •

أول غناء استحققت عليه جائزة كان في زمن الوليد بن يزيد « الخليع » الذى مات قتيلا متهماً بالفجور والخلاعة •

ادخلنى عمر الوادى على هذا الخليفة الاموى ، وهو يهم بالخروج من قصره وقد ركب حمارا وعليه جبة وشى ، ورداء وشى ، وفى رجليه خف وشى ، وفى يده عقد جوهر ، وفى كمه شيء لا أدرى ما هو •• فقال الوليد لمن حف به من المغنين ، وكلهم كبار بارعون :

ـ من غنانى ما أشتهى فله مافى كمى وما على جسدى وما تحتى •

فغنوه كلهم ، وهو على ظهر حماره يسمع ولا يطرب ، فلما أوشك أن يمضى بحماره ، التفت فقال لى :

ـ أتغنى يا غلام ؟!

قلت :

ـ نعم يا أمير المؤمنين ! ••

قال :

ـ غن يا غلام اذن ، فما يسرنى أن امضى حتى أعرف كيف غناؤك ! ••

فاقتربت منه فغنيت :

اكليلها ايوان

وجهها فتان

وخالها فريد

ليس له جيران

اذا مشت تثنت

كانها ثعبان

فرأيت الوليد يصغى ويضع راحتيه قرب اذنيه ليكون ذلك أجمع للصوت فيهما •• ورأيت وجهه يضيء بالطرب والنشوة ، وكان الوليد بن يزيد طروبا يحب الغناء ، ويغنى أيضا ويضرب بالدف ، ويجمع حوله المغنين والمغنيات!

فلما فرغت من الغناء أخرج ما كان في كمه ، واذا كيس فيه ألف دينار ، فرمى به في حجرى مع عقد الجوهر •• ثم دخل فناء داره فنزل عن حماره وبعث به الى وجميع ما كان عليه ! ••

## ● اليوم الثاني :

لاقيت رجلا من ظرفاء قريش ، فقال لى : يا حكم اننى قلت فى غنـــائك شعرا امدحه وأمدحك •• قلت : جزاك الله من سيد كريم ، فماذا قلت ؟ •• فانشدنى :

أبو يحيى اخو الغـزول المغني
بصير بالثقـال وبالخفـاف

على العيـدان يحسـن ما يغني
ويحسن ما يقـول على الدفاف

فاخذت هذا الشعر فصنعت فيه هزجا وغنيته للناس ، فسمعني شيخ فقال لى : أحسنت .. فألقيت الدف من يدى على الارض وقلت له : اتسمعنى فلا تقول لى الا أحسنت ؟! والله لو كنت تحسن فهم الغناء لنطحت هذا الحائط برأسك طربا ! ..

فضحك الشيخ ، وضحك الناس وضحكت أنا ! .

● **اليوم الثالث :**

عشت في دولة بني أمية ما عشت فلم أكسب من الغناء الا ما يشـتري قوتي وقوت عيالى ، ويكسونى ويكسوهم ! .. ولم يعطنى أحد من خلفائهم شيئا قيما الا ما اعطانيه الوليد بن يزيد مرة ، ثم لم القه بعـدها .. ولو عاش لاعطانى جوائز كثيرة ! ..

فلما خرج الامر من أيدى الامويين ، انقطعت الى سيد من أمراء بنى العباس اعجبته اهزاجي ، فكان لايطلب منى ان اغنى غيرها ، ويجزل لى العطاء حتى صرت الى حالة جميلة . وسعدت بانقطاعى الى هذا الامير الكريم ، وكان ذلك فى عهد أمير المؤمنين ابى جعفر المنصور رحمه الله ..

وذات يوم فوجئت بأكبر ابنائى يقول لى غاضبا :

ـ يا أبت .. أبعد هذه السن ، وبعد أن صرت كبيرا ، تترك الغناء الجيد المتقن الثقيل ، وتغنى هذه الاهزاج الخفيفة ، وهى غناء المخنثين ؟! ..

فصرخت فيه :

ـ اسكت أيها الغلام فانك جاهل ! .. غنيت الثقيل ستين سنة ، فلم أنل الا القوت وغنيت الاهزاج منذ سنوات قليلة ، فاكسبتك واخوتك ما لم تروا مثله قط فى سالف أيامكم وأيامى ! ..

وسكت الغلام على مضض ، فانه لا يرى الاهزاج فنا رفيعا ولا صنعة عالية فى الغناء ، ويريد روائع الاغانى الثقيلة التى لا أجد لها سـوقا عند الامير العباسى الذى غمرنى بكرمه ! ..

● **اليوم الرابع :**

بلغنى أن أمير المؤمنين المنصور أبدى دهشة كبيرة لما يصلنى به المعجبـون بى من الجوائز وانه قال : أيصنع هذا شيئا الا تحسين الشعر بصوته وتطريب مستمعيه ، فماذا يكون ، ولاى شىء يعطونه أموالهم ؟ ..

كان يرى ذلك اسرافا منهم ، حتى علم ذات يوم ان قائدا من كبار قـواده

هو علي بن يقطين قد أجزل صلتي وكساني ثيابا وحملني على بغلة فارهة ..

فحين علم المنصور هذا الخبر ، حرك راسه مليا ، ثم قال ، الان علمت ان هذا يستحق ما يعطاه ، لان ابن يقطين لا يعطي شيئا من ماله باطلا ، ولا يضعه الا في حقه ! .

● **اليوم الخامس :**

علمت ان الخليفة المهدي قد عزم على المضي الى بيت المقدس فلما خرج موكبه ، عارضته في الطريق ، وأخرجت دفي ونقرت فيه ، وقلت : أنا والله يا أمير المؤمنين القائل :

**ومتى تخرج العروس**
**فقد طال حبسها**

فسارع الحراس يمنعون وصولي اليه ، فقال لهم : دعوه ! .. واستمع لي وأمر لي بجائزة ..

على ان أعجب من هذا ، وقع لي في عهد ابنه الخليفة موسى الهادي .. فقد حضرت مجلسه مع ابن جامع وابراهيم الموصلي وغيرهما ، فأخرج ثلاث بدر تحوي ثلاثين الف درهم وقال لنا : من أطربني فهي له ! ..

فغناه ابن جامع والموصلي وغيرهما فلم يصنعوا شيئا ، وعرفت ما أراد وكان يحب من الغناء ما توسط ، فلا يكون خفيفا ولا يكون كثير الترجيع ، فغنيته لحن ابن سريج :

**غراء كالليلة المباركة القمراء**
**تهدي أوائل الظلم**
**اكني بغير اسمها وقد علم الله**
**خفيات كل مكتتم**

فوثب الهادي من فراشه طربا وقال :

ــ أحسنت ! .. أحسنت والله ! ..

ثم قال وهو ينتفض طربا :

ــ اسقوني ! .. اسقوني ! .

فلما هدأ ، قال له ابن جامع :

ــ أحسن حكم الوادي والله يا أمير المؤمنين وانه لمحسن مجمل ! ..

فسررت أن يقرظني ابن جامع في حضرة الخليفة ، وحمدت منه ذلك ، وقلت له : لا عجب أيها القرشي أن تكون كريما عادلا ، فالشيء من معدنه لا يستغرب .. وعرضت عليه أن يأخذ نصف الجائزة فأبى .. فقلت له : مثلك يفعل ما فعلت فانك قرشي نسيب فان أردت تشرفني بقبول هذا المال فعلت ! فقال لا والله .. لافعلت ! .. وبارك الله لك فيه ! ..

اما الموصلى ، فحين رأى الفراشين يخرجون بالمال الى بيتى أسرع يقــول لى : هل تعطينى يا حكم من هذا ؟! •• فقلت : لا والله ، ولا درهما واحدا ، لانك لم تحسن ان تقـــول كلمة حــق فيما ســـمعت منى فى مجلس أمير المؤمنين ! ••

## ● اليوم السادس :

غنيت أمير المؤمنين هارون الرشيد الوانا من الغنـــــاء ، أمزاجا وغيرها فطرب ، وسر بى سرورا زائدا ، ولم يسمع فى ذلك المجلس أحدا غيرى من المغنين ، ثم أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ، وكتب لى بها الى صــــديقى الامير ابراهيم بن المهدى ، وكان أميرا على الشام ••

فلما قدمت عليه بكتاب الرشيد اسرع فأعطانى ما أمر لى أمير المؤمنين ، وزادنى ثلاثمائة ألف درهم أخرى ، ناقصة ألف درهم وقال لى ، لا أصــــلك بمثل صلة أمير المؤمنين فأخــذت منه ســـتمائة الف درهم الا ألف درهم واقمت عنده ثلاثين يوما ، طارحته فيها ثلاثمائة صوت من أصــوات القدماء ومن أصواتى !••

## ● اليوم السابع :

اصابتنى قرحة فى صدرى •• عجز الطبيب عن مداواتى واظن هــذا هو موعدى مع الذاهبين من أهلى واخوانى ، وانى اليهم لفى شــوق •• وقد حان يوم الرحيل ! ••

عادنى صديقى الشاعر الدارمى ، وسألنى عن أمرى ودمعت عيناه ، ودعا لى بالشفاء ، ثم قال : يا أبا يحيى •• انى عملت بيتين من الشعر دعاء لله أن يشفيك ، افتاذن أن أنشدهما ، فلما أومأت بالاذن ، قال :

**ان أبا يحيى اشــتكى علة**
**اصــبح منهــا بين عواد**
**فقلت والقلــب به موجع**
**يارب عاف حـــكم الوادى**

وكيف لى بالعافية وأنا التقط أنفاسى التقاطا ، وقد نهش الداء صدرى ، وضاقت الدنيا فى عينى كسم الخياط : ولم يبق لى الا نفثة مصدوراستوفى مدته فى الدنيا ؟! ••

# معابثة ابن المهدى

## ● اليوم الاول :

يزعم بعض المغنين انى أقسو فى نقدى لالحان ابراهيم بن المهدى ، مع اعترافى بجمال صوته ، ويقولون لى : أليس له فى جمال صوته شافع لديك يدارى تقصيره فى التلحين ؟! ٠٠ فأقول لهم : ان هذا الرجل يجترىء على رؤساء المغنين القدماء الذين نشأ الغناء على أوتار حناجرهم وعيدانهم ، واحكمته تجاربهم ، وتم أمره على أيديهم ٠٠ وعنهم رويناه وعرفنا كيف هو ٠

وان هذا الرجل لا يفتأ يدعى انه « يجندر » غناءهم فيصلحه بجندرته هذه ويزيده رونقا وحلاوة ٠٠ ولعمرى ما صدق ، فانه يفسد ولا يصلح ويهدم ولايبنى ، ويجاوز ما لا يستطيع اداءه من غنائهم الى قليل منه يستطيعه ٠٠ وما هو فى هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، ولا يبلغ منهم قلامة ظفر وليس له حق اللعب فى عملهم المتقن البديع ، وقد نصحته وأريته خطاه فأخذته العزة بالاثم ٠ وصعر خده لى ، كأنما صار له علينا حق السمع والطاعة فى الغناء والتلحين ، بما ولدته أمه من الخليفة المهدى ، وكأنه والله يحدث نفسه بأنه « خليفة » على دست الغناء والالحان لا يقل شأنا عن أخيه هارون الرشيد خليفة الدنيا والدين ! ٠

وان ابراهيم بن المهدى لعربى النسب ، قرشى هاشمى من جهة أبيه ، ولكن اخواله ابتاعهم الناس من أسواق الرقيق ، ومعهم أختهم والدة ابراهيم هذا المزهو علينا بحسبه ونسبه ٠٠ وليس فى بغداد كلها من لا يعرف خاله الذى يعمل بيطارا ، وفى شفته العليا شق أحدثه به قديما نخاسه الذى باعه فى سوق الرقيق ، علامة يعرفه بها الناس جميعا ، فان هرب ردوه بها الى سادته ! ٠٠

ـ على انه والله ـ على قلة علمه بالصناعة ـ أكثر المغنين الذين نسمعهم الآن علما ، واشعرهم وأبلغهم مقالا فى كل مقام ٠٠ غير أن فصاحته تعينه على السباب والشتم ، فيكون سليط اللسان جارح الكلام حين يغضب ، وحين يشرب ! ٠٠

دسست اليه صاحبا لى يعابثه ويغيظه ، وقلت لصاحبى : انطلق الى ابراهيم بن المهدى ، فأشرب معه أقداحا ، ثم قل له : يا سيدى ٠٠ اخبرنى عن قولك « ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى » ٠٠ أى شىء كان معنى لحنك الذى صنعته فيه ؟ ٠٠ وأنت تعلم ياسيدى انه لايجوز فى غنائك الذى صنعته

فى هذا الكلام الا أن تقول « ذهبتـــو » بالواو ‥ فان قلت : « ذهبت » بضم التاء ، ولم تمدها انقطع اللحن وانكسر ، وان مددت ضمة التاء فجعلتها كالواو ، فسد الكلام وصار قبيحا ككلام النبط والعجم والروم ! ‥

فاتى صاحبى دار ابراهيم فحدثه كما حفظ عنى حرفا ‥ حرفا ‥ فتغير لونه وبان عليه الانكسار ، ثم قال لصاحبى : ليس هذا والله من كلامك ‥ انما هو من كلام الجرمقانى اللئيم ! ‥ قل له عنى : أنتم تصـــنعون هذا للصناعة ، ونحن نصنعه للهو واللعب والعبث ! ‥

فلما حدثنى صاحبى بما أسمعه ابراهيم عنى ، قلت له : الجرمقانى والله منا ، أشبهنا بالجرامقة لغة ، وهو الذى يقول : « ذهبتـــو » ولو انه من قريش ! ‥ لقد كان الجرامقة قوما من العجم نزلوا بالموصل ، وصحب أبى بعضهم زمنا ولم يكن منهم ، ومضى على اختلاطهم بالعرب منذ فتح المسـلمون بلاد العجم حتى يومنا هذا دهر طويل ، اعتـــدلت فيه الســـنتهم ، فليس لابراهيم بن المهدي ان يفخر بفصاحته على جرمقى هو أفصح منه لسانا ! ‥

● **اليوم الثانى :**

سمعت فى بيت أحد الكبراء جارية تغنى لحنا لى صنعته فى شعر لكعب بن زهير ‥ فســـألتها : من أين لك هذا اللحن ؟ ٠ قالت : طـرحه الامير ابراهيم بن المهدى أعزه الله تعالى ! ‥

فقلت لصاحب الدار : وما لابراهيم بن المهدى أعزه الله ولهذا الصوت ؟!

فسألنى الرجل متعجبا :

ـ أليس الصوت من صنعته ؟!

قلت :

ـ هذا الصوت أنا صنعته ، وليس كما طرحه ، فان فيه كما سـمعته من الجارية أخطاء كثيرة ‥

وغنيت الصوت للرجل وجاريته ، فكتب لساعته الى ابراهيم بن المهدى : « ان أبا محمد الموصلى أعزه الله صار الينا فأحتبسناه حتى غنى لنا الصوت الذى القيته ـ أعـــزك الله ـ على جاريتنـــا ، وزعم انه من صـــنعته ، وانه ليس على الوجه الذى غنته الجارية ، فاحببت أن أعلم ما عندك ، جعلنى الله فداك » ! ‥

وأنفذ الرجل رقعته الى ابراهيم ، فجاء جوابه سريعا يقــول : نعم جعلت فداك ، صدق أبو محمد أعزه الله ‥ الصوت له ، وهو ما ذكره ، لكنى لعبت فى وسطه لعبا أعجبنى ٠

فلما قرأت هذه الرقعة كتبت اليه وقد ملكنى الحنق :

« اذا أردت يا هذا أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غنـــاء الناس ، واصنع انت ان كنت تحسن ان تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير

مشارك في جد الناس بلعبك ، ومفسد له بما لا تعلمه ٠٠ وهذا الصـوت ليس يتهيأ لك أن تمخرق فيه وتقول : جندرته ! ٠٠ كما اعتدت أن تقـول كلما لعبت بصناعة القدماء » ! ٠٠

فلما أنفذت الرقعة اليه أحسست انني اشتفيت منه ، وانتصفت للحق ، وتذكرت رؤساء صناعة الغناء في عهد بني أمية كابن سريج وابن محرز ومعبد ومالك وابن عائشة ، وقلت لنفسي : مافي الدنيا أحمق ولا أجهل ممن يزعم ان هؤلاء الفحول لم يكونوا يحسنون تمام الصنعة ، ولا استيفاء الغنـاء ، وانهم عجزوا عما به يكمل ويتم ويحسن ، وانه أقدر على الصنعة منهم ، وانه قد كانت بقيت عليهم أشياء لم يهتدوا لها ولم يحسـنوها فتنبه عليهـا هو فتممها وحلاها بجندرته ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

في السهرة ٠٠ قال لي أمير المؤمنين الرشيد : يا اسحاق تغن :

**شربت مدامة وسقيت اخـرى**
**وراح المنتشون وما انتشيت**

فغنيته ، فقال لي ابراهيم بن المهدي : ما أصبت يا اسحاق ولا أحسنت ٠٠ فقلت له : ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وان شئت فغنه ، فان لم أجدك انك تخطىء فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، فدمي حلال ! ٠

ثم اقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتي وصناعة أبي فاذا نازعناها أحد بلا علم ، لم نجد بدا من الايضاح والمدافعة ، فقال الرشيد : لا غرو ٠٠ ولا لوم عليك ، ثم نهض فخرج لشيء أراده ! ٠

فاقبل ابراهيم بن المهدي يقول لي : ويلك يا أسحق ٠٠ أتجترىء وتقول ما قلت يا ابن اللئيمة ! ٠٠ فغضبت وشتمته وذكرت أمه بالسوء ، ثلاث مرات ! ٠٠ ثم قلت له بعد أن شفيت نفسي بشتمه : انا لا أقدر على اجابتك وانت أخو الخليفـة وابن الخليفـة ، ولكن قولي في ذمك ينصرف الى خالك المشقوق الشفة العليا ! ٠٠

وخطر لي ان ابراهيم يشكوني للرشيد وانه سيسأل من حضر عما جرى ، فاتقيت عاقبة ذلك ، بأن قلت : انت تظن ان الخلافة تصـير اليك فلا تزال تهددني وتعاديني كما تعادى سائر اولياء أخيك ، حسدا له ولولده على الامر ولكنك تضعف عنه وعنهم ، فتستخف بأوليائهم تشفيا ، وارجو الا يخـرج الله الخلافة من يد الرشيد وولده ، وان يقتلك دونها ، فان صارت اليك ـ وبالله العياذ ـ فحرام على العيش يومئذ ٠

فلما عاد الرشيد الى المجلس ، وثب ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين شتمني وذكر أمي واستخف بي ! ٠٠ فغضب الرشيد وصاح : ما تقول يا اسحاق ويلك ؟! ٠٠ ثم أقبل على خادميه مسرور وحسين فسألهما عن القصة فجعـلا يخبرانه ووجهه يتربد حتى انتهيا الى ذكر الخـلافة فسرى عنه ورجع اليه لونه ، ثم قال لابراهيم متمهلا : ماله ذنب ٠٠ شتمته فعرفك انه لا يقدر على

جوابك ·· ارجع يا ابراهيم الى موضعك وامسك عن هذا ··

فلما انقضى المجلس استبقانى الرشيد وقال لى : يا اسحاق ! ·· اتراني لم أفهم قولك ومرادك ·· قد والله رميت أمه بأفحش ما ترمى به المحصنات ثلاث مرات ! ··ويلك ! ·· لا تعد الى مثل هذا أبدا ! ·· حدثنى عنك ، لو ضربك ابراهيم أو قتلك أكنت أقتص لك منه وهو أخى ·· يا جاهل ؟! ·· فامتلأت من كلام الخليفة رعبا وقلت : يا أمير المؤمنين ، قد والله قتلتنى بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنى ! ·· فتنبه الرشيد وصاح بمسرور الخادم أن يرد ابراهيم اليه ، وصرفنى فأوصيت جماعة من الخدم أن يخبرونى بما يجرى ! ··

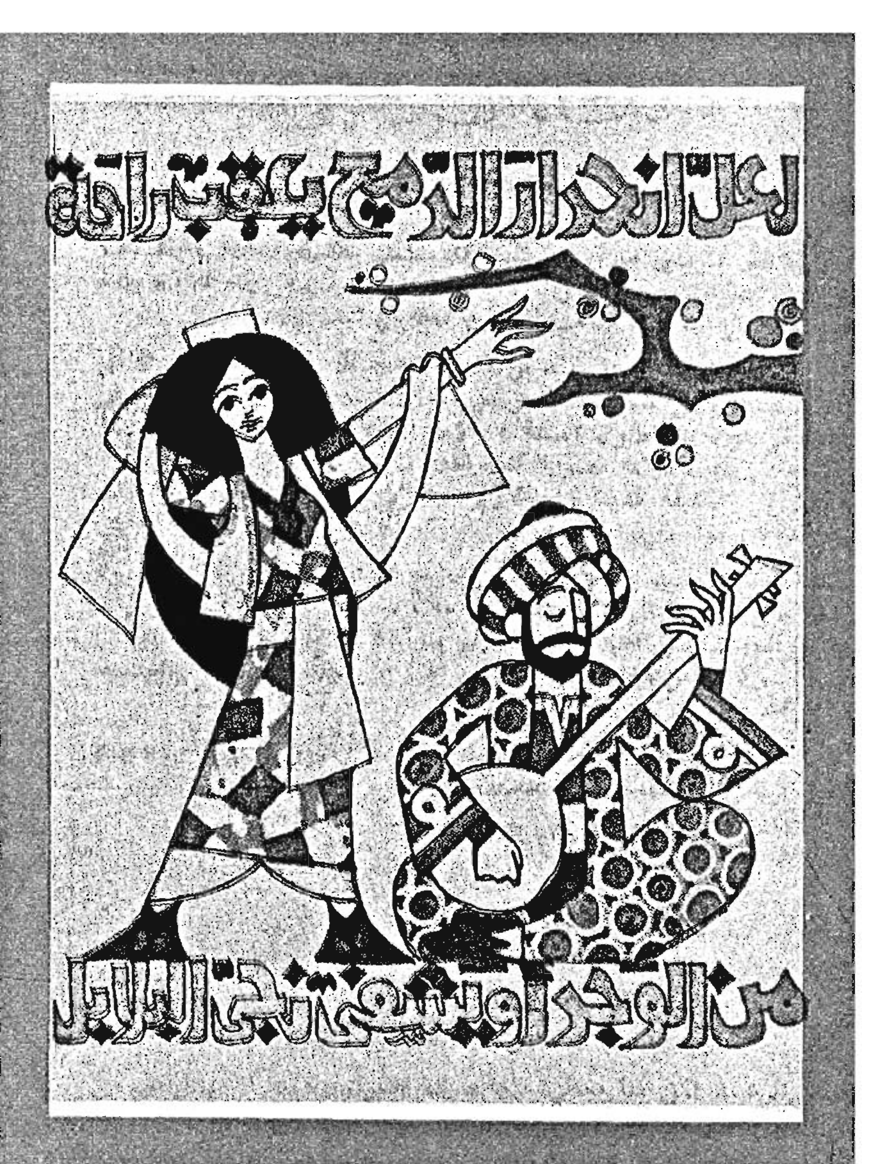
## ● اليوم الرابع :

قال لى مسرور خادم الرشيد : لما انصرفت أمس واعيد ابراهيم بن المهدى، تجهم له أمير المؤمنين ووبخه ووصفه بالجهل ، وقال له : أتستخف باسحاق الموصلى وهو خادمى وصنيعتى ونديمى وابن نديمى ، وتفعل ذلك بمجلسى وحضرتى ؟! ·· هاه ·· هاه ! ·· وانت مالك وللغناء ، وما يدريك ما هو ·· ومن أخذك به وطارحك اياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ اسحاق الذى غذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن انك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك الى اقامة الحجة فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه ·· أليس هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الادب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة ذلك على مرءوتك وشرفك ، واظهارك الغناء ولم تحكمه ، وادعائك مالا تعلمه حتى ينسبك الناس الى الجهل المفرط ! ·· ثم قال له : والله العظيم وحق رسوله ، لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو سقط من دابته ، أو سقط عليه سقفه ، أو مات فجأة ·· لاقتلنك به ! ·· فلا تعرض له وانت أعلم ! ·

فلما سمعت هذا الكلام كله من مسرور ، اطمأنت نفسى وكنت أخشى أن يغتالنى غلمان ابراهيم ! ··

فلما جلست انتظر دورى فى الغناء ، أعرضت عن ابراهيم فضحك الرشيد وقال له : انى لاعلم محبتك فى اسحاق وميلك اليه والى الاخذ عنه ، وان هذا لا يجيئك من جهته الا بعد ان يرضى ، فأحسن اليه واكرمه واعرف حقه وبره وصله ··

وأصلح الرشيد بيننا ·· الى حين ! ··



لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد او يشفي نجي البلابل

# دمـــاء الـــزنـــادقـــة

● **اليوم الاول :**

قال لى امير المؤمنين هارون الرشيد قد سئمت المقام ببغداد والصيف مطبق عليها بحرارته وركود هوائه ، فانا على نية السفر بعد غد الى بلدة « الرافقة » على الفرات ، فتأهب للخروج معنا ان شاء الله ٠

كنت أتوقع ان يتحرك الرشيد من بغداد للاصطياف فى الرافقة والرقة فى الشام ، فهكذا يفعل كلما هجم الحر على بغداد ٠٠ بل انه ليفعل ذلك فى الشتاء وفى غيره من فصول السنة ٠٠ وهو يحب الرافقة وقد بنى فيهـا قصرا ، وبنى رجال دولته قصورا كثيرة حتى اتصل عمرانها بمدينة الرقة ، فهما الان فى الحقيقة مدينة واحدة ويراهما الرشيد قد جمعتا أطيب مافى الشام كله من هواء وماء ! ٠

دخلنا قصر الرشيد هناك بعد سفر سريع انهكنى ، وأذن لنا الرشيد بالراحة حتى اليوم التالى ، فانعشتنا الراحة وهبت علينا الانسام من الفرات ومن كل الجهات حتى امتلأنا نشاطا ولم يبق الا أن يدعونا أمير المؤمنين الى مجلسه ٠ وكان معى مخارق وعلويه وابراهيم بن المهدى أخو الرشيد وجماعة آخرون ٠

فى السهرة غنى مخارق لحنا كنت صنعته قديما ، ثم غنى علويه من صنعته وأعقبه ابراهيم بن المهدى ، ثم غنيت لحنا لى فى هذه الابيات من شعرى :

بدير القـــائم الاقصى
غـــزال شـــفنى احوى

برى جبى له جســـمى
ومـــا يـــدرى بمـــا القى

واخفى حبـــه جهـــدى
ولا واللـــه مـــا يخـــفى

فامر الرشيد لكل منا بجائزة ، وانصرف المغنون وبقيت أنا وابراهيم بن المهدى فى مجلس الرشيد ٠

ثم دخل بعض رجال الدولة والقضاة وبنى هاشم ٠٠ وجىء برجل مغلول اليدين الى عنقه بقيد ثقيل ، وعرفت فيه على بن الخليل من أصدقاء صالح بن عبد القدوس المشهور بالزندقة ٠٠

تأملت على بن الخليل فرايته نظيف الثياب ، جميل الوجه ، رابط الجاش كأنه لا يدرى أن الزندقة عقوبتها القتل ، فقلت فى نفسى ، ما لهذا الرجل ذنب الا مصاحبته لصالح بن عبد القدوس الذى تطارده شرطة الزنادقة التى وكل اليها الرشيد استئصالهم من أصولهم ! .

قال الرشيد بعد أن نظر قليلا الى على بن الخليل :

ـ من أنت ؟!

قال الرجل ببساطة وخفة ظل :

ـ أنا على بن الخليل من أهل الكوفة ، ويقول صاحب شرطة الزنادقة عنى انى زنديق ! .

فلم يتمالك الرشيد نفسه أن ضحك حتى استغرب ، فطمع الرجل فيه وقال :

ـ أيأذن لى أمير المؤمنين فى انشاد أبيات فيه ؟!

فلما اذن له الرشيد ، اندفع ينشد :

**يا خير من وخدت بارحله**
**نجب الركاب بمهمه جلس**
**تطوى السباسب فى ازمتها**
**طى التجار عمائم البرس**
**خير البرية انت كلهم**
**فى يومك الغادى وفى امس**
**لله ما هارون من ملك**
**بر السريرة طاهر النفس**
**انى لجات اليك من هرب**
**قد كان شردنى ومن لبس**
**واخترت كلمك لا اجاوزه**
**حتى اوسد فى ثرى رمسى**
**والله يعلم فى بقيته**
**ما ان أضعت اقامة الخمس**

فاستحسن الرشيد الشعر ، ورق للشاعر ، واستتابه ، وأمر له بخمسة الاف درهم .. وأطلقه ! ..

ثم أدخلوا صالح بن عبد القدوس يرسف فى قيوده ، فقال له الرشيد :

ـ قد كتب الينا صاحب شرطة الزنادقة انك مقيم على زندقتك ، وأنك تفتن الناس ! ..

قال الرجل :

ـ ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وانى قد تبت وصححت توبتى ! •

قال الرشيد :

ـ وكيف تتوب ، أو ترجع عما عشت فيه من شبابك الى اليـــوم وانت القائل :

والشـــــيخ لا يترك أخـلاقه
حتى يوارى فى ثرى رمســـه.

فانك انما زعمت ألا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبدا ••

وأمر الرشيد بقتله لساعته ! ••

ولو استنطقنى الرشيد لقلت له : ان هذا الرجل شهد على نفسه بالتوبة ، فلا يستطيع أحد تكذيبه الا أن يشق عن قلبه ، فيميز فيه الصدق من الكذب

ولكن الرشيد منذ مدة يضمر قتل صالح بن عبد القدوس ، كما قتل أبوه المهدى من قبل بشار بن برد فى تهمة الزندقة ايضا ••

● اليوم الثانى :

ظللت غائم النفس منذ مقتل صالح بن عبد القدوس أمس ، فلما أمـرنى الرشيد بالغناء الليلة ، اندفعت أغنى :

الا قاتل الله الحمـــامة غدوة
على الغصـــن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصـــــوت اعجمى فهيجت
من الشـــوق ما كانت ضلوعى اجنت
فلو قطرت عين امرىء من صـبابة
دما قطـــــرت عينى دمـا فالمت
فما سكنت حتى اويت لصوتها
وقلت : ترى هذى الحمـــامة جنت
وما وجد اعرابية قـذفت بهـــا
صروف النوى من حيث لم تك ظنت
باكثـــر منى لوعة ، غــــير اننى
اجمجم احشـــــائى على ما اجنت

فطرب الرشيد غاية الطرب ، وقال لى : كأنك والله تلك الحمـــامة على غصنها ، تنوح وتهيج سامعها ! ••

وأمر لى بجائزة عظيمة •• ثم قال :

ـ لمن هذا الشعر يا اسحاق ، فانى أراه يدخل القلب ، ويهيج المدامع ، ولا يقدر أحد أن يصف جودته وحلاوته ورنينه ، حتى ليوشك أن يســتغنى بنفسه عن الغناء والتلحين ••

قلت :

ـ كأنك رأيت يا أمير المؤمنين أن جهدى فى تلحينه قد ذهب بـاطلا ، اذ التلحين فى أصل كلماته ؟!

ضحك الرشيد وقال :

ـ ما هذا أردت ، فوالله لقد غنيته فزدته حسنا ولا يقدر أحد غـيرك على مثل هذه الصنعة فيه فلمن هذا الشعر ؟!

قلت :

ـ هو لبعض الاعراب يا أمير المؤمنين ! .. ولا أعرف اسمه ..

قال بعد لحظة فكر :

ـ انه الى شعر الحضريين لاقرب منه الى شـــعر الاعــراب ، وكأنك أنت صاحبه ! .. ألا ترى أن صاحب هذا الشعر يقول « وما وجد اعرابية قذفت بها .. » .. فالاعرابى لا يتحدث هكذا عن الاعرابيات ، وانما هذا رجل من الحضر يضرب المثل بالاعرابيات فى الوجد والحنين .. ولا تجىء أشــعار الاعراب فى هذا الباب كذلك ! ..

قلت :

ـ والله يا أمير المؤمنين ، ما يقدر الاصمعى ولا غيره أن يفحص عن حقيقة هذا الشعر ، كقدرتك عليه ، وما زلنا نأخذ من عطائك الجزيل ، ومن أدبك الجليل ، فأطال الله بقاءك ، وجعلنا فداءك وأظلنا بوارف ظلك اخر الدهر ان شاء الله ..

## ● اليوم الثالث :

اذن لى أمير المؤمنين فى العودة الى بغداد أياما ثم أرجع الى الرفقة ، لامور لابد لى من العناية بها فى بغداد ..

التقيت والحسن بن هانىء الشاعر الذى يسميه النـاس أبا نواس ، ولا أدعوه أنا الا بالحسن أو بابن هانىء ..

قال لى :

ـ أما فى شعرى يا اسحاق بيت ولا بيتان ولا أبيات تلحنها وتغنيها فى حضرة أمير المؤمنين ، فترفع قدرى عنده فان أبا العتاهيه وابن أبى حفصــة وغيرهما قد حازوا مئات الالوف من الدراهم لارتفـــاع قدرهم عنده ، وأرانى لم أفز منه بشىء وقد عجزت حتى عن انشاده قصــيدة واحدة فى مدحه ، لانى لست ـ مذكورا عنده ، وقد قيل لى : لو غنى اسـحاق الموصــلى من شعرك لقربك الرشيد الى مجلسه ! ..

قلت له :

ـ انك يا ابن هانىء لا تدرى انى أذكرك بظهر الغيب لكل من ألقاه ،والله

لاغنين الرشيد من شعرك حتى يذكرك ويعرف قدرك ، فانى أرى من دونك من الشعراء قد نفقت سوقهم عنده ، وأنت ما لك عنده الا التجافى والتناسى! .. وكأنك تذكر هذا المعنى فى قولك تمدحه :

وبضاعة الشعراء ان انفقتها
نفقت وان اكسدتها لم تنفق

ثم افترقنا ، وابن هانىء يقول لى :

ـ لا تنسنا من دعائك فى صلاتك يا أبا محمد !

كانما يريد « أبو نواس » أن يسخر من نسكى وصومى ، وهو الشاعر المتهتك الذى لا يعرف الناس له صلاة ولا صياما ، ولا يرونه الا خارجا من الاديرة أو داخلا فيها ، ثملا ، أو طالبا أن يثمل بما حوت من الصهباء ..

وما أظن أحدا بقادر على أن يدنيه من قلب الخليفة ، ولكن الجهلاء من عامة الناس فى بغداد وغيرها يظنونه من شعراء الخليفة وانه يحضر مجلسه .. وذلك مما تصوره لهم أوهامهم ، فما رأيت أبا نواس فى حضرة الرشيد قط ، وما أظنه كسب دينارا واحدا من شعر له فى مدح الرشيد ، وانما كل كسبه من آل الربيع وبعض الهاشميين والكبراء ، ولم تتصل أسبابه بعد الا بحسين خادم الرشيد ، وقد مدحه أبو نواس ، فكيف يطمع أن يمدح الرشيد بعد أن مدح خادما فى قصره ؟! ..

## ● اليوم الرابع :

جاءنى اليوم فى بيتى محمد الزف المطرب الملحن ، وكان صديقا لابى ـ رحمه الله ـ وطالما نصره على منافسيه من أهل صناعتنا ، وعلى رأسهم اسماعيل بن جامع صاحب الصوت الذهبى الذى كان الرشيد يؤثره ويرفع قدره ويقول : صوته كالعسل ! ..

قلت للزف :

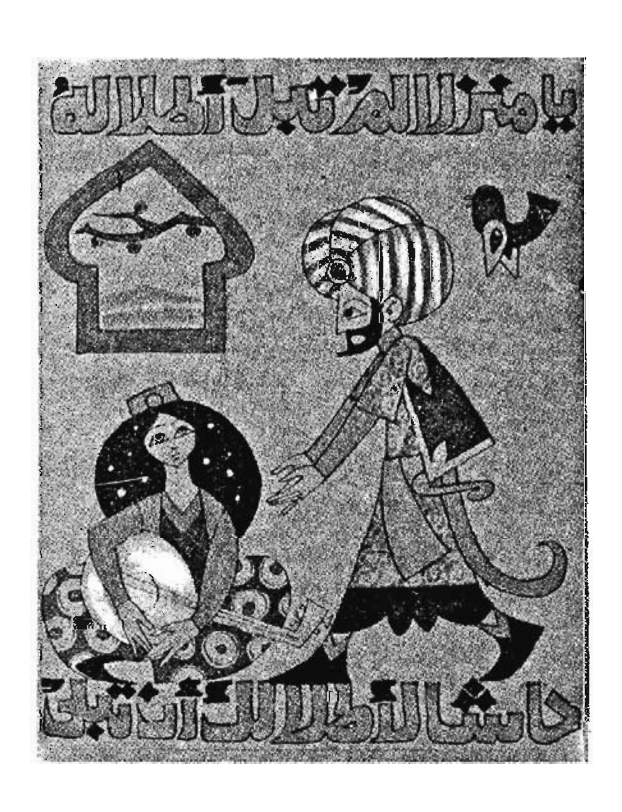
ـ ان لك لحنا أحب أن تسمعنيه .. وهو الذى أوله : « يا زائرينا من الخيام » ..

يا زائرينا من الخيام
حياكما الله بالسلام
يحزننى ان اطعتمانى
ولم تنالا سوى الكلام
بورك هارون من امام
بطاعة الله ذى اعتصام
له الى ذى الجلال قربى
ليست لعدل ولا امام

فما سمعت والله أحسن من غنائه ، وقلت له : لو كنت خليفة لاعطيتك على هذا الصوت مائة الف درهم ٠٠ وأما وأنا اسحاق الموصلى المغنى ، فما لك عندي ولا نصف درهم وقد كافأتك أعظم مكافأة بسماعي اياك ، وطربي لك !٠

قال ضاحكا :

ـ فاني والله قد جمعت من هذا الصوت مائة ألف درهم ، فقد اعـــطاني الرشـــيد عشرة الاف ، ثم درت بالصوت على بيوت الهاشميين والبرامكة والكبراء ، فكل من سمع منهم اسم « هارون » فى هذا الصوت فزع الى خزانة أمواله فاعطاني منها ما تسمح به نفسه ، ظنا منه انى أذكره عند أمير المؤمنين لسخائه بالمال عند ذكر اسمه فى الصوت حتى جمعت مائة الف درهم أو أكثر وما ابتززت أحدا ولا طلبت منه شيئا ٠٠ وما كان الا اسم « هارون » هو الذى يفتح لى بيوت أموالهم ! ٠٠



# أيام الرشيد الأخيرة

## ● اليوم الاول :

حججت مع أمير المؤمنين الرشيد ٠٠ بلغنا في موكبه العظيم مدينة رسول الله ، هذا اليوم ، ففرق الرشيد وولداه : محمد « الامين» وعبد الله « المأمون » أموالا طائلة على أولاد المهاجرين والانصار في المدينة ، ثم مضى موكبه الى مكة ، فأعطى لاهلها كما أعطى في المدينة ، وبلغ عطاؤه فيهما أكثر من ألف ألف دينار ، وهو أعظم شيء أعطاه خليفة من الخلفاء لاهل الحرمين الشريفين ! ٠٠

وانما أغدق الرشيد على الناس ، احتفالا بتولي ولديه الامين والمأمون ولاية عهده ، وقد كتب بذلك كتابين علقهما في الكعبة ، وأشهد عليهما القضاة والفقهاء ورجالات بني العباس ! ٠

ولكن الناس لم يتفاءلوا بما صنع الرشيد ، وقالوا : لا يكون بينهما الا الحرب حين يخلو مكانه في الخلافة ، فانهما يتنازعانها يومئذ ويتقاتلان ! ٠

وفي مكة والمدينة لم أجد أحدا من عظماء رواة الغناء القديم ، ووجدت من يحفظ شيئا ولا يؤديه على وجهه ، وقد تسأله عن صاحب اللحن فلا يعرفه !

لقد انتقل الغناء من مكة والمدينة الى بغداد ، وأظن ان المكي وابن جامع وحكم الوادي هم آخر فحول الحجاز في الغناء المتقن وفي الاهزاج ٠٠

حضرت في مجلس للرشيد بمكة موعظة جعلته يبكي حتى تتخلل دموعه لحيته ، اذ دخل عليه الواعظ الناسك المعروف بابن السماك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ٠٠ ان لك بين يدي الله تعالى مقاما ، وان لك من مقامك منصرفا ، فانظر الى أين منصرفك ٠٠ الى الجنة أو الى النار » ! ٠٠

فلما كثر بكاء الرشيد ، قيل لابن السماك ، « ارفق بأمير المؤمنين»!٠فقال ابن السماك الذي يشوب عقله أحيانا شيء من الاختلاط والتشوش : « دعوه فليمت حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى » !

ثم انشد ابن السماك ، وقد تهيأ للخروج :

اذا خلا في القبور ذو خطر
فزره يوما وانظر الى خطره
ابرزه الدهر من مساكنه
ومن مقاصيره ومن حجره

ثم خرج ابن السماك ، فلحق به بعض خدم الرشيد ومعه مال أمر له به ، فرد المال ، وقال : « ما كنت لاسود وجه الوعظ » ! . ومضى وانه ليفتقر الى درهم واحد يقتات به ! .

## ● اليوم الثاني :

كانت أيام الحج رائعة الروحانية ، غسلتنا من الذنوب ، واعادتنا الى بغداد كما ولدتنا أمهاتنا ، ولا أجدنى الان نشيطا لغنـاء ولا تلحين ، فانى ما زلت فى روحانية الحج ، واصدقائى يسخرون منى قائلين :

ـ أصبح اسحاق الموصلى ناسكا ..

واليوم أفزعنى ما علمته من نكبة الرشيد لوزرائه البرامكة ! .

وقال لى أبى والاسى يعتصره :

ـ ارأيت يا بنى كيف أوقع الرشيد بصديقه جعفر البرمكى ، فقتله ثم صلبه ، ثم أمر فقطعت أعضاؤه ، وعلق كل عضو فى مكان من بغداد ، ثم انزلت أشلاؤه فأحرقت بالنار ! .

ثم قال ابى مدهوشا باكيا :

ـ أى حقد هذا الذى كان يجنه الرشيد لصديقه جعفر بن يحيى الوزير ، وقد كان أقرب اليه ، وأحب من الناس جميعا ؟! ..

جلسنا واجمين ، ورأيت فى أبى انكسارا شديدا ، فقد كان جعفر البرمكى صديقا له ولما اقتسم الرشيد وجعفر ذات يوم من أيام لهوهما ، جماعة المغنين فى قصر الخلافة ، كان أبى فى قسمة جعفـر ، وكان ابن جامع فى قسمة الرشيد ! .. ثم عاد أبى الى الرشيد بعد موت ابن جامع ! .

قلت لابى :

ـ ما كان معنى هذه القسمة ؟! ..

قال :

ـ لم يكن لها معنى الا اللهو والتفكه وكنت أيامها اغنى للرشيد كما يغنيه ابن جامع ، وأفوز منه بجوائز لا يفوز بمثلها ابن جامع ! ..

بكى أبى من الذكريات ، ثم دخل الى جناح فى بيته يعتكف ، وكانى رأيت به أثرا من مرض أخذ يدب الى بدنه متسربا اليه من روحه المعذبه ، فقد تضعضع لموت جعفر البرمكى . وامتلأ كمدا ويأسا من الدنيا وأهلها ! ..

## ● اليوم الثالث :

منذ شهور لم أكتب شيئا فى اليوميات ..

لم أكن أظن ان أول ما أكتب حين أعود اليها ، يكون عن موت أبى ! ..

لقد مات ابراهيم الموصلى سيد من لحن وغنى وقال الشعر ، وروى الاغانى والاشعار وأداها فى عصرنا كله ! ..

مات أبى بعد سنة واحدة من قتل جعفر البرمكى ، وما أظنه الا مات حزنا وكمدا ، حريصا على مفارقة الدنيا اذ فارقها جعفر صديقه .. الذى به أدرك من قبل فى الدنيا أمله ، ولم يجد بعده فيها أملا ! .. ولقد استتم كتاب الصديقين عمله فى هذه الدنيا وبلغ أجله ، فذهب والله بذهابهما الادب والعقل والفضل والمروءة والجمال كله ! ..

دخلت الى الرشيد بعقب وفاة أبى بنحو شهر ، فلما جلست مع المغنين ، رأيت موضع أبى الذى كان يجلس فيه ، خاليا فدمعت عيناى ، فتصبرت وكفكفت الدمع ، ولمحنى الرشيد ، فدعانى اليه وأدنانى مشفقا مواسيا ، فقبلت يده ، فاستعبر وجرى الدمع على خديه ، وان الرشيد فى مواطن الرقة والبكاء ، لرقيق كثير الدمع فقلت أمدحه وقد استويت واقفا بين يديه :

في بقـــاء الخليفة الميمون
خلف من مصيبة المحـزون
لا يضير المصاب رزء اذا ما
كان ذا مفـــزع الى هارون

فقال لى بصوت فيه أثر البكاء :
ــ كذاك والله هو يا اسحاق ، ولن تفقد من أبيك ما دمت حيا الا شخصه !
وأمر بمضاعفةعطائى ، وأن يستمر عطاء ابى فى أولاده الصغار وبناته !

● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد فى سهرة الليلة :

سلى هل قلانى من عشير صحبته
وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيـــق

فطرب الرشيد ، ولكنه لم يأمر لى بجائزة فوجدنى أشرئب اليه ، فضحك وقال :

ــ قد كان أبوك غنانا هذا الصوت فأعطيناه الف دينار ! .. فقد أخذ أبوك ثمنه مرة فلا تطمع ! ..

فعجبت من قوله ، وأدهشنى أن يبلغ به البخل هذا المبلغ وهو من هو كرما ونبلا فقلت :

ــ سيدى ، قد أخذ أبى منك أكثر من مائتى ألف دينار ، ما رأيتك ذكرت منها غير هذا الالف ، على بختى أنا ! ..

فقال الرشيد واجما :

ــ ويحك ! .. أكثر من مائتى الف دينار ؟! استغفر الله من ذلك ! ..
ثم قال لى

ـ ويحك ! .. فما الذى خلف منها !؟

قلت :

ـ خلف على وعلى أولاده ديونا مبلغها خمسة الاف دينار قضيتها عنه ! ..

فقال الرشيد متعجبا :

ـ ما أدرى أينا أشد تضييعا ! .. والله المستعان ! ..

خرجت فى هذه الليلة من مجلس الرشيد بلا درهم واحد ، وذكرت وانا اتعجب كيف ان أخاه الخليفة السابق الهادى ـ رحمه الله ـ قد أعطى أبى فى صوت آخر خمسين ألف دينار ، فاجتمع له فى ليلتين فقط مائتـا ألف دينار ، ولم يجتمع له من الرشيد فى بضعة عشر عاما غناه فيها مئات الاصوات الا هذا المبلغ الذى جمعه فى سهرتين من سهرات الهادى ! ..

الان ، عرفت معنى قول أبى لى فى بعض الايام :

ـ يا بنى .. لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان بيوتنا بالذهب والفضة !.

ليس الرشيد ببخيل فى نفسه . ولكنه قليل العطاء جدا بالقياس الى اخيه وتعتريه أحوال من الحرص أحيانا ـ على استبحار أمواله ـ يحار فيها العقل !

## ● اليوم الخامس :

تسير الامور فى سهرات الرشيد على ما يرام ، الا بعض ليال أراه فاترا لا يشتهى سماع الغناء ، ولا الشعر ، ولا النوادر ، ولا يأكل شيئا ، ولا يشرب ..

فى السنوات الثلاث الماضية ، كنت أرى الرشيد يضعف شيئا بعد شىء ، كأنه طعن فى السن ، وهو فوق الاربعين بقليل ، ولعل ذلك من هموم الملك أو كثرة اللذات ، أو غير ذلك ! ..

وقد كثر الخارجون عليه فى أطراف دولته ، يريدون ازالته عن الخلافة وازالة بنى العباس جميعا ، واخر من سمعت انهم خرجوا عليه ، رجل فى خراسان ورأيت الرشيد مريضا ، ولكنه أصر على الخروج بنفسه لمحاربة الخارجى ، وكنت مع الفضل بن سهل ، فسمعته يقول لعبد الله المأمون ولى عهد الرشيد :

ـ انك لست تدرى ما يحدث بأمير المؤمنين وخراسان ولايتك ، والامين مقدم عليك فى ولاية العهد ، وأخواله بنو هاشم ، وأمه زبيدة تملك من الاموال ما تستطيع به شراء الناس جميعا .. فسر مع أبيك الى خراسان ولا تتخلف مع الامين فى بغداد ! ..

ومضيت أودع الرشيد ، فأوغلت معه كأننى ضمن ركبه وجنده والمسافرين معه .. فسمعته يقول لبعض خاصته :

ـ لا أظنك ترانى أبدا بعد سفرى الى خراسان ! ..

فدعا له الرجل بطول البقاء ! ·· فنظر الرشيد فوجـــدني على مقربة ، فاستدناني ، وقال لي :

ـ ما أظنك ولا أظن أحدا من هؤلاء يدرى ما أجـد في بدني من السـقم والالم ! ··

ثم عدل الى شجرة وانا معه في قليل من خواصه ، فكشف أسـفل بطنه فاذا هو يربطه بعصابة حرير غليظة ربطا شديدا ، وقال : « هذه علة أكتمها عن الناس ، ولكل واحد من ولدى رقيب يتبعني ·· فمسرور الخادم رقيب للمامون ، والطبيب ابن بختيشـــوع رقيب للامين ، وما منهم أحد الا وهـو يحصى انفاسي ويستطيل أيامي ، وقد تعمدوا أن يركبوني دابة عجفاء لتزيدني علة » ! ··

فرحمت والله الرشيد ، وهو الملك الجبار الذى حاز من الدنيا ما لم يحزه أحد !

وهو الحاكم الطاغي ، والسياسي الداهي ! ·



# غناءٌ على الذكريات

**● اليوم الاول :**

قلت ليحيى المكي ، وهو أكبر المطربين والملحنين سنا ، واجمعهم لاغاني كبار المغنين القدماء :

ــ هل حدثتك نفسك قط بأن الغناء حرام ، وان من يصنع غناء أو يسمعه ، يزحزح يوم القيامة عن الجنة فيدخل النار ، وبئس القرار ؟! ..

قال يحيى :

ــ لقيت الامام مالكا وجماعة من فقهاء المدينة ومكة ورأيتهم يسمعون بعض الغناء أحيانا ، وأدركت جماعة من أهل العلم يتشددون فى انكار السماع ، على رأسهم محمد بن سيرين .. وأدركت آخرين يتساهلون فى المغانى ، لا يطعن أحد عليهم ، حسبك منهم الحسن البصرى والشعبى والنخعى ! ..

ثم قال يحيى المكي :

ــ سألت مرة رجلا لغويا نحويا ظريفا كثير الدعابة ، وان كان صواما قواما ، كثير الجلوس فى حلقة الحسن البصرى :

ــ ما تقول في السماع ، فاني رأيت قوما ينكرونه ، ونحن نروح به ونغدو على الخلفاء ؟! ..

فقال الرجل النحوى :

ــ انما اختلفوا في هذا كاختلاف العرب فى كلمة « الهدى » .. بعضهم يؤنثها ، وبعضهم يذكرها ، فيقول هؤلاء : « هذا هدى حسن » .. ويقول أولئك : « هذه هدى حسنة » .. وانما الهدى هدى الله ! ..

ثم مضيت ويحيى المكي الى قصر الرشيد ، وكنت صنعت لحنا جديدا فى شعر بشار ، فقال لى يحيى :

ــ يا اسحاق ! .. يقول عنك الناس : ما فى الدنيا مثل اسحاق الموصلى مقدرة على التلحين ، فهل كان أبوك ــ رحمه الله ــ اقدر منك عليه ؟! .

قلت :

ــ كان أبى ــ رحمه الله ــ مطبوعا ، خلقه الله مغنيا ملحنا ، ولم يكن فى أهله احد يأخذ عنه هذه الصناعة ، أما أنا فنشأت لا اسمع ولا أرى الا

الغناء والمغنين .. وأخذت الصنعة عن أبي ، لم أتعب في السعي لها ، فليس احساني فيها الا فرعا من احسانه ! .. فأين أنا منه ؟! ..

قال يحيى المكى :

ـ ما يغلبك أحد في الكلام يا اسحاق ! .. ولكن أخبرني : كيف اخترت أن تغنى لامير المؤمنين الرشيد من شعر بشار الذى قتله أبوه المهدى لزندقته ، وقد علمت ان الرشيد يتعقب الزنادقة ويستأصلهم ، وهو متشدد في الدين على حبه للدنيا واقباله الشديد على طيباتها ، وأولها السماع ؟!
قلت :

ـ الرشيد يحب شعر بشار ، ولا يبالى بفتاكة هذا الشاعر ، فقد مضى لسبيله ولم يبق الا شعره .. وقد لحنت منه هذه الابيات :

رقت لكم كبدى حتى لو انكم
تهوون الا اريد العيش لم ارد
كان قلبى اذا ذكراكم عرضت
من سحر هاروت او ماروت في عقد
ما هبت الريح من تلقاء أرضكم
الا وجدت لها بردا على كبدى

● **اليوم الثاني :**

كان طرب أمير المؤمنين الرشيد شديدا في سهرة البارحة ..

أعجبه شعر بشار ، وأعجبه لحنى في هذا الشعر ..

وكان أبي ـ رحمه الله ـ قد التمس من الرشيد أن يأمر بألا يغنيه أحد سواه في شعر ذى الرمة ، لان والدى عرف من الوزير جعفر البرمكى ، حب الرشيد لشعر ذى الرمة .. وقد سألت الرشيد أن يورثني ما كان قد اقطعه لابى من شعر ذى الرمة ، فلا يغنيه فيه غيرى ، فأجابني الى ذلك .. ثم سألته ان يجعل شعر بشار وقفا على غنائى ، فقال لى ضاحكا :

ـ ولا كل هذا يااسحاق ! .. قد ورثناك عن أبيك شعر ذى الرمة ، فاجعل شعر بشار لك وللاخرين ! ..

واليوم انشدنى أبو نواس قوله في الخمر :

ما زلت أرشف روح الدن في لطف
واستقى دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولى روحان في جسدى
والدن مطرح جسما بلا روح

قلت لابى نواس :

ـ ما أحسن شعرك هذا ، فوالله ما يقتدر على مثله أحد ، ولقد اتسعت

فى معناه وجودت وملحت ولطفت ، حتى تركت بشار بن برد يحجل خلفك وهو المجلى فى الشعراء ! ..

قال أبو نواس

ـ كأنك تراني أخذته من كلام بشار ؟!

قلت :

ـ لا أرى ذلك ، ولكنى تذكرت قول بشار فى معناه :

شربنـا من فؤاد الدن حتى
تركنا الدن ليس له فـؤاد

فهذا هو أصل المعنى الذى فى بيتيك هذين ، سبقك اليه بشار فى بيته هذا ، ولكنك أربيت عليه بهذا الاتساع فى التصوير والتعبير حتى أبدعت، بل أعجزت ..

تهلل وجه ابى نواس .. وقال :

ـ ألم تسنح لك بعد فرصة تغنى فيها من شعرى لامير المؤمنين الرشيد ؟!

قلت :

ـ وما تشاءون الا أن يشاء الله ! .. ألم يغنه الاخرون فى شعرك ؟! ..

قال ابو نواس :

ـ بلى والله ! ..

ثم تركنى وانصرف بلا كلام ، كأنه يئس من بلـــوغه يوما مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، وما هو ببالغه ! ..

## ● اليوم الثالث :

غنيت اليوم لحنى الذى صنعته فى شعر بشار .. طلبــه الرشـــيد وقال لى :

ـ ان فيه صنعة عجيبة دقيقة ، وان فى غنائه لشجنا يقرح الكبد ، على ما فيه من حلاوة وطلاوة ! ..

فلما أتممت غناءه ، ظننت ان الرشيد لا يعطينى فيه شيئا وقد أعطانى منذ أيام .. لكن الطرب هز أريحية الرشيد هزا شديدا ، فأمر لى بضعف ما أمر لى به فى المرة السابقة ! ..

ثم أخذ الرشيد يسأل الحضـــور من المغنين عن رأيهم فى اللحن ، فكلهم أثنى عليه ، حتى ابراهيم بن المهدى الذى يناوئنى لم يبخل بالثناء ، ولكنه أراد غمزى فقال :

ـ قد كان أمير المؤمنين المهدى ـ رحمه الله ـ غاضبا على بشار ، لرميه

بعض نساء المسلمين بالفجور ، وذلك في قوله :

**لا يؤنسنك من مخباة**

**قول تغلظه وان جرحا**

**عسر النساء الى مياسرة**

**والصعب يمكن بعدما جمحا**

قال الرشيد :

ـ ولكن بشارا لم يقتل الا بدسيسة الوزير يعقوب بن داود ، ولولاه ما وجد عليه المهدى ولا قتله ، فقد زعم ابن داود هذا ان بشارا كان زنديقا فاسقا فأمر المهدى بضربه ، وظن أن ضربه اياه لا يبلغ الموت ، ولكنه كان شيخا ضعيفا فمات .. وندم المهدى على قتله ، ثم غضب على ابن داود فنكبه ، وكان يقول : « لعن الله يعقوب بن داود ، قتل بشارا وهو مسلم خير منه » ! ..

فلما سمعت ذلك من الرشيد ، قلت :

ـ وكيف ثبت لامير المؤمنين المهدى رحمه الله ، ان بشارا كان حسن الاسلام ، لا كافرا ولا زنديقا ؟! ..

قال الرشيد :

ـ في خزائننا كتب وأوراق لبشار جاء بها عامل البصرة الى أمير المؤمنين المهدى بعد قتل بشار ، وقد أخبرني يحيى بن خالد البرمكي ان المهدى رحمه لما قرأ هذه الكتب وجد في بعضها مكتوبا من املاء بشار : « قد كنت عزمت على هجاء بعض آل سليمان بن على ، لانهم ظلموني ، وتعدوا على ، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى آلله عليه وسلم فوهبتهم له فما قلت فيم الا بيتين وهما :

**دينار آل سليمان ودرهمهم**

**كالبابليين حفا بالعفاريت**

**لا يوجدان ولا يلقاهما احد**

**كما سمعت بهاروت وماروت**

فزاد أسف المهدى على قتل بشار ، وهو أشعر الشعراء ، وكان قوله كلما ذكره : « لعن الله يعقوب بن داود ! .. قتل بشارا وهو مسلم خير منه»!

## ● اليوم الرابع :

مات الرشيد : .. ودفن في أرض فارس .. ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مريضا يكاد يقع من فوق دابته في خروجه منذ شهور لاخماد فتنة في تلك البلاد ..

ولاول مرة أرى أبا نواس في قصر الخلافة ، ولم أره قط هناك أيام

الرشيد .. وسمعته ينشد أمير المؤمنين محمدا الامين الذى تولى الخلافة بعد أبيه ، فكان قوله فى تعزيته :

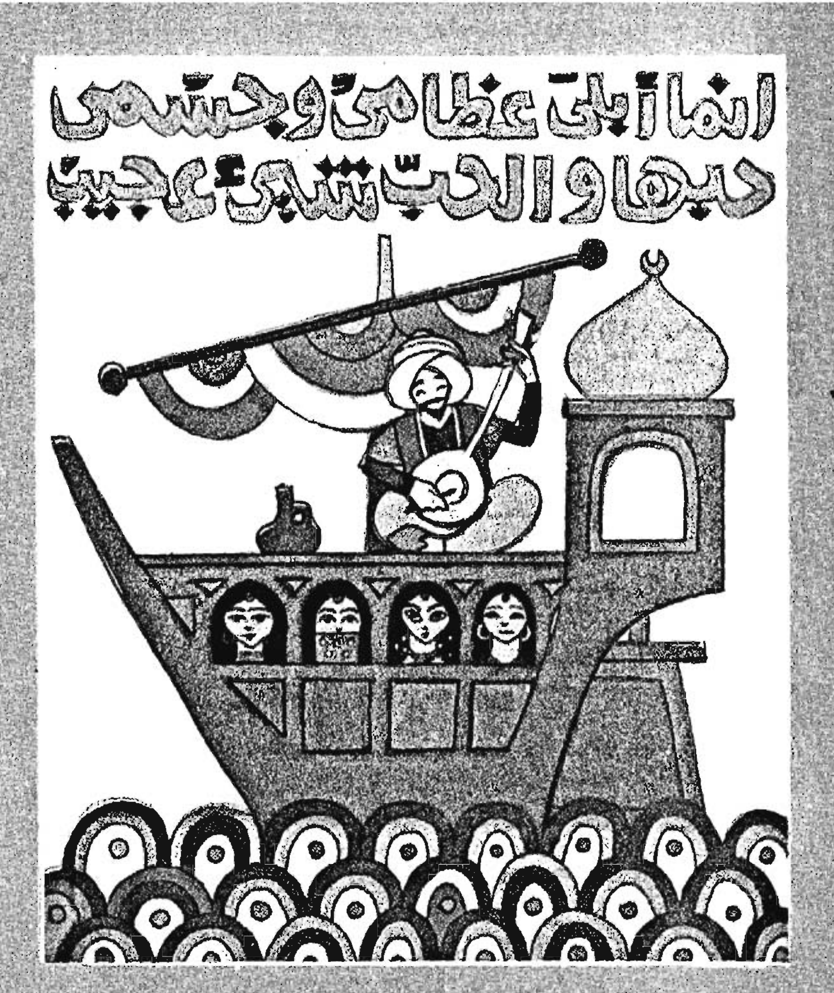
تعزى امير المؤمنين محمـــدا
على خير ميت غيبته المقـــابر
وان امير المؤمنـــين محمـــدا
لرابط جاش للخطوب وصابر
زهت بامير المؤمنـين محمـــد
أسرة ملك واســتقرت منابر
فلا زلت مرعيـــا بعين حفيظة
من الله لا تسطو عليك المقادر
تسوس امور الناس تسعين حجة
وهديك محمود وعرضك وافر

لم تعجبنى أبيات أبى نواس هذه ، فانها نظم لا حياة فيه ، كأنما العزاء فى الموت لا يكون الا بمثل هذا النظم الميت ، وأين هـــذا من روائع أبى نواس ؟!

وأبو نواس ـ منذ اليوم ـ شاعر الخليفة الجديد لا يحجبه أحد عن مجلسه كما كانوا يحجبونه فى عهد الرشيد .. وان محمدا الامين لشـــديد الولع بشعر أبى نواس وصحبته ، ولن يجد مثله نديما له فى الخمر واللهــو بين الجوارى اللابسات ثياب الغلمان ، والغلمان اللابسين ثياب الجوارى ! ..

وكيف تستقيم أمور الخلافة مع هذا الخليفة الحدث الطياش الذى لايرى الدنيا الا لذة كأس أو لذة ثغر ؟! .

ان أبا نواس لن يسألنى بعد اليوم أن أغنى من شـــعره للخليفة حتى يتذكره ، لانه استغنى بنفسه عني وعن غنائى ، فهل ترانى أضطر غدا الى ان أقول له « اذكرنى عند ربك ؟! .. »


انما أبلى عظامى وجسمى
حبها والحب شىء عجيب

# مليون درهم عباسى

**● اليوم الاول :**

تذكرت اليوم أننى منذ سنوات دخلت وصديقى « الاصمعى » الى أمير المؤمنين هارون الرشيد فوجدناه متكدرا لا ينشط لشىء من الغناء أو المنادمة، فظل الاصمعى يروى له نوادر الاعراب وأضاحيكهم ، فلا ينشط ولا يذهب الكدر عن نفسه .. حتى خطرت لى أبيات من شعرى ، فقمت بين يديه فانشدت منها :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى
فذلك شىء ما اليه سبيل
وانى رايت البخل يزرى باهله
فاكرمت نفسى ان يقال بخيل
فعالى فعال المكثرين تجملا
ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف اخاف الفقر أو احرم الغنى
ورأى امير المؤمنين جميل ؟!

فرأيت الرشيد يتنبه الى الابيات ، ويتحرك فى مجلسه ، ويضىء وجهه ، فلما أتممتها قال مبتسما :

ـ لا تخف ان شاء الله ! ..

ثم تفكر لحظة وقال وقد زايله كدره :

ـ لله در أبيات تأتينا بها يا اسحاق ! .. ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ! ..

وأمر مسرورا الخادم بأن يحمل الى دارى خمسين ألف درهم ! ..

فلم استطع أن أتكلم لما ورد على من الدهشة والسرور ، ولكنى رأيت الاصمعى منزويا منكمشا ، قد بان الحسد فى وجهه ، لما ظفرت به من جائزة أمير المؤمنين ! ..

ثم نهض الرشيد ، وقد نشط ، وانقشع كدره ولم يلتفت الى الاصمعى . ولا أمر له بشىء ! ..

فلما صرنا خارج قصر الخليفة قال لى الاصمعى :

ـ الآن علمت يا اسحاق انك أحذق مني بصيد الدراهم ! ·· وقد كان أبوك كذلك ! ··

قلت له :

ـ دع ذا عنك ، فما من شاعر ولا أديب ولا عالم ظفر من جـوائز أمير المؤمنين بمثل ما ظفرت أنت به ! ··

فلم يرتح لقولي ، وطفق يتوجع لخروجه من عند الخليفة صفر اليدين، وخروجي أنا بخمسين ألف درهم ، وان فى الاصمعى لحسدا عرفته فيه من قديم :

أردت تسليته فقلت له :

ـ ألك في سماع بيتين من الشعر استحسنتهما فاحببت أن أقف على رأيك فيهما ؟!

قال متفترا متكسرا :

هات ! ··

فانشدته :

هل الى نظرة اليـك سـبيل
يرو منها الصدى ويشفى الغليـل
ان ما قل منـك يكثر عنـدى
وكثير ممن تحب القليـل ! ··

فرأيته قد اتسعت عيناه دهشة واعجابا ثم قال :

ـ لله در هذا الشعر ·· هذا والله هو الديباج الخسرواني الذى كان يلبسه أكاسرة الفرس ·· هذا والله هو الوشى الاسـكندرانى الذى كان يلبسه ملوك الروم ! ·· هذا هو الشعر المطبوع الذى من صـفته كيت وكيت ! ··

ثم سالنى بلهفة :

ـ لمن هذا الشعر ؟!

قلت :

ـ انه لى ! ··

فتبينت الحسد فى وجهه ! ·· وقال لى والكراهية فى كلامه :

ـ أما ان صناعة الشعراء المحدثين فيه لمبينة جدا ·· ولقـد افسـدته يا اسحاق اذ جزمت الفعل « يروى » فى البيت الاول لضرورة الشعر ، ولا يفعل هذا الشاعر الفحل ولا الشاعر المفلق المطبوع ! ··

قلت معابثا له

ـ فانى نظمت فى هذا المعنى نفسه بيتين آخــرين ليس فيهما ضرورة شعرية ، وان كان فحول الشعراء فى الجاهلية والاسلام يحفل شــعرهم بالضرورات الشعرية ، وأنت به أعلم !

قال وقد نفد صبره :

ـ هات ، وأسرع ، فانى على موعد ! ..

فانشدته :

ايها الظبى الغــرير
هل لنا منــك مجير
ان مـا نولتنى منــك
وان قـل .. كثــير !

فقال لى وهو يهم بركوب دابته :

ـ لولا ان ذلك الموعد قد أزف ، لسمعت من شعرك ومن غنائك أيضا .. فاعذرنى ! ..

ثم وثب على برذونه ، وركضه ، وانا أضحك وأشيعه بالتحية والسلام والدعاء ، فانه شيخنا فى الادب على كل حال ! ..

● **اليوم الثانى :**

بعد وفاة هارون الرشيد ، بقيت أياما حزينــا عليه ، لا أنظم شــعرا ولا أصنع لحنا .. حتى علمت أن حسادى سعوا بى عند الخليفة الجديد الشاب محمد الامين الذى انهمك فى الغنــاء والشراب يعقب وفاة أبيه الرشيد ـ رحمه الله ـ وصار قصره كأنه ســوق الرقيق لكثرة من فيه من الجوارى والغلمان ، وشجعته على ذلك والدته السيدة زبيدة فصــارت هى الحاكمة فى الدولة ، وتفرغ ولدها الامين للذاته !

ثم انى استأذنت فى الدخول عليه هذه الليلة فأبطأ فى الاذن لى ، حتى ظننت أننى أحجب عن لقائه ، واذا به يطلبنى ويلقانى غير متجهم ولا متغير، كأنه مازال على عهده حين كنت أراه وهو ولى عهد صغير السن ! ..

قال لى

ـ ما أعددت من جديد يا اسحاق ؟

قلت :

ـ جعلنى الله فداءك يا أمير المؤمنين .. أتأذن لى فى انشاد ما قلته فيك من شعر ، ثم فى غنائه ..

قال

ـ أنشدني ثم غن ..

فأنشدته هذين البيتين ثم غنيتهما

**يا ايها القـــائم الامـين فدت**

**نفســـك نفسي بالمال والولد**

**بسـطت للنـــاس اذ وليتهم**

**يدا من الجـــود فوق كل يد**

فرايت الامين يهتز طربا ، ويستعيدني ، ويستدنيني الى سريره حتى بان الحسد في وجوه من حضر من المغنين . فلما أتممت اللحن ، وقف الامين فصاح :

ـ يا غلام .. أحمل الى دار اسحاق ألف ألف درهم ..

نظرت فاذا الدهشة في عيون الحاضرين جميعا من مغنين ورجال دولة ، واذا بي لست أقل منهم دهشة ، فما حدث قط أن أمر لي خليفة بهـــذا المال .. وذكرت في دهشتي ما كان أبي رحمه الله يحكيه لي عن كرم الخليفـة الهادي عم خليفتنا هذا محمد الامين ، فقد أمر الهادي لابي ذات ليلة بمائة وخمسين ألف دينار ، تساوي أكثر من ألفي ألف درهم ..

انصرفت آخر الليل الى داري ، وفي الصـــباح رأيت مائة من فراشي قصر الخليفة يحمل كل منهم بدرة تحوي عشرة الاف درهم ، ورأيت جيراني يعدون الفراشين ويحسبون ما يحملون الى داري من مال ! ..

### ● اليوم الثالث :

غضب علي الخليفة محمد الامين ، لسبب لا أدريه فتشفعت اليه بالوزير الفضل بن الربيع ، وهو صديق محب لي ، فشفعه الامين ودعاني الى مجلسه صبيحة هذا اليوم ..

جلس الامين يصطبح ، وهو يحب شرب النبيذ والغناء اصطباحا ، ولكني لا أحب ذلك ، الا انه لابد لي منه ، ولو كان الامر بيدي ما شربت النبيذ في الصباح أبدا ..

قلت لنفسي : هذا خليفة صغير السن ، محب للهو ، ضعيف الفكر ، قد استولى عليه هؤلاء الجالسون حوله يشربون أو يغنون الاهزاج التـافهة ، فان خالفتهم اتهموني بالتكبر والتصنع فلا مناص من الدخول فيما دخلوا فيه من اللهو والهزل ، فلبست قباء وخفا أحمر ، واعتصبت بعصابة صـــفراء وشددت وسطي بشقة حرير حمراء ، ووقفت وفي يدي صـــــفاقتان وأنا أتغنى :

**اسمع لصـــوت طـــريب**

**من صـــنعة الانبــــاري**

صـــــوت مليح خفيف
يطــــير في الاوتــار

فاعجب هذا الهذيان محمـــدا الامين ، وأمر أن يقتصر الغناء في ذلك الصباح على هذا الصوت ، وطلب الى سائر المغنين أن يســكتوا ٠٠ فلما انفض المجلس أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ! ٠٠

وانما قلت في شعرى هذا « صنعة الانبارى » لان الامين كان يسميني متفكها « بالانبارى » منذ دخلت عليه يوما وقد لثت عمامة على رأسي لوثا غير مستحسن ، فقال لى : يا اسحاق ٠٠ كأن عمامتـــك من عمـــائم أهـل الانبار ٠٠



# منادمة المأمون

**● اليوم الاول :**

في أول النهار أقبل خادم من قصر الخليفة المامون يقول لى : أجب أمير المؤمنين ! ..

فكرت ! .. ما هذه الدعوة في هذا الوقت المبكر ؟! ..

سألت الخادم ، فقال :

ـ ان أمير المؤمنين لم يزد على قوله لجماعة من خدمه كنت واياهم في الخدمة منذ الفجر : أبلغوا اسحاق الموصلي يجيء الساعة ! ..

وما التفت أمير المؤمنين الى أحد منا ، ولا أمر شخصا بعينه ، فاسرع رئيسنا صاحب الخدمة في هذا اليوم فقال لى : انطلق ركضا الى أبى محمد اسحاق الموصلي ، فأبلغه ما رسم به أمير المؤمنين أعزه الله ! ..

دخلت غرفة واسعه مزخرفة ، ملوكية المنظر ، كان أمير المؤمنين المأمون راقدا على فراش في ركن منها ! ..

خفت أن يكون مريضا ، فانا أحب هذا الخليفة الذى أكرمني وعظم شاني ، وجعلني أدخل مجلسه مع العلماء والفقهاء والقضاة والشعراء والادباء ، لا مع المغنين فقط ، وقد لبث أبى رحمه الله ، ولبثت بعده طوال عهد الرشيد والامين لا ندخل الا مع المغنين ، فجاء المأمون فرفع منزلتي فوق أن أكون مغنيا لا بضاعة له الا الغناء كهذه الطبقة من المسترزقين بحلوقهم وأوتار عيدانهم ! ..

استدناني المامون وهو مستلق على فراشه . حتى صارت ركبتي على الفراش ، ونظرت في وجهه فداخلني سرور اذ وجدته في حال جميلة من العافية .. ونضرة النعيم .. وسلمت عليه ثم انتظرت ..

لكنه كان صامتا يفكر ، ثم تكلم وفاجأني اذ قال :

ـ يا اسحاق .. أشكو اليك أصحابي ! .. صنعت لفلان كذا ، فلم يحفظ الصنيع ، وثبت عندى عقوقه ، وصنعت لفلان كذا وكذا ، فلم يكن أحسن من الاول ، وفعلت بفلان كذا ، ففعل كذا من التنكر لجميل فعلي ! ..

وعدد الخليفة جماعة من خواصه وأقاربه ورجال دولته ، ورأيت العبوس في وجهه ! ..

لم أعجل بالكلام بعد وقوفي على هذه الامور التي تحدث عنهـا الخليفة ، فما لى شأن فيها ، ولا قبل لى بمن ذكر من العلية والاشراف فيما استودعنى من خبرهم عنده ورأيه فيهم ، فقلت لنفسى : ان خليلتنـا هذا ـ وان كان لى محبا ـ يحلو له أن يختبر أخلاقى ومروءتى وكياستى وحفظى لحسـن الصنيع .. فان رآنى أقع فى أعراض هؤلاء العظمـاء والكبراء ، وأذمهم وأنهشهم وأحرضه عليهم ، سقطت من عينه ، وانصرفت نفسه عنى ، وثبت عنده سقوط مروءتى ، فكرهنى وأبعدنى عن مجلسه والزمنى بيتى ، فتبطل صناعتى ، ويجفونى الناس ، ويكون فى ذلك موتى ..

قال لى :

ـ أراك لا تتكلم يا اسحاق ! ..

فانفتح لى باب من الكلام أتخلص به ، فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين .. انك بتفضلك على ، وحسن رأيك فى ، ظننت انى ممن يشاور فى مثل هذا ، فجاوزت بى حدى ، وهـذا رأى يجـل عنى ولا يبلغه قدرى ! ..

قال المأمون :

ـ ولم ذلك يا اسحاق وانت عندى عالم عاقل ناصح ؟! ..

قلت :

ـ هذه المنزلة لى عندك يا سيدى ، علمتنى ألا أقول الا ما أعرف ، ولا أطلب الا ما أنال ! .

فضحك المأمون وأضاء وجهه ، وصرف الكلام الى وجه آخر فقال :

ـ قد بلغنى يا اسحاق انك فى هذه الايام صنعت لحنا فى شـعر لجرير أو لغريمه الراعى ولم أسمعه منك ! .

قلت :

ـ هو يا سيدى فى شعر للراعى ، وما سـمعه أحد بعد الا جارية أو جاريتان عندى ، ولا حضرت عندك للمنادمة منذ صنعته ! ..

قال المأمون :

ـ فالان غنه فانك حضرت عندنا ! ..

قلت

ـ يا سيدى .. الهيبة والصحو يمنعانى أن أؤديه كما تريد ، فلو آنس أمير المؤمنين عبده بشىء يتطرب به ويتقوى طبعه ، كان أجود ! ..

فأمر المأمون بالغداء فتغدينا ، ومدت الستارة وغنت الجـوارى من ورائها .. ثم قال لى : يا اسحاق أما جاء أوان ذلك الصـوت ؟! .. فقلت : بلى يا سيدى ! . ثم غنيته لحنى فى قول الشاعر الراعى :

الم تسال بعــــارمة الديارا
عن الحى المفارق اين صـــارا

بل ســــاءلتها فابت جـوآبا
وكيف تسائل الدمن القفـارا

فاستحسن المأمون الصوت ، وتسلى به عما كان فيه من الهم والغم بمن عقه ولم يحفظ صنيعه من أشراف دولته ٠ ثم قال لى :

ـ يا اسحاق ! ٠٠ لا طلب بعد وجود البغية « بضم الباء وتسكين الغين» ٠٠ وما أبتغى اليوم من سماع ، الا صوتك هذا ! ٠٠

ثم أجزل صلتى وكسانى خلعة من ثيابه ، وملأ قلبى سرورا ! ٠٠

● **اليوم الثانى :**

حضر الليلة عند أمير المؤمنين المأمون ، جمــــاعة من المغنـــين ، جلسـت فيهم ، بعد انقضاء مجالس الفقهاء والعلمــــاء والادباء عنده ، فانتقلت من مجلس العلم والادب الى مجلس هذه الطبقة من المغنــين الذين تكثر أغلاطهم فى الغناء ٠ وان كان فيهم بعض ذوى الاصوات الجميلة ! ٠

لم أغن فى بداية هذا المجلس ، وكان آخر من غنى « علــويه » ، فمما غناه لحن لابى كان قد صنعه فى قول بشار بن برد :

لعبــدة دار ما تكلمنــــا الدار
تلوح مغانيها كما لاح اسـطار

اســـائل احجـــارا ونؤيا مهدما
وكيف يرد القــول نؤى واحجــار

فطرب المأمون ، وقال لعلويه : أهذا اللحن من صنعتك ؟! ٠٠ قال : بل هو لابراهيم الموصلى ! ٠٠

فسألنى المأمون :

ـ ماذا رأيت يا اسحاق فى غناء علويه لصنعة أبيك ؟! ٠٠

قلت :

ـ رأيته قد اجتهد فى الاداء ، ولكنه أخطأ فى بعض أقسامه وأدواره ٠٠

قال المأمون :

ـ فغنه أنت يا اسحاق لنرى كيف يصح أداؤه ! ٠٠

فغنيته اللحن كما صنعه أبى ـ رحمه الله ـ فاستعادنيه المأمون مرارا ، وشرب عليه أقداحا ، ثم نظر الى معجبا وتمثل قول جرير :

وابن اللبــــون اذا ما لز فى قـــرن
لم يستطع صـــولة البزل القناعيس

يريد المأمون أن يشبه « علويه » بولد الناقة الصغير السن ، الضعيف الاحتمال ، ويشبهني وأبي بالقناعيس وهي الجمال الضخمة العظيمة القوة الكبيرة الاحمال ! ..

وهذا في الحقيقة هو الرأى الثابت للمأمون فينا ـ أبي وانا ـ وانه ليأخذ برأيي في كل ما يشتبه عليه من لحن قديم أو جديد ، وان له في الغناء لذوقا مرهفا وعلما ..

وقد أمر لى بخمسين الف درهم ، ولم يترك مغنيا ممن حضر الا أمر له بجائزة ، وفيهم علويه ، على غلطه فيما غنى ! ..

## ● اليوم الثالث :

جاءني علويه بعد الفجر بقليل ، فعاتبني وقال لى : « أنا تلميذ أبيك وتخريجه وتخريجك وكنت أرجو أن تسترني أمس فيما غلطت في غنائه من ألحان أبيك رحمه الله في شعر بشار .. ولكنك أبيت ـ على مألوف عادتك ـ الا التشدق بعلمك ، حتى فضحتني عند أمير المؤمنين ، وكان يسعك أن تغضي عني في حضرته ثم تصحح لى الخطأ بعد أن ننصرف الى بيوتنا » ! ..

قلت لعلويه غير مبال بما يرميني به من التشدق بالعلم :

ـ انما اردت ان أدلك على الصواب ، فلا تقع في الخطأ بعده ، واردت أن يروى المغنون صنعة أبي على أصلها ، وقد رأيتني أصلح لمخارق بعض ما يغني من لحون الاقدمين أو من لحوني أو غيرها ، وان مخارقا ليملك من حسن الصوت ما لا يملكه أحد .. ولكن الصوت الحسن يشينه الخطأ في الاداء ! ..

علويه كثير اللجاجة ، عرفته كذلك منذ كان يتعلم الصناعة على يد أبي رحمه الله ..

فما اقتنع بما قلت له ، ومضى يذكرني بما صنعه لى عند المأمون بعد قتل أخيه الامين واعتلائه سرير الخلافة ..

قلت لعلويه : بل أذكر حسن صنيعك ولا أنساه .. فتركني وانصرف وبه بقية غضب ! ..

ولقد أذكرني والله من نسيان .. فان المأمون بعد أن دخل بغداد ، وكان أخوه قد خلع وقتل ، لبث عامين لا يسمع حرفا من الاغاني ، حتى تغنى بحضرته أبو عيسى ، وهو أخ من أخوة المأمون الذين أنجبهم الرشيد من جواريه الكثيرات ، وأبو عيسى هذا من أبناء الخلفاء الذين تكاثروا في هذه الايام على صناعة الغناء يتعشقونها ويدعون العلم بها ..

ثم واظب المأمون على السماع متسترا غير مستهتر ، تشبها بأبيه الرشيد فأقام كذلك أربع سنوات ، ثم ظهر الى الندماء والمغنين وجالسهم وشرب وطرب .. وسأل عني وكنت لا أذهب اليه مع المغنين فطعنوا على وجرحوني

بحضرته ، وقال الطاعنون : « ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة ؟! » •• قال المأمون : « ما أبقى هذا من التيه شيئا الا استعمله » •• ثم أمسك المأمون عن ذكرى •• فجفاني من كان يصلني لسوء رأى الخليفة الذى ظهر في أمرى ، فاضر ذلك بى جدا ، حتى جاءنى « علويه » يوما فقال : « اتأذن لى فى ذكرك بمجلس المأمون فانا قد دعينا اليه اليوم ؟! » •• قلت : « لا •• ولكن غنه بهذا الشعر ، فانه يسألك عن صاحب اللحن فينفتح لك الكلام عنى » •• ثم ألقيت على علويه لحنا فى شعر لى :

يا سرحة الماء قد سدت موارده
أما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له
محلأ عن طريق الماء مطرود

كنيت بسرحة الماء عن المرأة وكانت العرب تكنى عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء •• فأعجب الشعر واللحن الخليفة وقال لعلويه : لمن هذا اللحن الجيد فى الكلام الجيد ؟! قال علويه : لعبد من عبيدك يا سيدى جفوته واطرحته من غير جرم ، فقال المأمون : أأسحاق تعنى ؟! •• قال نعم ! •• قال المأمون : يحضر الساعة •• فجأنى رسوله ، فصرت اليه فلما رآنى قال : أدن فدنوت فرفع يديه مادهما ، فانكببت عليه واحتضنني بيديه ، واظهر من برى واكرامى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لبره ! ••

فهذه والله قصتى مع علويه حين جفانى المأمون فى بداية خلافته ، لم أنسها ، ولا جحدت فضل علويه بل قمت بحقه حين أصلحت خطأه ، وليس فى ذلك جرح له فان الخليفة يسألنى أن أصلح أخطاء المغنين والمغنيات ، وصارت هذه عادة يعرفها هؤلاء ، فما ذنبى فيما حدث لعلويه فى تلك الليلة حين أصلحت بعض ما أخطأ فيه من ألحان أبى ؟! •

# الطفيلى الظريف

## ● اليوم الاول :

يومى هذا يوم عجيب ، امتد شهرا ، حتى ظن الاهل والاصدقاء والخليفة وأصحاب السلطان ، انى ضللت فى الصحراء ، أو دخلت نفقا فى جبل ولم أخرج منه ..

غدوت منذ شهر وأنا ضجر من ملازمتى دار الخلافة والخدمة فيها ، فركبت فجرا ، وعزمت على أن أطوف الصحراء متفرجا ، وقلت لغلمانى : « ان جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه انى بكرت فى بعض مهماتى ، وانكم لاتعرفون أين توجهت » .. ثم مضيت وطفت فى الصحراء ما بدا لى ولم أعد الى بغداد الا وقد حمى النهار ، فوقفت فى شارع ثخين الظل ، ثم نزلت الى فناء رحب على الطريق استريح ، فجاء خادم يقود حمارا فارها لم أر أحسن منه فراهة ونشاطا ، عليه جارية راكبة ، تحتها منديل كبير من حرير ، وعليها من الملابس الفاخرة ما لا غاية بعده ! .. ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا فاترا ، وشمائل حسنة ، ومن ظرف جوارى بغداد انهن يسرفن فى السفور عن وجوههن الجميلة ، فى حين تسرف الزوجات الحرائر فى حجب وجوههن ! ..

خمنت ان الجارية مغنية ، فانى أشم رائحة الغناء ، وأميز الجارية المغنية من غيرها .. يكفى أن أتأمل شفتيها لكى أقول : هذه مغنية ، أو لا أقول ! .. ان الغناء يترك أثرا جميلا خاصا على الشفتين ! ..

دخلت الجارية الدار الكبيرة المطلة على الفناء ، وجاء شابان جميلان

فأستاذنا فى الدخول فأسرعت فوقفت معها ودخلت ، فظننا ان صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار انى معهما ..

جلسنا فى ايوان جميل ، وجىء بالطعام فاكلنا ، وبالشراب فوضع بين أيدينا ، ثم خرجت الجارية وفى يدها عود فغنت وشربنا على غنائها .

ثم قمت لحاجة ، فسأل صاحب الدار ضيفيه عنى فاخبراه انهما لا يعرفانى ! .. فقال لهما : هذا طفيلى ، ولكنه ظريف ، فارجو أن تحسنوا عشرته ، فسمعت أحد الشابين يقول : والله ما يستحق هذا الطفيلى أن نحسن عشرته ، ولابد من ضربه وطرده ، فلم يزل صاحب الدار وصاحبه يسترضيانه حتى هدأ ..

عدت فجلست ، وغنت الجارية من الحاني :

**ذكرتك ان مرت بنا أم شـادن**
**امام المطـايا تشرئب وتسنح**
**من المؤلفات الرمل ادماء حـرة**
**شعاع الضحى فى متنها يتوضح**

فسرني انها أدت لحني هذا ـ وهو صعب ـ أداء صالحا ، وقد سمعت بعض كبار المغنين أخذوه عني وظنوا انهم حفظوه وأحكموه ، ويؤدونه أداء فاسدا يصك المسامع ! ..

وغنت أصواتا شتى ، حتى غنت لحني الذي يقول العارفون الحذاق انه من أوابدي وبدائعي .. وسمعت فيه من يقول : لو عـاش معبـد وهو من سادة القدماء في التلحين لما شق غبار اسحاق في هذا اللحن .. ذلك انه فى بيتين فقط من عشر كلمات ، وهما :

**الطلـول الدوارس**
**فارقتهـا الاوانس**
**أوحشت بعد اهلها**
**فهى قفـر بسابس**

فاول بيت اربع كلمات ، بدأت بها نشيدا ، وتلوته بالبسيط ، وجعلت فيه صياحا الى ذروة الصوت ، ثم اسجاحا وترجيحا للنغم واختلاسا فيه .. هذا كله فى هذه الكلمات الاربع ، ثم صنعت في البيت الثـاني ما يوافق ما صنعته في الاول .. فلما سمع العرفاء والحذاق هذا اللحن قالوا ماسمعنا ان أحدا من القدماء أو من المعاصرين استطاع أن يصنع مثل هذا أو يقدر على شيء منه ! ..

تتبعت أداء الجارية مشفقا عليها من خطأ تقع فيه ، أو عجز عن أداء نغمة صعبة ، ولكنها مرت فى اللحن ، فكان أمرها فيه أصلح من أمرها فى اللحن الاول ! ..

ثم غنت من شعري وتلحيني :

**قل لمن صـد عاتبـا**
**وناى عنـك جانبـا**
**قد بلغـت الـذى اردت**
**وان كنت لاعبـا**

فكان أصلح ما غنته من الحاني ، فطربت وشربت عليه ، ثم بدا لى ان ارشدها الى شيء فى هذا اللحن ، فرماني أحد الشابين الضيفين بالنظـر الشزر . وهو الشاب الذي كان يقترح ضربي وطردي . وقال لى بلهجة تبينت فيها حمقه وسوء أدبه :

ـ ما رأيت طفيليا أصفق وجها منك ! ٠٠ لم تقنع بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ! ٠٠

فاطرقت ولم أجبه ، وجعل صاحب الدار يكفه عني ، حتى قاموا للصلاة ، وتأخرت قليلا ، فأخذت عود الجارية وشددت طبقته وأصلحته اصــــلاحا محكما ، وقمت فصليت ! ٠٠

فلما عدنا ، أخذ ذلك الشاب في عربدته على وأنا صامت ٠٠ ثم أخذت الجارية العود فجسته وقالت :

ـ من مس عودى ؟! ٠٠

قالوا :

ـ ما مسه أحد منا ! ٠٠

قالت :

ـ بلى والله لقد مسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه اصـــلاح متمكن من صناعته ! ٠٠

فقلت لها :

ـ أنا أصلحته ! ٠٠

دهشت الجارية ثم قالت لى :

ـ فبالله خذه واضرب به ! ٠٠

فضربت به ضربا طريفا عجيبا صـــعبا ، فما بقى أحد منهم الا وثب على قدميه وجلس بين يدى ، حتى ذلك الشاب الذى اقترح طردى وأكثر من التهجم على والانكار لحالى ! ٠٠

وقال لى صاحب الدار :

ـ يا سيدى أتغنى ؟! ٠٠

ـ نعم ٠٠ وأعرفكم بنفسى ٠٠ أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلى ٠٠ والله انى لآتيه على الخليفة اذا طلبنى ، وأنتم تقولون لى ما أكره منــذ اليــوم لانى تملحت معكم ٠٠ والله لانطقت حرفا ولا جلست معكم حتى تخرجوا هــذا الشاب المعربد المقيت الغث ! ٠٠

فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك ، وانك لتجترىء على من لاتعرف، فأخذ الشاب يعتذر لى ، فرأيت أن أزداد تملحا معهم وظرفا ، بأن أقبــل عذره ففعلت ، وبدأت فغنيت الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، وهى تسمعنى وتزداد لها حفظا وتحكمها حرفا حرفا ٠٠ فأطربنى منها ذلك كما اطربنى غناؤها وجمال وجهها وحلاوة شمائلها ! ٠٠

ثم قال لى صاحب الدار :

ـ يا سيدى ٠٠ هل لك فى خصلة ؟

ـ ما هى ؟! ••

ـ تقيم عندى شهرا ، والجارية لك ! ••

فاقمت عنده ثلاثين يوما ، لا يدرى أحد من أهلى وأصدقائى ، ولا يدرى الخليفة المأمون أين أنا •• وسمعت من الرجل ـ وكان يخـــرج أحيانا من بيته ثم يعود ـ ان المأمون أطلق مناديا يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبرا وقد ظن انى هلكت وحيره أمرى ، وحير الناس فى بغداد ! ••

فلما كان اليوم الاخير أخذت الجارية فجئت منزلى ، وتلقـانى أهلى كأنى قادم من العالم الاخر •

وركبت الى أمير المؤمنين من وقتى ، فلما رآنى قال بصوت فيه لهفة :

ـ اسحاق ؟! •• ويحك ! •• أين تكون ؟! •• كدنا والله نيـأس من عودتك ، وقلنا ابتلعته الصحراء •

فاخبرت أمير المؤمنين بالقصة ، فأمر باحضار الرجـل الذى حللت عليه ضيفا طيلة الايام الثلاثين وأخذت منه الجارية ، وقال له المأمون •

ـ أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ! ••

وامر له بمائة ألف درهم ! ••

ثم قال لى المأمون متبسطا ضاحكا :

ـ أحضرنى هذه الجارية يا اسحاق ، فقد وجب أن نسمع منها ما سمعت ، لنعرف فضلها فى الغناء الذى اعترفت لها به ، وقلما رأيتـك تعترف لمغن ولا مغنية بفضل فى الغناء ! ••

فلما سمع المأمون الجارية طرب وشرب ، وأمر لى بجائزة ، ولها بخمسين ألف درهم •• ثم قال لى :

ـ قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنينى وراء السـتارة مع الجوارى ! ••

فربحت والله بتلك الرحلة فى الصحراء ، وأربحت ! •• وفزت بجارية مغنية ، ما فى العراق كله مثلها ، ولا سمعت من حلق مغن ولا مغنية لحنا لى يؤدى على وجهه ، الا منها•••

## ● اليوم الثانى :

قال لى المأمون اليوم : حدثنى عن ليلة دخلت فيها على الرشـيد رحمه الله وبين يديه جواريه : سحر وضياء وخنث ! ••

فقلت للمأمون :

يا أمـير المؤمنـين اننى لم أرهن بين يديه مجتمعـات ، ولكنى أحدثك بخبرهن ! •• فان الرشيد رحمه الله أرسل الى ذات ليلة فدخلت عليه فاذا

به جالس وبين يديه جارية عليهـا قميص وردى وسراويل وردية كأنهـا ياقوتة على وردة ، فلما رآنى قال لى : اجلس وغن ! ٠٠

فغنيت لحنا فى قول الشاعر :

تشكى الكميت الجرى لما جهدته

وبين لو يسـتطيع أن يتكلما

فطرب وقال لى : لمن هذا اللحن ؟! ٠٠

قلت : لى يا أمير المؤمنين ، فقال : ان لابن سريج فى هذا الشعر لحنا فهاته ٠٠ فغنيته اياه فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسـقانى ٠٠ ثم قال : غن ! ٠٠ فغنيته :

هاج شـوقى بعدما شيب

(( م )) اصـداغى بروق

موهنـا والبـرق مما

ذا الهوى قدما يشـوق

فقال : لمن هذا اللحن ؟! ٠٠ قلت : لى ٠٠ قال : قد كنت سـمعت فيه منك لحنا آخر ٠٠ قلت : نعم ٠٠ لحـن ابن محـرز ٠٠ قال : هاته ! ٠ فغنيته فطرب وشرب رطلا وسقى الجـارية وسقانى ، ثم قال غن ! ٠٠ فغنيته :

افاطم مهلا بعض هـذا التدلل

وان كنت قد ازمعت هجرى فاجملى

فقال لى : ليس هذا اللحن أريد فى هذا الشعر ، ولكن أريد لحن ابن سريج فيه ، فغنيته اياه وشرب وشربت وشربت الجارية ٠٠

ثم قال وقد تملكته نشوة :

ـ حدثنى ! ٠٠

فجعلت أحدثه باخبار العرب وأيامهم ، ثم باحاديث المغنيات والمغنين ، وأنشده أشعار الندماء والمحدثين ٠٠ حتى أقبل وزيره الفضل بن الربيع فكأنما أعتقنى فقد كنت تعبت من الغناء والكلام ، فحدثه الفضل عن ثلاث جوار حسان ظريفات أديبات ، وكأنه يحرضه على طلبهن منه ، ففطن الرشيد وقال له :

ـ هل تسخو نفسك بهن ؟! ٠٠

فانتهزها الفضل بن الربيع فرصة وقال :

ـ والله يا أمير المؤمنين انى لاسخو بهن وبنفسى ، فبهـا فـداك الله تعالى ! ٠٠

فعجبت لمعرفة الفضل بن الربيع من أين يأكل كتف أمير المؤمنـين ، ولا

عجب ، فهو الذى أغراه ودبر له نكبة البرامكة ٠٠ وكان لا يفتأ يجيء اليه بما يسره من الجوارى ومتاع الدنيا منذ تلك النكبة ! ٠٠

ثم قلت للمأمون :

ــ فهؤلاء الجوارى ــ يا أمير المؤمنين ــ هن : سحر وضياء وخنث وأجملهن سحر ، فانها ساحرة كاسمها ٠٠ وفيهن يقول الرشيد :

**ان ســـحرا وضــياء وخنث**
**هن ســحر وضـــياء وخنث**

**اخذت ســـحر ولا ذنب لها**
**ثلثي قـلبى ، وتربـاها الثلث**

فكان لسحر ثلثا قلب الرشيد ٠٠ ولزميلتيها الثلث الباقى ! ٠٠

فضحك المأمون ، وقال لى : هل غنيت شيئا فى هذين البيتين ؟! ٠٠

قلت :

ــ رأيت أمير المؤمنين الرشيد يغار عليهن فجاوزتهن الى غيرهن من ذوات السحر والضياء والخنوثة ٠٠ وصنعت فيهن ما شئت من الالحان ! ٠٠

فاشتد ضحك المأمون وأمر لى بجائزة سنية ! ٠٠ وكان فى تلك الليلة يتفكه بكلامى ولا ينكر ما يسمع عن أبيه ! ٠٠

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذي اردت وان كنت لاعبا

# مكائد المغنين

## ● اليوم الاول :

أشعر أن بصرى يضعف يوما بعد يوم ، وأعالجه فلا يقـــوى ، ولا يرد عنه العدج ما يعتريه من ضعف مستمر .. وقد سألت الطبيب : أيكون هذا من أثر ضربة عنيفه على رأسى بقضيب من الحديد نالنى بها فى صـــباى بعض الناس ؟! .. فاجاب : نعم صدقت ، وقد لطف الله بك ، فعشت ما سلف من عمرك مبصرا ، وستعيش مبصرا ان شـــاء الله ولو عمرت مائة عام ! ..

أنا الان فى الخامسة والسبعين من عمرى ، ولا ينغص عيشى الا ماأحدثه الدهر فى بصرى ، وأخشى يوما يقول فيه الناس : قد صـــار اســـحاق الموصلى ضريرا ! ..

دعانى الامير الواثق ولى عهد الخليفة المعتصم الى لقائه فى مدينة « سر من رأى » مقر الخلافة الجديد ، ومعسكر جيش الخليفة فانحـــدرت اليها من بغداد فى سفينة من سفن دجلة .. فلما قاربنا شاطىء سر من رأى تناهت الى أسماعنا ضجة هائلة لم نتبين حقيقتها الا حين ألقت السفينة مراســيها على الشاطىء ! ..

رأيت المعتصم يخرج من المدينة بجيش عظيم ، وقيل لى انه خارج لحرب الروم ، لانهم أسروا امرأة عربية يقال انها هاشمية فصاحت وهى تتخبط بين أيديهم « وامعتصماه ! .. » .. فبلغته القصة فخرج على حمية وغضب ليقاتل الروم ويحمى أعراض العرب والمسلمين .

دخلت قصر الخلافة ، والواثق ينـــوب فيه عن أبيه ، ولكنه لا يبـــالى بالحرب التى خرج اليها أبوه الخليفة المقاتل الذى اعتاد الخروج الى الحرب والعودة منها ظافرا ..

ووافق دخولى القصر ، جلوس الواثق للصـــبوح ، فرأيته يجلس وسط المغنين ، لا فوق سريره مختلطا بهم كأنه واحد منهم فى حلقة واحـــدة .. وقال لى :

ــ يا اسحاق .. خذ عودا وغن ! ..

فتعللت بوجع عينى ولم اغن ، فقال لى وللمغنين ..

ــ أنا اغنى اذن .. ثم يغنى كل منكم بعدى فى دوره ! ..

غنى الواثق فأجاد ، ثم أخذ أصحابنا يغنون كل فى دوره ، حتى جاء دورى ، فاعتذرت بوجع عينى ، فقال الواثق :

ــ أعود اذن فاغنى ، ثم يغنى كل منكم ! ••

فغنى الواثق ، وغنى المغنون ، حتى جاءت نوبتى فى الغناء فاعتذرت ، فصاح الواثق :

ــ ياخوزى يا كلب ! •• أتواضع لك وأغنى ، وترتفع عنى ؟! •• أترى لو انى قتلتك كان المعتصم يقتلنى بك ؟! ••

ثم امر بضربى ثلاثين مقرعة ، وحلف الا يغنى أحد غيرى سائر ذلك اليوم •• فما زلت أغنى ــ عقابا لى ــ حتى انقضى اليوم وانصرفت بلا جائزة ! ••

● **اليوم الثانى :**

مات المعتصم ، وتولى الواثق الخـــلافة ، وكنت مع الواقفين بين يديه من المغنين والشعراء فى أول مجالسه التى جلسها بعد ولايته الخلافة ، فأنشد الشعراء ، وغنى المغنون ، وقال الحضور فى تهنئته كلاما كثيرا •

ثم خرج الناس ، وبقيت عنده مع بعض خواصه ، فقال لى :

ــ ويحك يا اسحاق •• أما اشتقت الينا ، فقد انقضـــت ســـنوات منذ ضربتك ثلاثين مقرعة ، لم نرك ولم نسمع غناءك ، كأنك خاصـــمتنا منذ يومئذ ! ••

فقلت :

ــ بلى والله يا أمير المؤمنين ، قد برانى الشوق اليكم ، وقد قلت فى ذلك أبياتا ! ••

فتهلل وجهه وقال

ــ هاتها يا أبا محمد ••

فأنشدته :

**اشـــكو الى الله بعدى عن خليفته**
**وما اقاســـيه من هم ومـن كبـر**

**لا اســـتطيع رحيلا ان هممت به**
**يوما اليه ولا اقوى على الســـفر**

**انوى الرحيـــل اليـه ثم يمنعنى**
**مااحدث الدهر فى جسمى وفى بصرى**

ثم غنيته لحنا جديدا من ألحانى فاستعاده ليلة كاملة لا يشرب على غيره •• ووصلنى بثلاثمائة ألف درهم ، فأسعدتنى صلته هذه التى لم يكن جده هارون الرشيد يصلنى بمثلها مع أن الدولة فى عهده كانت تسبح فى بحر

من الذهب والفضة ، وليست الحال الان كذلك ،وليس في بيت مال الدولة ولا في بيت مال الخليفة الخاص الا الشيء اليسير ! .

● **اليوم الثالث :**

دخلت دار الواثق ، فسمعت صوت عود وترنما ، فلما بلغت مجلس الواثق قال لى : « أى شيء سمعت الآن يا اسحاق ؟! » .. قلت : « سمعت يا أمير المؤمنين ما لم أسمع مثله قط حسنا واطرابا » ! .. فضحك فقال : « انما هذا فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل ، وكثر فى مكة والمدينة ! .. أتحب أن تسمعه منى ؟! » .. قلت : « أى والذى شرفنى بخطابك وجميل رأيك » .. « يا غلام هات العود ، وضرب الواثق وغنى فى شعر لابىالعتاهية بلحن صنعه فيه :

**اضحت قبورهم من بعد عزهم**
**تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل**
**لا يدفعون هواما عن وجوههم**
**كانهم خشب بالقاع منجدل**

فلما أتمه قمت فدعوت له دعاء طويلا ، حتى اجلسنى وقال : « أتشتهى ان تسمعه ثانية ؟! » .. فقلت : « أى والله .. فهذا هو الغناء الذى يلامس القلوب » .. فغنانيه .. فقمت فدعوت له .. فغنانيه ثالثة ! ..

ثم صاح ببعض خدمه « احملوا الى اسحاق ثلاثمائة ألف درهم » ! . وقال لى : « يا اسحاق .. قد سمعت ثلاثة أصوات ، وأخذت ثلاثمائة ألف درهم ، فانصرف الى أهلك مسرورا » ! ..

● **اليوم الرابع :**

صار الواثق جيد التلحين والغناء وضرب العود ، وليس فى المغنين ولا الضاربين أحسن منه ولا أعلم بهذه الصناعة ، وهو شديد الثقة بعلمى ، فلا يصنع لحنا الا سألنى عن رأيى فيه .. وله فى ذلك طريقة لا تتغير ،فانه يقول لى : « قد وقع الينا صوت قديم من بعض العجائز ما سمعه أحد » .. ثم يأمر من غلمان القصر المغنين من يغنيني اياه فى حضرته .. فان كان لحنا جيدا قرظته ووصفته واستحسنته ، والا ذكرت ما فيه من خطأ ، فان كان للواثق هوى فى هذا اللحن سألنى تقويمه واصلاح فساده ! ..

وهو لا يغير طريقته الساذجة هذه فى عرض ألحانه ، كأنه لا يعلم ان أقل الناس فطنة لا تفوته هذه اللعبة ! ..

وقد صنع لحنا فى هذا الشعر :

**هل تعلمين وراء الحب منزلة**
**تدنى اليك فان الحب اقصانى**

هـــذا كتاب فتى طالت بليته
يقول يا مشتكى بثى واحزانى

كما صنع فى شعر ذى الرمة :

خليلى عوجا من صـــــدور الرواحل
بجرعاء حزوى وابكيا فى المنازل

لعل انحــــدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشـــفى نجى البـــلابل

ولى فى شعر ذى الرمة هذا لحن مشهور يحفظه الواثق ، فلما صنع لحنه هذا فيه أسمعنيه وسألنى رأيى فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين ان لحنك هذا الرائع قد أرانى قبح لحنى وسماجته .. ووالله لقد اقتصصت منى وزدت يا أمير المؤمنين بما جئت به فى لحنك من بديع الصنعة ! .

فأمر لى بمائة الف درهم ، ثم قال لىّ :

ـ يا اسحاق .. يعجبنا لحنك :

لقـــد بخلت حتى لو انى ســـالتها
قذى العين من ســـافى التراب لضنت

فهلا اقمت عندنا فطارحت به هؤلاء الغلمـــان المغنين فى القصر ، حتى يأخذوه عنك ويتقنوه ، فاذا اشتهيناه أمرنا منهم من يغنينا به ! ..

فمكثت فى القصر أياما أطارحهم اللحن ، ولا أحد من هؤلاء المغنين يقدر أن يأخذه ، فضلا عن أن يحكمه ويتقنه ، فقلت للواثق : يا أمير المؤمنين .. أخرج لى الجارية « شجا » فستأخذ اللحن وتحكمه .. فأمر فأخرجـوها وطارحتها اللحن حتى أحكمته وغنته الواثق فطـــرب ، وأمر لى بمائة الف درهم ..

ان « شجا » هى احدى ربيباتى وتلميذاتى .. اشتريتها صغيرة ، وثقفتها ودربتها على الغناء وضرب العود حتى تخرجت وبرعت ، فأهديتهـا للواثق وصارت من مغنيات قصره ، ولكن جاريته « فريدة » حظيت عنده وتفوقت بجمالها وصوتها النادر ، وكان عمرو بن بانة قد أهداها اليه بعد أن أهديت اليه « شجا » ..

## ● اليوم الخامس :

لم أكد أعود الى بغداد حتى قال لى حاكم بغـــــداد : « أن أمير المؤمنـين أمرنى باشخاصك اليه فى سامرا » ! ..

وفى « سامرا » عرفت سبب استدعائى ، فقد صنع الواثق لحنـا فى : « لقد بخلت حتى لو انى سألتها » .. وأراد أن يعرف رأيى فيه ! ..

لقيت عنده المطرب مخارقا ، فأمره بغناء اللحن ، ثم سألني رأيي فقلت: هنا غناء فاسد لا أرضاه ، فغضب الواثق وأخرجني من مجلسه ! ..

فلما كان من الغد أرسل من يحضرني اليه ، فرأيت في مجلسه « فريدة » .. لا أحد معه غيرها ، فغنت لحنه هذا فقلت : « هذا لحن صحيح الصنعة والقسمة والتجزئة وما هكذا سمعته أمس من مخارق » .. ثم أخبرت الواثق عن مواضع فساد اللحن كما غناه مخارق ، ففهم ولم يكن قد تبينه في غناء مخارق ، ثم غنت فريدة عدة ألحان أخرى من القديم والحديث ، وقلت رأيي في جميعها مدحا أو طعنا ، فأجازني الواثق ورضي عني ! ..

خرجت من القصر فتبعني خادم للواثق ممن أثق بهم ، فقال لي : « الحمد لله الذى نصرك على مخارق عند أمير المؤمنين ، فانه هو الذى كادك عنده وقال له ان اسحاق الموصلي شيطان خبيث داعية يقول بحضرتك في الحانك ما يرضيك فاذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك » ..

ثم قال لي الخادم : « ان مخارقا قال لامير المؤمنين : أنا أقيم لك الدليل على خبث اسحاق ، فأغنيه لحنك الجديد ، ولا يقال له لمن هذا اللحن وسترى كيف يقول فيه ! » .

« فلما حضرت يا أبا محمد غنى مخارق اللحن فزاد فيه زوائد كثيرة أفسدته فقلت أنت رأيك الحق فيه ، وأغضبت أمير المؤمنين ، فلما انصرف مخارق قالت فريدة لامير المؤمنين : « ان اسحاق الموصلي يأخذ نفسه بقول الحق في صناعته على كل حال ساءته أو سرته لا يخاف في ذلك ضررا ولا يرجو نفعا ، وقد كاده مخارق عندك فزاد في صدر الصوت فأفسده متعمدا ليطعن اسحاق فيه فتغضب عليه .. وأنا أعرضه على اسحاق كما صنعت انت يا أمير المؤمنين ، وسترى رأيه فيه » ! ..

هكذا كادني مخارق الذى كان خادما مغمورا فأخذه أبي رحمه الله فعلمه وهذبه وقدمه للرشيد .

ولولا « فريدة » التي لا فضل لي عليها ، لبلغ مخارق بمكيدته ما كان يرجو من اقصائي عن مجلس الخليفة ! .. فقد ساءه حب الواثق لي ، وما يغمرني به من الجوائز حتى زاد بره بي على كل بر أو اكرام شملني في عهد الرشيد والامين والمأمون والمعتصم ! .

# راحة الأرواح

● **اليوم الاول :**

دخلت على أمير المؤمنين الواثق ، فقال لى : يا اسحاق .. أرانى الليلة ثقيل المزاج ، غير مرتاح ولا نشيط لسماع شعر ولا غناء .. وقد كانت عندى منذ قليل جاريتك « شجا » التى كنت اهديتها الينا منذ مدة ، وكانت عندى أيضا « فريدة » الجارية التى أهداها الينا عمرو بن بانة .. كلتاهما مطربة بارعة راوية للغناء قديمه وجديده ، فغنتا احسن غناء ، فلم أطرب ، فقلت لهما : قوما عنى فلست الساعة نشيطا لسماعكما ، وسيجىء اسحاق الموصلى فلعله يجد لى مخرجا مما أنا فيه من ثقل المزاج ، حتى حضرت يا اسحاق ، فلعلى أجد عندك شيئا ! ..

اخذت أتحدث الى أمير المؤمنين وأروى له النوادر والاضاحيك ، وأقص عليه من أخبار جده الرشيد وعمه المأمون وأبيه المعتصم ، حتى رأيته يتحرك فى فراشه وكان مضطجعا ، فعرفت انه تسلى بما سمع وقارب النشاط .. فأمسكت العود ، فغنيته هذا اللحن فى هذين البيتين من شعرى :

**يا سرحة الماء قد سدت موارده**
**اما اليك طريق غير مسدود**
**لحائم حام حتى لا حيام له**
**محلأ عن طريق الماء مطرود**

فانتفض طربا ، واستعاد اللحن مرارا ، ثم قال لى :

ــ هذا والله يا أبا محمد هو الغناء الذى يخالط النفس ، ويمازج اللحم والدم ، ويضىء وجه الدنيا ! .. هذا والله راحة الارواح ! ..

من عادة الواثق اذا أعجبه مني غناء ، ان ينادينى بكنيتى : « يا أبامحمد » فأخبرته ان عمه المأمون أيضا كان من عادته ان يخاطبنى بكنيتى هذه اذا أعجبه مني شيء ولم يكن يخاطب من المغنين أحدا سواى الا باسمه ، ولم أسمعه قط يخاطبهم الا باسمائهم ! .

والواثق يتشبه أحيانا بالمأمون ، حتى انه يميل الى مذهب المعتزلة ، وقد رأيت عنده مرة القاضى أحمد بن أبى دؤاد يناظر امام أهل السنة احمد بن حنبل ، فاشتد ابن حنبل فى المناظرة فافحم ابن ابى دؤاد ، وحكم له الواثق بالظفر ، ولكن الواثق بقى يميل الى المعتزلة وان لم يغال فى مطاردة علماء

أهل السنة كما فعل عمه المأمون وأبوه المعتصم ٠٠
قال لى الواثق :

ــ أليس لك اهتمام ولا نظر فى مذاهب المعتزلة والسنة وغيرهم يا أبا محمد ؟! ٠٠

فكتمت أمرى عنه ، لانى لا أقول بالاعتزال ولا أراه مذهبا لى ، وانما أنا رجل من أهل السنة ، وقلت له :

ــ يا أمير المؤمنين شغلنى الغناء عن طلب العلم ! ٠٠

قال كأنه ينكر قولى :

ــ فانهم يروون ان عمى المأمون كان يقول عنك : لولا ان اسحاق قد اشتهر بالغناء لوليته القضاء لعلمه وفضله وعفافه ٠٠ فأين علمك الآن ؟!

قلت :

ــ كان ذلك يا أمير المؤمنين اذ أنا شاب ، أما الان فقد شغلتنى هذه الصناعة :

ضحك الواثق ، ونشط للحديث وسألنى :

ــ قد كان من لا أذكر من الناس ، روى لى قصة عن لحنك هذا الذى غنيته الآن ، وقعت لك مع عمى أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، فكيف كانت ؟! ٠

قلت :

ــ يا أمير المؤمنين ٠٠ جفانى أمير المؤمنين المأمون رحمه الله بعد قدومه من خراسان الى بغداد وذلك بعقب حربه للامين ، فصنعت هذين البيتين واللحن الذى سمعته فيهما ، وطارحت به علويه الاعسر فغناهما فى مجلس المأمون ، فلما علم ان الشعر واللحن لى ، استدعانى ورضى عنى واتصلت خدمتى له ، وأكرمنى ورفع قدرى ! ٠٠

قال الواثق ، وهو بى كعادته شديد الاعجاب :

ــ والله ٠٠ لو لم يكن لك من الشعر الا هذان البيتان لكنت بهما شاعرا ٠٠ ولو لم يكن لك الا هذا اللحن فيهما ، لكنت به من أئمة الملحنين ! ٠٠

## ● اليوم الثانى :

فى سهرة الليلة عند الواثق غنت جاريته « فريدة » لحنا لى فى قولى :

**لاسماء رسم عفا باللوى**
**اقام رهينا لطول البلى**

فبلغت هذه الجارية بالخليفة وبى غاية الطرب ٠٠ ولقد سمعت أبرع المغنيات فى قصور الخلفاء والامراء والوزراء من أيام الرشيد الى أيام الامين

فالمأمون فالمعتصم حتى أيام الواثق ، فما أظن انى سمعت مغنية أحسن منها غناء .. وان الواثق لعلى حق فى هيامه بها ! ..

قال لى الواثق معجبا :

ـ يا أبا محمد .. لله در هذا اللحن ، ما أجمله وما أكمله : وما أوثق أقسامه وأوزانه .. وما أعرف لك لحنا الا وقد اكتسى من حسن الصنعة أبهى الحلل فبحياتى .. غننى لحنك :

الطلول الدوارس
فارقتها الاوانس
اوحشت بعد اهلها
فهى قفر بسابس

فغنيته اللحن ، وكان قد حضر مخارق وعلويه ، كما حضرت « شجا » الجارية التى أهديتها لامير المؤمنين ..

فقال الواثق لمخارق وعلويه :

ـ هل تحسنان غناء هذا اللحن ؟! ..

قالا

ـ اسحاق لا يرضى بأن يطارحنا اياه حتى نحفظه ، لانه شديد الضن به ..

قال :

ـ فان « شجا » تحفظه ، ولم يضن به عليها ..

ثم أمرها فغنته ، فكاد الخليفة يخرج من ثيابه طربا ، وقال لى :

ـ يا أبا محمد .. والله لو عاش ابن سريج ومعبد وابن محرز وابن عائشة ما شقوا غبارك فى هذا اللحن الفائق العجيب ! ..

ثم التفت الى مخارق وعلويه وسألهما :

ـ ماذا رأيتما فى هذا اللحن ؟! ..

قالا :

ـ انه جيد يا أمير المؤمنين .

فغضب حتى تهدج صوته وهو يقول لهما :

ـ ليس عندكما فيه الا هذه الكلمة التى لا تفى بأدنى حقه ؟! .. انكما أحمقان لا تعرفان شيئا ! ..

ثم قال لى وقد هدأ وسرت فى صوته رنة اعجاب واعزاز :

ـ أول بيت فى لحنك هذا أربع كلمات فقط : « الطلول » كلمة .. و « الدوارس » كلمة .. و « فارقتها » كلمة .. و « الاوانس » كلمة ..فما

تركت والله يا اسحاق شيئا من الصنعة يتصرف فيه المغني الا ادخلته في هذه الكلمات الاربع ! .. بدأت نشيدا ، ثم تلوته بالبســـيط وجعلت فيه صياح جواب ، واسجاج قرار ، وترجيحا للنغم ظاهرا ثم اختلاســا فيها .. وكل هذا في أربع كلمات ! .. فمن يقدر على هذا الامر العظيم ؟! .. وهل صنع أحد تقدم أو تأخر مثل هذا قط ! ..

فخجل مخارق وقال :

ـ صدق أمير المؤمنين .. قد لحق اسحاق الاقدمين ، وسبق الاحدثين !.

أما علويه فلزم الصمت ، وان فيه لحسدا ، وفيه لجاجة ومكابرة ! .

## ● اليوم الثالث :

ضـــجرت من ملازمة دار الخـــلافة والغناء فيها كل ليلة ، وقد كبــرت ومللت هذا العيش ، فخرجت في بكرة النهار أطوف بالصحراء واتفرج ، ثم عدت وقد حمي النهار حتى بلغت فناء قصر ظليـل على الطـــريق ، فوقفت استريح ، فرأيت شابين يدخلان الدار فدخلت معهما ، فظنا ان صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار اني معهما .. وخرجت الينا جارية فغنت هذا اللحن من ألحاني :

ذكرتك ان مرت بنا أم شــادن

امام المطـــايا تشرئب وتسنح

من المؤلفات الرمل ادماء حــرة

شعاع الضحى في متنها يتوضح

فأدته اداء صالحا ، ثم غنت أصواتا شتى مما لحنته انا أو غيري ، حتى طلب منها الحاضرون أن تغني لحني :

قل لمن صد عاتبــا

ونأى عنــك جانبا

قد بلغت الذي اردت

وان كنت لاعبـــا

فاستعدته منها لاصححه لها ، فهمس صاحب المنزل الى الرجلين اللذين دخلت معهما يسألهما من أكون فأخبراه انهما لا يعرفاني ، ثم قـال أحـد الرجلين : لابد انه طفيلي ، ولو عرفنا انه كذلك ما أدخلناه معنا ، ثم أقبل هذا الرجل علي فقال لي :

ـ يا هذا .. ما رأيت طفيليا أصفق وجها منك ! .. لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » .. فاطرقت حياء ولم أجب الرجل بشيء ، وجعل صاحبه يكفه عني فلا يكف ! ..

فلما نودي لصلاة العصر قاموا للصلاة ، وتأخرت عنهم قليلا فأخذت عود الجارية ـ وكانت قد انصرفت حتى يفرغوا من الصلاة ـ فشـــددت طبقته

واصلحته اصلاحا محكما ·· ثم قمت فصليت ··

فلما عدنا ، عادت الجارية فأخذت العود فجسته فأنكرت حاله ، فقالت : من مس عودى ؟! قالوا ما مسه أحد ·

قالت : بلى والله ·· لقد مسه حاذق خبير ، وشد طبقته ، وأصلحه اصلاح متمكن من صناعته ! ··

فقلت للجارية : أنا أصلحته ! ··

فدهشت وقالت : فبالله خذه واضرب به ! ··

فأخذته وضربت به ضربا صحيحا ظريفا عجيبا صعبا ، فما بقى أحد منهم الا وثب فجلس بين يدى ·· وقالت الجارية : بالله يا سيدى اتغنى ؟! ··

قلت : نعم ·· واعرفكم نفسى · أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلى ! ·· ووالله انني لأتيه على الخليفة اذا طلبنى وانتم تخاطبونني بما أكره منذ اليوم لانني تبسطت وتملحت معكم ! ··

فاعتذروا لى أشد الاعتذار ، حتى أوشكوا أن يبكوا ، وقامت الجارية ، فقبلت رأسي وقالت :

ـ يا سيدى ·· والله لو عرفناك لرأيت منا أحسن ما تحب ممن يعرفون عظيم قدرك حق المعرفة ! ··

فغنيتهم الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، لتعرفها على وجهها الصحيح ، واردت بذلك منفعتها ، فكانت تسمعنى وتبكى طربا وفرحا بما تهيأ لها من سماعى ، ولم تكن تحلم بذلك ولا خطر فى بالها قط ، وانما كانت تحفظ الحانى ممن يروونها صوابا أو خطا ··

اقمت عندهم أياما على أحسن حال ، وصاحب الدار يقوم بخدمتى أعظم قيام ولو استطاعت الجارية أن تطعمنى من لحم جسدها لفعلت اعظاما لى وسعادة بما بلغته من سماع الحانى من فمى لا من أفواه الرواة ! ··

فلما انقضت أيامى عندهم ، ركبت الى الخليفة ، فلما رآنى قال : ويحك ! ·· أين كنت ؟! ·· فأخبرته ! ·· فأستدعى الرجل الذى حللت عليه ضيفا وأجازه بمائة ألف درهم ! ··

أما الجارية فأمر لها بخمسين الف درهم ، وجعل لها نوبة كل أسبوع تغنى فيها من وراء الستارة مع الجوارى

فلما انقضت أيام ، قلت لامير المؤمنين الواثق ،وقد فرغت من غناء لحنى : « قل لمن صد عاتبا » :

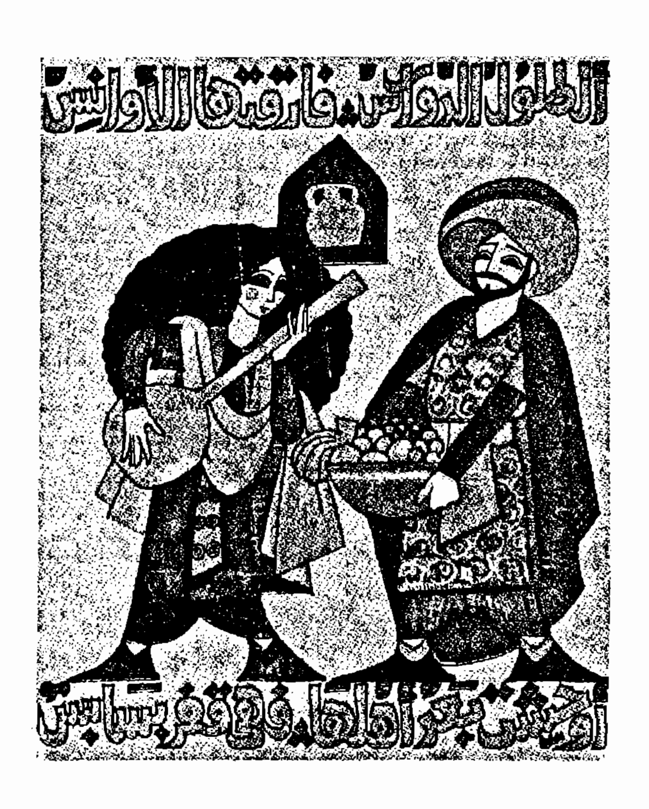
ـ يا أمير المؤمنين ·· والله لولا ان ذلك الامر قد وقع لى ، ورأيته بعينى ، ما صدقت منه شيئا ! ··

ـ وما هو ؟! ··

ـ رحلتي في الصحراء ، والجارية وصاحبها وما أجزتهما به من المال ..
ـ وما في ذاك ؟!

ـ فيه والله أعجب شيء رأيته قط ، فان هذه القصة بحذافيرها وقع لي مثلها في عهد أمير المؤمنين المأمون ، وخرج المنادون في بغداد يصيحون باسمي ، حتى عدت وقصصت عليه قصتي فاستدعى الجارية وصاحبها وأجازهما ، وليس بين تلك الجارية وصاحبها أدنى شيء يصلهما بالجارية وصاحبها اللذين وقفا بين يديك يا أمير المؤمنين ، وان بين القصتين لاكثر من خمسة وعشرين عاما ! ..

فلبث الواثق يتعجب ويقول : سبحان الله ! ..



# الحيــاة ١٢٠ ســـنة

**● اليوم الاول :**

عشت ستين عاما فى دولة بنى أمية ، رأيتها فى ارتفاع راياتهـــا وفى سقوطها تحت أقدام أبى مسلم الخراسانى داعية الدولة العباســـية وقائد جيوشها الزاحفة من خراسان الى العراق والشـــام ومصر وغيرها من بـلاد المسلمين ..

كنت فى دولة بنى أمية أجلس الى المغنين وأحفظ ألحانهم ، حتى استقامت لى طريقة حسنة فى التلحين والغناء ، ورويت كل ما حفظته عن الفحول من مطربى مكة والمدينة ، كابن سريج ومعبد والغريض وابن عائشـة ولم يفتنى سماع أحد الا الرعيل الاول الذى نشأ الغناء على يديه فى المدينة ومكة أمثال طويس وسائب خاثر وبعض قيان المدينة ، فهؤلاءلم أدركهم ، ولكنى رويت غناءهم عمن أخذوه منهم وصار الناس يرددون اسمى : « يحيى المكى » .. ويطلبون سماعى ! ..

فلما سقطت دولة بنى أمية لبثت لا أجد منتجعا لى عند الخليفة العبـاسى الاول ، ثم جاء الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور فكان ينكر على أهل بيته وعلى قواده وعظماء دولته ، سماعهم الغناء ، ويمنع أن يرتفع صوت بالغناء أو عزف الطنبور فى قصره ! ..

حتى ذهب أبو جعفر وجاء ابنه الخليفة المهدى ، فانفتح لى وللمغنين باب الارتزاق عنده .. وقدمت من الحجاز الى بغداد على المهدى فى أول خـلافته مع كثير من مطربى مكة والمدينة الذين أوشكت صناعتهم أن تبور ..

ولم يبق فى بغداد بعد طول التردد على الخليفة المهدى أحد من هؤلاء ، وبقيت وحدى ، يسمعنى ويجيزنى ، ورأيت عنده المطربين الناشئين ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع .. كلاهما نابغة فى باب من هذه الصـــناعة ، ولكنهما لم يكونا على علم تام بالغناء القديم ، ولا يرويان منه ما يرتفـع به شأنهما عند الخليفة ، فكانا ــ ومعهما آخرون من طبقتهما ــ يفزعـون الى دارى وينفرد كل منهم بى فيقاسمنى جائزته ويأخذ عنى بعض ما أرويه من غناء القدماء .. فلما اشتد ساعدهم ورووا مما حفظته شـيئا غير قليـل ، أخذوا ينافسوننى ويكايدوننى ويطعنون فى روايتى للغناء القديم ويزعمـون اننى أنتحل غناء القدماء فأنسبه لنفسى ، ثم انحل هؤلاء القدماء من غنائى ما ليس لهم ، فأنسبه اليهم ! .

وقال بعضهم : قد كثر الانتحال والوضع فى الغناء كما كثرا فى الشعر وفى الحديث وفى أخبار أيام العرب ، ولابد من ضبط رواية الالحان القديمة ضبطا محكما حتى لا يقع فيها تخليط للرواة والوضاعين ! ..

لكن المغنين لم يثبتوا لى ، لانهم ليسوا على شيء فى رواية الغناء ولم يفلحوا عند الخلفاء الا بما صنعوه من الالحان الجديدة .. حتى نشأ اسحاق بن ابراهيم الموصلى فضبط رواية الغناء القديم ، وأخذه من مظانه ، واجتهد فى تدوينه ، وصيره علما بذاته ، وأخذ يبين للناس منحولاتى .. وطاردنى فى مجالس الخلفاء وكشف أمرى ! ..

كنت أغنى فى سهرة عند بعض الكبراء ، واسحاق الموصلى فيمن حضر ، فغنيت من الحان مالك ، فسألنى بعض من حضر عن صانع هذا اللحن ، ولم أتنبه الى وجود اسحاق الموصلى ، فقلت : هذا من صنعتى ، فصاح اسحاق : ماذا تقول يا شيخ ؟! .. فتنبهت وقلت : انما كنت أمزح ، فهذا من الحان مالك ! ..

ثم غنيت لحنا لى فسئلت عن صاحبه فنسبته الى الغريض فقال لى اسحاق: يا يحيى .. هذا ليس من نمط الغريض ولا طريقته فى الغناء ، فاستحييت من كذبى ، فلما انصرف اسحاق ، بعثت اليه بهدية استرضيه بها وأكف شره عنى وكتبت اليه : « لست ممن يتصدى لمباغضتك ومباراتك فتكايدنى .. وانت محتاج الى أن أفيدك وأعطيك مما أرويه وحدى ولا تجده عند غيرى، فاذا أخذت ذلك عنى سموت به على أكفائك ، وحملت سلاحا اذا حمله عليك غيرك لم تقم له » ! ..

فعرف اسحاق أننى صدقته النصيحة فاعتذر الى وحلف لا يعارضنى بعدها ، ولكنه شرط على الوفاء له بما وعدته من الفوائد ، فوفيت له بها ، وأخذ منى كل ما أراد من غناء المتقدمين الذين رأيتهم وسمعتهم ولم يرهم هو ولم يسمع منهم شيئا .. ولم يعاود اسحاق معارضتى بعد ذلك ، لكنى كنت اذا سئلت فى حضوره عن شيء صدقت فيه ، واذا غاب اسحاق قلت ما شئت وأكثرت من التخليط ، لانى لا أحب أن أبذل علمى لمن يطلبه بغير مقابل من المال أو النفائس ، فقد تعبت أشد التعب طوال ثمانين عاما فى جمع ما ارويه من الغناء ، ثم يجيء الناس فيسألوننى أن ابذله لهم ، ولم يبذلوا لى شيئا .. فكيف يلوموننى اذا ضننت عليهم ولم أعطهم مايطلبون ؟!

## ● اليوم الثانى :

نقض اسحاق الموصلى عهده الذى قطعه لى وكادنى عند أمير المؤمنين الرشيد مكيدة موجعة ، لم أعرف كل تفاصيلها الا بعد وقوعها وافتضاحى بها ! ..

فقد قال اسحاق للرشيد : أتحب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك كذب يحيى المكى فيما ينسبه الى القدماء من غناء ، وما ينسبه الى نفسه وخلطه بين صناعته وصناعتهم ؟! ..

قال له الرشيد :

ـ نعم ! •• وهذا شعر جديد فأصنع فيه لحنا جديدا وغنني فيه •• ثم أسألك اذا حضر وسمع اللحن عمن صنعه فتذكر لى اسما لا أصـــل له ، ثم نرى ما يقع من يحيى ! ••

فلما حضرت مجلس الرشيد غنى اسحاق اللحن ، فسأله الرشـــيد : لمن هذا اللحن يا اسحاق ؟! •• قال اسحاق : هو يا أمير المؤمنين لغنـــاديس المدينى •• كان من حذاق المغنين فى المدينة ومكة ، وكان ممن أخذ عن معبد والغريض ! ••

فاقبل الرشيد فقال لى ، وأنا غافل عن المكيدة :

ـ يا يحيى •• أكنت لقيت غناديس فى مكة أو فى المدينة ، وأخـذت من صنعته شيئا ؟! ••

قلت بثقة وغرور :

ـ نعم لقيته وأخذت عنه صوتين ! ••

قال الرشيد :

ـ فغننا صوتا مما أخذت عن غناديس !

فاندفعت فغنيت لحنا من ألحانى لم يكن الرشيد ولا أحد غيره قد سمعه • ثم قلت : هذا يا أمير المؤمنين أحد الصوتين اللذين أرويهما عن غناديس ! ••

فضحك الرشيد حتى استلقى على فراشه ، وقال لى :

ـ يا لكع ! •• الآن عرفنا كذبك وتخليطك فى رواية الغناء •• فما خلق الله مغنيا فى مكة ولا فى المدينة اسمه غناديس •• وانما وضع اسحاق هذا الاسم هنا فى وقته •• وقد انكشف الآن أمرك ! ••

فكدت أموت غما وكمدا ، ولم أحر جوابا من فرط الخجل والسقوط حتى أشفق على الخليفة فقال لى :

ـ لا بأس عليك يا يحيى ! لئن كنت وضاعا مختلقا فيما تنسبه الى القدماء •• انك فيما تنسبه الى نفسك من غناء لمطبوع كثير الصـــنعة ، ولقد رويت ما لم يروه أحد من المغنين ، وعلمت ما جهلوا ••

ثم التفت الى اسحاق وسأله :

ـ ما تقول يا اسحاق ؟!

قال وكأنه يسترضينى بعد الذى نكبنى به :

ـ والله ما أعرف أحدا أروى منه ، ولا أصح أداء للغناء ، ان كان مايغنيه له أو لغيره !

فابتسم الرشيد وأمر له ولى بجائزة !

## ● اليوم الثالث :

صنعت حتى يومى هـذا ثلاثة آلاف لحن ، منهـا زهاء الف لحن لم يقاربنى أحد فى جودتها ، والباقى متوسط ، وأنا والله أستاذ هذه الطبقة من المغنـين التى تتصـدر مجالس الرشيد ورجال دولته ٠٠ وان ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وهما المقدمان فى الغنـاء والتلحين ، ليعترف كلاهما بأستاذيتى ٠٠ وأرى أن اسـحاق الموصـلى أفضل من أبيه رواية وصنعة وان لم يكن أطيب حلقا ، وهما فى الحقيقة يجيئان فى حسن الحنجرة بعد ابن جامع ومخارق وعلويه واكثر المغنين ، ولكنهما يتقدمان كل التقدم بالصناعة والعلم والحذق فى الاداء ، وهذا ما برعا به جميع هؤلاء المغنين ذوى الحناجر المطربة ! ٠٠

وقد غنيت مرة عند الرشيد ، فسألنى كم لحنا صـنعت ، فذكرت له عددها ، فسألنى كم سنة عشت حتى يوم الناس هذا ، فقلت : قرابة مائة وعشرين عاما ! ٠٠ فصاح ابراهيم الموصلى :

ـ انى والله ما عشت بعد نصف عمرك هذا ، وقد شاب رأسى وسـقطت أسنانى ، ويكاد القولنج أن يقتلنى ، وأراك على شـيخوختك التى حطمت السنين ، صحيح السمع والبصر والعقل ، قادرا على الغناء والتلحـين ! ٠٠ فزادك الله يايحيى من عافيته وأحسن اليك ، ورزقنا بعض ما رزقـك من العمر والعافية ! ٠

فاختلط حسد الموصلى بدعائه ، وعرف ذلك فى كلامه كل من سـمعه ، ورأيت الخليفة يشيح بوجهه عن الموصلى ، فان هارون الرشيد ـ على جبروته ـ رقيق القلب ، محب للناس ، كثير العطف على الشيوخ والضـعفاء ! ٠٠ وقد كانت حالى ساءت عند الرشيد لما وقر فى نفسه من كذبى فى الرواية ، ثم صلحت حالى عنده وعرف أن قدرى فى الصناعة فوق أقدار من يغشون مجلسه من المغنين ، مع كل ما يعتقده الرشيد من تخليطى فى الرواية ونسبة الالحان ! ٠٠

وقد غنيته أمس :

**متى تلتقى الاحبـاب والعيس كلما**
**تصـعدن من واد هبطـن الى واد**

فلم أزل أغنيه اياه ، ويتناول قدحا ، حتى عددت عشر مرات ، استعاد فيها اللحن ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم ٠٠ وقال : والله ما يحسن غناء هذا الا يحيى المكى ! ٠٠

## ● اليوم الرابع :

غنى ابن جامع فى السهرة عند الرشيد هذا الصوت القديم :

**انى امـرؤ مالى يقى عرضى**
**ويبيت جارى آمنا جهـلى**

وأرى الذمامة للرفيــق اذا
ألقى رحـــالته الى رحـلى

فلم يزد ابن جامع على غناء البيت الاول شيئا ، فأطرب الرشيد وأعـطاه عشرة آلاف درهم وعشرة خواتيم وعشر خلع .. فلما انصرفنا جاءنى ابراهيم الموصلى واستغاث بى أن أطرح عليه هذا اللحن كله فى بيتى الشعر جميعا ، لا فى البيت الاول وحده الذى غناه ابن جامع ووقف عنده ولم يعرف كيف يغنى البيت الثانى ..

قلت للموصلى :

ـ أفرأيت ان زدتك البيت الثانى الذى لم يعرفه ابن جامع أو كان يعرفه ثم نسيه ، وطرحته عليك حتى تأخذه وتحكمه وتغنيه للخليفة .. ما تجعل لى ؟! ..

قال :

ـ النصف مما يصل الى يدى بهذا الصوت ! .

فالقيت عليه الصوت فى البيتين معا حتى أتقنه ، فلما حضر مجلس الرشيد غنى الصوت وجاء بالبيت الثانى الذى لم يجىء به ابن جامع ، فطرب الرشيد واستعاده مرارا ، وحمل الموصلى الجائزة الى بيتى فقاسمنى ! ..

**● اليوم الخامس :**

امتد بى طريق الحياة .. حطمت العشرين بعد المائة من عمـرى ، ومات زملائى فى الصناعة ممن يصغروننى سنا .. مات ابن جامع والموصلى وما أظن الموصلى بلغ الخامسة والستين حين قضى .. وبقيت طبقة الشــــبان كمخارق وعلويه .. وأميرهم فى العلم والرواية والصنعة والاداء هو اسحاق ابن ابراهيم الموصلى ، الا انه أقلهم حلاوة صوت ، وهو فى هذا كأبيه ، ومثله أيضا فى التفوق على منافسيه بالحذق فى الصنعة والاداء والتبحر فى العلم بالغناء القديم ..

ويزاحمنا فى الغناء ابراهيم بن المهدى ، وقد مات أخوه هارون الرشيد ، وتولى الخلافة محمد الامين وما زال شابا حدثا طياشا ولكنه شــديد الحب للغناء .. وقد غنيته أمس :

خليــل لى اهيم به
فما كافا ولا شكرا

بلى .. يدعى له باسمى
اذا ما ريـع أو عثــرا

فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وأراد ابراهيم بن المهـدى أن يأخــذ عنى الصوت فأبيت أن أعطيه حتى حـكم عليه الامين بأن يعـطينى عشرة آلاف درهم ! ..


من غناءٍ كأنه سكرات الحب
يُصبي القلوب والآذانا

# تأويل الرؤيا

## ● اليوم الاول :

قلت لاستاذي ابراهيم الموصلي : الناس يعلمون أن أصلك من فارس ، وان بيتا شريفا كان لك في العجم ، ثم نزل جدك بالكوفة ، ونشأت أنت بها ، فمن أين جاءك لقب الموصلي ؟! ..

قال :

ـ ما أخبرت احدا بسر هذا اللقب ، لكنى أخبرك ، وذلك انى لما صرت صبيا اشتهيت الغناء فطلبته عند بعض المغنين ، فنهانى عنه أخوالى وضيقوا على الخناق ، فهربت الى الموصل وليس لى دينار ولا درهم ، فصحبت جماعة من الصعاليك يقطعون الطريق ويصيبون من هذا الاثم بعض المال ، فيشربون ويغنون ، وكان فيهم بعض من يحسنون الغناء فاخذت عنهم الحانا وتعلمت منهم ، ولم أكن أشاركهم قطع الطريق ، ولكن انتظرهم على مقربة حتى يفرغوا من سلب الناس ما يقدرون على سلبه ، فيقولون لى : الا تشاركنا هذا العمل ؟! .. فأقول : لا أستطيع ! .. فيقولون : نحن نكفيك ونسمع غناءك ، فأنك أشدنا حذقا ، وان كنت تزعم انك تأخذ الغناء عنا ! ..

ثم قال لى الموصلى :

ـ فهذه والله يا مخارق قصة لقبى ، فاكتم هذه القصة عن كل الناس !

قلت :

ـ أفعل ان شاء الله .. ولكن كيف قلت الشعر ، فانك فيه حسن الطبع مجيد ، على أنك لم تتعلم القراءة والكتابة الا كبيرا حين حبسك أمير المؤمنين المهدى ؟! ..

قال :

ـ لا يجيء الشعر من القراءة والكتابة وان عظم شأنهما ، ولكنى نشأت فى بنى تميم الفصحاء ، وأكثرهم شعراء فكنت مثلهم !

ثم احتضن الموصلى عوده ، وضرب عليه ، وغنى :

اذا سرها امر وفيه مساءتى
قضيت لها فيما تريد على نفسى

وما مر يوم ارتجى فيه راحة
فاذكـــره الا بكيت على امسى

فسمعت والله لحنا لم أسمع مثله من قبل جمالا واكتمالا فى أقســامه وأدواره وسائر صنعته ، فقلت له وقد هزنى الطرب :

ـ والله ما يقدر على مثل هذا ابن سريج ولا معبد ولا ابن محــرز ولا امثالهم من شيوخ الغناء العظماء الذين سبقونا ..

فضحك الموصلى ، وكان متواضعا لطيفا ، وقال :

ـ على رسلك يا أبا المهنا .. فوالله ما أنا الا صبى صــغير يلعب بين أيديهم ! ...

## ● اليوم الثانى :

التقيت والمطــرب الملحن الكبير اســماعيل بن جامع الذى يقــول له الرشيد كلما سمعه : « صوتك يا اسماعيل كالعسل » ! .. فصــحبنى الى بعض قصور آل الربيع .. فجلسنا نســـتمع هناك الى جارية قندهارية الاصل كانوا قد اشتروها صبية وعلموها الغناء على أيدى الموصـــلى وابن جامع وغيرهما ..

غنت الجارية أصواتا من صنعة القدماء ، ثم غنت اللحن الذى ســمعته من ابراهيم الموصلى : « اذا سرها أمر وفيه مساءتى » .. فرأيت ابن جامع يشرئب الى الجارية ويصغى اليها بكل جوارحه ، فما فرغت منه حتى كان ابن جامع قد أثخن طربا ، فقال لها : أعيــديه .. لله أنت ! .. فأعادته مرارا ، وهو يزداد طربا حتى أوشــك أن يشـــق ثيــابه ، وانا فى ذلك مثله ، ولكنى أغالب نفسى ، احتشاما لاصحاب القصر ، فانى ما زلت صغيرا، وما كنت منذ سنوات الا خادما عند الخليفة ، أما ابن جامع فأشهر واكبر من أن يحتشم احدا فى مجالس الغناء ، اذا طرب أو شرب ، وهو قرشى من بنى سهم ، فله دالة وحرمة من جهة شهرته العريضة ، ومن أصله الكريم !

فلما خرجنا وركبنا الى قصر أمير المؤمنين ـ وكنا مدعوين للغنــاء فى سهرته ـ قال لى ابن جامع :

ـ ويحك يا مخارق .. نسيت أسأل الجارية عن صاحب ذلك اللحن !

قلت له :

ـ صاحبه ابراهيم الموصلى ! ..

قال ابن جامع ، وكان فيه ميل الى الانصاف :

ـ لظننت والله انه هو صاحبه ، فما يحسن أحد فى أيامنا هــذه أن يصنع ذلك الا الموصلى !

ثم قال لى :

ـ قد ذكرت الساعة رؤيا رايتها فى منامى البارحة :

قلت :

ـ خيرا ان شاء الله ! ••

قال :

ـ رأيت فى منامى كأنى وابراهيم الموصلى راكبان فى محمل ، فهبط الموصلى بالجانب الذى يجلس فيه من المحمل حتى كاد يلتصق بالارض ، وعلوت بالشق الذى أنا فيه ، حتى كأننى ارتفعت الى السماء ، فما تأويل ذلك عندك ، فانى أعلم انك من ذوى الفطنة فى هذا الباب ؟!

فوجدتنى أشعر بالحزن على ابن جامع ، كأنه يموت أمام عينى ، فأنى أظن أن تأويل هذه الرؤيا ان الموصلى يبقى على الارض حيا ، وان ابن جامع يموت وتصعد روحه الى السماء ! ••

لم أرد على سؤاله ، فاستحثنى فادعيت انه لم ينفتح لى باب للتأويل ، فقال لى :

ـ أنا أقول لك تعبير هذه الرؤيا •• فانا والموصلى الان متنافسان ، فلأعلونه فى الغناء حتى أرتفع فوقه ، ويسفل هو حتى يلتصق بالارض !

قلت :

ـ أبقاك الله أيها الاستاذ ، وبلغك أملك ، ولا حرمنا منك أبدا !••

وكدت أجهش باكيا ، فقال لى ابن جامع :

ـ ما دهاك يا مخارق ؟! •• كأنما طرقك من الحزن شىء ! ••

قلت :

ـ لا •• ولكنى ذكرت غناء تلك الجارية القندهارية ، فابتعثت هذه النفثة من صدرى ! ••

قال وقد عاوده طربه لغنائها :

ـ لله تلك الجارية •• ما أحسن غناءها ! •• والله لو غنت لمدنف أوشك أن يموت ، لظننت انه ينهض صحيحا معافى ! ••

قلت فى نفسى :

ـ أنا لله ! •• يأبى أستاذنا هذا الآن يذكر الموت ! ••

## ● اليوم الثالث :

جلست فى سهرة أمير المؤمنين الرشيد بجنب أستاذى ابراهيم الموصلى ، فقصصت عليه ما وقع لى مع ابن جامع ، منذ غنتنا الجارية القندهارية الى أن حدثنى عن رؤياه وتأويله للرؤيا ••

فرأيت الموصلى يصمت واجما ، فانه من أقدر الناس على تعبير الرؤى ثم قال لى :

ـ والله ما يسرنى أن أعيش ويموت ابن جامع .. والله ما أطرب لغناء فى الدنيا طربى لغنائه ، ولوددت أن أشاطره عمرى ! ...

ثم انفرجت أساريره قليلا ، وهمس :

ـ ليت هذه الرؤيا تكون أضغاث أحلام ! ..

بدأت السهرة ، فغنيت أمير المؤمنين لحنا من صنعة ابراهيم الموصلى فطرب ، وقال لى :

ـ أحسنت يا مخارق وأحسن أستاذك صاحب هذا اللحن ! ..

ثم قال لابن جامع :

ـ يا اسماعيل .. هل من جديد عندك ؟!

قال :

ـ يا أمير المؤمنين .. والله لقد سمعت صوتا جديدا لابراهيم الموصلى ، وددت لو اننى غنيته فى حضرتك ، ولكنى لم أحكمه بعد ولم أتقن حفظه !

ثم قص ابن جامع على الرشيد قصة الجارية القندهارية وما غنت من صنعة الموصلى ، فتفكه الرشيد بالقصة ، وأمر الموصلى فغنى الصوت فطرب له حتى صار يقوم ويقعد من شدة الطرب !

ثم غناه الموصلى لحنا من صنعة شيخ الملحنين والمغنين ابن سريج رحمه الله :

**فياحبها زدنى جوى كل ليلة**
**ويا سلوة الايام موعدك الحشر**
**ويا هجر ليلى قد بلغت بى المدى**
**وزدت على ماليس يبلغه الهجر**
**وانى لتعرونى لذكراك هزة**
**كما انتفض العصفور بلله القطر**

فرأيت الرشيد ـ من فرط طربه ـ قد سكن فوق سريره كأنه جمد فلا حراك به ، واتسعت عيناه ، وهو يحاول أن يستمسك بوقاره الملوكى !

انتهت الليلة على خير حال ، وخرجنا نثنى على كرم الرشيد ، ونذكر دقة ذوقه ومعرفته بالغناء ، وقال الموصلى لابن جامع :

ـ كيف لا يكون أمير المؤمنين أحسن الناس معرفة بالغناء وهو يسمعنا منذ خمسة وعشرين عاما ؟! ..

قال ابن جامع ضاحكا :

ـ كأنك تثني على غنائنا لا على معرفة أمير المؤمنين بالغناء ! ..

خشيت أن يذكر ابن جامع رؤياه للموصلي ، أو يذكر له الموصلي ماحدثته عن تلك الرؤيا لكنهما افترقا في سلام ، فحمـــدت الله وقلت : عسى أن تكون هذه الرؤيا أضغاث أحلام كما قال الموصلي ! ..

## ● اليوم الرابع :

صحوت في بكرة النهار ، وليس ذلك من عادتي حين أقضي الليل ساهرا في مجلس أمير المؤمنين ..

تحيرت أين اتجه ، والى من أذهب في تلك الساعة ، ثم صرت الى منزل ابراهيم الموصلي ، فوجدته قد صحا مبكرا مثلي ، وبين يديه ابنه اسـحاق يطارحه لحنا ، فلما فرغا من شغلهما ، قال لي ابراهيم :

ـ يا مخارق .. خذ هذا اللحن الذي سمعته فأتقنه وغنه ، فانك تنتفع به ..

ثم طارحنيه حتى حفظته وأتقنته ، وأسمعته اياه متحفظا مجتهـــدا في أدائه ، لا خوفا منه بل خوفا من ولده اسحاق الذي لا يتهـــاون في خطأ يسمعه حتى من أبيه ، فلما أتممت اللحن ، جعل ابراهيم الموصـــلي يبكي طربا ، ويقول لي مداعبا :

ـ يا مخارق .. نعم وسيلة ابليس أنت في الارض ! .. أنت والله بعدى صاحب اللواء في هذا الشأن ! ..

ثم ازداد بكاء وهو يقول :

ـ والله مافي الدنيا صوت يعدل صوتك الا صوت ابن جامع ؟ ..

واذا خادم للموصلي يدخل عليه ويقول :

ـ يا سيدى ! .. آجرك الله في صديقك وصـــفيك ابن جامع فانه مات منذ ساعة ! ..

انصرف الخادم مسرعا ، ووجم ثلاثتنا ـ أنا والموصلي وابنه ـ ثم انفجرنا باكين ! ..

# الأمير فى ثياب المغنين

## ● اليوم الاول :

أخيرا وقعت فى قبضة شرطة الخليفة ! ..

وكنت قد استترت مدة عند بعض أقاربى من الهاشميين ، منزويا فى غرفة ضيقة من بيتهم ، لا تفتح نوافذها نهارا ولا ليلا ، أما بابها فلا يفتح الا بيد جارية كلفها اقاربى هؤلاء بخدمتى ، فهى تأتى لى بالطعام والشراب ، ثم تخرج وترد الباب واقوم أنا فأحكم اغلاقه من الداخل ، لشدة خوفى ، فقد ذهبت من دنياى وذهبت منها ولم يبق لى أمل الا فى عفو ابن أخى الشاب القادم من خراسان عبد الله المأمون ، الذى طالما لاعبته ولاطفته صغيرا فى خلافة أبيه هارون الرشيد أخى ، وسمعته أيامها يهتف باسمى ويقول لى : يا عم .. احب أن أسمع غناءك ، فاضحك وأقول له : انك مازلت صغيرا يا عبد الله ، ولا يأذن لك أمير المؤمنين بسماع الغناء ! ..

لكننى اليوم مطلوب لسيفه ، ولا ذنب لى ، فان الذى شن الحرب عليه هو أخوه المفتون المأفون ، محمد الامين الذى تولى الخلافة بعد أبيهما الرشيد ، فزينت له أمه « زبيدة » ان ينقل ولاية العهد الى أحد أطفاله ، ويحرم منها أخاه « المأمون » .. ابن « مراجل » الجارية الفارسية التى تزدريها زبيدة الهاشمية التى لم يمسسها الرق ! ..

فلما انهزم الامين وخلع وقتل ، خشى بنو العباس أن تضيع الخلافة من بيتهم ، ويثب عليها بنو على بن أبى طالب ، فأجمع العباسيون فى بغداد أن يبايعونى بالخلافة ، فامتنعت مخافة تبعاتها ، ثم قبلت اذ وجدت ان المأمون لا يبرح خراسان كأنه لا يريد الجلوس على سرير الخلافة الذى ينتظره فى بغداد ! ..

توليت الخلافة وصار لقبى « المبارك » وسمعت من الناس قولهم لى : « يا أمير المؤمنين » .. فأنسانى الجهل ان المأمون مهما يتلبث فى خراسان فلابد من عودته الى بغداد بعد انتصار جيوشه وذهاب خلافة أخيه المقتول

وها انذا ادفع ثمن الجهل ، فان المأمون دخل بغداد وبويع بالخلافة واستقر له الامر ، وأطلق المنادين يصيحون باسمى فى كل مكان ، منذرين كل من يعرف مكمنى ولا يرشدهم عنى ! ..

وقعت فى أيديهم ، ولا أشك أن المأمون قاتلى اليوم أو غدا لاجترائى على

منصب الخلافة بعد سقوط الامين ، وأنا أعلم ان الخـلافة بعد الامين هي للمامون وحده ، وقد علق الرشيد ـ رحمه الله ـ كتابا بذلك في الكعبـة وأشهد عليه الناس منذ سنين ! ..

وما تهون نفسي على نفسي ، ولا أجد الدنيا بغيضة الى قلبي ، ولو علمت ان الامور تفضي الى هذه العاقبة ، ما أجبت بني العباس الى بيعتهم لي بالخلافة ولو أجلسوني على عرش في السحاب ! ..

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني
هوى الدهر بي عنها وولى بها عني
فان ابك نفسا ابك نفسا عزيزة
وان احتسبها احتسبها على ضـن

وما أعجب تصاريف الزمان ! .. بالامس كنت أميرا للمؤمنين في بغداد ، واليوم أعود الى الشعر أرثي به نفسي ، وأعود الى الغناء والتلحين ، فأعمـل في هذين البيتين لحنا ، كأني ذاهب الى مجلس غناء وشراب ، لا الى مجلس أقف فيه على « النطع » ـ بكسر النون ـ والسيف مصلت على عنقي ، ينتظر اشارة من أصبع ابن أخي الخليفة الجديد الذي امتلأ قلبـه مني موحـدة وغضبا ! ..

## ● اليوم الثاني :

ساقوني مكبلا بالاغلال الى ابن أخي الخليفة المأمون ، ورأيت على وجهـه فرح الظافر بعدوه .. وأنا عمه .. أخو أبيه ـ فلم أجد بيانا يسعفني ، وخانني لساني ، وكان الناس قديما يصفون فصاحتي وخطابتي وقوة عارضتي وبلاغة شعري ونثري ، ويقولون : ما في الدنيا أفصح من ابراهيم بن المهدي ! ..

لم أجد في ذاكرتي كلمة كان سعيد بن العاص كلم بها معاوية بن أبي سفيان يستعطفه بها ، فاذا بالمأمون يروى هذه الكلمة ويحفظها منذ صباه ، فلم تؤثر فيه ولا عطفته الى العفو عني ، وقال لي :

ـ هيهات يا ابراهيم ! .. هذا كلام سبقك به فحل بني العـاص بن أمية وقارحهم سعيد بن العاص وخاطب به معاوية في سالف الزمان ! ..

قلت والدمع في عيني :

ـ مه .. يا أمير المؤمنين ! .. وأنت أيضا ان عفوت فقد سبقك فحـل بني حرب وقارحهم الى العفو .. فلا تكن حالي عندك أبعد من حال سعيد عند معاوية ، فانك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليـك من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهجنة أن تسبق أمية هاشما الى مكرمة!

أطرق المأمون ـ بعد هذا الحوار القصـير ـ يفكر فقلت في نفسي : ما أظنه يميل الى العفو عني وهو الذي حين دخلت عليه فسـلمت ، رماني بحجر من كلامه صك به وجهي كله وشج جبهتي ، اذ قال : « لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم » ! ..

فكيف أطمع منه وهو فى هذه الحال من الحقد أن يعفو أو يخفف العقوبة فلا يجعلها قتلا ؟!

حرك المأمون رأسه فى اطراقته فظننت ان حركته التالية هى أن يأمر بضرب عنقى ·

فبادرت أقول مرتعدا :

ـ على رسلك يا أمير المؤمنين ! ·· فلقد أصبحت وليا لثأرى ، وان القدرة تذهب الحفيظة ، ومن مد له الاغترار فى الامل هجمت به الاناة على التلف · وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ·· فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك ! ··

رفع المأمون رأسه فقال لى :

ـ يا ابراهيم ·· ان هذين أشارا على بقتلك ! ··

فالتفت الى « هذين » فاذا المعتصم بن الرشيد ، والعباس بن المأمون ، فأردت الا أغضبهما وهما فى تلك المكانة عند الخليفة فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين ·· أما حقيقة الرأى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به ، وما غشاك ، اذ كان منى ما كان ·· ولكن الله عودك من العفو عادة جريت عليها ، دافعا ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله !··

فرأيت المأمون كأنه يبتسم ، ثم أقبل على جلسائه ، فقال :

ـ ان من الكلام ما يفوق الدر ، ويغلب السحر ، وان كلام عمى منه !·

ثم أمر الحراس :

ـ أطلقوا عن عمى هذا الحديد وردوه مكرما ! ··

## ● اليوم الثالث :

كان المأمون قد صادر أموالى وأملاكى ، فلم يبق لى بيت أسكن فيه ، واليوم أعاد لى ما صادره ، وأمر لى بخمسة آلاف دينار فنظمت قصيدة فى مدحه ارسلتها اليه ، فبلغنى ان المأمون لما قرأها بكى ، وأمر بأن أرجع الى المنادمة والانس به في مجلسه ، وقال : « لن يرى منى ابراهيم الا مايحب » ·· ودعا ببعض الفراشين فقال له : « اذا رأيت عمى مقبلا فاطرح له تكأة فى المجلس » ·

فلما دخلت على المأمون ، قبلت البساط بين يديه ، وأنشدت هذه الابيات:

البربى وطأ العذر عندك لى
دون اعتذارى فلم تعدل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى
مقام شاهد عدل غير متهم

رددت مالى ولم تمنــــن عـلى به
وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به
فلا عدمنـــاك من عاف ومنتقم

فقال لى :

ـ اجلس يا عم آمنا مطمئنا ، فلن ترى منى ما تكره الا أن تحدث حدثا أو تتغير عن طاعة وأرجو الا يكون ذلك منك ان شاء الله ! ..

## ● اليوم الرابع :

دخلت الليلة الى مجلس المأمون متبذلا فى ثياب المغنين وزيهم ، فلما رأى ذلك ضحك وقال : « نزع عمى ثياب الكبر عن منكبيه » ! ..

وانما أردت أن يعلم المأمون من تبذلى فى ثياب المغنــين ، ان النـــاس يروننى فيها فيعلمون انى تركت الطمع فى الخلافة ، وفرغت للغناء واللهو وقد هجانى أحد الشعراء عندما بويعت بالخلافة قديمـــا فوصفنى بأننى « خليفة مصحفه البربط » .. فأنا أريد منذ اليوم الا يعـرفنى الخاصـــة والعامة الا مغنيا أضرب بالعيدان والبرابط والطبول ، فانى متى اشـتهرت بذلك بين الناس ، اطمأن المأمون الى ســـقوطى من أعينهم ، فلا أطمـع فى الخلافة بعد ..

وليست هذه حيلة لى على المأمون ، وانما هى مذهب وطريقة فى الحياة ، فانى آليت أن اقطع بقية حياتى فى هذه الصناعة التى أحببتها منذ الصبا حتى قال اسحاق الموصلى يوما : « ان ابراهيم بن المهدى أشـد خلق الله تعظيما لصناعة الغناء ، وأحرصهم عليها » ..

ثم انى أعلم أن المأمون لم يستبقنى ـ وكان يعتزم قتلى ـ الا حبـــا منه للغناء ، ومعرفة بمكانى فى هذا الفن ، وتفوق صوتى على كل صوت سـمعه أو يسمعه ، حتى شهد لى بذلك أصحاب أجمل الاصوات كاسماعيل بن جامع ومخارق ، فضلا عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق هذا الذى لا يشهد لمغن بشىء .. وقد قال مخارق وهو أجمل المغنين صــوتا : « ابراهيم بن المهدى أحسن منى غناء بعشر طبقات ، وهو أحسن الجن والانس والوحش والطير ، صوتا » ..

وحسبى هذه من شهادة ! ..

وفى مجلس المأمون الليلة قال لى :

ـ يا ابراهيم .. تغن :

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تســــترون هلالها

فأخذت فى غنائه ، حتى بلغت قول الشاعر يمدح العباسيين ويسفه حجة الطالبيين :

او تجحدون مقــالة عن ربكم
جبريل بلغهــا النبى فقالها

فاذا المامون ومن فى مجلسه يموجون طربا ، وقال لى بعض من حضر :

ـ لقد هززت حلقك ، ورجعتــه ترجيعــا ، ظننت معه أن الارض قد زلزلت ! ٠٠

وقال لى القاضى أحمد بن أبى دؤاد :

ـ كنت أتجنب الغناء وأطعن على أهله حتى سمعتك ، فعدلت الى رأى من يقبل الغناء ويحب المحسنين فيه ! ٠٠

اذكرنى هذا مجلسا غنيت فيه للامين المخلوع ، منذ ســنوات ٠٠ فانى ذهبت الى قصره ، فاذا هو جالس فى شرفة تطل على حديقة جعلها للوحوش التى يؤتى اليه بها من الغابات البعيدة ، فغنيته :

وكاس شربت عـلى لــذة
واخرى تداويت منها بهـا
لكى يعلم الناس انى امرؤ
اتيت الفتـــوة من بابها
وشاهدنا الجل والياسمين
والمســمعات بقصــابها
وبربطنــا دائم معمــل
فاى الثـلاثة ازرى بهـا

فكاد الامين يقع من الشرفة على الوحوش ، طربا ٠٠ وقال لى أخى منصور ابن المهدى وكان حاضرا معنا : لقد غنيت يا ابراهيم على أشد طبقة يتناهى اليها العود ، وما سمعت مثل غنائك اليوم قط ، ولقد رأيت هذه الوحوش تمد أعناقها الى الناحية التى يجىء منها صوتك اليها ، ودنت ثم دنت حتى أوشكت أن تضع رءوسها فى مجلسنا ٠٠ فلما فرغت من غنائك نفـرت وبعدت منا كما كانت ٠٠ ولولا انى رأيت ذلك بعينى ما صـدقت أبدا أنه يكون ! ٠٠

وجعل الامين يومئذ يبدى العجب ويقول : حتى الوحش الاعجم الفـاتك أحس لذة غنائك يا عم ؟! ٠٠

# مُطربة القصور

**● اليوم الاول :**

جلست أفكر فيما مضى من طفولتي وصباى ! ‥ زعمت احدى العجائز في دار سيدى الامير ابراهيم بن المهدى أنني قرشية الاصل ، وان لصوصا سرقوني طفلة وباعوني فدخلت في الرق ! ‥

لا أدرى أصدقت في قولها ، أم توهمت ! ٠

أتذكر الآن ان امرأة هاشمية من البصرة ، حملتني في صباى الباكر الى بغداد لتبيعني ، فعرضتني على اسحاق الموصلي ، فلم يزد في ثمني على ثلاثمائة دينار ، ثم كأنه استغلاني ، فلم يدفع شيئا ، وانصرفت بي سيدتي الهاشمية الى الامير ابراهيم بن المهدى ، فقالت له : قد أرادها اسحاق الموصلي بثلاثمائة دينار ، وأنت أيها الامير ــ أعزك الله ــ أحق بها ! ‥ فأعطاها الدنانير وأخذني ، ثم دعا بقيمة قصره ، فقال لها : خذى هذه الصبية ، ولا تريننيها الا بعد سنة كاملة ، وقولى للجوارى يطارحنها ما يحفظن من الغناء ، فاني أرى لها صوتا وان كانت صغيرة ! ٠

فلما انقضت السنة ، أخرجتني قيمة القصر اليه ، فنظر الى وجهي فاعجبته وأمرني بالغناء فغنيت ساعة ، وهو يسمع ولا يقول شيئا ، ثم أمرني فانصرفت ‥

وفي اليوم التالى دعا اسحاق الموصلي واسمعه غنائي ، ثم قال له :

ــ يا اسحاق ‥ هذه جارية تباع ، فبكم تأخذها لنفسك ؟!

قال اسحاق :

ــ آخذها بثلاثة آلاف دينار ‥ وهي رخيصة بهذا الثمن ! ‥

تبسم الامير وسأله :

ــ أتعرفها ؟! ‥

قال :

ــ ما رأيتها الا الساعة !

فضحك الامير وقال للموصلي :

ـ يا أبا محمد ٠٠ هذه هي الجـارية التي عرضـت عليك الهاشـمية بثلاثمائة دينار فلم تقبل ! ٠٠

فتعجب اسحاق وتحير من حالى ، وكيف صرت من صبية تجهل الغنـاء ، الى مغنية بارعة ! ٠٠

**● اليوم الثاني :**

كانت نزهتنا فى دجلة البارحة والقمر يتوسـط السـماء ، وقال لى سيدى الامير : غننا شيئا ، فغنيت ، فكأنى رأيت ماء دجله يتوقف ليستمع! ٠٠ ووضع الامير يده على فمي وقال لى : اسكتى يا شـارية ، فوالله لو سمعك أمير المؤمنين المعتصم لاخذك منى ! ٠٠ أنت والله أحسن من الغريض غناء ، وأحسن من البدر وجها ! ٠٠

ثم عدنا الى قصره ، واستأنفنا ما كنا فيه من الغناء ، حتى طرقنا ضيف يأنس اليه الامير ، فأمسكت عن الغناء ، وأخذا يتحدثان فى أمور شتى ، حتى قال له الامير :

ـ أتحب أن أسمعك شيئا لم تسمعه قط ؟ ٠٠

ـ نعم أيها الامير أعزك الله ! ٠٠ وانى لى بذاك ؟! ٠

فأمرنى مولاى أن أغنى ! ٠٠

فلما فرغت من الغناء قال لضيفه :

ـ هل سمعت مثل هذا الغناء قط ؟! ٠٠

ـ لا والله يا سيدى ما سمعت هكذا ! ٠٠

ـ أتحب أن تسمعه أحسن من هذا ؟! ٠٠

ثم غنى الامير الصوت الذى غنيته ، واجتهد فيه وبلغ منتهاه ، حتى صاح الرجل :

ـ والله ما ظننت قط أن مثل هذا يكون أبدا ! ٠٠

فقال الامير :

ـ أفتحب أن تسمع هذا الصوت أحسن من هذا وذاك ؟ ٠

قال الرجل متعجبا :

ـ فهذا الذى لا يكون أيها الامير أعزك الله !

قال الامير :

ـ بلى والله ! ٠٠ بحياتي يا شارية ، قوليه وأحيلى حلقك فيه من حال الى حال ، ارتفاعا وانخفاضا وكما تشائين !

ففعلت ما أمرنى به الامير ، حتى كاد الرجل يخرج من جلده طـربا وهو

يصرخ ويستغيث ، والامير ينعر ويصـــفق ، ويقـــول للرجل : أرأيت ؟! أسمعت ؟! ..

## ● اليوم الثالث :

نمي الى أمير المؤمنين المعتصم خبرى ! .. قيـــل له : ان عمـك يا أمير المؤمنين ـ ابراهيم بن المهدى ـ يضن على الناس جميعا بجارية مغنيـة لديه اسمها شارية ، لم يخلق الله مثيلا لجمال صوتها ، وجودة غنائها .. وان عنده غيرها من الجوارى المغنيات الحاذقات ، على رأسهن « ريق » المغنيـة الضاربة المحسنة ..

ولكن المعتصم يجفو الان عمه ابراهيم بن المهدى ، ويضيق عليه في العطاء لسبب لا أدريه ، حتى ان البساتين والضياع وسائر ما يملكه ابراهيم بن المهدى لا تدر عليه الا ما يستره بين الناس ، ويقوم بنفقة قصره الكبير .

مع ذلك أرسل المعتصم الى عمه يستزير منه جواريه المغنيات ، وبخاصـة أنا ..

وسمعت الامير يقول لرئيستنا « ريق » : انني أتحمل ذهابكن الى أمير المؤمنين على ضعف مني ، فان جواريه يلبسن الثياب الفـــاخرة ، وعليهـن الجوهر الثمين ، وانتن في سراويلات كادت تبـلى .. الا انني أرجـو أن تظهرن على جواريه بحسن غنائكن بين يديه ، فليس عنده جارية مثلك ولا مثل شارية ! ..

مضينا الى قصر الخليفة ، فرأينا فخامة ما ترتديه جواريه ، فتضاءلنا في سراويلاتنا ، وتقاصرت أنفسنا ، وشمخن علينا بأنوفهن ، ثم أخذن يغنين ، فلم يجئن بشيء ، ولم يطرب لهن المعتصم ! ..

فلما غنينا اهتز المعتصم ، ولما انفردت بالغناء أوشك أن يطير عن سريره طربا ! ..وأمر لنا بمائة ألف درهم ، حملناها الى مولانا الامير ، فأخرجته من تلك الضيقة التى نالته من جفوة المعتصم ! ..

## ● اليوم الرابع :

هذا اليوم يجيء بعد زمن طويل من آخر يوم ســـجلته في مذكــراتي . فقد مات مولاى ابراهيم بن المهدى فاشتراني المعتصــــم من ورثته بثلاثمائة ألف درهم ، وكان المعتصم قد أراد أخذى منه قبـــل وفاته بأكثر من ألف ألف درهم فلم يقبل ، فأرسل اليه أحد ثقاته يعاتبه ، فجلس مـولاى واياه الى مائدة يأكلان ، فأحضر الغلام سفودا فيه فراريج ، فأكلا منها ، ثم شربا ارطالا ، ثم أمر مولاى فضرب الستر ، وجلست وراءه ، وقال لي : ياشارية تغنى :

فلما غنيت صاح الرجل كأنما لسعته النار ، فقال له سيدى :

ـ ويحك .. تجلد ! ..

فقال :

ـ كيف التجلد وقد سمعت شيئا ذهب بعقلي ؟! ·· لا والله ·· لو كانت هذه في ملكي ما أعطيتها للمعتصم ولو أعطاني فيها خراسان والاهواز وأرمينية والجزيرة ··

كان ذلك منذ سنين ! ··

وقد مات المعتصم أيضا ! ·· وصرت حرة بعد موته ، وكبرت منزلتي في قصور بني هاشم وأعلى الخليفة الجديد مكانتي ، ولا عجب فان أمير المؤمنين الواثق مغن ملحن مطبوع ، يقضي وقته في السماع ، ولا يكاد يفارق اسحاق الموصلي ومخارقا وعلويه وابن بانة والجواري المغنيات ، وهو يعظمني كثيرا ، ويقول لي أحيانا من فرط تعظيمه اياي واعجابه بي : يا ستي ! ··

وعهد الى بتعليم جاريته المغنية الجميلة الموهوبة « فريدة » وهي متعلمة ولكنه يريدها أن تزداد علما ، والحق ان صوتها رائع وأداءها متقن ، ويقول من سمعوها انها مثل المغنيات العظيمات في عصر المأمون والمعتصم والواثق وهن : بذل ومتيم وشارية وريق وعريب وفريدة ! ··

ولكن الواثق مات في عمر الزهور ، ورأيت « فريدة » في مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، يضربها غلمانه بالسياط لرفضها الغناء للمتوكل وفاء لاخيه الواثق رحمه الله ! ··

ونحن الان في عصر المتوكل ، وهو شاب يحب القصف والغناء ولكن علمه به أقل من علم أخيه الواثق ·· وقد غنيت بين يديه والجواري من حولي هذا اللحن :

بالله قولوا لمن ذا الرشا
المثقل الردف الهضيم الحشا
اظرف ما كان اذا ما صحا
واملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له
ارسل فيه طائرا مرعشا
ياليتني كنت حماما له
او باشقا يفعل بي ما يشا

فطرب المتوكل وقال لي : لمن هذا الغناء يا شارية ، فقلت : لا أدرى يا أمير المؤمنين ! · فوثبت المغنية « ملح » ـ بضم الميم وفتح اللام ـ وقالت له : هذا اللحن لخديجة بنت أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، قالته في خادم لابيها كانت تهواه ، فنظمت فيه هذا الشعر ولحنته وغنته ! ·· فوجم المتوكل وقال لها :

ـ يا عطارة ! ·· لا يسمع هذا منك أحد ! ·

و « ملح » تسمى « العطارة » لكثرة استعمالها العطـــور •• وهى من أحسن الجوارى غناء ! ••

## اليوم الخامس :

الزمان يمر كالسحاب •• انقضى عهد المتوكل وخلفاء اخرين بعــده •• ونحن الآن فى عصر أمير المؤمنين « المعتمد » ••

تغيرت الدنيا ، وانتشرت الفاقة فى البلاد ، وأذل الفقر الناس وأثارهم، وأقعدهم وأقامهم ووثب القرامطة بالسيوف والرماح على دولة الخــلافة ، وغاض نهر الاموال الذى كان من قبل يجرى بين أيدى الخلفــاء •• ولولا ما أدخرته فى أيام المعتصم والواثق والمتوكل من الجوهر والذهب والفضة، لساءت حالى كما ساءت حال كثير من أهل صنعتى ! ••

لم يدهشنى أمس اننى رأيت أمير المؤمنين « المعتمد » يجلس فى ايوان قصره وحيدا حزينا ينشد لنفسه هذين البيتين :

اليس من العجـائب أن مثــلى
يرى ما قل ممتنعــــا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيـا جميعا
ومــا مــن ذاك شىء فى يــديه

ان أمير المؤمنين يشكو أخاه « الموفق » ــ ولى العهد ــ الذى يجبى الاموال ولا يعطيه الا القليل ، ولكن الموفق انما ينفق الاموال على حرب القرامطة التى لا تنتهى ، وأمير المؤمنين لا يقتدر الآن على مكافأة مغن ولا شاعر ، ولو بدراهم معدودة ! ••

أردت الترفيه عن أمير المؤمنين ، فجئت اليه من بيتى بثلاث من جــوارى المغنيات البارعات اللاتى احتفظ بهن ولا أبيعهن لكســاد الســـوق •• وهن مهرجان ، ومطرب ، وقمرية •• فغنين له حتى طرب وتســلى •• ثم أكل طعاما طيبا حملته اليه فى سلة صغيرة ، وكان معتادا أن يأكل من يدى منذ أيام أبيه المتوكل ! ••

ان المعتمد أمير المؤمنين يخشى أن يقتله الجند الاتراك كما قتلــوا أباه واخاه وبعض أقاربه •• وما أكثر تقلبات الايام واعجبها ! ••

# قصـــة حـب

## ● اليوم الاول :

يسمع الناس صـوتي فلا يعجبهم ، ويعجبهم تلحيني وضربي على العـود ، فاذا عرفوا ان اسمي « معبد » .. عبسوا في وجهي وقالوا لي : اما وجدت اسما آخر يعرفك الناس به ، فان اسم « معبد » اسم عظيم في الغنـاء ، وانت ضعيف خامل غير طيب المسموع ؟! .

ولا أدري من سماني معبدا ، فقد نشأت في المدينة المنورة ، طفلا خلاسيا، من أب أبيض وأم سوداء ، كلاهما من الموالي ، فاشتراني أحد وجهاء المدينة وهو من أولاد علي بن يقطين ، فصرت يقال لي : « معبد اليقطيني » .. ولما جيء بي الى بغداد أخذت الغناء عن جماعة من علية المغنين مثـل ابن جامع والموصلي ولكني لم أبلغ منزلة كبيرة في الغناء عند هارون الرشيد ، وقلما كان يسمعني ، فقد شغله اولئك الفحول الذين يغنونه كل ليلة ..

يئست من بلوغ شيء عند الرشيد ، فانقطعت الى البرامكة ، وصرت في جملة من يخدمهم بالغناء والمنادمة ، وغمرني كرمهم كما غمر جميع اللائذين بأبوابهم ! ..

وكنت أجلس في بيتي فيجيء بعض صغار المغنين ممن لم يرتفع قدرهم ولم يبلغوا أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والكبـراء ، فاقتصروا على الغناء لبعض أصحاب الوظائف ، والغناء في أفراح المياسـير من التجـار والصناع والعامة المستورين ! ..

كان هؤلاء المغنون يجيئون بأبيات من الشعر جيدة أو رديئة ، يطلبـون مني تلحينها لهم ، فاذا دفعوا الاجر ، طارحتهم اللحن حتى يحفظـوه وينصرفوا الى شأنهم ! .. قد يصيب أحدهم رزقا ونجحا ، وربما لا يصيب شيئا ..

فبينما انا ذات يوم في منزلي ، استأذن بعضهم في الدخول فظننته أحد هؤلاء المغنين الصغار ، فدخل شاب حسن الوجه نظيف الثياب ، تبدو عليه آثار السقم ، فعجبت منه ، وقلت له :

ـ ما رأيت مثلك مغنيا قط ! ..

فلم يتكلم ، وأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي ، وقال لي : اسألك أن تقبلها وتصنع في بيتين قلتهما لحنا ، وهذان هما البيتان :

والله يا طرفي الجاني على بدني
لتطفئن بدمعي لوعة الحـــزن
أو لأبوحن حتى يحجبوا ســـكني
فــلا أراه ولو أدرجــت في كـفني

فقلت :

ـ ما رأيت كاليوم .. تضع بين يدي ثلاثمائة دينار وأنا أبيع اللحن بمائتي درهم ، وتسألني أن أقبل هذا المال ، كأنك تظن اني لا أقبله .. فماذا تبتغي مني ، وهل أنت مغن جديد .. والا تكن مغنيا جديدا ، فما تكون ؟! ..

قال الشاب :

ـ لست مغنيا ، وما سألتك تلحين هذا الشعر لاغنيه ، بل لتغنيه أنت لي ، وهذه الدنانير جائزتك ، ولو ملكت أكثر منها لاضعفتها لك ! ..

فصنعت اللحن وغنيته للشـــاب ، فأغمي عليه حتى ظننته قد مات ، فصرخت :

ـ يا هذا .. والله ما سمع أحد غنائي فاغمي عليه طربا الا أنت ؟ .. وما اظن أن لي من جمال الصوت ما يدفعك الى الاغماء ! ..

أفاق الشاب ، وقال متوسلا باكيا :

ـ بالله يا سيدي .. أعد الصوت ! ..

قلت :

ـ أخشى ان أعدته ان تموت ، وما أراك الا مريضا ، يذهب بلبك الغنـاء وان كان ضعيفا لا يذهب بلب انسان صحيح النفس والبدن ! ..

فاخذ يتضرع حتى أعدت عليه الصوت ، فصعق عند ســماعه ، وقلت : قد مات الشاب ، ما أشك هذه المرة في موته ! ..

وظللت متحيرا لا أدري ما أصنع ، حتى رأيته يتحرك ، ثم أفاق ، فأسرعت فرددت اليه الدنانير ، وقلت له :

ـ يا هذا خذ دنانيرك وانصرف عني فلست أحب أن أكون مســئولا في دمك ! ..

فقال :

ـ لا حاجة بي الى الدنانير ! ..

قلت :

ـ كأنك تريد أن أعيد عليك الصوت ، وتعيد أنت الاغمــاء ، لا والله ، لا والله ، ولا بعشرة أضعاف دنانيرك هذه ! ..

فانصرف الشاب ، وتبعته أحاول أن أعيد اليه دنانيره ، فلم يقبل ! .

● **اليوم الثاني :**

عاد فتى الامس يسألني أن أغني له الصـــوت ، ومعه دنانير أخـــرى ، فقلت له : أغنيك على شرط أن تقيم عندي وتتحرم بطعامي ! .. ثم تمد يدك وتشرب أقداح نبيذ تشد قلبك وتســـكن ما بك من برحاء ! .. وان تحدثني بقصتك فاعرف منها أعاقل أنت أم مخالط في عقلك ..

ودفعت اليه دنانيره فأخذها .. ثم طعمنا وشربنا ، وغنيته في غير الشعر الذي كنت غنيته فيه ، فلم يثنه ذلك عن التوجد والتلهف وظل يشرب ويبكي أحر بكاء ، ولكنه تماسك فلم يقع مغشيا عليه كحاله أمس !

فلما رأيت منه ذلك قلت له : حدثني بقصتك فلعل لك عندي ما تستطب به لدائك هذا الذي برح بك وأضناك ! ..

فقال مستعطفا :

ـ الا تغنيني شيئا قبل أن أحدثك ؟!

قلت :

ـ أخشى أن يغمى عليك ، فلا تصحو بعدها أبدا ، ولعل الكلام أن يخفف عنك ! ..

قال :

ـ فموعدنا غدا ان شاء الله ! ..

ثم انصرف ، وأنا أضرب كفا بكف ، وأقول في نفسي :

ـ أن لم يكن هذا مجنونا ، فكيف يكون أهل الجنون ؟! ..

● **اليوم الثالث :**

جاء الشاب « المجنون » .. وجلس بين يدي صـــامتا ، فقلت له : الا تحدثني بما خفي من أمرك ، كما وعدتني أمس ؟! ..

قال :

ـ الشرط أعزك الله ! ..

قلت :

ـ وأي شرط لك عندي ؟!

قال :

ـ أن تغنيني قبل أن أحدثك ! ..

فغنيته مكرها ، فبكى قليلا ، ورأيت القدح الذى شربه قد شد من قلبه ، فطمعت فيه ، وسألته أن يحدثنى حديثه ..

تفكر الفتى بعض الوقت ، كأنه يستجمع اشتات عقله ، ثم قال :

ـ أنا رجل من أهل المدينة ، خرجت يوما فى فتية من أقرانى متنـزها فى ظاهر المدينة وقد سال وادى العقيق بما انهمر من المطر فى ذلك اليوم ، فبصرت بفتيات فيهن واحدة باهرة الجمال .. تنظر بعينين ما ارتد طرفهما الا بنفس من يلاحظهما .. فأحدثت بقلبى جرحا بطيئا اندماله ، فعـدت الى منزلى وأنا صريع ! ..

فقطعته قائلا :

ـ ويحك ! .. فما أظنك الا ذهبت تخطبها من أهلها ، فاذا بها زوجة لاحد الرجال ، فقتلك الحب واليأس من الحب ! ..

قال :

ـ كأنك قاربت الحقيقة ، فانى خطبتها بعد ان شاع حديثى فى الناس ، فحجبها أهلها عنى ، وتشدد عليها أبوها ، وهذا هو معنى قـولى فى البيت الثانى من شعرى الذى تغنيه لى منذ أيام ! ..

قلت :

ـ ويحك ! .. أما فكرت أن تمضى بمشيخة من قومك يشفعون لك عند أبيها ؟!

قال :

ـ قد فعلت .. فقال أبوها لمشيخة قومى : لو كان بدا بخطبتها قبل أن يفضحها ويشهرها لاسعفته بما التمس ! .. فلما قال أبوها ذلك انصرفت على يأس منها ومن نفسى ، وعلمت انى قتيل حبها لا محالة !

قلت للفتى :

ـ بل تعيش ان شاء الله ، وتسعد بحياتك ، فوافنى بعد غد ، فلعـل الليل والنهار يحدثان لك سلوة عنها ! ..

قال الفتى :

ـ هيهات ! ..

ثم انصرف ! ..

## • اليوم الرابع :

مضيت الى قصر الوزير جعفر البرمكى ، فكان أول صوت غنيته صوتى فى شعر الفتى العاشق ، فتأمل الوزير فى الشعر والغناء وقال لى : ويحك .. كأنى أسمع وراء هذا الشعر حديث قلب جريح ! ..

قلت :

ـ كذاك والله هو ! ..

ثم حدثته حديث الفتى العاشق ، فأمر باحضاره من وقته ، واستعاده الحديث فأعاده عليه ، فقال الوزير :

ـ هى فى ذمتى حتى ازوجك اياها ! ..

وغدا جعفر البرمكي الى أمير المؤمنين الرشيد فحدثه الحديث ، فعجب منه ، وأمر باحضاره وأنا معه ، فلما صرنا بين يديه أمرنى بأن أغنيه الصوت ، فغنيته ، فرأيت الفتى يتحرك وقد دمعت عيناه وهو يتماسك حتى لا يفتضح فى مجلس أمير المؤمنين ! ..

ورأيت أمير المؤمنين يلحظ الفتى ، مشفقا عليه ، ثم يتشاغل عنه بسماع غنائى ، وانه ليضيق بسماع صوتى ولكنه سمعنى هذه المرة كأنه يجد ارتياحا لسماعى ! ..

فلما فرغت من الغناء ، أشار أمير المؤمنين الى الفتى يستدنيه الى مجلسه فدنا منه على وجل واعظام ، فتلطف الخليفة فى الكلام معه ، حتى حدثه الفتى ، حديثه ، على استحياء واحتشام ! ..

قال له الخليفة :

ـ كأنك يا فتى قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح ، وأراك شاعرا مثلهما ولك فى الحب شأن كشأنهما ، الا أنهما ذهبا بالشهرة دونك ! ..

## ● اليوم الخامس :

جاءنى الفتى العاشق كعادته منذ كنا فى حضرة أمير المؤمنين ، فتجارينا فى الحديث عن أمور كثيرة ، حتى خطر لى أن أغنيه صوته الذى يبكى عند سماعه ، فلما غنيته رأيته متماسكا رابط الجأش ، فأعجبنى ذلك ، وقلت فى نفسى ان الفتى يثق بأن أمير المؤمنين لا يخذله ! ..

ونحن كذلك ، طرق الباب ، ودخل بعض خدم جعفر البرمكى يستحثنى والفتى على الركوب الى قصره ، فلما بلغنا ساحته ، ألفينا جعفرا يتأهب للركوب الى قصر الخليفة ، وقد تريث انتظارا لنا ، فصرنا ضمن حاشيته الى هناك ، وأنا أقول فى نفسى : أرى أن هذا الفتى يبلغ مراده اليوم ان شاء الله ! ..

وفى حضرة الخليفة وجدنا رجلا توسمت فيه أنه من أهل الحجاز ، واذا بالفتى العاشق يقول لى : هذا هو أبوها .

وعرفنا عندئذ أن أمير المؤمنين كتب الى عامله بالحجاز أن يشخص اليه الرجل وابنته وأقاربه فأشخصهم اليه .. ووصل الرجل الى مجلس الخليفة حيث رأيناه ..

قال الخليفة للرجل :

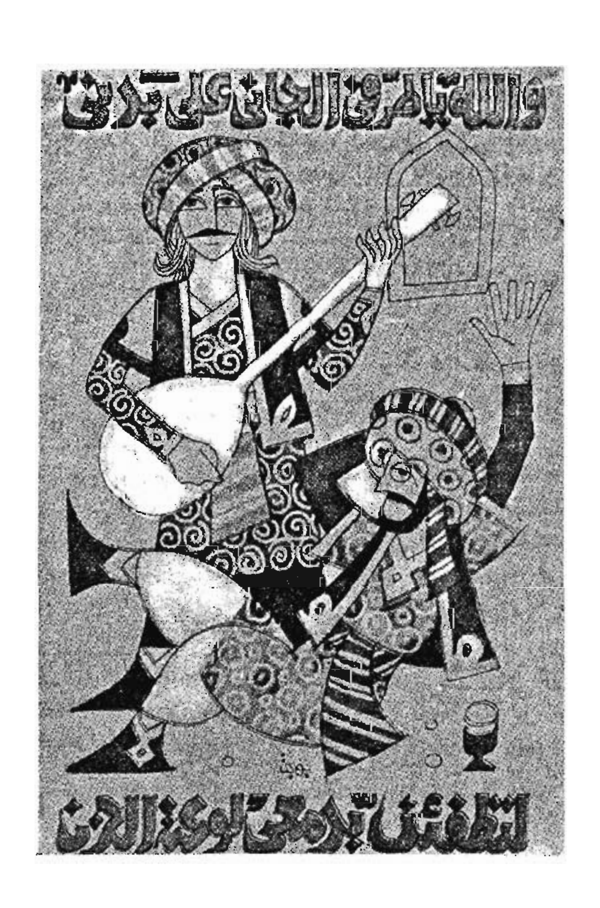
ـ قد خطبت اليك ابنتك لهذا الفتى من أهل المدينة وأقسمت عليك أن تقبل ! ..

فأجابه الرجل وقبل تزويج ابنته للفتى ! ..

وحمل الرشيد الى الرجل ألف دينار لجهاز العروس ، وألف دينار لنفقة الطريق ، وأمر للفتى بألف دينار ! ..

فلما خرجنا من قصر الخلافة ، أمر لى جعفر البرمكى بألف دينار ، وللفتى بمثلها ! ..

وانتصر الحب بقوة السلطان ، وقوة الدينار !



# مطرب قليل البخت

## اليوم الاول :

في شبابي كنت مقربا من ابراهيم الموصلي كبير المطربين والملحنين واحبهم الى قلب أمير المؤمنين الرشيد ..

ولكنى رأيته اليوم يتجهم لى ، بل انه ليتجهمنى منذ مدة ، ولا يحاول أن يعلمنى شيئا جديدا من الفن ، ولا يناصحنى في صناعة الغناء ، ولا يستمع الى ما أصنعه من ألحان .. واذا سألته في ذلك قال لى : يا سليم انك كبرت وبرعت وكثرت روايتك للالحان فماذا تبتغى منى بعد هذا كله ؟! .

ولو ساندنى الموصلى في قصر الرشيد ، لكان لى شأن ، أماوهو يباعدنى ، فان الرشيد يكاد يسقطنى من عينه حين أغنى له بعد الموصلى وابن جامع وفليح ابن العوراء وحكم الوادى ، وهم سادة المطـربين والملحنين .. وأنا بالاضافة اليهم كالساقط ! ..

وقد جدت على مجلس الرشيد أصوات أخرى كمخارق وعلويه ولا أستطيع منافسة هذين أيضا .

ويقال لى أحيانا : انما أخرك عن أصحابك هؤلاء عند الرشيد ، انك شديد الولع بالاهزاج ، فليس لك غناء عظيم الصنعة الا فى النادر ، على جمال صوتك وجهارته ! ..

ووالله لأنا أحق بخيرات هذه الدولة من هؤلاء المغنين جميعا ، فأنا سليم « بضم السين وفتح اللام » وأبى سلام الكوفى ، كان من أصحاب أبى مسلم الخراسانى ، الذى أقام بسيفه هذه الدولة .. وكان أبى من دعاة أبى مسلم وثقاته ، يكاتب عنه شيعة آل البيت في العراق ، ويصحبه فى خراسان قبل هزيمة آخر خلفاء بنى أمية « مروان الحمار » وقيام دولة بنى العباس !

كنت جديرا بمنصب في دولة العباسيين هـذه ؟! .. ولكن كيف أبلغ ذلك ، وقد ضربت هذه الدولة عنق أبى مسلم الخراسـانى نفسه ، ورمت برأسه الى أصحابه من فوق سور بغداد ؟! .

فأنا أحمد الله على انى مازلت حيا ، وان الخليفة يأذن لى فى أن أكون من المغنـين فى سهراته .. ولى من صـناعتى هذه مورد للرزق جمعت منه بالاقتصاد والتدبير جملة عظيمة وافرة من المال ، لعل بعض كبـار المغنين لم يجمعوا مثلها ، وهذا ما يحملهم على وصفى بالبخل وركوبهم اياى بالسخرية والدعابة في هذا الشأن ! ..

حتى برصوما الزامر « النافخ فى الناى » الاعجمى اللسان الذى يعجز عن نطق الكلام ، يهزأ بى ويسخر منى ! ..
كنت فى مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، فأحب الخليفة أن يتضاحك معه فادناه وسأله :

ـ يا برصوما .. اخبرنى عنك .. ما تقول فى ابن جامع ؟!

قال برصوما :

ـ زق من أسل « يريد : من عسل » ! ..

قال الرشيد :

ـ فابراهيم الموصلى ؟!

ـ بستان من فاكهة .. وريهان « يريد : وريحان » .

ـ فيزيد حوراء ؟! ..

ـ ما أبيد أسنانه « يريد : ما أبيض » ! .

ـ فحسين بن محرز ؟!

قال برصوما :

ـ ما أهسن خظامه « يريد : ما أحسن خضابه » .

فنظر الرشيد ناحيتى ضاحكا وقال لبرصوما .

ـ فسليم بن سلام ؟! ..

قال برصوما ساخرا بى :

ـ ما أنظف ثيابه ! ..

وكانت كلمته عنى هى الكلمة الوحيدة التى نطقها بلسان صحيح ! .. ويعنى بها ان كل بضاعتى نظافة الثياب ، أما الغناء فلست من أهله .

فضحك الرشيد ! .. ثم قال لى :

ـ غن يا سليم ، وبرصوما يزمر عليك .

فلما أخذت أغنى وبرصوما يزمر ، فاجأنى فى موضع صيحة عالية من اللحن ، فأخرج الناى من فمه وقال لى غاضبا :

ـ يا سليم .. صيهة أشد من هذه ! ..

يريد برصوما ان يقول : « صح صيحة أشد من هذه حتى يستقيم اللحن ، ويستقر الصوت على الموضع الصحيح من جواب الصيحة » ! ..

فكانت تخطئته لغنائى أشد على نفسى من كل شىء ، وسقطت من عين الرشيد وصرت له أضحوكة ، فطفق يضحك من كلمة برصوما حتى استلقى على فراشه ! ..

وخرجت من عنده بلا جائزة ، أما برصوما فأجزل له المكافأة ! ..

## ● اليوم الثانى :

ما زال أصحابنا ينكرون أهزاجى ، ويقولون : انما اخرك عند الرشـــيد كثرة أهزاجك ، وقلة غنائك الثقيل ! ..

ولكن الاهزاج كانت خيرا وبركة لى اليوم ! .

فان الرشيد كان نشيطا مرحا ، فامرنى ان أغنى له بعض الاهزاج ، فبدأت بهزج صنعته فى شعر للعباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه اسفا
لست منه بمصيب خلفا
لن ترى قوة عين ابدا
او ترى نحوهم منصرفا
قلت لما شفني وجدى بهم
حسبى الله لما بى وكفى
بين الدمع لمن أبصرنى
ما تضمنت اذا ما ذرفا

فرأيت الرشيد لما سمع هذا الهزج ، يتحرك كأنما مسه بعض الطـرب ، فاستبشرت وغنيته هزجا ثانيا :

اسرفت فى الاعراض والهجر
وجزت حد التيه والكبر
مالى وللهجران حسبى الذى
مر على رأسى من الهجر
ودون ما جربت فيما مضى
ما عرف الخير من الشر

فرأيت الرشيد يزداد طربا ، فأسرعت أغنى هزجا ثالثا فى شعر أبى نواس:

اصبح قلبى به ندوب
اندبه الشادن الربيب
تماديا منه فى التصابى
وقد علا راسى المشيب
اظننى ذائقا حمامى
وان المامه قريب
اذا فؤاد شجاه حب
فقلما ينفع الطبيب

فاشتد طرب الرشيد ، وقال لى : أحسنت والله يا سليم ، ولو كنت حكم الوادى مازدت على هذا الاحســـان فى أهزاجك ، يعنى ان حكم الوادى كان

منفردا بالاجادة فى الأهزاج ٠

ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم ٠٠ فخرجت من عنده أحمل المال وأنا أسعد الناس ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

قال أمير المؤمنين للمغنين وأنا فيهم : ليصنع كل منكم لحنا جديدا لمجلسنا بعد غد ٠٠

فغدوت الى صديق لى شاعر فقلت له : أريد أن أغنى الخليفة فى شعر لم يعرفه من قبل ولم يعرفه أحد من المغنين ، فقل أبياتا ملاحا أغنى فيها ٠٠

ورددت دابتى الى بيتى مع خادمى ، وأقمت عند صديقى الشاعر ، لننظم هذه الابيات :

**اتيتك عائذا بك منك**
**لما ضاقت الحيل**
**وصيرنى هواك وبى**
**لحينى يضرب المثل**
**فان سلمت لكم نفسى**
**فما لاقيته جلل**
**وان قتل الهوى رجلا**
**فانى ذلك الرجل**

رأيت الابيات لا بأس بهـا ، لولا ان البيت الاخير منها مأخوذ من قـول مشهور لمسلم بن الوليد :

**متى ما تسمعى بقتيل ارض**
**فانى ذلك الرجل القتيل**

ونشطت لتلحين الابيات ، ولم أر نفسي أنشط للغناء والتلحين منى ساعتئذ حتى أتممت اللحن ، واستأذنت فى الانصراف ، فقال لى صديقى : الا تأخـذ بيتين اخرين من الشعر تلحنهما اذا احتجت اليهمـا ٠٠ قلت له : هات ٠٠ فقال :

**يا بعيد الدار موصولا**
**بقلبى ولسانى**
**ربما باعدك الدهر**
**فأدنتك الامانى**

فضحكت وقلت لصديقى :

ـ وهذان أيضا من قول مسلم بن الوليد :

**ذاك ظبى تحير الحسن فى الاركان**

منه وجال كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يلقاك
الا فى النوم أو فى الامانى

قال صديقى :

ــ صدقت ، ولكنى والله ما سرقت من شعر مسلم بن الوليد ولا غيره الا المعنيين اللذين رأيتهما فى هذين القولين ! ..

فضحكت وضحك ، وانصرفت استعد لمهرجان الغناء فى قصر الخليفة ! .

## ● اليوم الرابع :

فزت أمس بجائزة فى مهرجان الغناء بقصر الخليفة على كثرة من غنى من فحول المغنين ! ولكن جائزتى كانت أقل من ثلث جائزة الموصلى وابن جامع ولا أحسدهما ، ولكنى والله لم أقصر عنهما فى التلحين ولا فى الغنـــاء لولا البخت والقبول ! .. رزقهما الله بختا وقبولا عند الخليفة ، فهو يطرب لكل ما يسمعه منهما ، وقد غناه ابن جامع مرة فأخطأ فى بعض أقســـام اللحن ، فغمز ابراهيم الموصلى جليسه القريب منه وهو ابراهيم بن المهـــدى ــ أخو الرشيد ــ وهمس له بحيث سمعته يقول له :

ــ الا ترى كيف أخطأ هذا الرجل أقبح خطأ يقع فيه ناشئة المغنين ، وهو شيخهم كما يزعم ؟!

فقال له ابراهيم بن المهدى :

ــ هو والله لا يدرك خطاه لانه شرب نبيذا كثيرا فلا يعى ما يغنى ! ..

ولكن الرشيد أجاز ابن جامع فى تلك الليلة وغفر له خطأه ، ولو كان هذا الخطأ منى لما سلمت من تقريعه ، ولنادى خدمه وقال لهم : « اسحبوا هذا من رجليه الى خارج القصر » ! .. وانما هذا كله من سوء بختى .

جاءنى فى بكرة الصباح المغنى المشهور مخارق الذى يزعم بعضهم انه أجمل صوتا من ابن جامع .. أو انه خليفته ..

غنيت مخارقا صوتا لى لم يسمعه من قبل فلبث عندى يشرب ويسمع الى الليل ، ثم استأذن منصرفا ، فسألته : اين تذهب الآن ؟! .. قال : اذهب الى قصر ابراهيم بن المهدى فقد دعانى الى الصـــبوح ، فأنسانى غنـــاؤك موعده ، فأنا أذهب اليه الآن ، واعتذر اليه وان كنا فى الليل ! ..

فحدثنى مخارق بعد ذلك ، قال ان ابراهيم بن المهـــدى حين رآه ، ولا فضل فيه لشراب ولا طعام بعد الذى شربه وأكله عندى ، اغتم لذلك وعاتبه على ما صنع وقال له : أما يكفيك اننا ندعوك للصبوح فتجىء الينا وقد ذهب من الليل نصفه أو أكثر ؟! .. فقال له مخارق : أيها الامير .. لا واللهماكان آفتى الا سليم بن سلام الكوفى ، فانه غنانى صوتا جديدا فاحتجزنى ، فقال

له ابن المهدى غننا هذا الصوت فنغفر لك ما صنعت ولا تزد فى الصوت ولا تنقص بل غننا اياه كما أخذته ..

فغناه اياه وهو :

اذا كنت ندمانى فبـــاكر مدامة
معتقـــة زفت الى غير خـــاطب

اذا عتقت في دنها العام اقبلـت
تجر رداء الحسن فى عين شـارب

فلم يكد مخارق ينصرف بعد أن حدثني هذا الحديث ، حتى جاءنى خـدم ابراهيم بن المهدى بجائزة هذا الصوت الذى سمعه من مخــارق ، وقال لى الخادم :

ـ الامير يدعوك ان تطرح هذا اللحن على جواريه ، فانه أعجبه ! ..



# الأيام الجميلة

## اليوم الاول :

طارحت اليوم بعض الحاني ، تلميذى ابراهيم الموصلى حتى حفظها وأحكمها ، ولئن عاش هذا الفتى ليكونن له شأن ، فانه مطبوع على الغناء والتلحين عظيم الموهبة فيهما ، وان كان تلميذى اسماعيل بن جامع أندى منه صوتا .. أتوقع أن يكون هذان أحسن من يغنى ويلحن بعدى ، وسيدخلان قصور الخلفاء ويبلغان الثراء والجاه والشهرة العريضة !

قلت لابراهيم الموصلى مازحا :

ـ انصرف راشدا فقد أحكمت ما حفظت من الاصوات ، ولكنى لو عشت لك ولزميلك ابن جامع ، ما وجدتما شيئا تأكلانه ! ..

قال لى الموصلى :

ـ كأنك تمزح ، ولكنك والله صدقت ، فانه لا يسمعك أحد ثم يعبأ بى أو بابن جامع بعدك !

قمت الى بعض شأنى فى بغداد .. الجو اليوم بارد .. الناس فى ثياب ثقيلة ، الا أبا ريحانه المدنى ـ صديقى القديم ـ رأيته جالسا فى الشمس ، عليه ثوب رث ممزق ، فوثب حين رآنى وقال : غننى بلحنك فى شعر ابن جندب :

لكل حمـام انت باك اذا بكى
ودمعك منهل وقلبك يخفـق

مخافة نأى بعد قرب وهجرة
تكون ولما تأت والقلب مشفق

ولى مهجة ترفض من خوف عتبها
وقلب بنار الحب يصلى ويحرق

اظل خليعا بين اهلى متيمـا
وقلبى لما يرجـوه منك معلق

فملت به الى ناحية خالية الا من رجلين اثنين ، فغنيته اللحـن ، فضرب بيده على قميصه الرث الخلق فشقه حتى خـرج منه وغشى عليه ، ثم أفاق

فرجع الى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجهدا .. فقال له أحد الرجلين يا هذا ان صاحبك لذو صوت حسن ، ولكن ما أغنى عنك ما غناك بصوته الجميل ، من شق قميصك ، ووقوفك عريان فى هذا اليوم البارد ؟! .. فقال أبو ريحانه واثقا بما يقول :

ـ يا ابن أخى .. ان الشعر الحسن من المغنى الحسن ذى الصوت المطرب، أدفأ للمقرور من حمام الخليفة المهدى اذا أوقد سبعة أيام كاملة ! ..

فقال له الرجل الآخر :

ـ أنت عندى من الذين قال الله عز وجل : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ! ..

قال أبو ريحانه :

ـ بل أنا من الذين قال تبارك وتعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ..

فلما انتهى الجدال والنقار بين أبى ريحانه والرجلين ، قلت له : انه لا يصلحك فى هذا البرد الا ثوب صوف ثقيل ، فتعال الى هذا البزاز القريب منا فى الشارع نشتره لك ! ..

قال أبو ريحانه :

ـ لا والله .. قد كسوتنى من حرير غنائك ، فلا البس معه شيئا ! ..

وخلف صديقى الذى يظنه الناس مجنونا ، ليجلسن فى الشمس ، ليس على جسده الا بقايا تلك الاسمال البالية ! .. فلم أكد أبلغ بيتى حتى وجهت اليه بقميص وجبة وسراويل وعمامة ! .. فاغتبط بها واكتساها ..

اذكرنى هذا ، ما صنعه أبو ريحانه يوما وقد مرت به جارية على ظهرها قربه ، وهى تغنى بصوت أثار قديم أشجانه :

وابكى فلا ليلى بكت من صبابة
الى ولا ليلى لذى الود تبذل

واخنع بالعتبى ، اذا كنت مذنبا
وان اذنبت كنت الذى أتنصل

فقام أبو ريحانه الى الجارية فقال : يا سيدتى .. أعيدى ! .. فقالت : مولاتى تنتظرنى والقربة على ظهرى ، فقال : أنا أحملها عنك ، فدفعتها اليه فحملها وغنته اللحن ، فطرب ورمى بالقربة فشقها ! .. فقالت له الجارية : امن حقى عليك أن أغنيك وتشق قربتى ؟! .. فقال لها : لا عليك تعالى معى الى السوق ! .

فمضت الجارية معه الى السوق ، فباع ملحفته واشترى بثمنها قربة جديدة ، ملأها بالماء وحملها على ظهره الى الموضع الذى قصدته الجارية ! .. ثم عاد الى مجلسه يبكى ويردد البيتين اللذين أطرباه !

## اليوم الثانى :

لا أدرى ما أصنع لصديقنا المجنون أبى ريحانة ، فانى مررت اليـوم فى الشارع الذى يجلس فيه لا يريم مكانه ، ولا يتعتعه حر ولا برد ولا مطر ولا ريح ولا موكب من مواكب الخليفة أو ذوى السلطان .. وقد مر به موكب أحد هؤلاء منذ أيام ، فلم يقف اجلالا له ، ووقفه الناس جميعا ، فبصر به أعوان السلطان فأخذوه وضربوه ، وأوشكوا أن يلقوا به فى السجن لولا انى علمت بالقصة ، فأسرعت اليهم أشرح لهم حقيقة حاله ، وحدثتهـم عن جنونه ، حتى أطلقوه ! ..

وقد مررت به اليوم فاخذ بلجام دابتى ، وقال لى ضارعا :

ـ ياسيدى ، بحق القبر ومن فيه .. غننى صوت ابن جندب :

فؤادى رهين فى هـواك ومهجتى
تذوب واجفانى عليـك همـول

فغنيته دندنة حتى لا يجتمع علينا الناس ، وقد استويت على ظهر دابتى كأنى أتحدث اليه فلم أكد أتم اللحن ، حتى فضحنى ، فانه لطم وجهه حتى خرج الدم من أنفه ، ووقع على الارض صريعا فاجتمع الناس ليحملوه ويدالجوه ونزلت اشتغل فى أمره معهم ، حتى أفاق ، فلما فتح عينيـه ورآنى انتفض واقفا ، وخرق جبته وقميصه وكل ما اشتريته له من الملابس الجديدة !..

انصرفت آسفا عليه وقد أيقنت انه لا شفاء له من دائه ، وان الغناء يهيج فى قلبه أمرا أشد حرارة من الطرب الذى تعرفه قلوب الناس .. وهـذا داء ليس له دواء ، وشفاء صاحبه أن يعيش عمره يتداوى منه بلا شفاء ! ..

## اليوم الثالث :

اعتللت أخيرا .. ذهبت أيامى الجميلة ! ..

عشت عمرى كله قويا لا يصيبنى مرض ، فما الذى أرقدنى هذه الرقدة ، ومن أين تسللت الى جسدى هذه الآلام ؟!

زارنى اخوانى أهل صناعتى ، فأنست بهم وقتا . ولكن الالم عاودنى بعد انصرافهم ، ثم جاء تلاميذى يسألون عنى .. قال لى كبيرهم ابراهيم الموصلى :

أعزز علينا بأن نراك فى هذه العلة يا أبا وهب . ولو كانت مما يفتـدى لفديناك منها ! .. وقال اسماعيل بن جامع كقول صـاحبه وزاد عليه بعض الدعاء ! ..

قلت لهم :

ـ أيها الابناء ، كيف كنت لكم أيام صحتى وعنفوانى وأخذى اياكم بالتعليم والتخريج ؟!

قالوا :

ـ نعم الاستاذ والسيد ! ..

قلت :

ـ قد غنيت ستين لحنا من صنعتي ، فأحب الا يغـيرها احد منـكم أو ينتحلها ! ..

فصمتوا الا الموصلي قال :

ـ نفعل أبا وهب ان شاء الله ، ونحفظك فيما تترك من صـنعتك ، على اننا نرجو أن نكون فداءك ، وتكون أنت بعدنا .

قلت :

ـ دع ذا عنك ، فوالله انى لاحس دبيب الفناء فى أعضائى وأرانى أموت عضوا فعضو !! ..

فسمعت بكاء تلاميذى ، فلما انقضت ساعة قال لى الموصلى :

ـ قد حلفنا أن نحفظك في تراثك من الالحان ، ولكن ماذا كرهت منا ؟! .. أن يكون فى غنائك فضل عظيم فنقصر عنه ، فيعرفه الناس لك علينا ، أو أن يكون فى غنائك بعض نقص فنحاول تحسـينه فينسب النـاس احساننا فيه اليك ، ويأخذه من يأخذه عنا على الوجه الذى استحسناه ؟! ..

انصرف تلاميذى .. فساورتنى ذكريات كثيرة قديمة .. ذكرت ، مثلا ، أن الخليفة المهدى كان يشرب يوما ، فصاح فجأة فى أحد حراسه : « جئنى بسياط وعقاب وحبال » .. فارتاع كل من كان حاضرا مجلس الخليلة وظنوا انه يريد الايقاع بهم ، أو ببعضهم ، ولم يكونوا يعرفون ذنبهم ، ولكنهم كانوا يعرفون بطش المهدى وسطوته أحيانا بغير حق ! ..

أما الحرس الذى تلقى أمر الخليفة ، فانه فهمه على وجهه الصحيح ، فخرج ثم عاد بعد قليل وأنا معه وورائى صديقى « عقاب » الذى يتـولى الضرب والايقاع لى حين أغنى وصديقى « حبال » الزامر الذى يزمر لى عند الغناء ، وكلاهما بارع فى صناعته ! ..

فلما وقفنا بين يدى الخليفة فهم جلسـاؤه أنه كان يعبث بهم ، فجعلوا يضحكون فى أكمامهم ونسمع شتائمهم لنا ! .. ويهمس بعضـهم لبعض : هؤلاء سياط وعقاب وحبال ! ..

وأمرنى المهـدى فى ذلك اليوم فغنيت ، وضرب عقاب فأحسن الضرب ، وزمر حبال فأجاد الزمر ! ..

ما أكثر الذكريات ، وما أوجعها اذ تعتادنى فى هذه الساعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم ! ..

## ● اليوم الرابع :

هذا اليوم لم يكتبه سياط ، بل كتبه تلميذه المطرب الكبـير ابن جامع ،

بعد أن شيع هو وأصحابه استاذهم الى مقره الاخير ..

قال ابن جامع :

دخلت على سياط في مرضته الاخيرة أعوده .. رأيته يدخل فى النزع ، فاستعبرت وانتحبت فالتفت نحوى وقال بصوت متقطع خافت : « لا تزيدوا فى غنائى شيئا ولا تنقصوا منه شيئا .. دعـوه رأسا برأس .. فانما هو ثمانية عشر صوتا » ! ..

قلت له :

ـ كنت قد سمعتك تخبر الموصلى ان غناءك ستون صوتا ! ..

فلم أسمع منه ردا .. لقد قضى الامر ! ..

بحثت عن والدته فى منزله فلم أجدها فى تلك الســاعة ، وكان يعيش معها ، وجاء بعض أصدقائه ، فشهدوا معى موته .. ثم جاءت أمه ، فقالت : أمات سياط ؟! .. قلنا : يرحمه الله ! .. فلم تزد على أن قالت : هكـذا مات أبوه فجأة ! .. قلنا : ولكنه مريض منذ حين ! .. قالت : انه كان يمرض ثم ينهض ، حتى جاءته هذه الفجاءة كما جاءت أباه من قبل ! ..

فلم نجد خيرا فى الكلام معها ، فقد خرفت هذه العجوز ..

وقمنا فأصلحنا أمره ودفناه رحمه الله ! ..

قال ابن جامع : « وقد سمعت المغنين وأخذت عنهم وتفقدت أغانيهم فما رأيت مثل سياط قط » ! ..

[illegible] فیه جعفرا

[illegible]

[illegible] نفقدبرا

[illegible] پشتر

# دموع متيم

## اليوم الاول :

اسمى « بذل » أبذل للناس فن الغناء كما يبذل الكرام أموالهم للمحتاجين!

يصفني شيوخ فن الغناء بأنني أحسن الناس غناءفى هذا الزمن ، ويزعمون انى أستاذة كل محسن ومحسنة من المغنين والمغنيات الآن ، وانى أعظم رواة الغناء العربى القديم من أيام طويس فى عهد عثمان بن عفان فى المدينة المنورة الى أيام الموصلى فى بغداد ..

اشترانى الامير جعفر بن موسى وأنا صبية صغيرة .. وفى قصره تفرغت للغناء وسمعت أكابر المغنين ، ورويت عنهم الحانهم والحان الاقدمين ونبغت وصرت أشهر مغنيات بغداد .

ولما تولى الخلافة محمد الامين بعد أبيه هارون الرشيد ، أراد شرائى من ابن عمه الامير جعفر ـ وهو ابن الخليفة الاسبق موسى الهادى رحمه الله ـ فأبى جعفر أن يبيعني للامين ، فاحتال عليه حتى اختطفنى من منزله وانصرف بى الى قصر الخلافة ..

وفى اليوم التالى بعث اليه الامين فجاء وأنا جالسة بين يديه ، فلم يتكلم جعفر بشىء ، وكظم غيظه ، ثم قام منصرفا فصاح الخليفة فى الخدم

ـ أوقروا سفينة ابن عمى دراهم ! .

فانطلق الخدم الى سفينة جعفر التى كانت راسية على شاطىء دجلة تحت شرفات قصر الخليفة وملأوها بقناطير من الدراهم ، ونظر جعفر الى سفينته مشحونة بالاموال . فنسينى وانطلقت به فى مياه دجلة حتى ألقت مراسيها قرب قصره .. وأسرع خدمه ينقلون منها الى خزانته الاحمال الهائلة من المال .. فلما فرغوا من نقلها وجدوها قد بلغت عشرين ألف ألف درهم ! .

فأنا أغلى الجوارى المغنيات ثمنا فى تاريخ الغناء كله ، ولا يقع فى وهم مغنية مهما كانت جميلة بارعة أن يشتريها خليفة أو أمير بعشر معشار هذا المال الجليل الذى اشترانى به محمد الامين .

## اليوم الثانى :

بلغت عند الخليفة الامين غاية الحظوة .. أعجبه غنائى حتى كاد يطير

بلبه ٠٠ أعجبه جمالي ٠٠ راقته شمائلي في جميع الاحوال ولكن الايام ركضت بنا كالخيـــــل الجـــامحة ، فسرعان ما تولى السرور ، وأقبلت الحوادث المزعجة ، فالحرب دائرة منذ مدة بين الامين وأخيه المأمون ٠٠ أراد الامين أن يعزل أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لطفل صغير ولدته احدى جواريه ، وقد نصحته الا يعزل أخاه فلم ينتصح ، وبصرته بالعواقب فأبى أن يتبصر ٠٠ وها نحن أولاء نجني معه الثمرة المرة لعناده ! ٠٠ فجيوش المأمون اقتحمت أبواب بغداد ، وشرعت تزحف على قصر الامين تطلب رأسه ! ٠٠

فزع الامين فزعا شديدا حين اقترب جنود المأمون من قصره ، وخلع ثيابه حتى صار عاريا الا من سروال قصير ، ورأيت جنديا اسود الوجه يجري وراءه، والخليفة يصيح :

ـ الله ٠٠ الله في دمي ! ٠٠ لا تقتلني فأنا ابن عم رسول الله ٠٠ جدي العباس بن عبد المطلب ، وأبي هارون الرشيد ، وأخي المأمون ! ٠٠

ولكن العبد الاسود هجم عليه مصلتا سيفه فوق عنقه ، والامين يصـيح في العبد مذكرا اياه بنسبه وحسبه ، حتى سقط رأسه على الارض وسيف العبد الاسود يقطر من دمه ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

تغيرت الدنيا بعد زوال دولة الامين وقيـام دولة المأمـون ٠٠ ليس لي مورد رزق الآن ، ونفقتي من مدخراتي ، فقد وهب لي جعفر بن الهـادي ومن بعده محمد الامين مقدارا عظيما من الجواهر الثمينة ، وأنا أبيـع من هـذه الجواهر شيئا بعد شيء وأعيش من ثمنه ! ٠٠

وقد لبث المأمون مدة في بلاد فارس ، ولم يعد الى بغداد الا أخيرا ، ويقال انه على علمه وفضله وديانته ، دموي المزاج ، وكذلك كان أبوه الرشـيد وجده المهدي ، يتذكرون الله فتنهمر دموعهم على خدودهم ، ثم يقتلون أقرب الناس اليهم بلا رحمة ! ٠٠

والا فكيف يعقل انسان ان خليفة استودعه الله دماء الناس ، وحرم عليه سفكها الا بالحق ، يقتل شاعرا من أجل بيتين مدح بهما رجلا يستحق المدح!

لقد مدح الشاعر علي بن جبلة ، قائدا من قواد المأمـون ، هو القاسم بن عيسى أبو دلف ، المشهور بالشـجاعة والكرم والرقة ومعـرفة الغناء وقول الشعر ، فكان مما قاله ابن جبلة :

**انما الدنيـا ابو دلف**
**بين مغـزاه ومحتضره**
**فـاذا ولى ابـو دلـف**
**ولت الدنيـا على اثره**
**كل من في الارض من عرب**
**بين باديـه الى حضره**

مســـــتعير منه مكرمة
يكتســـيها يوم مفتخره

بلغت هذه الابيات المأمون ، فأحفظته على الشاعر ، وملأته عليه حقـدا ، فامر بأن يسل لسانه من قفاه ! ••

الى هذا الحد بلغت وحشية المأمون الذى تذرف عيناه أحيانا من خشية الله ! ••

ان ابن جبلة لم يكن يقصد بطبيعة الحال ان يضع الخليفة المأمون فى جملة العرب الذين ذكر الشاعر انهم يستعيرون من مكارم أبي دلف كسوة لهم ، بل كان يقصد عامة العرب ، من غير بيت الخلافة ، ومن غير بنى هاشـــم ، وانما ذكر ابن جبلة العرب ، لان ممدوحه أبا دلف العظيم عـــربى خالص النسب ، والشاعر ينوه بذلك لان كثيرا من قواد جيش المأمون هم من الفرس والترك والاجناس الاخرى ••

والمأمون من أبصر الناس بالشعر فلا يفوته ان الشاعر لم يقصده بما قال لان للخليفة محلا رفيعا فوق العرب والعجم ، ولكن المأمون حسد قائده أبا دلف على الشعر البليغ الذى قيل فى مدحه وتناقله الناس وطبق الافاق ،فأسرها فى نفسه للشاعر البرىء المسكين حتى قتله شر قتله •• ولم يشف غليله الا أن ينزع لسانه من قفاه لا من فمه ! ••

وما سمعنا ان قطاع الطرق بين بغداد والبصرة ، أو بين البصرة والاهواز ، يفعلون مثل ذلك بمن يسقط فى قبضتهم ! ••

## ● اليوم الرابع :

استدعانى المأمون ، وأمرنى أن اتردد على قصره من حين الى حين ، أغنى له وأطربه كما كنت أطرب أخاه الامين •

وكثرت زياراتى لقصر الخليفة حتى صارت لى فيه مقصورة أبيت فيهـــا وتقوم الجوارى على خدمتى •

وتبسط معى المأمون حتى صرت أمازحه واقلب فى غنائى بعض كلمـــات الشعر الى كلمات تخدش الحياء ، تفكها وتظرفا ، فيضـــحك المأمون ويسره ما أفعل ويجيبنى بكلمات مثلها ، أو أشد منها تعبيرا عن واقع الحال الذى نحن فيه ! •

لم يعشقنى المأمون ، بل أعجبه غنائى وظرفى لا أكثر ، أما الذى عشقنى حقا فهو القائد على بن هشام ، وهو من أعظم قواد جيش المأمون ••

وقد تصنعت الغضب عليه منذ أيام فشكانى الى المأمون ، فأمره بأن يزورنى فى بيتى ويسترضينى ! •

فلما دخل بيتى وقف على مقربة منى فلم أكلمه ، فقال لى ضارعا

— انى جئتك يا بذل بأمر أمير المؤمنين ، فقد سألنى عنك فقلت له : هى

غضبى لا تكلمنى ! ·· فقال لى : فبحياتى عليك يا ابن هشـــام لا تدخل منزلك حتى تذهب اليها فى منزلها فتسترضيها ! ··

فقلت لعلى بن هشام :

ـ ان كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أرضى عنك ! ··

فقال لى :

ـ يا ستى ! ·· لقد كذب الوشاة على عنــدك ! ·· ولن أنسى ما حييت انى جئت أسلم عليك أمس فلم تأذنى لى بالدخول ، ولمحت الوشاة جالسين من حولك ·· وما وجدت الا الشعر أخنف به من وجدى ! ·

فسألته أن ينشدنى هذا الشعر ، فقال :

ومما شجانى اننى يوم زرتكم
حجبت واعدائى لديك جلوس
فان ذهبت نفسى اليكم تشوقا
فقد ذهبت للعاشقين نفــوس

## ● اليوم الخامس :

أنا لا أغار من تلميذتى « متيم » الجارية الجميلة المغنيـــة الحـــــاذقة ، التى تعلمت على يدى شيئا كثيرا ، وعلى يد اسحاق الموصلى شيئا أكثر ··

ان كل من يراها ويسمعها يقول انها أحسن الجوارى وجها وغناء وأدبا ، ويعترف لها اسحاق الموصلى الذى لا يعترف لاحد بشىء ، أنها أحذق المغنيات والمغنين جميعا فى التلحين ·· وقد سمعها البارحة فى ســهرة بقصر على بن هشام ، فطرب وشرب وصفق ونعر ، ثم نهض يصيح وقد تملكته النشــوة التى قلما تتملكه :

ـ يا متيم ·· أنت أنا ·· فمن أنا ؟! ·

كأنه يريد أن يقول لها ان محلها فى صناعة التلحين والغناء قد صار مثل محله ، وانها تساويه فى التقدم والعبقرية ! ··

وهذه شهادة لها من اسحاق ، لو عرضوه على الســـيف لما أعطاها لاحد غيرها ! ·· فانه كثير التيه على أهل صـــــناعته ، كثير التحامل على المغنين والملحنين ، مسرف فى حط درجاتهم ! ··

وقد أخذت « متيم » مكانى فى قلب على بن هشام ، ولست أكره ذلك ، فأنا اغنى لكل الكبراء فى هذه الدولة ، وبخاصة الخليفة ، ولا اريد أن أعرف بالميل الى على بن هشام خاصة ، فهذا يضره ولا ينفعنى ·

وعلى بن هشام شديد التعلق بمتيم ، يرى أنها دنياه كلها ، ويضن بها على سهراته التى تغنيه فيها الجوارى وحوله جلساؤه ، فاذا أراد سماع «متيم» اقتصر مجلسه على خواصه من المغنين كاسحاق الموصلى ! ·

ولكن ندماء المأمون سمعوا عنها ، فوصفوا للمأمون روعة غنائها ، وحلاوة وجهها ، فتلطف ذات ليلة الى ابن هشـــام وطلب اليه أن يحضرها الى قصره ليسمعها ! ..

فلما سمعها المأمون ، طرب لها طربا شديدا ، وحلت من قلبه محلا رفيعا ، فسأل ابن هشام أن يهبها له ، فتجاعل الرجل سؤال الخليفة كأنه لم يتنبه اليه ، وأخذ جاريته وعاد بها مسرعا الى منزله ! ..

وساءت العلاقات بين المأمون وقائده الكبير منذ تلك الليلة ، فان هـــذا الخليفة الذى سمعت بعضهم يصفونه بأنه من رجال الفكر والفلسفة ، يختزن فى أعماقه ميراث الملك العضوض ، أو الملك العقيم ، فيجفو أقرب الناس اليه لذنوب طفيفة قد لا تكون ذنوبا ولا حتى هنات هينة جدا ، ولكنها تملؤه حقدا على أصحابها حتى يشتهى ان يرى دماءهم البريئة تجرى بين يديه ! .. ولن أنسى ما حييت ما صنعه مع على بن جبلة الشاعر المظلوم !

## ● اليوم السادس :

زارنى اليوم على بن هشام ، والهم يبدو فى وجهه وقال لى :

ـ يا بذل .. قد احتجت الى نصحك ورأيك فى أمر أهمنى وأطار النوم من جفونى ! ..

سألته مشفقة :

ـ وما ذاك يا على ؟! ..

ـ متيم ! ..

قلت جازعة :

ـ ماذا جرى لها ؟!

قال وقد أغمض عينيه متفكرا واجما :

ـ المأمون يلح فى طلبها .. يريدنى أن أهبها له ! ..

قلت له بعد لحظة تفكير :

ـ يا على احرص على ان تعلق متيم منك حتى تحبل ، فييأس المأمون منها ، فانه لا يحب الجوارى ذوات الاولاد ! ..

وليتنى ما نصحته ، فما كاد المأمون يعلم بعد حين ان « متيم » قد حبلت، حتى غضب وفهم ان ابن هشام قصد أن يصرفه عن الجارية ، وأضـــمر له الشر ..

وقد وقع الذى كان على بن هشام يحذره ، وكنت أحذره أنا أيضا وجميع من يعرف كرم هذا الرجل وشهامته وطيب أخلاقه ! ..

ان المأمون الذى أخرج لسان الشـــاعر من قفاه ، قد عاودته دموية الملك

العضوض ، فأمر بقتل على بن هشام متذرعا بأمور لفقها له تلفيقا .

ثم زاد على قتله فأمر بمصادرة أملاكه وأمواله ! ..

وركبه الحنق على القصر الذى كان ابن هشام يعيش فيه مع متيم ، فأمر باخرابه فأخربوه وأحرقوه حتى صار اطلالا تثير الاحزان ! ..

ثم بلغ حقده عليه ، بعد قتله ومصادرته وتخريب قصره ، أن أصدر أمرا قاطعا بألا يقف أحد على أطلال القصر المخرب ، ولو لمجرد العبـرة والعظـة بأحوال الدنيا وتقلبات الايام ! ..

فمرت متيم مع بعض الجوارى بالقصر ، فرأته قد علت اطلاله الاتربة ، ونسج العنكبوت خيوطه ، وطرحت فى أفنية القصر المزابل ، فتوقفت تبكى عنده بهذه الابيات :

**يا منزلا لم تبل اطـــلاله**
**حاشا لاطـلالك ان تبـــلى**
**لم ابك اطـــلالك لـكننى**
**بكيت عيشى فيـــك اذ ولى**
**قد كان لى فيكا هوى مرة**
**غيبـــه التراب ومـا مـلا**

ثم بكت متيم حتى سقطت على الارض ، وجعلت الجوارى يناشدنها ويقلن لها : الله .. الله فى نفسك يا متيم ، فانك ان توقفت هنا جاءت الشرطة فاخذتك وعوقبت أشد عقاب لمخالفتك أمر الخليفة ! ..

ثم انتزعنها من ذلك المكان قبل أن يراها جند الخليفة متلبسة بالوقوف على اطلال قصر الرجل الذى أحبها واحبته ! ..

# مطرب عظيم .. ولكن ..

**اليوم الاول :**

لا أدرى أين أهرب من لقبى هذا الكريه ! .. فأنا ذو اسم جميل يحبه الناس ويحترمونه . وكنيتى أيضا طيبة ، ولكن لقبى يجعل بعض الناس يضحكون أحيانا ، حتى أصدقائى ومعارفي الذين اعتادوا لقبى هذا يبتسمون أحيانا ضاحكين منه ! ..

اسمى محمد بن حمزة بن نصير ..

كنيتى « أبو جعفر » ..

لكن لقبى « وجه القرعة » !

وكثير ممن يخاطبوننى ، لا يستعملون الا لقبى هذا !

وانا ـ والله ـ أحد المغنين الحذاق الضراب الرواة ، يعترف لى جميع أهل صناعتنا بذلك ، الا من حسدنى أو جهلنى أو جحدنى حقى ! ..

أخذت صناعة الغناء وأسرارها عن شيخ المغنين والملحنين ابراهيم الموصلى، وأخذت أيضا من آخرين في طبقته ، واعترف لى الموصلى وطبقته بجمال الصوت ، لا عيب فى صوتى ولا غنائى ، الا اننى كنت وما زلت اذا غنيت الهزج لم أتحكم في غنائه فيخرج صوتى عن الصواب فى أدائه ، لسبب لم أكن أدريه ولا أدريه حتى اليوم ! .. سألت عنه أستاذ أهل الصناعة ـ الآن ـ اسحاق الموصلى ، فقال لى هى آفة تعرض للحس أو الطبع ، فى جنس من أجناس الغناء ، فلا يصح له اللحن مهما اجتهد !

قلت له

ـ وما أصنع فى هذه الافة يا سيدى ؟!

قال

ـ تترك غناء الاهزاج ، وتقتصر على الغناء الثقيل ، فانه هو الغناء حقا !

ما زلت أذكر أول مرة سمعنى الموصلى الكبير وابنه الموصلى الصغير ، أعنى ابراهيم واسحاق الموصليين ، فقد سأل ابراهيم ابنه بعد أن سمعانى يومئذ وكنت شابا صغيرا

ـ ما رأيك فى غناء هذا الغلام ؟!

قال اسحاق

ـ لن يبلى فن الغناء ما دام مثل هذا الغلام الموهوب ينشأ فيه !

## ● اليوم الثاني :

كنت اليوم فى مجلس بعض الهاشميين فى بغداد ، فجاء اسحاق الموصلى .. ولم يطلب منى أحد أن أغنى لانهم يعلمون اننى اذا سئلت أن أغنى ، أبيت ذلك كل الاباء ، فاذا أمسكوا عن سؤالى ، وطال امساكهم عنه ،كنت أنا المبتدىء بالغناء

وكذلك كان فان القوم أمسكوا عن سؤالى الغناء ، حتى طلبت العود فأتونى به فغنيت لحنا من صنعة اسحاق الموصلى كأننى أحييه وأعلى مكانته لحضوره فى المجلس :

مر بى سرب ظبـــاء
رائحات من قبـــاء
زمرا نحو المصـلى
يتمشـــين حذائى
فتجاسرت والقيت
سرابيـــل الحيـــاء
وقديما كان لهـــوى
وفتـونى بالنســـاء

فأحسنت والله أداء هذا اللحن وجعل اسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال .. ثم قال

ـ أحسنت يا غلام .. هذا الغناء من صنعتى ، ولكنك تتقدمنى فى أدائه !

كانت هذه شهادة كبرى من اسحاق الموصلى لا يظفر بمثلها منه كبـــار المغنين المشهورين الذين يغنون للخلفاء .

## ● اليوم الثالث :

جلست مع بعض الهاشميين فى بستان بضواحى بغداد ، فغنيتهم

يا دار اقفـــر رســـمها
بين المحصـــب والحجـون
يا بشر انى ، فاعـــلمى
والله مجتهـــدا يمينى

فاذا برجل راكب على حمار ، يقصد الينا وهو يصيح

ـ أحسنت يا وجه القرعة .. أعنى أحسنت يا أبا جعفر ! .. أحسنت والله !

فقال القوم للرجل :

ــ ادخل الينا كائنا من كنت ! ••

فدخل يقول :

ــ لو منعتمونى الدخول لما امتنعت ! ••

كان الرجل ملثما ، فسفر اللثام عن وجهه فاذا هو أمير المغنين أبو المهنا مخارق ! ••

فاحتفى القوم به ، وأكرموه ، وسروا به سرورا عظيما ، وقمت فعانقته وقبلت رأسه ، فقال لى :

ــ يا أبا جعفر •• أعد علينا صوتك ! ••

فأعدت اللحن مجتهدا متحفظا ، حتى أحسست انى أتيت فيه بأجمل شيء، فطرب مخارق وطرب الهاشميون • وقال لى مخارق :

ــ لولا انى مدعو الخليفة ، وقد حان موعد الدعوة ، لاقمت استمع الى هذا الغناء الذى هو أحسن من الزهر فى هذا البستان ! ••

ثم أنصرف مخارق ليغنى فى مجلس الخليفة ، وبقيت أغنى فى البستان ، وقد ارتفع قدرى عند الهاشميين الذين سمعوا ثناء مخارق على غنائى ، وهو من هو فى شهرته ومكانته فى الغناء ، ومحله فى مجلس الخليفة لا يجهله أحد ! ••

## ● اليوم الرابع :

قصدت دار اسحاق الموصلى أعوده فى مرض أنهكه ، فصادفت عنده مخارقا وعلويه واحمد بن المكى وغيرهم من أهل صناعتنا ، يتحدثون ، فاتصل بينهم الحديث وتفرع شجونا ، حتى عرض عليهم اسحاق أن يقيموا عنده ذلك اليوم ليخرج بهم من ضائقة المرض ! ••

وجيء بالنبيذ فوضع بين أيديهم •• وأخذوا فى الغناء واحدا بعد الاخر ، فغنى علويه لحنا من الغناء القديم ، فلما رأيته يخـرج فى أدائه عن وجهه الصحيح خالفته فيه ، وطال جدالنا ــ وأنا وعلويه ــ فى ذلك ، وان علويه لذو مكابرة ولو كان الحق واضحا ! ••

لم يتكلم اسحاق الموصلى •• ظل يتابع المناقشة فى صمت كأنها لا تعنيه، وان كان لم يفته حرف منها ، ولم ينتصر لى ولا لعلويه ، فتحاكمنا اليه •• فامتنع من الحكم ، وقال :

ــ انتما فى بيتى ، ولا أحب لكما التنازع فى هذا الصوت ولا فى غيره •

فقال له علويه :

ــ يا أبا محمد قد احتكمنا اليك ، فاحكم ! ••

فصمت اسحاق ولم يتكلم ، واستحثه علويه فى لجاجة يعرفها عنه عارفوه جميعا فقال اسحاق :

ـ يا علويه ٠٠ قد حكمت لمحمد ! ٠٠

فازداد علويه لجاجة ، وراجع اسحاق فى حكمه ، فرده اسحاق قائلا فى صوت المريض الواهن :

ـ حسبك ، فوالله ما فيكم أدرى منه بما يخرج من رأسه ، من هذه الصناعة ! ٠٠

ثم غنى أحمد بن يحيى المكى : « قل للجمانة لا تعجل باسراج » ٠٠ فلما فرغ من غنائه ، قلت :

ـ هذا اللحن لمعبد ، ولا يعرف أحد لمعبد هزجا غير هذا ٠٠

فقال أحمد المكى كأنه يسخر :

ـ أما على ما شرط أبو محمد اسحاق الموصلى من انه ليس فى جماعتنا هذه من هو أدرى منك بما يخرج من رأسه فلا أعارضك يا وجه القرعة ! ٠٠

فقال اسحاق لاحمد بن المكى :

ـ يا أبا جعفر ، ما عنيتك والله فيما قلت آنفا ٠٠ ولكن قد قال لك أبو جعفر محمد بن حمزة ، انه لا يعرف لمعبد هزجا غير هذا ، وكلنا نعلم أن هذا الهزج لمعبد ، فجىء أنت بهزج آخر له ، مما لا يشك فيه العرفاء بالصناعة ! ٠٠

فوجم أحمد بن المكى ٠٠ ثم قال :

ـ صدقت والله يا أبا محمد ٠٠ فما أعرف لمعبد هزجا آخر لا يداخلنى شك فى نسبته اليه ! ٠٠

فانتصرت على أحمد بن المكى وعلى « علوية » فى تلك الساعة ٠٠ ورأيت مخارقا ـ وهو لى صديق ـ يبتسم كأنه شامت فى علويه وابن المكى ، وما أكثر شماتة المغنين بعضهم فى بعض ! ٠٠

## ● اليوم الخامس :

دخلت على اسحاق الموصلى مهنئا بالسلامة من علته التى كان فيها ، فدعا بعود فغنيت اصواتا للقدماء وأصواتا لابيه ابراهيم الموصلى ـ رحمه الله ـ وأصواتا له هو ، أعنى اسحاق ، فى ايقاعات مختلفة ، فوجه خادما الى جوارى أبيه المغنيات ، فجئن وجلسن وراء الستار يسمعننى ! ٠٠

فبلغنى أننى لما انصرفت قال اسحاق لجوارى أبيه ولجواريه :

ـ ما عندكن فى هذا الفتى ؟! ٠٠

فقلن :

ـ قد ذكرنا به والله أباك فيما غناه ! ..

فقال لهن :

ـ صدقتن ! .. انه والله لمغن محسن ، ولكنه لا يصلح للمطارحة ، لانه يزيد في أصول الالحان من ارتجاله ، فلا يعرف من يأخذ عنه اين أصل اللحن وأين زوائده .. فهو لهذا لا ينتفع به في الرواية .. ولكنه مغن مطـــرب لا نظير له ، وان كان قليل الحظ عند الخلفاء ، وليس الاستحقاق للحظوة عندهم ، الا ضربا من الحظ أحيانا ! ..

واسحاق كثير النقد لمن يتزيدون في أصول الالحان ويضيفون اليها من ارتجالهم ، لانه ملحن أكثر منه مطربا .. فدفعه ذلك الى الحرص على أصول الحانه ، ولكن المطرب ذا الصوت الجميل المتمكن .. يغني أصل اللحن ، ثم يضيف اليه ما يقدر عليه من ارتجال زيادة في اطراب السامعين ، والا فكيف يظهر فضل مغن على مغن آخر ، كلاهما يروى اللحن على أصله ؟! ..

على ان اسحاق يحق له الحرص على الدقة في رواية الالحان غير محـرفة عن أصولها ، لان الغناء العربي انما قام على هذه الاصـــول ، ولو اختلت الرواية لاختل هذا الفن وتهدم .. ولا سبيل الى تثبيت هذه الاصـــول الا بالرواية الصحيحة .. غير أن المطرب الراوية المتمكن يؤدى الغناء بأصـوله حتى تثبت عند من يحب أن يرويها ، ثم يضيف اليها من ارتجـاله ما شاء بحيث يعرف سامعوه ذلك ، ويميزون الاصل من الارتجال ! ..

ولكن هذا قلما يتاح ! .. واسحاق على حق في تشدده ! .

## ● اليوم السادس :

زرت مخارقا في منزله ، فصـادفت عنده كثيرا من المغنين ، فلما رأوني تغامزوا ، وتهامسوا : قد جاءكم وجه القرعة ! ..

فلم أبال بهم ، وسلمت على مخارق ، فأقبل مرحبا بي ، وبسط لي وجهه .. ثم قال :

ـ يا أبا جعفر .. ان جواريك « اللواتي في ملكي » قد تركن الدرس من مدة ، فأحب أن تدخل اليهن ، وتصلح من غنائهن ، وتذكرهن ما نسين من دروس الغناء ! ..

ثم صاح مخارق بخدمه ، فسعوا بين يدى الى الجوارى ، فأتممت عندهن ما سألني مخارق .. ثم خرجت اليه وأولئك المغنـــون عنده ، فأعلمته بما صنعت ، فشكرني وأجلسني الى جانبه .. فأقبلت على المغنين فقلت لهم :

ـ قد رأيت غمزكم ولمزكم ! .. فهل فيكم احد رضى أبو المهنا مخارق ـ أعزه الله ـ حذقه وأدبه وأمانته ، ورضيه لجواريه غيرى ؟! .. وهل رأيتم رقتـه وظرفه حين قال لي : « جواريك اللواتي في ملـكي » .. وانمـا هن جواريه هو ، وهن ملك يمينه ، ولكنه يتطلف في الكلام شأن كرماء الناس وأشرافهم .. وقد رأيتكم تغمزون وتلمزون كالسوقة ! ..

فصمت المغنون جميعا من فرط خزيهم ، ولم يحيروا جوابا ، كأنما ألقمتهم حجرا ! ..

# سوق الغناء الطنبوري

**اليوم الاول :**

حظى طيب والحمد لله ، ففى عصرنا هذا لا يحصل المغنى اذا كانت آلته التى يضرب عليها هى الطنبور ، الا القليل من الرزق ، فى حين اتسعت الدنيا للمغنين الذين يلحنون على مقتضى نغمات العود ، ثم لايتركون العود من أيديهم أبدا حين يلحنون أو يغنون ! ..

العود سيد آلات الضرب .. من أجاد الضرب عليه ، أجاد التلحين اذا كان موهوبا فيه ، وهذا اسحاق الموصلى ، يتيه على الخلفـاء والامـراء والكبراء بالحانه ، ومكانته فى الدولة أعلى من مكانة حاجب الخليفة أو وزيره .. وكل ما اكتسبه اسحاق انما اكتسبه بعلمه الغزير فى « العود » ومذاهب الغناء عليه قديما وحديثا .. أما صـوت اسحاق فكل صوت غيره أحسن منه او مثله .. ولولا صناعته الفائقة فى التلحين ، وأداؤه الفذ فى الغناء ، لما بلغ شيئا مما بلغه ، أبقاه الله ورعاه ، فانه والله رجل تقى ورع صالح الاخلاق ، لولا اشتهاره بالغناء لتولى القضاء أو الوزارة ، وهو رأس صـناعة الغناء الآن ، وأستاذ كل من يتعاطى هذه الصناعة من مغنين ومغنيات ! ..

لكنى أعتب عليه لانه يقول : غناء الطنبور باطل كله ، ولا يتعاطاه الا من عجز عن الغناء المتقن على العود ..

ولا أنكر ان أكثر من سمعتهم من الطنبـوريين ليسوا على شيء من العلم بالصناعة ، لكن هؤلاء يغنون فى الاسواق والافـراح والولائم وسـهرات السوقة فقط ! ..

أما أمثالى ، فلا يقل قدرهم شيئا عن أقدار المغنين على العود .. وقد سمع الخلفاء بعض الطنبوريين ، وأنا أكبرهم حظوة عند الخلفاء ، ولا أعلم أحدا ينافسنى فى الغناء على الطنبور فى بغداد أو فى غيرها من مدائن الاسلام .

ولكن صناعتى مع حذقى فيها ، لا تقوى على مزاحمة فحول الغناء فى بغداد .. وكيف أزاحم هذا الحشد من المغنين والقيان ، مشهورين ومغمورين ومن جميع الاجناس والالوان .. امتلأت بهم بغداد حتى لم يعد فيها لامثالى موضع قدم ! ..

ما من كبير ولا أمير ولا صاحب مال فى هذه المدينة الا لديه الجـوارى المغنيات أو الغلمان المغنون ، حتى لتنبعث الاغانى والاهازيج ليلا ونهارا من

النوافذ والشرفات في هذه المدينة التي التقت فيها أربعة أركان الدنيا ! ..

ولما وجدت الامر كذلك ، وأن استخلاص الرزق هنا صعب جدا ، يريق ماء الوجه .. قلت في نفسي : ما مقامك يا أحمد بن صدقه في بغداد ، ودمشق أطيب لك ، والرزق فيها ميسور موفور ؟! ..

حملت متاعي القليل ، وأخذت طريقي الى الشام ، حيث لا يوجد المغنى البارع الا في النادر ، ، وحيث أستطيع أن أغني بالطنبور وأرتزق واغتني، ويقول عني الناس : ما في الدنيا من يغني على الطنبور مثل أحمد بن صدقة

## ● اليوم الثاني :

ها هم أولاء يتذكروننا بعد نسيان ! ..

أقمت بالشام ما أقمت ، وظننت ان العراق لا يحتاج الى طنبوري ، حتى جاءني رسول من الخليفة المأمون يقول لى :

ـ أمير المؤمنين يدعوك ..

قلت

ـ السمع والطاعة ! .. وأنا على الاهبة ! .. ثم سألت رسول الخليفة متلطفا

ـ كيف خطر اسمي على بال أمير المؤمنين أعز الله نصره ؟! ..

قال بكبرياء :

ـ جاء اسمك في معرض حديث عن الطنبوريين الحذاق ، فوصفوك لامير المؤمنين ، فأمرني باحضارك ! ..

هكذا عدت الى بغداد !

سمعني أمير المؤمنين المأمون ، فاستحسن غنائي ، وأجزل صلتي ، وعرف الامراء والكبراء انى أعجبت الخليفة ، فأكثروا من دعوتي للغناء في قصورهم فكسبت منهم أضعاف ما كسبته من الخليفة ! .. ولو لم يرفع الخليفة من قدري ما عرفَ قدري أحد من هؤلاء ..

الا أن بعض حسادي يزعمون أن في بغداد من يساويني أو يفوقني في الغناء على الطنبور ، ويذكرون مغنيا طنبوريا اسمه « المسدود » .. سمعته فعرفت تقصيره في الصناعة ، ويذكرون أيضا عبيدة الطنبورية ويزعمون أن اسحاق الموصلي قال لما سمعها : « غناء الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان » ! .. ويزعمون كذلك ان الامير ابراهيم بن المهدى قال : « غناء الطنبور كله باطل الا من أبى حشيشة » ! ..

وان أبا حشيشة لمغن طنبورى قدير جميل الصوت ، لكنى لست أقل منه صوتا ولا صناعة ، وقد غنى للخلفاء والامراء فراجت بضاعته ، وأما أنا فأقمت بالشام بعيدا عن عاصمة الدوله فأخملنى هذا البعد عنها ، وتقدمنى من كنت جديرا بأن أتقدمه ! ..

أما عبيدة الطنبورية ، فلا أنكر أن لها صوتا وفنا في الغناء بالطنبور ، بل هي أفضل عندي في هذا الفن من أبي حشيشة ، وقد شهد لها اسحاق الموصلي بالحذق ، ولم يشهد لابي حشيشة ، وحسبها بشهادة اسحاق ! ..

الا أن عبيدة الطنبورية على اعتراف الطنبوريين لها بالرياسة والاستاذية، امرأة متبذلة يلوك العامة سيرتها ، ويرون تهالكهـا على الرجال .. وقد أرخصت نفسها كما أرخصت صناعتها .. ولو كانت هـذه المرأة جارية مشتراة من سوق الرقيق لصانها سيدها ، ولكان لها شأن في الغنـاء عند الخلفاء .. ولكنها خرجت تغنى وتعمل بين الناس وهى حرة لم يمسـها الرق ، فهان أمرها على الاحرار والارقاء ، وصار أجرها دينـارين فقـط ، لا يزيد دانقا .. وقد تحرج الخلفاء من دعوتها للغناء عندهم فسـقط أمرها وستبقى كذلك الى نهاية أمرها ..

قلت ذلك للمغنى الطنبورى المسمى بالمسدود فقال لى :

ـ لا تقل ذلك يا أحمد بن صدقة ، فانها المتقدمة على جميع الطنبـورين والطنبوريات .. وقد أذلها الزمن واضطرها الى كسب عيشها بهذه الطريقة التى جعلتها من بنات الهوى ، وهى أستاذة فن الطنبور ! ..

ثم ضحك المسدود وقال :

ـ أتعرف غلامها الذى يلقبونه « ظئر عبيدة » ؟!

ـ ولماذا يلقبونه « ظئر عبيدة » .. أترضع عبيدة من ثديه كما يرضـع الطفل من ثدى ظئره ؟! ..

ـ لا .. ولكنها تقول هازلة غير مبالية : هو بمنزلة بغل الطحان ، يصلح للطحن والحمل والركوب .. وأصفعه اذا شئت ! ..

قلت :

ـ أشتهى والله سماعها ! ..

قال المسدود :

ـ هذا يتاح لنا بعد يوم أو يومين ان شاء الله ..

## ◎ اليوم الثالث :

جلست عند بعض الكبراء اسـمع غنـاء عبيدة الطنبورية .. وحضر جماعة من بينهم اسحاق الموصلى ، فلما غنت طرب اسحاق وشرب نصف قدح، ففعلنا مثله ، وجعلنا نشرب على غنائها نصفا بعد نصف ، حتى والى اسحاق بين عشرة أنصاف وقد تملكه الطرب لغناء عبيدة ! ..

ثم انصرف اسحاق وبقينا نسمع ، فقال لها بعضهم :

ـ لاتبالى ياعبيدة بعد اليوم أن تموتى ! ..

ـ لماذا ؟! ..

ـ لان اسحاق الموصلي استحسن غناءك وشرب عليه ما شرب ، ولولا انك كنت متهيبة لحضره لكان غناؤك أحسن ، وطربه اكبر ! .. ووالله لقد رأيته مرات يستمع الى مخارق والى ابراهيم بن المهدى وهما اجمل الناس صوتا ، فما اهتز لاحد منهما ولا طرب ولا شرب ! ..

قالت :

ـ انه يهتم بالصناعة لا بالصوت ، وصناعتى فى الطنبور دقيقة جدا لا يعرفها أحد ، حتى ان اسحاق نفسه ليعجز عنها ! ..

خرجت من سهرة عبيدة الطنبورية ، فمررت بخالد بن يزيد الكاتب ، فقلت له : أنشدنى بيتين من شعرك حتى أغنى فيهما ، قال : وأى حظ لى فى ذلك؟! .. فحلفت له انى ان كسبت بهذا الشعر شيئا ، جعلت له نصفه ، فأنشدنى:

تقول : سلا ! .. فمن المدنف
ومن عينه ابدا تذرف ؟
ومن قلبه قلق خافق
عليك واحشاؤه ترجف ؟

فلما دعانى المأمون للغناء ، غنيته هذين البيتين ، فانقلبت عيناه غضبا وقال لى : يا ابن كذا وكذا .. ألك جاسوس فى قصرى ؟! ..

فوثبت مرعوبا اقول :

ـ يا سيدى ما السبب ! ..

قال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ من أين عرفت قصتى مع جاريتى فغنيت فى معنى ما بينى وبينها من هجران وسلوان ؟!

فحلفت له انى لا أعرف شيئا من ذلك ، وحدثته كيف أنشدنى خالد الكاتب هذين البيتين ! ..

فهدأ وقال :

ـ ان هذا الاتفاق لعجيب ظريف ! ..

ثم أمر لى بخمسة الاف درهم ولخالد بمثلها !

فلما انصرفت تبعنى بعض خدم القصر ممن أثق بهم فقال لى :

ـ أوشكت يا احمد أن تموت بسبب تفاحة عنبر ! ..

فأستخبرته الخبر ، فقال :

ـ ان أمير المؤمنين غضب على جارية له حظية عنده ، فوجهت اليه الجارية بتفاحة من عنبر ، عليها مكتوب بالذهب : « يا سيدى .. سلوت ؟! » ..

فلما غنيته أنت هذا الشعر الذى أوله : « تقول : سلا ؟! .. فمن المدنف ؟!» ظن أنك تعرض به ، وانك عرفت قصته مع الجارية فغضب حتى أوشك أن يأمر بضرب عنقك ! ..

## ● اليوم الرابع :

دخلت على المأمون فى يوم عيد السعانين الذى يحتفل به أهل الذمة ، فغنيته وغناه المغنون ، ثم جاءت اليه عشرون وصيفة روميات باهرات الجمال، يلبسن الزنار فى خصورهن ، وعليهن الحرير والذهب ، وفى أيديهن الخوص وأغصان الزيتون رمزا لعيد السعانين .. فأعجب بهن المأمون وحركن قريحته للشعر فقال هذه الابيات :

ظبــاء كالدنانير
ملاح فى المقاصير
جلاهن السعانين
علينــا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغا
كأذنــاب الزرازير
واقبلن باوســاط
كأوســاط الزنابير

ثم قال :

ـ يا احمد .. غن على طنبورك فى هذه الابيات ! ..

فعملت على البديهة لحنا فى هذه الابيات ، واخذت أغنيه للمامون ، وهو يظهر ارتياحه وطربه لغنائى ، ويشرب ، والجوارى يرقصن بين يديه أنواع الرقص العجيبة التى لم أر مثلها .. ففى احدى الرقصات واسمها « الدستبند » يتماسكن بالايدى ثم يفترقن ثم يتماسكن .. وفى رقصة أخرى يقلدن الراكب على البعير فى حركته ، ثم يقلدن الجمل فى أنواع مشيه الذى يشبه الرقص ! ..

ولم يزل المأمون يشرب ويتلهى بالرقص والغنــاء حتى انتشى واكتفى ، فامر لى بالف دينار ! ..

ثم امر بعض غلمانه أن ينثروا على الجوارى الراقصات ثلاثة الاف دينار ، فنثروها عليهن فوقعن عليها يلتقطنهـا ويضعنها فى منـاديلهن ، فوقعت مثلهن التقط ما أستطيع التقاطه من هذه الغيمة الماطرة ذهبا ! ..

وعرفت عندئذ ان للغناء الطنبورى قيمة وثمنا .. وأننى أستطيع به أن أعيش ! ..

# فريدة تقطّع أوتارها

## اليوم الاول :

اصلي فارسي عريق ‥ كان أبي الحارث بن بسخنر رفيع القدر عند الخليفة هارون الرشيد ، فولاه الاهواز كلها ، وهي عظيمة الغلة والخراج ، فكان أبي ينال على عمله فيها أموالا جليلة ، ويفي للدولة بالخراج ، فضلا عن هدايا للامراء من الجوهر والذهب والرقيق والخيل والبراذين وأشياء ثمينة كثيرة

سماني أبي محمدا ، محبة في محمد المهدي والد هارون الرشيد ، فلما كبرت صار من لا يعرفني يظنني عربي النسب حين يسمع الناس يسمونني « محمد بن الحارث » فاذا ذكروا اسم جدي « بسخنر » عرف حقيقة نسبي ، واني لذو نسب في العجم عظيم ‥ كان أجدادي من المرازبة ذوي الابهة والسلطان قديما ! ‥

لم أرث مالا كثيرا عن أبي الذي أنفق ما كسب طول حياته في قضاء حاجات الناس والاحسان اليهم بالجوائز والصلات ، كأنه عربي بل هاشمي ‥ كان يتصده الشعراء وذوو الحاجات فيعطيهم أكثر مما يعطيهم بنو هاشم حتى ليأمر بأربعين ألف دينار لرجل يلقاه في الطريق ، أو بمائة الف درهم لشاعر أو لذي حاجة يطرق بابه ! ‥

هكذا ضاعت ثروته ، وتركني وأهلي فقراء يحسبنا الجاهل اغنياء من التعفف ! ‥

كان أبي صاحب ذوق مرهف في السماع لا يصطفي لتعليم جواريه الا شيخ الملحنين اسحاق الموصلي ، فصرن أبرع الجواري غناء ‥ وكان اسحاق يستحسن غناءهن ويعتمد عليهن في تعليم بعض جواريه اللاتي يعدهن للبيع أو لاهدائهن الى الخليفة وكبار رجال دولته ، استدامة لمودتهم وحسن رأيهم وعطائهم •

وعن جواري أبي استطعت أن آخذ ما حفظن قديما من ألحان اسحاق الموصلي فحذقتها حتى صار اسحاق يقول من أراد أن يأخذ من ألحاني شيئا على أصله ، فليأخذه من محمد بن الحارث ، فانه أسرع خلق الله أخذا لالحاني !

احترفت الغناء لما نفد ميراثي المتواضع ، وصرت في حاجة الى الكسب ، ولكني وجدتني ضعيفا في التلحين المتقن على العود ، فصرت أغني ارتجالا ، وبرعت في الارتجال واعجبت الناس ودخلت مجالس الخلفاء ! ‥

لم انتفع في غنائي المرتجل بآلة موسيقية ، الا معزفة صغيرة أضرب عليها حين أغني ، فكان بعض المغنين يضحكهم شكل هـــذه المعزفة حتى سموها « مصيدة الفار » ‥ فحلفت الا أغني بها أبدا !

## ● اليوم الثاني :

في سهرة أمير المؤمنين الواثق ، والمغنون حاضرون وفيهم اسحاق الموصلي ، قال لي الواثق :

ـ يا محمد  بلغنا ان اسحاق يزعم انك أقدر من يأخذ عنه الالحان بلا خطأ البتة ، فغن شيئا مما أخذت عنه !

فالتفت الى اسحاق كأني أسأله  ماذا أغني ؟! ‥ فلم يرني لضعف بصره، فغنيت لحنه الذي صنعه في بيتين من شعره

اذا المرء قاسى الدهر وابيض راسه
وثلم تثليـــم الاناء جوانبـــه
فليس له في العيش خير وان بـكى
على العيش او رجى الذى هو كاذبه

فرايت اسحاق يشرب رطل النبيذ ويميـل طربا ، وما أطيب هيئته في شيخوخته وقد أخذه الطرب ، لولا انه صار يعاني من ضعف بصره ، كان الله في عونه وهو يحمل عبء الثمانين !

أما الواثق فانه قال لي

ـ احسنت يا محمد ما شئت ! ‥ فبحياتي أعد اللحن

ثم أمر فجاءت جواريه ، وعلى رأسهن « فريدة » البارعة الجميلة ، فجلسن وراء ستارة ، ليأخذن اللحن عني ‥

فلما كثر ترديدي اللحن ـ وهو صعب ـ اجتهد كل من حضر أن يأخـذه عني ، حتى أخذوه جميعا ، وعلى رأسهم الخليفة الواثق ! ‥
وقال عمرو بن بانة الذي يغني ارتجالا مثلي وهو الذى أهدى للواثق جاريته « فريدة » التي صارت أحظى جواريه :

ـ يا أمير المؤمنين ‥ علمت منذ سنوات ان هبة الله بن ابراهيم بن المهدي يغني هذا اللحن اجمل غناء ، فسمعته منه فكان كذلك ، فلما سمعته الآن من محمد بن الحارث علمت انه أحذق الناس جميعا بالحان اسحاق الموصلي مع انه مغن مرتجل لا يعرف ضرب العود ‥ وانما كان يغني الى عهد قريب على مصيدة الفار ! ‥

فضحك الواثق ، وتبسم اسحاق ، وتغامز المغنون ، وســمعنا من وراء ستارة الجواري همسا وضحكا خافتا !

خجلت فلم أرد على ابن بانة ، وخفت من سلاطة لسانه وقربه من الخليفة

بعد أن أهدى اليه جاريته « فريدة » أحب جواريه اليه ..

ثم قال الخليفة لاسحاق الموصلى كأنه يتوسل اليه :

ـ وأنت أبا محمد .. الا تغنينا الليلة شيئا ؟! ..

فأخذ اسحاق العود فجسه فكأنما لعب عفريت من الجن بأوتار العود ، ثم غنى ، وقد ضعف صوته لشيخوخته لكن بقيت فيه صناعته الفائقة :

**ذكرتك اذ مرت بنا ام شادن**
**امام المطايا تشرئب وتسنح**
**من المؤلفات الرمل أدماء حرة**
**شعاع الضحى فى متنها يوضح**

فطرب الواثق وصاح :

ـ احلفتك بحياتى أن تعيده وتطرحه على الجوارى حتى يأخذنه ! ..

فقال اسحاق :

ـ لا يستطيع الجوارى أن يأخذنه منى ، ولكن يأخذنه من محمد بن الحارث فانه يحفظه ! ..

ثم انصرف اسحاق الى منزله بجائزة كبيرة .. وقمت أنا الى بهو فى القصر أطارح الجوارى هذا اللحن ، وبقى الخليفة والمغنون فى مجلسه يتابعون الغناء والمنادمة ! ..

فلما عدت ، وجدت جارية تغنى :

**اصبح الشيب فى المفارق شاعا**
**واكتسى الراس من مشيب قناعا**
**وتولى الشباب الا قليلا**
**ثم يابى القليل الا وداعا**

فلما أتمته الجارية ، تجادل فيه المغنون فى حضرة الواثق .. قال مخارق : أظن هذا اللحن لمحمد بن الحارث .. فقال علويه : هيهات ! .. ليس هذا مما يدخل فى صنعة ابن الحارث .. لكنه يشبه صنعة ذلك الشيطان اسحاق الموصلى ! .. فقال الواثق : أظنه كذلك ! .. ثم أومأ ناحيتى كأنه يسألنى : لمن هذا اللحن ؟! ..

قلت : صدق علويه يا أمير المؤمنين .. هذا لاسحاق ومنه أخذته ، وعنى أخذته هذه الجارية اذ أمرنى أمير المؤمنين منذ مدة أن أطارحها به ..

فتذكر الواثق وقال :

ـ نعم .. كذلك كان ! ..

## ● اليوم الثالث :

صــــارت نوبتي في خدمة أمير المؤمنين في كل جمعة ، اذا جاء للوعــد ركبت الى قصره ، فأجده أحيانا مع اسحاق الموصلي وأحيانا مع جاريته فريدة .. ولكل مغن نوبة لا يحضر الى القصر الا فيها ، أما السهرات الجامعة فتكون بأمر من الخليفة ، وليس لاسحاق نوبة ولا يحضر الى الخليفة الا بعد تتابع الرسل اليه والحافهم في استدعائه ! ..

كانت نوبتي أمس ، ولم يكن عند الواثق الا فريدة ، فسألني الواثق :

ــ من احسن من سمعت من المغنيات منذ عهد المامون الى اليوم ؟! ..

قلت :

ــ فريدة وشارية اطيب المغنيات صوتا واتقانا للاداء .. ومتيم أحســنهن تلحينا ، وعريب اغزرهن .. وعلى الجملة فاني لم أسمع أحســن من فريدة وشارية ومتيم وعريب وريق .. وقال لى اسحاق الموصلى ان ( بذل ) كانت فى طبقتهن ولم أسمعها ! ..

قال الواثق :

ــ صدقت .. كذا سمعت منه ! ..

ثم انصرفت الى دارى ، فلم آكد أجلس حتى هجم على مجلسى رسل الخليفة وقالوا لى : أجب أمير المؤمنين ! .. قلت خائفا : خيرا ؟! ..قالوا : خيرا ان شاء الله .. قلت : لعلكم غلطتم ! .. قالوا : الله المستعان .. لا تطل ! فقد أمرنا الا ندعك تستقر على الارض ! .

فداخلني فزع شديد ، وخفت أن تكون وشاية قد غيرت رأى الخليفة فى أمرى ، فأوصيت ثم ركبت حتى وافيت القصر ، وهممت أن ادخل من الباب الذى رسم الخليفة أن يكون دخول المغنين منه ، فمنعنى الحراس ، وأخذنى الخدم فأدخلونى فى ممرات لا أعرفها فزدت جزعا ، ولم يزل الخدم يسلموننى من حارس الى حارس حتى أفضيت الى صحن مفروش بأبهى الرياش ، حيطانه ملبسة بالوشى المنسوج بالذهب ، واذا الواثق على سرير مرصع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب .. والى جانبه فريدة جاريته الاثيرة الحظيــة لديه جدا ، عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود ، فلما رآنى قال : أسرعت يا محمد الينا ! ..

فقبلت الارض وقلت : يا أمير المؤمنين .. خيرا ..

قال : خيرا .. أما ترانا ؟! .. طلبت والله ثالثا يؤنســـنا فلم أر أحق بذلك منك ! .. فبحياتى بادر فكل شيئا وبادر الينا .. فقلت وقد اطمأن قلبى : قد والله يا سيدى أكلت وشربت أيضا ! ..

فأمر لى برطل نبيذ ، واندفعت فريدة تغنى :

اهابك اجــلالا وما بك قـــدرة

علي ولكــن ملء عين حبيبهـــا

وما هجرتك النفس يا ليل انها
قلتك ولا ان قل منك نصيبها

فجاءت والله في غنائها بالسحر ، وأوشكت أن أفتضح من شدة طربى في مجلس الخليفة ، وجعل الواثق يجاذبها ، وفي خلال ذلك تغنى اللحن بعد اللحن ·· ثم يأمرني فأغني أنا في خلال غنائها وغنائه ·· فمرت بنا أطيب ساعة تمر بانسان في الدنيا ! ··

وفجأة رفع الواثق رجله فضرب بها صدر فريد ضربة عنيفة تدحرجت منها من أعلى السرير الى الارض وتكسر عودها ، وقفزت تعدو وتصيح ! ·· وأنا مشدوه مرعوب كالمنزوع الروح ! ·· ولم أشك انه غضب لشدة طربى لها وما اجتمعنا عليه نحن الثلاثة من التبذل ورفع الكلفة ·· وأطرقت أتوقع أن يأمر بضرب عنقي ، وأعددت نفسي للموت ! ·· على انني في الحقيقة برىء لا ذنب لي ! ··

فاني لكذلك ، اذ قال لي : يا محمد ! ·· ويحك ! ·· ارأيت أغرب مما تهيأ علينا ؟! ··

قلت :

ـ يا سيدى ·· الساعة والله تخرج روحي ! ·· فعلى من أصابنا بعين الحسد لعنة الله ! ·· فما كان السبب فيما حدث يا سيدى ؟! ··

قال وقد كسا وجهه اليأس والالم ! ··

ـ لا والله ! ·· ولكن فكرت في أن أخي جعفرا « المتوكل » يلي الخلافة بعدي ويقعد هذا المقعد مع فريدة كما كانت معي ، فلم أطق صبرا وخامرني ما أخرجني الى الغضب ! ··

فسرى عني ، وهان الامر عندى وقلت للخليفه :

ـ بل يقتل الله جعفرا ولا يجلس هذا المجلس ، ويحيا أمير المؤمنين أبدا

ثم قبلت الارض وقلت :

ـ يا سيدى الله ·· الله ! ·· ارحمها ومر بردها ! ··

فجاءت وفي يدها عود جديد وعليها غير الثياب التي كانت عليها ، فجذبها وعانقها ·· فبكت فريدة وبكى الواثق بكاء مرا اليما ·· واندفعت أنا فبكيت لبكائهما ! ··

ثم قالت فريدة :

ـ ما ذنبي ياسيدى ، وبأى شيء استوجبت عندك هذه العقوبة ؟! ··

فاعاد عليها الواثق ما قاله لي وهو يبكي وهي تبكي ·· فقالت :

ـ سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقي الساعة وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الهم بي ! ··

## ● اليوم الرابع :

مات الواثق •• قال الاطباء وهم يعالجونه من مرض الموت انه شاب قوى وسيعيش خمسين اخرى ، فمات بعد خمسة أيام ••

تولى الخلافة المتوكل •• ومضت مدة •

دخلت نفس الصحن الذهبى الذى رأيت فيه الواثق يضرب فريدة برجله حين تملكه الوسواس الذى كان ينغث فى روعه انه يموت صغيرا ويرث الدولة من بعده أخوه جعفر المتوكل ، وقد صدق وسواس الواثق ، وصارت فريدة فى جملة جوارى المتوكل ! ••

رأيتها مع المتوكل فى الموضع الذى كانت فيه مع الواثق ، ولكنها لم تكن مع الخليفة الجديد كما كانت مع الخليفة الراحل ! ••

كانت ترفض أن تغنى للمتوكل •• فقال لى :

ـ اما ترى ما أنا فيه من النكد من هذه الجارية ؟! •• اننى منذ الصباح اطالبها بأن تغنى فتأبى ! ••

فتلطفت اليها وطلبت منها أن تغنى له•• وقلت لها :

ـ سبحان الله •• أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟! ••

فضربت بالعود الارض فتقطعت أوتاره ، ورمت بنفســـــها عن السرير الذهبى ، ومرت تعدو وتصيح حزنا على الواثق :

ـ واسيداه ! •• واسيداه ! ••

ثم ماتت فريدة من التعذيب ضربا بالسياط على وجهها وهى تابى ان تغنى للسيد الجديد ! ••

# ملك الطنبور

## ● اليوم الاول :

خدمت حتى يومنا هذا أربعة خلفاء ، أولهم أمير المؤمنين المأمون وآخرهم المتوكل على الله .. حياتى كلها فى قصور بنى العبـــاس ومن يلوذ بهم من الكبراء وأرباب السيوف والاقلام ، وأول نشأتى فى صناعة الغناء عند الامير ابراهيم بن المهدى الذى شهد كل من استمع الى غنائه بأنه صـــاحب أجمل صوت فى الدنيا .. قال عنه بعض كبـــار المغنين انه أجمـل الانس والجن والوحش والطير صوتا ! ..

ومنه تعلمت المثابرة فى طلب فن الغناء ، ولكنى لم أجد عنده رزقا يكفينى فانه أقرب الى البخل ، فانقطعت الى الامير أحمد بن الرشيد ، فأعجبه غنائى وعزفى على الطنبور ، غير انه كان يقول لى

ـ يا أبا حشيشة .. انك لن تتقدم فى صناعة الغناء الا اذا تعلمت ضرب العود وغنيت عليه ، وأراك تغنى بالطنبور وحده ولك فيه صنعة تفوقت فيها على كل طنبورى فى بغداد أو فى غيرها من البلاد ، ولكن الغنــاء الثقيـل المتقن انما يكون على العود لا على الطنبور ! ..

ولكنى أخلصت للطنبور ، ولم أجد العود موافقا لمذهبى الخاص فى الغناء وصارت لى فى الغناء على الطنبور براعه لا يتعلق بها أحد ممن يتغنـــون على العود ، حتى ان المطرب الكبير مخارقاً لما سمعنى قال لى

ـ والله ما فى الدنيا من يتغنى على الطنبور مثل غنائك .. وانى لاستهين بالطنبوريين وأراهم لا يحسنون الغناء المتقن ، الا أنت فقد صنعت على الطنبور ما لا نستطيع نحن أن نصنعه على العود ! .

شكرت لمخارق هذا الثناء الذى لم أكن أتوقعه منه ، وكنا حينئذ بدمشق وفيها معسكر للخليفة المامون فى بعض غزواته للروم ، فأخذنى مخارق اليه ، وقدمنى ووصفنى وقرظنى فأمرنى الخليفة بالغناء على طنبورى ، فغنيته أحسن غناء أقدر عليه ، وظفرت منه بجائزة عظيمة ..

سألنى المأمون عن اسمى ،فقلت :

ـ اسمى محمد بن أمية بن أبى أمية ، ولقبى أبو حشيشة ، والنـــاس لا يعرفوننى الا به ! ..

ضحك المأمون وقال :

ـ أظنك من أولاد بعض الكتاب ممن خدموا جدنا أمير المؤمنين المهدى رحمه الله ! ..

قلت

ـ نعم يا أمير المؤمنين .. كان جدى على كتابة السر وبيت المال والخاتم على عهد أمير المؤمنين المهدى رضى الله عنه ، وحج معه أربع حجج ! ..

## ● اليوم الثاني :

تذكرت اليوم وأنا فى قصر المأمون ببغداد ، بداية شهرتى بالغنـــاء منذ سنين ، فان بعض سراة بغداد سمعنى ، فصرت منذئذ مغنيهـم الوحيـــد ، لا يسمعون غناء من غيرى ويسموننى « الظريف » .. واغدقوا على المال حتى اجتمع لى منه ما اشتريت به منزلاً ، وكنت من قبل أســـكن بالكـراء .. وسمنت عندهم من كثرة الاكل ، فقد كانوا أكثر الناس آكلا ..

رأيت رجلا منهم قد أكل هو وابن عم له اثنين وعشرين رأسا كبـارا من رءوس الغنم لم يتركوا من لحمها شيئا ، وشربا من النبيذ حتى غابا عن الوعى وناما ساعة أو ساعتين ، فلما انتبها دعوا بطعـــام آخر ، وعادا يأكـلان ، كأنهما لم يأكلا منذ ساعتين فقط اثنين وعشرين رأسا ! ..

ولكنى الآن خفيف رشيق ، فما يصلح لمجالسة الخلفاء ومنادمتهم والغناء لهم ، رجل ممتلىء شحما ولحما ! ..

جاءنى مخارق قال

ـ يا أبا حشيشة .. ان المأمون أمرنى أن أصحبك فى ســـمرتنا عنده الليلة ، ولعله يأمرك أن تغنيه لحنك فى شعر دعبل :

كان ينهى فنهى حـــين انتهى
وانجلت عنه غيابات الصـــبا
خلع اللهو واضـــحى مســـبلا
للنهى فضـــل قميص ورِدا
كيف يرجـو البيض من أوله
فى عيون البيض شيب وجلا
كان كحلا لماقيهـــا فقـــد
صـــار بالشيب لعينيها قذى

فاذا أمرك الخليفة ان تغنيه هذا اللحن ، فاقتصر على البيتين الاولين ، لانه يكره أن يذكره أحد بالشيب ! ..

قلت

ـ عجبت لامير المؤمنين كيف وخطه الشيب وهو فى ســـن الاربعـين أو دونها ؟! ..

ضحك مخارق :

ـ هذا من هموم الملك ! •• ولو كنت يا أبا حشيشة أمير المؤمنين لاسرع الشيب الى رأسك ! ••

فلما جلسنا في حضرة المأمون ، وجاء دوري في الغناء ، كنت قد نسيت نصيحة مخارق لى ، فغنيت الابيات الاربعة ومررت فيها كلها وأنا ذاهل فسمعت المامون يقول وفي صوته أثر من غضب :

ـ يا مخارق •• الا تحسن تأديب هذا الفتى ؟! •

فتنبهت مذعورا ، وقلت وقد انتفضت قائما متوسلا :

ـ لا أعود الى مثل هذا يا أمير المؤمنين ! ••

ضحك المأمون وأشاح بوجهه عنى ، ثم أمر لى بجائزة اقل مما كنت أرجو ! ••

## ● اليوم الثالث :

دعانى ابراهيم بن المهدى •• قال لى :

ـ أحب أن تسمع ثلاث جوار عندى يغنين بعض ألحانك على الطنبور ، فان كان فيما يغنينه خطا فاصلحه لهن ••

جاء الخدم بالطعام والنبيذ ، وجالسني ابراهيم بن المهدى وشرب وسقانى وبسطنى كل البسط •• ثم غنت الجارية الاولى لحنا لى فى شعر خالد الكاتب :

**كيف احتيالى وانت لا تصل**
**عيل اصطبارى وقلت الحيل**
**ان كان جسمى هواك ينحله**
**فان قلبى عليك يتكل**

فسألنى ابن المهدى وقد طرب وطربت مثله :

ـ أهذا اللحن لك ؟ ••

ـ نعم •• أصلح الله الامير ! ••

ثم جاءت الجارية الثانية فغنت لحنا آخر لى فى شعر خالد الكاتب :

**رب مالى وللهوى**
**ما لهذا الهوى دوا**
**حاز طرفى الذى هوى**
**الحسن قلبى وما حوى**

فكاد عقلى يذهب طربا لما سمعت من غناء الجارية ، كأننى أسمع اللحن

لاول مرة ولا أعرفه وهو لى وقد غنيته فى مجالس الخلفاء والكبراء ! ··

ثم الجارية الثالثة ، فلم يكن طربى لها أقل من طربى لاختيها ، وحميت نفسى وتشجعت وقلت فى نفسى : والله لاغنين لابراهيم بن المهـــدى بعض الحانى ·· وغنيته :

**لئن لج قلبك فى ذكـــره**
**ولج حبيبـــك فى هجـره**
**لقد اورث العين طول البكا**
**وعز الفـــؤاد على صـبره**

فطرب ابن المهدى واستعادنى اللحن ، ثم قال لى :

ـ يا خليلى ·· غناء الطنبور كله باطل ، الا هذا الغناء الذى نسمعه منك ·· فلا تترك هذا اللون من الغناء ، فلئن كان الطنبوريون جميعا على باطل ، انك لعلى حق لجودة طبعك فى الغناء ، وتفننك فى الطنبور ·

## ● اليوم الرابع :

لم يكرمنى أحد من الخلفاء كما أكرمنى أمير المؤمنين المتـوكل ·· لقـد غنيت للمأمون والمعتصم والواثق وأخذت جوائزهم ، ولكن أحـدا منهـم لم ينبسط وجهه لى كما انبسط لى وجه المتوكل ·· قال لى :

ـ يا أبا حشيشة تغن لنا فى شعرك :

**اطعت الهوى وخلعت العذارا**
**وباكرت بعد القراح العقـــارا**
**ونازعك الكاس من هاشـــم**
**كريم يحب عليهـــا الوقـارا**
**فتى فرق الحمـــد امـــواله**
**يجر القميص ويـرخى الازارا**
**راى الله جعفـــر خـير الانام**
**فملـكه ووقاه الحـــذارا**

فطرب المتوكل وشرب أقداحا ، واستعادنى اللحن مرارا ، ثم قال لى :

ـ يا أبا حشيشة ·· ما أدرى أشعرك خير من غنائك أم غنـــاؤك خـير من شعرك ، فقد أحسنت فيهما جميعا ·· ولو كنت أبا عبادة البحترى لما جئت بأحسن من هذا الشعر فى مديحنا ، ولو كنت مخارقا أو علويه لما أطربتنـا كما أطربتنا وأنت أبو حشيشة ! ··

ثم جاءت « محبوبة » جارية المتوكل الشاعر المغنية ، فدفع اليها تفـاحة فقبلتها قبلتين أو ثلاثا ثم كتبت على رقعة :

يا طيب تفاحة خلوت بهـا
تشعل نار الهوى على كبدى

لو ان تفاحة بكت لبكت
من رحمتى هذه التى بيدى

فاستظرفها المتوكل واستملحها جدا ، وأمرها فغنت فى هذا الشعر ، ثم أمرنى فغنيت فيه ..

ومحبوبة جديرة باسمها ، فانها بارعة الحسن والظرف والادب ، تحسن قول الشعر والغناء ، وقد حظيت عند المتوكل حتى انه يجلسـها الى جانبه فى السهرة اذا لم يكن عنده الا خواصه من المغنين والندماء ..

وهى تخصنى بعطفها ، وتقول للمتوكل :

ـ مافى الدنيا طنبورى يغنى كغناء أبى حشيشة ! ..

ولما قدم أحمد بن صدقة المغنى الطنبورى من الشام الى سامرا ، غنى فى مجلس المتوكل ، ولم أكن حاضرا ، فاستحسن غناءه وأجزل صلته ، وحاول بعض حسادى أن يوهم المتوكل ان ابن صدقة هذا أبرع منى فى الغنـاء على الطنبور ، وكانت محبوبة حاضرة فقالت تدافع عنى بظهر الغيب :

ـ يا أمير المؤمنين .. لا تسمع فى أبى حشيشة قولا من هذا الحاسـد ، فان ابن صدقة وان كان محسنا فى صناعته ، لا يبلغ أن يكـون غـلاما من غلمان أبى حشيشة فى الغناء بالطنبور ..

## ● اليوم الخامس :

توفيت « شجاع » والدة المتوكل ، ويسمونها « السـيدة » فلبث أياما لا يسهر ولا يشرب ! ..

فلما مضى شهر جلس للمنادمة ، وقال فيها هذا البيت :

تذكرت لما فرق الدهر بيننـا
فعزيت نفسى بالنبى محمـد

فأجازه بعض من حضر من الشعراء :

فقلت لها ان المنايا سـبيلنا
فمن لم يمت فى يومه مات فى غد

فتطيرت من هذا البيت الثانى ، وقلت فى نفسى : ما بال هذا الشـاعر الجاهل يذكر الموت ، كأنه يقول للخليفـة : ماتت أمك أمس ، وأنت ميت اليوم أو غدا ..

تملكنى الشجن ، فلما أمرنى الخليفة بالغنـاء ، انحنيت على طنبـورى أضرب وأغنى :

وليست عشيـــات الحمى برواجع
اليك ولكن خل عينيــك تدمعــا
واذكـــر ايـام الحـمى ثـم انثني
على كبدى من خشية أن تصـــدعا

فرأيت المتوكل ينتفض طربا ، حتى اهتز قدح النبيذ في يده ، وشرب على غنائى مرات ، واستعادني ، وخامره من الوجد ما لا يمكن وصــفه ، ودمعت عيناه حتى تحدر الدمع على خديه ! .. ثم قال لى :

ـ ان أطرب الغناء وأشده تأثيرا ، ما يوجع القلب بكلامه وألحانه ، وهذا الذى أسمعتنيه جمع هاتين الصفتين ، فكان منى ما رأيت ! ..

فقمت على رجلى قائلا :

ـ يا أمير المؤمنين .. أسعدك الله ، وأطال بقاءك ، ومتعك بحياتك ، وأصلح بك الدنيا ، وأعز الدين ! ..

ثم ارتج على فسكت وجلست ! ..

فتبسم المتوكل ، واســتدنانى اليه فدنوت حتى قبلت طــرف ردائه ، وبكيت ! ..

لا أدرى لماذا بكيت ، ولكن السهرة من أولها الى اخرها كان يخيم عليهـا الحزن ، فهذا أول مجلس للخليفـــة بعد وفاة والدته ، وكانت والله امرأة صالحة كثيرة الصدقات ، عظيمة المعروف ..

## ● اليوم السادس :

أكتب هذا بعد شهور انقضت على مفكرتى السابقة ..

غنيت فى مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، فبينما أنا منصرف رأيت جندا من الترك يدخلون القصر بأسلحتهم ، ففزعت منهم فرأيت القـــائدين التركيين وصيفا وموسى بن بغا ومعهما « باغر » التركى الجلف ، يدخلون على الخليفة وقد أخذ منه الشراب ، وعنده وزيره الفتح بن خاقان شبه نائم ، فهجم باغر على الخليفة فضربه بالسيف ، ثم أخذته السيوف من كل جانب حتى خمد وتمزق لحمه وصبغ دمه البساط ، فصحا وزيره وصاح فيهم :

ـ ويلكم .. أمير المؤمنين ! ..

ثم نظر فاذا أمير المؤمنين ممزق الاشلاء ، فهجم عليهم بيديه فأغمدوا فيه سيوفهم ، ورأيت الشاعر أبا عبادة البحترى يجرى هاربا فجريت معه وجرى الندماء وهربت الجوارى ..

وفى الصباح علمت أن القتلة لفوا الخليفة ووزيره فى البساط ودفنوهما معا بدمائهما من غير تغسيل ! ..

صادفت الشــــاعر البحترى فى بعض الطريق بسامرا فقال لى ان سبب

ما جرى ، ان المتوكل كان قد أراد خلع ولده محمدا المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه ، لان المعتز أمه أحظى جوارى المتوكل وأجملهن على الاطلاق ، فصار المتوكل يوبخ ابنه المنتصر فى الملأ ، ويسلط عليه الغلمان يشتمونه ويهزأون به ، فحقد المنتصر على أبيه واتفق مع القادة الاتراك على قتله ليتولى مكانه .. وقد كان ! ..

اقتسم القواد جوارى المتوكل ، وهن ثلاثة الاف جارية ، فكانت « محبوبة » الشاعرة المغنية فى قسمة القائد « وصيف » مع مئات من الجوارى الاخريات!

استدعانى وصيف لاغنى ، فلما جئته رأيت عنده جوارى المتوكل متزينات متعطرات ، عليهن الثياب الملونة ، الا « محبوبة » فانها كانت فى ثياب الحداد حزنا على المتوكل ! ..

فاشتد ذلك منها على« وصيف » وأراد أن يقتلها ، وكان صديقه « بغا » حاضرا فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأمر باخراجها من سامرا الى بغداد ..

وبعد مدة رأيتها عند بعض معارفها من بنى هاشم ، وقد جلست تغنى باكية :

اى عيش يطيب لى
لا أرى فيه جعفرا
ملكا قد راته عينى
قتيلا معفرا
كل من كان ذا هيام
وحزن فقد برا
غير محبوبة التى
لا ترى الموت يشترى

ولم أزل منذ ذلك اليوم ، أزورها فأجدها تغنى هذه الابيات وتبكى ! .. فلا هى تبرأ من الهيام والحزن ، ولا هى قادرة أن تشترى الموت ، كما تقول فى شعرها وغنائها ! ..

# فهـــرس

صفحة



رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٢ ـ ٨٦
الترقيم الدولى ٥ ـ ٢٥٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

٣٠٠ قــرش

تراث

الجزء الثانى

كمال النجمى

# يوميات المغنين والجوارى

## حكايات من أغانى الأصفهانى

دار الهلال




حكايات من أغانى الأصفهانى




بقلم

كمال النجمى

دار الهلال



الغلاف بريشة : الفنان محمد أبو طالب
الرسوم الداخلية بريشة : الفنان صلاح بيصار

# مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من «يوميات المغنين والجوارى» .. يصدر بعد فترة قصيرة من صدور الجزء الأول الذى استقبله القراء استقبالا حميما ، فأفاضوا عليه التشجيع والاحتفاء ، كما أضفى عليه كبار الكتاب وفضلاء النقاد عطفا سابغا ، وحيوه بكلمات بليغة مضيئة ، شجعتنا على المسارعة بإصدار هذا الجزء الثانى وهو امتداد للجزء الأول ، واستكمال لقصص المغنين والمغنيات فى العصرين الأموى والعباسى الأول كما ذكرها أبوالفرج الأصبهانى فى «كتاب الأغانى» الذى طالعه القراء العرب القدماء فى الأرض الممتدة بين الأندلس والهند أو الصين ، ولبثوا يطالعونه على اختلاف الأحوال وتقلبات الزمان أكثر من ألف عام ..

وقد نسجنا هذا الجزء الثانى على المنوال الذى نسجنا عليه الجزء الأول ، ومنهجنا فيهما نسيج وحده فيما نظن ، لأننا لم نقصد به «تلطيف» حجم كتاب الأغانى الضخم ، ولاتجريده من الاسناد والاستطراد ، ولا اختصاره وانتقاء شذرات مما فيه ، ولاتحويل قصصه العبقة إلى مادة درامية للشاشة الكبيرة أو الصغيرة أو ميكروفون الاذاعة ، وإنما ذهبنا فى النظر إلى كتاب الأغانى الجليل الشأن مذهبا آخر يعدل بنا عن ابتذاله فى الاختصار والتجريد ، أو تمزيقه تمزيقا مرئيا أو مسموعا فى الصور المرئية أو الكلمات الأثيرية .. وقدمناه فى شكل يوميات تكتبها الشخصيات التى عاشت على صفحاته الممتعة أجيالا بعد أجيال ..

وفى الجزء الأول من «يوميات المغنين والجوارى» كما فى هذا الجزء الثانى ، لاتتعاقب القصص والحكايات والأحداث كما يتعاقب الليل والنهار ، يوما فى إثر يوم ، وساعة موصولة بساعة ..

فإذا كتب المغنى مذكرات «اليوم الأول» ثم مذكرات «اليوم الثانى» فليس معنى ذلك أن هذين اليومين متعاقبان يأخذ أحدهما بتلابيب الآخر ، ولكن المقصود بالايام هنا قد يكون سنة أو سنين أو شهورا أو أسابيع أو أياما .. وربما ساعات !

والمهم فى جميع الأحوال أن تترابط الأحداث متجهة إلى هدفها مهما اتسعت الفوارق الزمانية والمكانية بينها ، أو تقاربت ، أو اتصلت بلا فارق فى الزمان والمكان

وقد تمتد يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تنكمش فوق لحظات فى اليقظة أو المنام .

وفى هذا الجزء الثانى نواصل الأسلوب الذى كتبنا به الجزء الأول ، فنحاول الاقتراب قدر المستطاع من أسلوب مؤلف كتاب الأغانى احتفاظا بشىء من رائحة الماضى العطرة .

ولغة مؤلف كتاب الأغانى هى لغة بلغاء القرن الرابع الهجرى الذى كان العصر الذهبى للأدب والفن والفكر ، ومازال أثره باقيا فنيا حتى اليوم لأنه العصر الذى تكونت فيه نفسية الأمة العربية وعقليتها ومزاجها على مثال غير مسبوق ، ومازال هذا التكوين العقلى والنفسى والمزاجى يعمل فينا عمله ، ولايصح أن نتجاهله ، ولايمكن الغاؤه بمرسوم ، ولايقدر على تعديله وتحويله وتطويره إلا مرور السنين الطوال ..

ونرجو بهذا الجزء الثانى من كتابنا أن نسهم فى توثيق الصداقة التى حاولنا أن نعقدها بجزئه الأول بين القارىء العربى العصرى وبين كتاب الأغانى العظيم الذى قرأته الأمة العربية جيلا بعد جيل .

كمال النجمى

# المغنيـــة الأولـــى



● **اليوم الأول**

أنا « جميلة » هذا اسمى ، وهو ايضا صفتى !..

فأنا ـ بإجماع الناس ـ احدى الجميلات فى المدينة ، وجها وقواما ، ومن أظرفهن وأبرعهن أدبا وكلاما ، أما صوتى فأنا فيه الجميلة المتفردة بالجمال كله والحمد لله على نعمائه .

ولا أحدثكم كثيرا عن صوتى فاسألوا الناس عنه ، وانظروا اليهم حين يسمعون غنائى كيف ينعرون من الطرب ، أو يُغْشَى عليهم من الوجد !..

نشأت مولاة فقيرة عند بعض ابناء الانصار فى المدينة ، وبدأت حياتى خادمة عندهم ، حتى هيأ الله لى ان اسمع غناء مطرب المدينة العظيم « سائب خاثر » .. فأخذت عنه الفن وتعلمت الضرب بالعود ، وحفظت ادوارا غنائية لا تحصى حتى برعت فى الضرب والغناء ، وسمعنى الناس فقالوا : ان جميلة هى صاحبة الصوت الاجمل فيما سمعنا من اصوات المغنيات والمغنين جميعا

وصرت بما اخذته من غناء سائب خاثر اول مغنية ، تتحرك شفتاها بالغناء العربى المتقن الصنعة فى بلاد العرب والمسلمين .. وقال الناس ان جميلة اعلم خلق الله بالغناء ، وقال بعض كبار المغنين : أصل الغناء جميلة ، ونحن فروعه ، ولولا جميلة وما تعلمناه منها لم نكن نحن مغنين !..

أما أنا فأقول : لولا سائب خاثر لما اهتديت الى الغناء العربى المتقن ، فهو فى رأيى اول مخترعى هذا الغناء ، ولست الا تلميذته فيه !.. ولم استمع قبله الا الى « طويس » .. اول من غنى فى المدينة ، لكن غناء طويس كان على الدَّف ، فلم يكن يعرف الضرب بالعود ، ولا الغناء المتقن الذى بنى اصوله وقواعده سائب خاثر فى المدينة وابن مسجح فى مكة ، وشاركهما غيرهما فى ذلك

وقد سمعت غناء المطرب الفارسى الاصل « نشيط » الذى كان يلم بضرب العيدان الفارسية ويغنى بالعربية ، الا ان سائب خاثر هو اول من استبحر فى بناء اصول الغناء العربى المتقن على أوتار العود الفارسى بعد ان انطق أوتاره نطقا عربيا .. وعن هذا الرجل فى المدينة ، ومن عاصره من مطربى مكة ، اخذ مطربو ايامنا هذه صناعة الغناء المتقن وزادوا فيها ونافسونى الا اننى تقدمتهم جميعا !.. وبما غنى هؤلاء وغنيت انا صار الغناء العربى الجديد المتقن صرحا باذخا فى مدة يسيرة ، وتعشقه الناس ، وطلبه الخلفاء والكبراء .

قال لى سائب خاثر يوما وانا اسأله عن اصل صناعته فى الغناء

ـ جئت الى المدينة طفلا ضمن بعض السبى الفارسى ، فنشأت على لغة العرب وشعرهم وادبهم وذوقهم .. ولما كبرت سمعت بعض العمال الفرس ممن اجتلبوا لبناء القصور والدور فى المدينة ، يغنون غناءهم بلغتهم الاعجمية ، ويضربون بالعيدان الفارسية ، فتعلمت منهم الضرب ، وادخلت فى بعض ألحانهم شعرا عربيا بدلا من رطانتهم ، ونفيت من ألحانهم مالا يوافق ذوق العرب ، ومالا يدخل فى توزين الكلمات العربية واوزان الشعر العربى ، فجاءت ألحانى مبتكرة عجيبة ، مال اليها النبيل الهاشمى المعطاء عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، فغمرنى بالجوائز ، ولكنى لم اهجر مهنتى وهى بيع الطعام ، فأنا طباخ ماهر فى الطبخ مهارتى فى الغناء ، وقد وسع الله رزقى فتزوجت أربع زوجات ، وانجبت بنين وبنات !..

ضحكت وقلت لاستاذى :

ـ فمالى اراك لا تغنى الا لتطرب عبدالله بن جعفر وحده ؟!

قال :

ـ بل غنيت للخليفة معاوية بن ابى سفيان وابنه يزيد ، فأما يزيد فقد غمرنى بالعطاء وقال لى معابثا : ياخاثر .. ارأيت كيف اخثرت لك العطاء ؟! يعنى انه زاد لى فيه !.. واما معاوية فحين صحبنى ابن جعفر الى مجلسه وطلب اليه قضاء حوائجى ، حدجنى بنظرة وقال لابن جعفر : وماذا يصنع سائب خاثر هذا مما يستحق ان نكافئه عليه ؟! .. قال له ابن جعفر : انه يروى الشعر ويعمل فى تحسينه !.. قال معاوية : وهل نكافىء كل من يروى الشعر ويعمل فى تحسينه ؟! .. ثم امرنى معاوية « بتحسين » الشعر فى حضرته ، فغنيت لحنا من ابرع ألحانى فى شعر جيد ، وكان معاوية لا يسمع الغناء الا نادرا ، فلما غنيته قال لابن جعفر : ما رأيت مثل هذا الرجل فى تحسين الشعر !..

ضحكت وقلت لاستاذى :

ـ اتظن ان معاوية لم يكن يعرف الغناء ، وانه ظن ماسمعه منك هو من قبيل « تحسين » الشعر فقط ؟!

قال

ـ رأيت معاوية ذات ليلة ـ وكان يزور المدينة قادما من مكة عائدا الى دمشق ـ فوقف لحظة عند منزل ينبعث منه غناء ، ثم انصرف عنه وهو يقول : استغفر الله !.. استغفر الله !..

ورأيته فى الليلة التالية يجلس مع سراة المدينة من ابناء المهاجرين والانصار ، فاندفعت بين السماطين فغنيت قول حسان بن ثابت :

**لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى .**
**وأسيافنا يقطرن من نجدة دما**

فأصغى معاوية مستحسنا غنائى !..

## ● اليوم الثانى :

كبر سائب خاثر سنا الا انه لم يضعف ، وان كان قد اجتنب الغناء الا لعبد الله ابن جعفر ، وصار المغنون والمغنيات يقصدوننى للتعلم ولا يقصدونه ، وقد اخذ عنى هذا الفن اكبر مطرب فى المدينة الان وهو « معبد » .. وكذلك ابن عائشة وسلامة القس وحبابة وغيرهم ..

والناس يرسلون جواريهم الى بيتى ليتعلمن منى فيتزاحمن حولى ، فربما انصرف اكثرهن ولم يأخذن شيئا ، وربما اعجز لتزاحمهن حولى ، عن مطارحة الغناء ولو واحدة منهن فقط ..

وقبل ان اتحرر من الرق واستقل بنفسى واعيش فى بيت أملكه ، كسبت لمن كنت ملك يمينهم من موالىَّ مالم يكن يخطر لهم ببال حتى ملأت الاموال خزائنهم ..

واحمد الله اننى الان بلا منافس فى الغناء من مغنية او مغن ، فى مكة والمدينة والشام والعراق .. وقد جاء الى المدينة منذ ايام عظماء مطربى مكة : ابن سريج والغريض وابن مسجح وابن محرز ، فالتقوا بمطربى المدينة : معبد وابن عائشة وغيرهما فتغنوا بالحانهم واختلفوا ايهم اجود صناعة واجمل صوتا ، فجاءوا يحتكمون الىّ فيما اختلفوا فيه

سمعتهم واحدا بعد الاخر ، وقلت لهم  كلكم محسن وكلكم مجيد فى معناه ومذهبه من الصناعة .. أما ابن سريج فلو سمعته الثكلى لطربت لصوته وداخلها السرور .. وأما معبد فنسيج وحده بجودة تأليفه وعذوبة غنائه .. ولابن محرز سبق واولية فى الغناء المتقن ، لا ينكر احد فضله واستاذيته ، فهو فى هذه الصناعة مخترع للاصول كسائب خاثر وابن مسجح   ثم وصفت الاخرين وقرظتهم ، فسرهم ذلك سرورا عظيما

دعوت بالطعام ، وجلسوا عندى الى الليل ، فغنيتهم ، حتى صاح الغريض طربا :

ـ ياسيدتى وسيدة كل من حضر هنا من فحول صناعتنا ، والله مانحن الا عيال عند قدميك !..

ضحكت وضحكوا ، ودعوت لكل منهم بعود ، واخذت عودى ، فضربت ، وقلت لهم : اضربوا معى بضرب واحد ، ففعلوا ، وغنيت وحدى ، وانا وهم على ضرب واحد بالعيدان ، ثم قلت لهم : غنوا اللحن معى .. ففعلوا وصرنا نضرب ونغنى معا ، ونحن اجمل اصوات خلقها الله ، فلما انقضى مجلسنا قال ابن سريج

ـ لا اعرف يوما واحدا ولا ليلة واحدة مثل هذا اليوم الذى عشناه ، ومثل هذه الليلة !..

## ● اليوم الثالث :

جنود الخليفة الجديد يزيد بن معاوية حاصروا المدينة ثم دخلوها واستباحوها وقتلوا ونهبوا وفعلوا الافاعيل ، فاحتميت ببعض منازل الهاشميين ثم انتقلت الى بعض منازل الامويين ، لان جنود يزيد لم يقتحموها ..

فلما انجلت الغمة اخذ الناس فى احصاء من قتلهم عسكر يزيد بن معاوية ، فاذا من بينهم سائب خاثر !..

ادهشنى انهم قتلوه ، فما هو الا مغن مسالم لا شأن له بالسياسة ، وقد غنى ليزيد وابيه ، وهما يعرفانه ، ولا اظن ان يزيد امر بقتله !..

سأله احد رؤساء الجند عن صناعته ، وهو مقبوض عليه مكبل بالاغلال ، فقال سائب

- انا مغن ولا شأن لى بالعصيان فى المدينة !..

قال رئيس الجند

- فلماذا وجدناك مختبئا فى بستان ترتعد من الخوف ؟

- كنت انتظر مناداتكم بالكف عن استباحة المدينة والامتناع عن قتل الناس !

- غن لنا اذن !..

فغنى سائب خاثر وهو ينظر الى السيوف المشرعة ويرى الموت فيها ، فلما فرغ من غنائه ، قالوا له :

- احسنت والله !..

ثم ضربه احدهم بالسيف فقتله ، وضجوا ضاحكين !

هكذا انتهت حياة هذا العبقرى الذى كان من بناة الغناء العربى المتقن !.. ويحز فى القلب ان اخر ساعات حياته كانت غناء تحت السيوف المصلتة على عنقه ، وان القتلة احتزوا حنجرته مع اخر نغمة اسمعهم اياها !..

هل عرف قاتلوه الغلاظ الاجلاف من قتلوه ؟!..

## ● اليوم الرابع

قيل لى اليوم ان يزيد بن معاوية حين وضعوا بين يديه الجريدة الطويلة التى تحوى اسماء من قتلهم جنوده فى المدينة ، مرت عيناه على اسم مطربه القديم سائب خاثر ، فقال متجاهلا

- من سائب خاثر هذا ؟!

قالوا

ـ هو يامولانا سائب خاثر المغنى !..

قال يزيد كأنه كان ناسيا ثم تذكر

ـ ويله !.. ماله ولنا ؟! .. ألم نحسن اليه ونصله ونخلطه بأنفسنا ، فما الذى حمله على عداوتنا ؟! لا جرم ان بغيه صرعه !..

ثم صمت قليلا متفكرا واجما وقال :

ـ إنا لله وإنا اليه راجعون !.. هل بلغ القتل الى سائب خاثر وطبقته من الموالى وحشوة الناس ؟! .. ماظن انه بقى بالمدينة احد الا من عصمه الله من القتل !..

ثم ثار صاخبا وصاح :

ـ قبحكم الله من عسكر .. ما ارسلتكم لتقتلوا كل من وجدتموه مستترا فى حائط !..

هكذا سفكوا دم سائب خاثر دون ان يستطيع صديقه العظيم عبد الله بن جعفر حمايته .. فإن جعفرا نفسه كان محتاجا الى من يحميه فى تلك الايام الدامية أيام وقعة « الحرة » الرهيبة !..

● **اليوم الخامس :**

عادت الحياة الى المدينة منذ زمن .. ابتعد الناس عن كل شىء الا عن مطالب حياتهم اليومية ، وازداد تعلقهم بالغناء .. فلم يبق فى الدنيا غيره من شىء جميل !..

جلست للناس فى منزلى مجلس الغناء فكثروا حولى ، وجاء عبد الله بن جعفر ، فقمت وقام الناس فتلقيته وقبلت يديه ورجليه وجلس فى صدر المجلس ، ورأيت كثرة الناس فأشرت اليهم ، فانصرفوا وبقى الشريف ابن جعفر واصحابه .. فقلت له :

ـ ياسيدى وسيد آبائى وموالى ، كيف نشطت الى ان تنقل قدميك الى خادمتك فى منزلها ؟!..

قال متبسطا

ـ ياجميلة .. علمت انك حلفت الا تغنى الناس الا فى منزلك ، فأحببت الاستماع ، وكان طريقى اليك مادا فسيحا

قلت والفرح يغمرنى

ـ جعلنى الله فداءك .. هلا أمرتنى فصرت اليك وكفرت عن يمينى بالصدقة او بالصوم ؟!..

قال فى تواضع :

ـ لا أكلفك ذلك ، وبلغنى انك تغنين بيتين لامرىء القيس كان الله انقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت وهما :

**ولما رأت ان الشريعة همها**
**وان البياض من « فرائصها » دامي**
**تيممت العين التى عند « ضارج »**
**يفيء عليها الظل عرمضها طامي**

فلما غنيت ، سبح ابن جعفر تسبيحا طويلا ، ثم سأله بعض من كان معه :

ـ كيف انقذ الله تلك الجماعة من المسلمين بهذين البيتين ؟!

قال

ـ أقبل من اليمن قوم يريدون لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، فضلوا الطريق ، ومكثوا اياما لايجدون قطرة ماء حتى اوشك العطش ان يقتلهم ، فأقبل راكب على بعير وسمع احدهم ينشد هذين البيتين فى صوت خافت ، فقال الراكب لهم والله ماكذب امرؤ القيس فهذا المكان اسمه « ضارج » وهذه عين الماء تحت عيونكم ، وهى « الشريعة » التى فيها اعذب الماء ، فلا ترتعد فرائصكم ولا تدمى ان شاء الله !

ففاءت جماعة المسلمين الى الظل عند عين الماء وشربوا حتى ارتووا وحملوا من الماء ما احتاجوا اليه فى سفرهم حتى بلغوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

استحسن الناس هذا الخبر من ابن جعفر ، ثم نهض ونهضوا معه ، فما رأيت مجلسا كان احسن من هذا المجلس !..

## يوميات جميلة :

# أحزاب الغناء



فى ايامنا هذه ينقسم عشاق الغناء حزبين اما اكبرهما وأكثرهما عددا ، فحزب الغناء المتقن الذى لايؤديه المطربون الا على ضرب العود ، بعد ان جعلوا من العود الفارسى عودا عربيا

واما الحزب الاصغر ، فحزب الغناء المتقن الذى لم يأخذ بالضرب على العود ، ويرى ذلك تقليدا للفرس والروم

ولكن الناس يسمعون المطربين والمطربات من الحزبين جميعا فاذا غنى ابن سريج على العود التف حوله الناس وطربوا !.. واذا غنى طويس ونقر على الدّف ومشى وهو يغنى مشية اهل الحجاز فى مثل هذا الموطن ، اشتد طرب الناس ، ولم يأبهوا لغياب العود ، ولم ينكروا النقر على الدّف ، فكل غناء متقن تغنيه حنجرة صداحة ، هو عندهم غذاء القلب والروح !

بالأمس سمع الناس فى بيتى ابن سريج وطبقته من المغنين الضاربين بالعيدان

واليوم اجتمع الناس عندى يسمعون طويسا واصحابه من المغنين الناقرين على الدفوف ..

ابتدأ طويس فغنى :

**قد طال ليلى وعاد لى طربى**
**من حب خود كريمة الحسب**
**غراء مثل الهلال آنسة**
**أو مثل تمثال صورة الذهب**

فأثنيت عليه ، وصاح الناس طربا !.. ثم غنى المطرب « الدلال » ومعه المطربون « فند » و« رحمة » و« هبة الله » جميعا صوتا واحدا فاشتد طرب الناس ، واثنيت انا على « الدلال » واصحابه ، ثم قلت للمطرب المخضرم « هيت » .. وهو ذو فكاهة ودعابة :

ـ يا ابايزيد .. اننا نجلك لكبر سنك ، فلا نكلفك ان تغنى لنا وتتعب ، وقد عرفنا احسانك فى هذه الصناعة قديما !..

قال هيت معابثا :

ـ اجل ياماما !..

فضحكت وضحك الناس ، ثم قلت للمطرب « برد الفؤاد » وزميله « نومة الضحى » :

ـ هاتيا معا لحنا واحدا

فاستحسن الناس اقتراحى ، وغنى المطربان لحنا جميلا طرب له الحاضرون ، واشرأبوا ينتظرون مايكون بعد ذلك ..

ثم ضربت ستارة واجلست وراءها كل من فى البيت من الجوارى المغنيات ، بأيديهن العيدان فضربن وضربت معهن ، فتزلزل الناس طربا من اجتماع الضرب المتقن على أربعين وترا ، وبكى الكثيرون حرقة ووجدا ، وتذكر كل عاشق جرحه الذى فى قلبه !..

وكانت عزة الميلاء المطربة البارعة المطبوعة الجميلة ، حاضرة مجلسنا ، فطلبت اليها ان تغنى ، فغنت احسن غناء باحسن حنجرة ففتنت السامعين ، فقلت لها :

ـ ياعز انك لباقية على الدهر !.. فهنيئا لك حسن هذا الصوت ، مع جودة الغناء !..

ثم قلت لسلامة القس وزميلتها حبابة :

ـ هاتيا معا لحنا واحدا ..

فغنتا :

**ومن عجب انى اذا الشوق جننى**
**اقوم من الشوق الشديد واقعد**
**أحـن اليكم مثلما حنَّ تائق**
**الى الورْدِ عطشان الفؤاد مُصَرَّدُ**
**ولـى كبد حرى يعـذبها الهـوى**
**ولــى جسـد يبـلى ولا يتجـدد**

فاستحسن الناس غناءهما ، ولكنهم لم يتبينوا فرق ما بين صوت سلامة وصوت حبابة ، ولا مابين صنعة سلامة وصنعة حبابة ، لان الصوتين خالط احدهما الاخر ، وخالطت صنعة هذه صنعة زميلتها اما انا فما فاتنى فضل سلامة على حبابة .. ولو غنت سلامة وحدها ، ثم اعقبتها حبابة لعرف من له ذوق وفهم فرق الصوت والصنعة عندهما .. وشتان بينهما .. سلامة هى الاجود حلقا وصناعة ..

ثم قلت للجوارى الثلاث الجميلات « فرعة » و« بلبلة » و« لذة العيش » وكنت منذ الصباح اطارحهن الالحان واثقفهن

ـ هاتين لحنا واحدا باصواتكن جميعا ..

فاندفعن كأنهن صوت واحد فغنين :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى
بَغَى سقما إنى اذن لسقيم
فأقسم ما صافيت بعدك خلة
ولا لـك عندى فـى الفؤاد قسيم

هكذا ، قضينا شطر الليل على هذه الحال ، لم أترك مغنيا ولا مغنية ممن حضر مجلسى الا أمرته بالغناء ، فكلهم اطاع امرى وسره انى استمعت اليه مع الناس .. فما رأيت ولا رأى الناس مجلسا أحسن منه !..

● اليوم الثانى :

قعدت اليوم على كرسى فى مدخل منزلى وقلت لحاجبتى :

ـ لا تحجبى عنى احدا اليوم . واقعدى بالباب ، فكل من يمر فاعرضى عليه مجلسى وقولى له جميلة تدعوك !..

غصّت دارى بالناس حتى صعدوا الى العلالى والسطوح ، واشتد الحر فأمرت باسقائهم الجلاب المثلج ، والماء المبرد وقامت جوارى منزلى على رءوس الناس بالمناديل والمراوح الكبار على رءوس الناس ووجوههم .. فاستروحوا الهواء والعطر من ايدى الجوارى !..

ثم قمت فقلت للناس

ـ انى قد رأيت فى منامى شيئا افزعنى وارعبنى وقد خفت ان يكون حان اجلى ، وليس ينفعنى ان مت الا صالح عملى ، فرأيت ان اترك الغناء كراهة ان يلحقنى منه شىء عند ربى !..

وقف شيخ ذو لحية بيضاء فقال :

ـ وفقك الله ، وثبتك على هذه النية الصالحة !..

صاح اخرون

ـ بل لا حرج عليك ياجميلة فى الغناء !..

كثر اختلاف الناس ، بين مستحسن لانقطاعى عن الغناء وان كانوا يحبونه منى خشية ان يلحقنى منه فى آخرتى ما اكره ، وبين مستنكر لما اعلنت من رغبتى فى هجر الغناء ، حتى وقف من بينهم شيخ ذو سن وعلم وفقه وتجربة فقال :

ـ قد تكلمت الجماعة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولم اعترض عليهم فى قولهم ، ولا شركتهم فى رأيهم ، فاستمعوا الان لقولى وانصتوا ..

فسكت القوم وتطاولت اليه اعناقهم ، فقال :

ـ يامعشر اهل الحجاز .. انكم متى تخاذلتم فشلتم ووثب عليكم عدوكم .. وقد انكر عليكم بعض اهل العراق ماتسمعون من هذا الغناء الطيب الذى هو تحسين

للكلام بالصوت الحسن ، ولكنكم انتم لا تنكرونه ، ولا يدفعه عابدكم وعالمكم وشريفكم فان رأيتم من لا يغشى مجالس الغناء ، فليس للتحريم ، ولكن زهدا فى الدنيا ، لان الغناء من اكبر اللذات وهو أَسَرُّ للنفوس من جميع المسرات !..

وصمت الشيخ لحظة كأنه يستجمع بقية حججه فى اباحة الغناء ثم قال

ـ ألا ترون الغناء يحيى القلب ، ويزيد فى العقل ، ويبهج النفس ، ويفسح فى الرأى ، ويتيسر به العسير ، وتفتح به الجيوش ، ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا انفسهم عند استماعه ، ويبرىء المريض !.. ويزيد اهل الثروة غنى واهل الفقر قناعة ورضا باستماعه .. من تمسك به كان عالما ، ومن فارقه كان جاهلا ، فأما من مات قلبه ، وذهب عقله وبصره ، فانه يوجب تركه ، ويزعم تحريمه !..

فلم يخالف الشيخ احد من الحضور فيما وصف به الغناء ، ولا انكروا عليه شيئا من قوله ، وعاد المخطىء منهم على نفسه فأصلح خطأه ، واقر بالحق !

عندئذ قال لى الشيخ :

ـ ياجميلة اوعيت ماقلت ، ووقع من نفسك ماذكرت عن الغناء ؟!

قلت :

ـ أجل .. اعزك الله ! .. وانا استغفر الله ولا انقطع عن الغناء ابدا .. واتعلق برقبتك واقول هذا الشيخ اقنعنى به !..

قال الشيخ باسما :

ـ فاختمى اذن مجلسنا ، وفرقى جماعتنا بلحن من بدائعك !..

فأمسكت بالعود وضربت وغنيت :

**أفى رسم دار دمعك المترقرق**
**سفاها وماستنطاق ماليس ينطق**
**فأحسن شىء كان اول ليلنا**
**وآخره حزن اذا نتفرق**

فصاح الشيخ وقد تملكه الطرب :

ـ حسن والله !.. أمثل هذا يتركه الناس ولا يسمعونه ؟! .. لا والله ، ولا كرامة لمن خالف الحق !..

فلما همّ الشيخ والناس بالانصراف ، قال

ـ الحمد لله الذى لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته ، والسلام عليك ورحمة الله ياجميلة !..

قلت :

ـ وعليك السلام ياشيخنا ورحمة الله وبركاته !..

● **اليوم الثالث :**

جلست اليوم ولبست برنسا طويلا ، وألبست جوارى منزلى برانس اقل طولا وجاء المطربون وعلى رأسهم ابن سريج وهو قبيح الصلعة يتخذ وفرة شعر يضعها على رأسه تستر صلعته ، فأحببت ان أرى صلعته فان الناس يتحدثون بقبحها ولم أرها من قبل !.. فأعطيته برنسا ليلبسه ، ففهم ابن سريج انه لابد من خلع وفرة الشعر عن رأسه ، واني دبرت ذلك لارى صلعته ، فصاح ضاحكا :

- هذا من تدبيرك لتفضحينى ياجميلة !..

ضحكت وقلت

- هو والله كذلك فاصنع مابدا لك يابن سريج !.. فنزع وفرة الشعر عن صلعته فاذا هى أقبح صلعة رأيتها ، فتضاحكت الجوارى ، فزعقت فيهن كأننى غاضبة :

- والله لو طار رأسه كله ولم يبق فيه الا حلقه وحنجرته يغنى بهما لكان فيهما مايفضل به جميع الناس !..

ثم قمت وقد مسنى طائف من المرح والطرب فرقصت وضربت بالعود وعلى رأسى البرنس ، فقام ابن سريج وقد غطى رأسه بالبرنس ، وقام معبد والغريض وابن عائشة ومالك ، وفى يد كل منهم عوده يضرب به على ضربى ويرقص مثل رقصى ..

فلما استوفينا من ذلك حظا ، ضربت وضربوا وغنيت وغنوا معى

**إنــى اقــول مقالــة بتجــارب**
**حــقــا ولــم يخبـرك مـثـل مجـرب**
**صاف الكريم وكن لعرضك صائنا**
**وعــن الـلـئـيـم وفعلـه فَتَـنكَّبِ**

فلما فرغنا من الغناء ، دعوت بوفرة شعر رائعة مصنوعة من الشعور الرومية الحمراء ، فنزعت البرنس ووضعت وفرة الشعر على رأسى فوق شعرى ، ودعوت لابن سريج بوفرة شعر صفراء انتقاها فصار بها كأنه رومى احول ، فان ابن سريج ، الى صلعه القبيح ، من أقبح الناس منظر عينين ، وقد جعل له الحول عينا تنظر الى اليمين واخرى الى الشمال !..

انتقى كل مغن ما احب من وفرات الشعر فوضعها على رأسه ، ثم قمنا نضرب بالعيدان ونتمشى مشية المغنين الحجازيين ، وغنيت وغنوا بغنائى صوتا واحدا

**يمشين مشــى قطـا البطـاح تأوداً**
**قــب البطــون رواجــح الاكـفــال**

حتى نال منا التعب والطرب ، فنعرت ، ونعر القوم طربا وتعبا ، ثم جلست وجلسوا ، وخلعوا ثيابهم ووفرات الشعر ، ورجعوا الى زيهم ، ثم انصرفوا فكان ذلك يوما لم ار مثله حلاوة وطيبا !..

## يوميات جميلة

# زينة الجوارى



هذا يوم جعلته لاستقبال زوارى من كبراء الناس واشرافهم .. ولابد لهم ولى من معاقرة الغناء فى هذا اليوم !.. اغنيهم انا ثم تغنيهم الجوارى اللاتى اشتريتهن وربيتهن وعلمتهن الغناء ، وخرَّجتهن فى هذه الصناعة احسن تخريج !.. وانا الان ـ بحمد الله ـ رأس هذه الصناعة الجميلة ، واستاذة كل محسن ومحسنة فيها ! وقد اكثر كبار المغنين من قولهم لى « لولا انت ما كنا نحن » !..

دعوت بالجوارى فوضعت على رءوسهن شعورا مستعارة تنسدل كالعناقيد الى ما تحت خصورهن ، ووضعت فوق هذه الشعور التيجان المذهبة ، وألبستهن الثياب المصبَّغة الفاخرة ، وزينتهن بالحلى افخر زينة .. ثم قلت لنفسى لأوجهن الى الشريف عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، ادعوه لزيارتى حتى يرى ويسمع ، فانه راعى هذا الفن فى المدينة وهو الذى حمى اصحابه من مطاردة بعض المتعنتين من حكام بنى امية الذين يتصنعون الحفاظ ومطاردة المغنين ومصادرة آلات الغناء !..

ثم دعوت كاتبا لى فقلت له اكتب الى عبد الله بن جعفر ـ اعزه الله ـ كتابا تستعطفه ان يزورنا اليوم ..

فلما قرأت ماكتب لم يعجبنى ، فأجلسته وقلت له : لا بأس بما كتبت ، غير انى سأمليك ما فى نفسى ، ثم امليته هذا الكتاب الى عبد الله بن جعفر :

« بأبى انت وامى !.. قدرك يجل عن رسالتى ، وكرمك يحتمل زلتى ، وذنبى لاتقال عثرته ، فان صفحت فالصفح لكم معشر اهل البيت يؤثر والخير والفضل كله فيكم مدخر .. ونحن العبيد وانتم الموالى . فطوبى لمن كان لكم مقاربا ، والى وجوهكم ناظرا .. وطوبى لمن كان لكم مجاورا ، وبضيائكم مبصرا .. والويل لمن جهل قدركم ولم يعرف ما اوجبه الله على هذا الخلق لكم .. فصغيركم كبير ، بل لا صغير فيكم . وكبيركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق هى لكم ومقصورة عليكم .. وبالكتاب نسألك ، وبحق الرسول ندعوك ، ان كنت نشيطا لمجلس هيأته لك ، لايحسن الا بك ، و لا يتم الا معك ، ولا يصلح ان ينقل عن موضعه ، ولايسلك به غير طريقه »!..

فلما فرغت من املاء كتابى هذا قال لى كاتبى :

ـ هذه ياسيدتى هى البلاغة التى فاتتنى ، ومن لى ولأمثالى بها ؟!

ثم ختمت الكتاب وطويته وبعثت به رسولا الى الشريف ابن جعفر فلما عاد رسولى سألته عما رأى وسمع فقال : ان سيدنا لما قرأ الكتاب تبسم وقال : قد علمنا

ان جميلة حلفت الا تغنى الا فى منزلها ! وانا الان أقصد موضعا خارج المدينة ، فاذا عدت جعلت طريق رجوعى الى منزل جميلة ان شاء الله !

قلت :

ـ اما قال غير ذلك شيئا ؟!

أجابنى الرجل

ـ بل قال : « إننا ـ اهل البيت ـ لنعرف تعظيم جميلة ، لنا ، واكرامها لصغيرنا وكبيرنا »!..

ففرحت بما سمعت من الرجل ، وانتظرت ان يجىء ابن جعفر ولم ادخل احدا الى منزلى قبل ان يدخل .. فلما صار الى بابى دخل وبعض من كان معه وصرف بعضهم ..

واخرجت الجوارى وهنّ فى تلك الزينة ، فنظر الى ذلك الحسن البارع ، والهيئة الفائقة ، فقال لى

ـ ياجميلة لقد إوتيت خيرا كثيرا ما احسن ماصنعت !..

قلت

ـ ياسيدى ، إن الجميل للجميل يصلح ولك هيأت هذا المجلس ..

وقامت الجوارى صفين وأنا على رأسهن ، فاقسم ابن جعفر فجلست وظلت الجوارى وحدهن قياما ثم قلت له :

ـ ياسيدى ، الا اغنيك ؟!

فلما اومأ موافقا امسكت بالعود وضربت وغنيت فى مدح بنى هاشم من شعر حذافة بن غانم

**بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه**
**يضىء ظلام الليل كالقمر البدر**
**كهولهم خير الكهول ونسلهم**
**كنسل الملوك لا يبور ولا يحرى**
**ابو عتبة الملقى اليك جماله**
**اغر هجان اللون من نفر زهر**
**لساقى الحجيج ثم للخير هاشم**
**وعبد مناف ذلك السيد الغمر**
**ابوكم قصى كان يدعى مجمعا**
**به جمع الله القبائل من فهر**

فطرب عبد الله بن جعفر طربا عظيما وقال لى :

ـ احسنت ياجميلة فيما غنيت ، واحسن حذافة بن غانم فيما نظم من الشعر ..

بالله اعيديه علينا !..

ثم قال لاصحابه وانا اتهيأ لاعادة الصوت

- الا ترون الشاعر قد تحدث عنا من لدن جدنا « قصى » الذى اجتمعت له امرة قريش الى جدنا « شيبة الحمد » عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؟!

فلما اعدت الصوت ازداد طربا ، فاحببت ان ازيده فوق ذلك ، فدعوت لكل جارية بعود وامرتهن بالجلوس على الكراسى ، فضربن وغنيت على ضربهن هذا اللحن ، وهن يغنين معى نبرة نبرة ، حتى زلزلت اركان المنزل طربا !..

فاهتز عبد الله بن جعفر واصحابه من شدة الطرب ، وقال

- ماظننت ان مثل هذا يكون !.. وانه لممايفتن القلب ، ولذلك كرهه اناس لما علموا فيه !..

ثم دعا ببغلته فركبها منصرفا الى منزله وكنت قد اعددت له ولهم طعاما كثيرا ، فقال لاصحابه

- تخلفوا انتم للغداء !..

فتغدوا فى منزلى ثم انصرفوا مسرورين !.. فكان هذا اليوم من أعظم ايامى بركة وشرفا !..

## ● اليوم الثانى :

يزعم الناس ان الشاعر الاحوص شديد الاعجاب بى !..

وانا اراه لايفارقنى اذا جلست للناس .. ولا يكون الا اخر من ينصرف ، غير انى لا انكر من اخلاقه شيئا ..

وقد حضر اليوم مجلس الغناء فى منزلى ومعه غلام اشتراه منذ اسبوعين او ثلاثة ، ولم اكن رأيت هذا الغلام من قبل ، ولكنى لاحظت انشغال الجوارى بالنظر الى ناحيته ، حتى كن ينشغلن عن الغناء بالنظر اليه ، فتأملته فاذا هو جميل الوجه جدا ، فاشرت الى الاحوص ان يخرج غلامه هذا من منزلى ، فقد عم الخلل مجلسى وافسد امر الجوارى ، ولايستقيم ادامتهن النظر اليه مع السماع فى هذا المجلس العام ..

فتغافل الاحوص ، واظهر انه لم يفهم اشارتى حتى خفت عاقبة وجود الغلام فأمرت بعض من حضر باخراجه من المجلس فاخرجوه وغضب الاحوص وقام فخرج فى اثر غلامه ، ولم يقل لى شيئا !..

فشكر لى الحاضرون هذا الذى كان منى فى شأن الغلام ، وحمدوا موقفى ، وقالوا :

- هذا والله كان الظن بك ياجميلة وانت من انت دينا وحفاظا .. اكرمك الله !

قلت لهم :

ـ ان الاحوص لم يستأذن فى المجىء بغلامه هذا ولا علمت به حتى رأيته فى دارى ، وانه ليعز علىّ غضب الاحوص ، ولكن الحق اولى وكان ينبغى له الا يعرض نفسه واياى لما نكره !..

فلما تفرق اهل المجلس ، ارسلت اليه : « الذنب لك ، ونحن منه برءاء .. اذ كنت قد عرفت مذهبى ، ثم عرضتنى للذى كان ، فساءنى ذلك ولم اجد بدا من اخراج غلامك » !..

فرد قائلا « ليس ذنبه ان الجوارى قد اطلن النظر الى وجهه ، وليس ماتقولين بعذر لك ان لم تجعلى لى وله مجلسا خاصا يمحو مالحقنا من اساءة »!..
فرضيت بذلك وجاءا فأكرمتهما ، ولكنى حجبت الجوارى فلم يظهرن ولا غنين ولا سمع لهن احد حسا ، وجعلت مجلسى كله من عجائز الموالى ، وكلهن فوق السبعين من اعمارهن ثم غنيت لحنا فى شعر الاحوص يعجبه دائما ان اغنيه فيه :

وبالقفر دار من جميلة هيجت
سوالف حب فى فؤادك مُنْصِبِ

وهذا اللحن من احسن ما اتفق لى من الصنعة فى الغناء وقد قال لى ابن محرز : انى لاغنى هذا اللحن الذى حفظته منك ياجميلة فتعجبنى نفسى ويدخلنى شىء لا اعرفه من الفخر والتيه ، فكيف اذا غنيته انت يا جميلة وهو من صنعتك ؟!

## ● اليوم الثالث

رأيت عمرو بن احمر الشاعر المخضرم الذى عاش فى الجاهلية ثم عاش فى الاسلام حتى ايامنا قلت له

ـ ما احسن مانظمت من الشعر ؟!

قال :

ـ شعرى فى الجهاد ، وقد قلت فى خالد بن الوليد وكنت معه فى فتح الشام نكر بخيولنا على الروم

اذا قال سيف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجأش صارم

وقلت شعرا فى عمر بن الخطاب ابتغى به وجه الله ، فانه لم يكن يملك شيئا يعطيه للشعراء ، واذا فضل من عطائه شىء رده الى بيت المال .. وقلت فى عثمان ابن عفان وعلى بن ابى طالب ..

قلت له

ـ انشدنى مارثيت به عمر بن الخطاب ..

فأنشدنى شعرا اعجبنى ، فعزمت ان اصنع فيه لحنا ، فلما صنعت اللحن رأيت

كل من يسمعه يبكى حزنا على عمر بن الخطاب وايامه التى كانت غررا فى ايام الاسلام .. وقال لى بعض اهل صناعتنا

ـ لا تغنى للناس هذا اللحن فانه يبكيهم ، وماسمعته منك الا وجدت شيئا يضغط قلبى ويحرقه ، ولا املك عينى !..

فكتمت اللحن عن الناس ، وصرت لا اغنيه الا لنفسى فى ساعات الأسى ! .. وليست بالقليلة فى حياتى التى يراها الناس حافلة بالفرح والمرح !..

## ● اليوم الرابع :

طرق الليلة منزلى طارق ولم يكن عندى مجلس للغناء ، وجاءتنى خادمة تقول انها نظرت من خصاص نافذة فاذا الطارق هو عبد الله بن عمرو بن عثمان العرجى حفيد امير المؤمنين عثمان بن عفان رحمه الله .. وهو شاعر اديب ظريف شجاع ، ولكنى حلفت الا اتغنى بشعره والا ادخله منزلى لكثرة عبثه وسفهه وحداثة سنه !

فلما علمت بمكانه فى هذه الساعة من الليل قلت ان له لشأنا !..

واستخبرت خبره فعلمت انه قدم المدينة هاربا من ضيعته فى « العرج » بالقرب من مدينة الطائف ، بعد ان قتل احد الموالى وهتك اهله !.. وقيل لى ان امير مكة يطلبه لمحاكمته وقد يقتله او يسجنه سجنا طويلا ..

فخرجت الى باب منزلى فقلت للعرجى :

ـ ان السادة لايردهم احد عن الابواب ، ولكن منزلى ملىء بالجوارى ولايمكن لمثلك ان يستخفى فيه ، فعليك بالشاعر الاحوص فانه لا يردك وانت من بيت عظيم الشرف

قال لى العرجى

ـ كانت بينى وبين الاحوص مشادة ، وهو مجانب لى الان ، فابعثى معى رسولا اليه ينقل اليه رأيك هذا .. فان منزله احب المنازل الى قلبى بعد منزلك ، على ماكان بينى وبينه !..

فوجهت مع العرجى الى الاحوص بعض عجائز منزلى ، فتلقاه الاحوص وانزله واكرمه واحسن جواره وستر امره .. فنظم العرجى شعرا ارسله لى وهو مستخف عن العيون ، فما قرأته ، رق قلبى له ، وقلت فى نفسى : كيف لى بالاذن له فى دخول منزلى وقد حلفت الا يدخله ، والا اغنى بشعره وان كان عندى فى الشعر اشبه الناس بعمر بن ابى ربيعه وهو من هو فى الشعر ؟!

فبينما انا ابدأ فى مثل هذا الفكر واعيد ، جاءنى من يقول : لقد وقع العرجى فى قبضة الشرطة ، وساقوه ومعه الاحوص الى الوالى ..

ثم جاء الاحوص وقد اطلقوا سراحه ، وقال لى

ـ ما اظن العرجى يخرج من هذه المحنة حيا ، فان بينه وبين ذلك الحاكم ضغنا عميقا !..

# عندمـا يطــرب عمر بن أبى ربيعة



● **اليوم الأول** :

زارنى اليوم المطربان الكبيران « معبد » و « مالك » .. فغنى معبد وغنيت وغنى مالك .. ثم قال لى معبد على استحياء

ـ أتأذنين لى فى الغناء بشعر للأحوص قاله فيك ؟!..

قلت رافعة الرأس

ـ إن الأحوص بى معجب ، وأنا له مكرمة .. فهات !

فغنانى معبد

**شَـأَتْكَ المـنازل بالأبـرق**
**دوارس كالعـين فـى المهـرق**
**لآل جمـيلة قـد أخلقـت**
**ومهما يـطل عهـده يخلـق**
**فـأن يقـل النـاس لـى عـاشق**
**فـأين الـذى هـو لـم يعـشق**

فأحسن معبد فى غنائه غاية الإحسان ، ولكنى خجلت من غنائه هذا الغزل الذى يكشف الشاعر فيه عن حبه لى ، فقلت لمعبد وأنا بين الخجل والابتسام والطرب

ـ حسبك ياأبا عباد .. قد أحسنت ماشئت !..

ثم قلت لمالك :

ـ هات ما عندك ، ولا يكن غزلاً فينا !..

فاندفع مالك فغنى لحنا من ألحانى كان قد حفظه عنى فى شعر لجميل بثينة

**ألا مـن لقلـب لا يمـل فيذهل**
**أفـق فالتعـزى عـن بثـينة أجمـل**

فأجاد مالك الغناء ، فقلت له

ـ أحسنت والله فى غنائك ، وفى أخذك هذا اللحن عنى !..

قال معبد :

ـ إنما أنت أستاذة كل مطرب ومطربة فى المدينة .. وحسبك أنك أتممت ما كان سائب خاثر ـ رحمه الله ـ قد بدأه فى صناعة الغناء المتقن ، ولولاك لم يكن غناء ولا مغنون فى المدينة !..

فصاح مالك :

ـ ولا فى مكة !..

ضحكت وقلت لهما :

ـ ملأتمانى غروراً !. فأين أنا من فحول الغناء المتقن الذين اخترعوه اختراعا ، ولم يكن قبلهم شيء نسميه غناءً ؟!..

قال لى معبد

ـ قد سمعت الآن مالكا يغنى فى شعر جميل بثينة ، وإنك ياسيدتى قد عرفت بثينة وعرفتك بثينة ، فما تقولين عنها ؟!..

قلت :

ـ كانت بثينة صدوقة اللسان ، جميلة الوجه ، حسنة البيان ، عفيفة شريفة .. وقد قالت لى مرة : "والله ما أرادنى جميل رحمه الله ، بريبة قِط ، ولا حدثت نفسى بذلك منه" !..

ثم قالت لهما

ـ فانظرا ـ عافاكما الله ـ كيف أحب جميل صاحبته أشد الحب ، وبادلته الحب ، فما أرادها قط بريبة ، ولا حدثت هى نفسها بأمر مما تحدث به المرأة العاشقة نفسها ولو فى لحظة عابرة تستغفر الله منها .. فهذا والله هو الحب الصحيح تتعفف فيه حتى خواطر المحبين وهواجسهم وخفايا جوانحهم !..

● **اليوم الثانى**

زارنى المغنى العظيم ابن سريج ، وزعم أنه إنما جاء ليسمع منى ويأخذ عنى ، فأنزلته وأكرمته وسألته عن أخبار مكة وهو مطربها الأكبر ، فحدثنى وأضحكنى ـ وإنه لمحدث ظريف ـ حتى جاء مطرب المدينة معبد .. وكانت عندى جارية لبقة محسنة فى الصناعة ، فابتدأت أطارحها .. فقال لى ابن سريج : هَلاَّ بدأت بمطارحتنا ياسيدة المطربات ؟!.. قلت : كل إنسان فى بيته أمير ، وليس للداخل أن يتأمر عليه ولو كان أصدق أصدقائه ، فتنبه ابن سريج إلى خطئه وقال لى معتذرا :

ـ صدقت ! جعلنى الله فداءك !.. وما أدرى أيهما أحسن : أدبك أم غناؤك ؟!..

قلت :

ـ دع ذا عنك يا ابن سريج ولا تسرف فى مدحنا ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "احثوا فى وجوه المداحين التراب" !..

قال يشرح ما أراده بالثناء علينا :

ـ أنت على ما اشتهرت به من الغناء ، صوامة قوامة ، قد رضى الناس دينك ، وعرفوا ورعك ، وأنا صادق فى مدحك ، أما المراد بالمداحين فى هذا الحديث

الشريف فقوم من عادتهم الإسراف فى تملق الناس تحصيلا للمال أو الجاه !.. وأما المدح المراد به الحق فإنه خير لا يُحْثَى التراب فى وجوه أصحابه !..

فضحكت وضحك ابن سريج وقال له معبد

وددت والله لو قامت جميلة فرمتك بحثوة من تراب ، مع صدقك فيما مدحتها !.. فما هى بحاجة إلى مدحك ياابن سريج !..

ضحكنا ، ثم أخذت أغنى لحنا لى لتحفظه عنى الجارية ، فرأيتهما يفحصان الأرض بأرجلهما طربا ، ولا يستطيعان الصياح حتى لا أقطع غنائى !.. فلما أتممت اللحن قالا لى

- كأننا والله حضرنا مزامير داود !..

غنى ابن سريج ، وما أطيب وأعذب وأقوى صوت هذا المغنى ، فقلت له غير متمالكة نفسى من فرط إعجابى :

- إنك والله لبارع محسن فيما نظمت من الشعر وفيما لحنت وفيما غنيت .. وإن صوتك لمما يزيد العقل قوة ، والنفس طيبا ، والطبيعة أريحية وسهولة ، ولو كان الهواء يمسك الغناء فلا يذهب بددا ، ولا تذروه الرياح ، لكان مجلسنا هذا كالعلم الخفاق فى هذه الصناعة إلى آخر الزمان ..

● **اليوم الثالث** :

أقبل إلى المدينة من مكة عمر بن أبى ربيعة الشاعر القرشى المشهور ، فطرق منزلى ومعه الأحوص بن محمد الأنصارى وآخرون ، فأذنت لهم ورحبت بهم ، وخصصت عمر بن أبى ربيعة بحفاوة أبذلها فى العادة له ، لمكانته عندى .. فقال لى

- إنى قصدتك من مكة للسلام عليك !..

قلت له :

- أهل الفضل أنت .. جُزِيتَ خيرا !..

قال متوددا :

- وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك وتخلى لنا مجلسك ، ونترك الخيار لك فيما تغنين !.. فغنيتهم :

**تمشى الهوينى إذا مشت فضلا**
**مشى النزيف المخمور فى الصُّعُدِ**
**تظل من زور بيت جارتها**
**واضعة كفها على الكبد**

يــامــن لقلـــب متيـم سـدم

عَانٍ رهيـــن مُكَـلَّمٍ كَمِـدِ

أزجـــره وهــو غيــر مـزدجـر

عنهــا وطـرفــى مكحـل السهــد

فنعر الأحوص ، وقام عمر بن أبى ربيعة يريد أن ينطح الحائط برأسه من شدة الطرب ، وكأنما اعترت المنزلة زلزلة .. فلما هدأوا .. قال لى ابن أبى ربيعة

ـ لله درك ياجميلة .. لقد أعطاك الله كل مافى حلوق البشر من حلاوة ، فأنت أول الغناء وآخره !..

ثم سكتنا ساعة عن الغناء ، وأخذنا بأطراف الحديث ، حتى شعرت أنهم يشتهون أن أغنى ، فأخذت العود وغنيت

شطت سعاد وأمسى البين قد أفدا

وأورثوك سقاما يصدع الكبدا

لا أستطيع لها هجرا ولا ترة

ولا تزال أحاديثى بها جددا

فاستخف الغناء القوم ، فصفقوا وحركوا رءوسهم كأنما عقولهم طارت منها ، قال ابن أبى ربيعة

ـ نحن فداؤك من السوء ، ووقاؤك من المكروه .. ما أحسن ما غنيت ، وأجمل ما قلت !..

وحضر الغداء ، فتغدينا بأنواع الأطعمة الحارة والباردة ، والفاكهة الرطبة واليابسة ، مما ينبت فى المدينة ، ومما يجىء من الشام والعراق ومصر .. ثم دعوت بأنواع من الأشربة فقال عمر بن أبى ربيعة : "لا أشرب" !.. أما الأحوص فقال "لكننى أشرب !.. وما جزاء جميلة أن نمتنع من شرابها" .. قال عمر : "ليس ذلك كما ظننته ياأحوص" .. قلت : "من شاء أن يحملنى بنفسه ، ويخلط روحى بروحه شكرناه ، ومن أبى ذلك عذرناه ، ولم يمنعه ذلك ما يريد من الأنس بمحادثته" !.. قال عمر : "لا أكون والله أخس القوم .. فأنا سامع مطيع" !.. فشرب القوم أجمعون !.. فبينما هم فى ذلك غنيت لهم لحنا فى شعرابن أبى ربيعة

ولقد قالت لجارات لها

كالمها يلعبن فى حجرتها

خذن عنى الظل لا يتبعنى

ومضت تسعى إلى قبتها

لم تعانق رجلا فيما مضى

طفلة غيداء فى حلتها

لم يطش قط لها سهم ومن

ترمه لا ينج من رميتها

فصاح عمر بن أبى ربيعة وقد غشى على أصحابه من الطرب

ـ ويلاه ... ويلاه ... ويلاه . !

ـ فلما أتمهن ثلاثا وقد كاد يجن طربا ، عمد إلى ثوبه فشقه من أعلى إلى أسفل ، وجلس مبهورا لا يعى ما يصنع !..

ثم تمالك نفسه وقال لى معتذرا

ـ لم أملك من نفسى شيئا ، وما استطعت إلا تخريق ثيابى ، ولولا أنى صبور متجلد لأصابنى الاغماء وأخذتنى الغشية كما أخذت أصحابى هؤلاء !..

فدعوت بثياب فلبسها عمر ، وأفاق أصحابه من إغمائهم واستراحوا ساعة ثم انصرفوا ، وأنا لا أعجب لحالهم ، فطالما رأيت السامعين يشقون ثيابهم ، ويغشى عليهم ، ويضربون الجدران برءوسهم طربا !..

ولم يكد القوم ينصرفون حتى وجه عمر بن أبى ربيعة الى منزلى بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب .. وقال لرسوله الذى حمل هذه الهدية : قل لجميلة إن عمرا عاد إلى مكة ولم يمر بدارك لأنه لا يستطيع وداعك !..

● **اليوم الرابع** :

خرجت أحج بيت الله فى مكة .. فإذا جميع المغنين والمغنيات يمشون فى ركابى ، ومعهم جماعة من السادة والشعراء ، ورأيت تحت هودجى أستاذنا طويسا ومعه جماعة من مشيخة صناعة الغناء بالمدينة على رأسهم معبد ومالك وابن عائشة وابن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير .. أما المغنيات فكان على رأسهن نابغة الغناء عزة الميلاء وسلامة القس وحبابة وخِليدة وعقيلة وبلبلة ولذة العيش وغيرهن .. ومن الشعراء الأحوص وكثير عزة ونُصَيْب ، ومعهم جماعة من كبراء المدينة ، وقيل لى إن من لحق بركبى من المغنيات زدن على خمسين مغنية قصدن جميعا الحج معى ، وأعطاهن سادتهن النفقات وحملوهن على ابل فى الهوادج والقباب !.. وما أظرف أهل المدينة وأكرمهم ..

قاربنا مكة فتلقانا شيخ المطربين سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز ومن لا أحصيهم من المغنين والمغنيات .. أما الشعراء فكان فى مقدمتهم عمر بن أبى ربيعة وعبد الله العرجى حفيد عثمان بن عفان ، وجماعة من الأشراف .. فدخلت مكة وحولى هؤلاء جميعا ، وخرج كثير من أهل مكة ينظرون إلى جمعنا هذا وحسن هيئته !..

فلما قضيت مناسك الحج .. سألنى بعض المكيين أن أجعل لهم مجلسا ، فسألتهم : للغناء أم للحديث ؟!.. قالوا جميعا !..

فأبيت أن أغنى ، وقلت لهم :

ـ إن أردتم سماعى ، فلا يكون فى موسم الحج !..

فصاح عمر بن أبى ربيعة فى الناس

ـ أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع جميلة إلا خرج معها إلى المدينة ، فإنى خارج معها !..

فخرج معى إلى المدينة جمع كبير انضم إلى من كانوا قد صحبونى من المدينة إلى مكة .. وتلقانا أهل المدينة كبارا وصغارا !..

فلما مضت بعد عودتى أيام جلست للغناء ، فغصت دارى بالناس ، وغنيتهم بلحن لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فكلهم طرب للغناء ، وضج القوم من حسن ما سمعوا ، وقالوا ما سمعنا غناءً قط أحسن من غناء جميلة فى هذا اليوم .. أما عمر بن أبى ربيعة فذرفت عيناه حتى جرى الدمع على لحيته وثيابه !..

## يوميات الغريض :

# قتيـــل الجـــن



سهرت الليلة وحدى !.. لم أجد صديقاً لى يسامرنى بعد ما رقد السامر .. تذكرت أستاذى فى هذه الصناعة ، صناعة الغناء ، مطرب الحجاز الأول ، عبيد بن سريج .. فقلت فى نفسى أطرق بابه فى هذه الساعة من الليل أشكو إليه أرقى لعله يساهرنى ويحادثنى ، وربما هزته أريحيته فتغنى لى وأسمعنى ما أشتهى من حلاوة صوته وبراعة لحنه !

قال لى ابن سريج وقد صرت بين يديه فى داره

ـ هيه ياغريض !.. افتتن بك الناس فى مكة لأنك طرى الوجه ، غض الشباب ، حسن المنظر ، أبيض ، لين الصوت ، شجى النبرات حين تنوح أو تغنى .. فماذا أبقيت لى وأنا شيخك ومعلمك !.. منى تعلمت صناعة النياحة وصناعة الغناء فبرعت وكثر فى يدك المال ؟!

قلت له مسترضياً مادحا

ـ والله مازدت على أن أكون تلميذك وخريجك ، ولولاك لكنت حتى اليوم خياطا فقيرا أخيط ثياب الناس وأشقى بتلك الحرفة الصغيرة .. وأنت صاحب الألحان المرقصات والمشجيات والمبكيات ، لايبلغ أحد فى هذا الفن أن يكون من بعض خدمك !..

تبسم ابن سريج ، راضيا عنى ، وقال :

ـ دعانى بعض أصحاب فقيه مكة وعالمها الأكبر عطاء بن أبى رباح أن أحضر مساء غد وليمة فى داره ، مع جمع من أهل مكة ، وعلمت أنهم دعوك أيضا ، ولابد لى ولك من الغناء فى هذا الحفل ، ابتهاجا بختان أصغر أولاد الشيخ !

ـ نعـم !.. بعض أصحاب الشيخ استأذنوه فى دعوتنا ، فأذن بالدعوة كما أذن بالغناء !..

ـ وتظنه يسمع غناءنا ؟!..

ـ ألم يسمعك مرة تتغنى بشعر جرير واستحسن غناءك ، ومضى يترنم بشعر جرير الذى غنيته ؟!

ـ لقد كان ذلك يوما مشهوداً !..

انصرفت من دار ابن سريج أفكر فيه وفى غنائه الذى فتن أهل مكة حتى قال له الشيخ عطاء بن أبى رباح .. « يافتان !.. أما آن لك أن تكف عن فتنة الناس ؟!» فلما غناه ابن سريج لحنا فى شعر جرير ، كف الشيخ بعد ذلك عن التعرض له ، وصار يستمع إليه أحيانا ..

وتذكرت كيف أرسلني سادتي منذ سنين الى ابن سريج ليعلمني صناعة النياحة ، فان للنوح على الموتى فناً خاصا ليس في الدنيا من يتقنه كابن سريج وقد أبكى أهل مكة حين ورد اليهم الخبر بما فعله مسلم بن عقبة من فتك وهتك بالمدينة المنورة حين أباحها لجنده بأمر الخليفة يزيد بن معاوية ثلاثة أيام ، فصعد ابن سريج على جبل أبي قبيس وناح

**يا عين جودي بالدموع السفاح**
**وابكي على قتلى قريش البطاح**

و « قريش البطاح » هم أكرم أهل مكة ، ومنهم بنو هاشم وبنو أمية .. ولم يصب أحد من هؤلاء في مذبحة المدينة المنورة ، ولكن ابن سريج ذكر « قريش البطاح » لأن منها بطونا أخرى فتك بها جنود يزيد بن معاوية مع من فتكوا بهم من الأنصار والمهاجرين وأولادهم ، ذكورا واناثا !..

ثم أرسلت سكينة بنت الحسين من المدينة تطلب الى ابن سريج أن يصنع نوحا في هذا البيت

**يا أرض ويحك أكرمي أمواتي**
**فلقد ظفرت بسادتي وحماتي**

وصنع ابن سريج في هذا البيت نوحا عجيبا ، يبكي فيه شهداء أهل بيت علي ابن أبي طالب أحر بكاء .. فقدمه ذلك عند أهل الحرمين على جميع ناحة مكة والمدينة وسائر الحجاز وبلاد المسلمين ..

ولما ذهبت اليه أتعلم « النياحة » وجدني أتعلم بسرعة واتقان ، وفي صوتي من الشجا مايبكي الناس ، على مافيه من حلاوة وطلاوة ، فنحاني ابن سريج عنه وطردني وتجنى عليّ كثيرا ، حسدا منه لي ، وأنا تلميذ بين يديه ، وليس صوتي أحسن من صوته ، ولا عندي من أسرار هذه الصناعة الا ما تعلمته منه !..

راجعته مستعطفا فقال لي محتقرا

ـ ما اسمك ؟!.. وما كنيتك ؟!.. وما أصلك ؟!..

قلت متعجبا

ـ اسمي وكنيتي وأصلي لا تغيب عنك ، فأنا عبدالملك ، وكنيتي ابويزيد ، وأصلي من رقيق البربر ، وأبي وأمي مسكينان من الموالي في مكة .. وقد ماتا !..

قـــال :

ـ ولكنك جميل وضيء طري ، فلهذا سموك الغريض .. وأنت تضرب بالعود ، وتنقر بالدف ، وتوقع بالقضيب ، وتغالي في تصنيع نفسك وتبريقها .. وقد اشتهى الناس نبرات الشجا في صوتك ، وقمت بدلا مني تنوح لهم .. فوالله لأتركن النياحة ، ولأقتصرن على الغناء وحده ، ولأتركنك تنوح على أمك وأبيك !..

ومنذ ذلك اليوم ترك ابن سريج النياحة وتركتها أنا أيضا وصرت مثله مغنيا ، فكاد ينشق غيظا ، مع أنه لبث فى موضعه سيدا لفن الغناء ، وكنت ومازلت تابعا له ، وان لم يكن أحد غيره أحسن منى فى الغناء !..

## ● اليـوم الثانـى

زارنى ابن سريج فى دارى قبل طلوع الشمس ، قال لى

ـ لعلك تراجعت عن موعدنا الليلة فى ختان ابن الفقيه عطاء بن أبى رباح ، حتى لاتغنى معى فى حفل واحد !..

قلت أنفى عنه الشك فى أمرى :

ـ لا والله .. بل أنتظر الموعد لأتعلم منك !... فهل لك أن تبقى عندى هنيهة أسمعك لحنا لى فى شعر لعمر بن أبى ربيعة ؟!..

ثم أخذت العود وغنيت

يـا أبـا الحـارث قـلـبـى طـائـر
فـاسـتـمـع قـول رشـيـد مؤتـمـن
لـيـس حـب فـوق مـا أحـبـبـتـكـم
غـيـر أن اقـتـل نفسـى أو أجـن
حـسـن الـوجـه نـقـى لـونـه
طـيـب الـنـشـر لـذيـذ المـحـتـضـن

فطرب ابن سريج وقال لى

ـ كأنك لم تسمع لحنى فى هذا الشعر ؟!..

ثم اندفع فغنى لحنه ، فتضاءل لحنى بإزائه ، حتى وددت أنى لم أصنعه !..

ثم نهض ابن سريج وهو يذكرنى بموعدنا عند الفقيه الجليل !..

ولم يكد يخرج من دارى حتى سمعت طارقا على بابى ، واذا بمعبد المغنى المشهور فى المدينة المنورة جاء يزورنى فرحبت به فقال :

ـ دعنا من الترحيب بالكلام المزوق ، فإنى ماجئت من المدينة الى مكة الا طلبا لسماع لحنك فى شعر جميل بثينة :

ومـا أنـس م الأشـياء لا أنـس قـولـهـا
وقـد قـربـت نضـوى أمـصـر تـريـد
يقـولـون جـاهـد يـاجمـيـل بـغـزوة
وأى جـهـاد غـيـرهـن أريـد ؟!
لـكـل حـديـث عـنـدهـن بـشـاشـة
وكـل قـتـيـل بـيـنـهـن شـهـيد

فكاد معبد يطير طربا مما أسمعته ، مع أن له لحنا فى هذا الشعر يعجبنى ويعجب الناس ، وهو أعظم المطربين منزلة عندى بعد ابن سريج .. وقد تلقى فن الغناء من مطربى المدينة الأوائل .. طويس ونشيط الفارسى وسائب خاثر ، وجميلة سيدة المطربات والمطربين !..

ولقد سمعته يغنى ويضرب بالعود ، على استواء عجيب فى الغناء ، واستقامة فى العزف لايلحق بها ضارب عود ، ولامغن على عود !.. وهو راوية للغناء متين الرواية ، وصناعتنا هذه محتاجه الى دعم أصولها ، وهذه الأصول محتاجة الى الرواية الصحيحة المتقنة .. والرواية المتقنة الصحيحة لايقوى عليها الا أمثال معبد !..

قال لى معبد وهو يهم بالانصراف

ـ لولا ملالة الحديث ، وثقل اطالة الجلوس لاستكثرت منك ، فانك عندى ذو مكانة جليلة !.. وقد سررتنى بغنائك وفطنتك وقيافتك !

## ● اليوم الثالث :

غنيت الليلة الماضية مع ابن سريج فى دار كبير أهل العلم بمكة عطاء بن أبى رباح !..

كانت الوليمة التى أولمها بمناسبة ختان ابنه طيبة وان لم تكن كبيرة ، ولكن الحضور كانوا كثيرين ، ولم يكن همهم الطعام .. بل السماع ، وقد علموا أنى وابن سريج حاضران !..

بدأ ابن سريج يغنى ، وكنت أظن أن ابن ابى عطاء سينتحى من الدار ناحية حتى لايستمع الى الغناء ، ولكنه ثبت فى مجلسه ، ونقر ابن سريج بالدفء وتغنى بشعر كثير عزة .

**أمنقطع ياعز ما كان بيننا**
**وشاجرتى ياعز فيك الشواجر**
**اذا قيل هذا بيت عزة قادنى**
**إليه الهوى واستعجلتنى البوادر**
**أصد وبى مثل الجنون لكى يرى**
**رواة الخنا أنى لبيتك هاجر**

فأصغى القوم بآذانهم ، وشخصت اليه أعينهم ، وطالت أعناقهم ، وأصابتهم غشية من الطرب

ثم قمت أنا فغنيتهم فى شعر عمر بن أبى ربيعة

**فقالت وأرخت جانب الستر انما**
**معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى**

فقلت لها مابى لهم من ترقب
ولكن سرى ليس يحمله مثلى

فوالله ما رأيت القوم تحركوا ولانطقوا ، فقد شغلهم الاستماع لى عن كل مافى الدنيا !..

ومضينا أغنى .. ثم يغنى .. حتى قيل لنا : غنيا معا !..
فاتفقنا أن نغنى هذا اللحن وهو لابن سريج

خليلى عوجا نسأل اليوم منزلا
أبى بالبراق العفر أن يتحولا
أرادت فلم تَسْطع كلاما فأومأت
إلينا ولم تأمن رسولا فترسلا
بِأَنْ : بِتْ عسى أن يستر الليل مجلسا
لنا أو تنام العين عنا فتقبلا

غنينا هذا اللحن معا ، فخيل الينا نحن والمستمعين أن الأرض تميد حتى تبينت أثر غنائنا فى الفقيه عطاء بن أبى رباح .. وماسمع السامعون شيئا أحسن من ذلك !

- اليوم الرابع :

آه .. ثم آه من الأيام حين يراها المرء تنقضى وتمر مر السحاب !..
ذهبت أيام الصبا وأيام الشباب .. وجاءت الشيخوخة بصفرة ألوانها !..
غضب حاكم جديد جاء يحكم مكة فأمر باخراجى منها الى اليمن فخرجت !
ورأى أعراب اليمن العود فى يدى فظنوه شيئا يستند اليه راكب البعير حين يميل على مؤخرة الرحل أو مقدمته !... وطلب بعضهم منى أن أبيعه هذا العود ليضعه فى رحل ناقته !.. ولكنى لست تاركا هذا المكان بقية حياتى .. فقد مللت كل شىء وزهدت فى الدنيا ..
مر بى بعض المسافرين من أهل مكة فلما رأيتهم بكيت ، فسألونى ..
- مايبكيك ياغريض وأنت من كنت تضحكنا جميعا بطرائفك وحلاوة لسانك ؟!
قلت لهم :
- بأبى أنتم وأمى !.. كيف يطيب لى أن أعيش بين قوم لم يروا العود قط ؟!..
أما مكة ، فلن أعود إليها بعد أن مات أكثر من أحبهم فيها ..
ثم اندفعت أغنى ..

جرى دمعى فهيج لى شجونا
فقلبى يستجن به جنونا

مضى القوم الى بلدهم ورقدت مريضا باكيا ولاأرانى الا سأموت ..!..

فلله أيام بمكة كنت فيها أمسك بالدف فأمشى وأنا أنقر عليه مشية لايرى الناس أحسن منها ، ثم أغنى مقبلا ومدبرا حتى أخر صريعا فيظن الناس أن الجن قد لوت عنقى غيرة من حسن غنائى ولطف مشيتى على نقر الدف !..

وزعم الناس أن الجن نهتنى أن أغنى والا قتلتنى ، ولكنى وان كنت اليوم مريضا غريبا بائسا ، لن أنتهى عن الغناء الى النهاية .. ولتقتلنى الجن !..

# أزهد الناس .. وأطرب الناس



فى المدينة المنورة نبغت فى الغناء بعد أن تعلمت أصوله فى مكة ، وأخذته عن معبد وابن عائشة وجميلة سيدة المغنيات ، وسمانى الناس "سلامة القس" .. لأن رجلا من صلحاء مكة سمع يوما غنائى ، فشغفته حبا ، وشهر بحبى فى القريتين العظيمتين : مكة والمدينة ، فقال الناس القس أحب سلامة !.. ثم صرت أدعى بينهم "سلامة القس" .. نسبة إلى هذا الرجل التقى الورع الذى كانوا يلقبونه "القس" لعبادته وصلاحه !..

سيدى الذى يملكنى فى المدينة .. اسمه مصعب بن سهيل الزهرى ، ولى أخت يملكها أيضا اسمها "ريا" وكذب الشاعر ابن قيس الرقيات حين قال

**لقد فتنت ريا وسلامة القسا فلم تتركا للقس عقلا ولا نفسا**
**فتاتان أمَّا منهما فشبيهة الهلال ، وأخرى تشبه الشمسا**

كذب ابن قيس الرقيات فى البيت الأول ، وأراد التشنيع على الرجل الصالح عبد الرحمن القس ، الذى يحبنى أنا وحدى !.. وصدق ابن قيس الرقيات فيما شبهنى به وأختى فى البيت الثانى !..

وكانت لنا بمكة زميلة فى صناعة الغناء اسمها "حبابة" .. مفرطة الجمال ، لكنها ليست فائقة الصوت ولا الصنعة ، وقد انتقلت مثلى إلى المدينة ، ونجتمع من حين إلى حين فى دار أستاذتنا "جميلة" التى امتلكت فن الغناء من أطرافه ، وتفوقت فيه على ابن سريج وأمثاله من فحول المطربين ، وروت أغانى القيان القدائم اللاتى كن يغنين قبل أن ينضج الغناء المتقن على عود نشيط وزميله سائب خاثر وابن مسجح ، وتلك الطبقة التى كانت أول من غنى على العود الفارسى غناءً عربيا .. وعلى أيديهم تم تعريب أوتار العود ، وإقامة الأصوات وأجناسها عليه باللسان العربى والذوق العربى ..

زميلتى حبابة مجتهدة حقا ، ولكنها لا تتعلم بسرعة ومهارة كما أتعلم أنا وأختى ، ويريد الرجل الذى يملك حبابة أن تتقن الغناء ليبيعها بمال عظيم !.. وأستاذتنا جميلة تقول لها : ياحبابة .. خذى إحكام ما أطارحك به من ألحان ، من

أختك سلامة ، ولن تزالى بخير ياحبابة مابقيت لك سلامة وكان أمركما مؤتلفا

حبابة تسمع كلام أستاذتنا وتطيع ، وتريد أن تتعلم ، ولها طموح إلى العيش فى القصور العالية فى دمشق ، مع أنها تعيش فى المدينة حياة المترفات !..

وتقول لى حبابة أحيانا : أرأيت ياسلامة .. إن شاهدنى الخليفة أو شاهدك ، أكان يفتتن بى وبك ويشترينا ؟!..

وأقول لها دائما : نعم !.. وأى رجل يملك ثمننا ولا يدفعه إلى سادتنا عن طيب خاطر ليحوز هذا الجمال وهذا الغناء ؟!..

ولكن العهد الآن هو عهد عمر ابن عبد العزيز ، الخليفة الذى يقال إن فيه من عمر بن الخطاب مشابه كثيرة ، وهو حفيده من جهة الأم ، وعلى نهجه فى إقامة شرع الله فى الرعية ، وقد غمر الدنيا بعدله وصلاحه ..

## ● اليوم الثانى :

يزعم بعض من يجهل الحقيقة أن عبد الرحمن القس كان متبذلا فى حبى ، وهو الذى كانوا يشبهونه فى مكة بالفقيه العظيم عطاء بن أبى رباح !..

ووالله ماتبذل عبد الرحمن يوما فى حبى ، ولا نسى أن الله تعالى مطلع عليه !.. وماسمع غنائى ـ أول مرة ـ إلا مصادفة وعلى غير تعمد منه ، فإنه مر بعد صلاة العشاء بدار سيدى ـ وكنا بمكة ـ فسمع غنائى ينبعث من النوافذ المفتوحة ، وكنا فى الصيف .. فوقف لحظة يسمع على غير ريبة ، فرآه مولاى فدعاه أن يدخل ليسمعنى ، فأبى عليه ، فقال له : إنى أقعدك فى مكان تسمع منها ولا تراها فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله الدار وأجلسه وسمعنى ، فلما فرغت من غنائى غمزنى مولاى فخرجت عليهما من وراء الستار كأننى البدر فى تمامه ، فرآنى القس فعلق قلبه بى ، وطفق يسبح ويذكر الله ، ويحاول أن يهرب مما علق بقلبه منى !..

ثم صار يتردد علينا ، فيقعدنى سيدى بين يديه فأغنى ، حتى شغف بى وشغفت به ، وعرف ذلك أهل مكة .. وقالوا لسيدى الذى كان يملكنى هناك قبل أن أصير جارية لسهيل بن عبد الرحمن فى المدينة :

ـ أيها الرجل قد أفسدت الرجل الصالح بغناء جاريتك !..

قال لهم :

ـ لا .. والله !.. ولكنى أصلحت جاريتى !..

وحملنى شغفى به ، وقد غنيته يوما وخلا لنا المكان ، أن أقول له :

ـ أنا والله أحبك !..

قال وقد علت وجهه حمرة الحياء :

ـ وأنا والله أحبك !..

قلت أغريه

ـ وأحب أن أضع فمى على فمك !..

قال وقد اضطرب وتحير :

ـ وأنا والله أحب ذاك !..

قلت أستحثه على الخطوة الأخيرة :

ـ فما يمنعك .. فوالله إن المكان لخال !..

أطرق القس شيئا ثم رفع رأسه والدمع فى عينيه وقال لى :

ـ يمنعنى منه قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .. وأنا أكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ..

ثم خرج من عندى وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك ، وانهمك فى النسك ، وقال

**قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها**
**فـاعجب لما تأتى بـه الأيام**
**فاليـوم أعـذرهـم واعلـم انمـا**
**سبل الضلالة والهدى أقسام**

وهو الذى كان أيام حبه لى ، يصف صوتى فيقول :

**ألم ترها لا يبعد الله دارها**
**إذا رجّعت فى صوتها كيف تصنع**
**تمد نظـام القـول ثم ترده**
**إلى صلصـل فى صـوتها يترجّع**

ويقول :

**سلاّم هل لى منكم ناصُر**
**ام هـل لقلبـى عنكـم زاجـر**
**قد سمع الناس بوجدى بكم**
**فمنهـم الـلائـم والعـاذر**

فهذه والله حكايتى مع عبد الرحمن القس ، ومارأيته منذ فارقت مكة وأقمت فى المدينة !..

## ● اليوم الثالث :

قدم إلى المدينة حاكم جديد ، فأمر بإخراج المغنين والمغنيات من المدينة بعد أيام حددها لخروجهم .. وكان الرجل الصالح ابن أبى عتيق الذى يحب سماعى ،

غائبا عن المدينة ، فعاد فى آخر ليلة من ليالى الأجل الذى ضربه الوالى لخروج المغنين والمغنيات ، فمر بدارنا ، فسلم علينا فقلت له

ـ ياسيدى ما أغفلك عن أمرنا !..

وأخبرته الخبر .. فخرج فاستأذن على الوالى وقال له :

ـ جزاك الله خيرا على مافعلت من إخراج أهل الغناء والفساد ، وأرجو ألا تكون عملت عملا هو خير لك من ذلك !..

قالى الوالى

ـ أصحابك الصلحاء أشاروا علىّ أن أفعل وقد فعلت ..

قال ابن أبى عتيق :

ـ قد أصبت ـ أصلحك الله ـ ولكن ماتقول فى جارية هذه صناعتها يكرهها عليها ذووها إكراها ، فتركت الغناء وأقبلت على الصلاة والصوم والخير ؟! ..

ـ فإنى لا أخرجها من المدينة !..

ـ الخير ـ أصلحك الله ـ أن تأتيك هذه الجارية فتسمع من كلامها وتنظر إليها فإنها محدثة لبقة ذات علم ..

ذهبت إلى الوالى فحدثته ، فوجدنى من أعلم الناس بالناس ـ كما قال لى ـ لأنى حدثته عن آبائه وأحوالهم وأمجادهم ، ففكه لذلك وطرب !..

وكان ابن أبى عتيق حاضرا فقال لى :

ـ اقرئى للأمير قرآنا ..

فقرأت له ، فقال الأمير : هذه أصح قراءة وأجملها ، وقال لى ابن أبى عتيق :

فأسمعى الأمير ـ أصلحه الله ـ شيئا من الحداء ..

فحدوت له حداءً لا يحسنه الحداة المحترفون وراء الابل فى صحراء نجد ، حتى كثر تعجب الوالى ، فقال له ابن أبى عتيق من فوره :

ـ فكيف لو سمعتها أيها الأمير ـ أعزك الله ـ فى صناعتها .. الغناء ؟!..

فتردد الأمير قليلا ثم أمرنى فغنيت ، فأحسنت ماشئت ، وجئت فى غنائى بما يشبه السحر ، حتى نهض الوالى من سريره فقعد على البساط بين يدىّ ، وصاح وقد استبد به الطرب

ـ لا والله يا ابن أبى عتيق .. مامثل هذه تخرج من المدينة أبدا !..

فلما هدأت سورة الطرب فى جوانح الأمير قال له الشيخ :

ـ أيها الأمير .. لو تركت سلامة وحدها فى المدينة ، لقال الناس : ترك الأمير سلامة وحدها وأخرج غيرها !.. ثم لا يدعك الناس من اقاويلهم الكاذبة !.. فما أنت صانع أيها الأمير أصلحك الله ؟!..

قال الأمير فى حسم :
ـ إذن لا يخرج من المدينة أحد من المغنين والمغنيات مادامت فيها سلامة ! ..

● **اليوم الرابع :**

مات عمر بن عبد العزيز .. أحزننا موته ! تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فكان أول ماقاله : « مايقر عينى ما أوتيت من الملك حتى أشترى سلامة وحبابة » !..

وماهى إلا مدة يسيرة حتى قدم رسل يزيد بن عبد الملك إلى المدينة ، فاشتروا حبابة ، ثم اشترونى ، وبلغ ثمنى عشرين ألف دينار قبضها ابن سهيل مغتبطا بالثروة التى هبطت عليه ، ولكنه قال لى :

ـ والله ماتقر عينى بهذا المال كما تقر برؤيتك وسماعك !.. ولكن لابد من إجابة يزيد بن عبد الملك إلى ما أراد !..

خرجت من المدينة فشيعنى خلق كثير ، فوقفت بينهم أودعهم ومعى العود ، فغنيتهم

**فارقونى وقد علمت يقينا**
**مـا لمـن ذاق ميتـة من إيـاب**

ثم ركبت متأهبة للرحيل ، فانتحب الناس بالبكاء ، وتحركت الركاب بى وبحبابة ، فى اتجاه دمشق !..

فلما دخلنا إلى يزيد بن عبد الملك فى قصره ، أشرق وجهه بالنور ، وقال وهو يفتح ذراعيه لحبابة ولى

**فألقت عصاها واستقر بها النوى**
**كما قر عينا بالإياب المسافر**

ثم قال
ـ ماشاء بعدُ من أمر الدنيا فليفتنى ، فقد ملكت سلامة جارية ابن سهيل الزهرى ، وحبابة جارية آل لاحق !..

وخيل إلىّ أن الزهريين واللاحقيين قد أصبحوا أعظم الناس .. ألم يذكرهم الخليفة وكأنه أخذنا منهم سبايا فى حرب طاحنة !..

لم يتركنا يزيد للراحة إلا قليلا ، ثم أمرنى فغنيت فى شعر عبد الرحمن القس :

**ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر**
**وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر**

ألاليت انى حين صار بها النوى
جليس لسلمى حيثما عج مزهر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها
يطير اليها قلبه حين ينظر
كأن حماما مستهاما مؤديا
إذا نطقت من صدرها يتغشمر

فطرب يزيد طربا شديدا ، ثم تفكر لحظة وسألنى :

- ياحبيبتى .. من قائل هذا الشعر ؟!

فقصصت عليه القصة ، فرق للقس ولى ، وقال :

- أحسن الرجل الصالح ، وأحسنت ياسلامة !..

## ● اليوم الخامس :

فى الأيام الأولى لنزولنا أنا وحبابة فى قصر يزيد بن عبد الملك كانت حبابة تنظر لى بعين الإجلال والتعظيم لما سلف لى من الفضل عليها فى تعليمها ..

ولكن يزيد بن عبد الملك مال اليها وخصها بحب مفرط ، وتدله بها حتى عجبت هى نفسها من تدله الخليفة بها وهى جارية ملك يمينه .. ثم تغيرت معاملتها لى حين رأت تفضيل الخليفة إياها لأنها مفرطة الجمال ، وأما أنا فمغنية بارعة ولكنى لست فى مثل جمال وجهها !..

قلت لحبابة

- ويحك ياحبابة .. أين تأديب الغناء وأين حق التعليم ؟!.. أنسيت قول جميلة لك يوما وهى تطارحنا الألحان : خذى إحكام ما أطارحك به من سلامة ، ولن تزالى بخير مابقيت لك وكان أمركما مؤتلفا ..

قالت لى حبابة :

- صدقت ياخليلتى .. والله لا عدت إلى شىء تكرهينه أبدا !..

ماتت حبابة إذ شرقت بحبة عنب رماها يزيد بن عبد الملك فى فمها مداعبا وهو يؤاكلها ..

حزن يزيد عليها ورفض دفنها ثلاثة أيام بعد موتها حتى أنتنت ، وأقنعوه بدفنها .. فلما مضت أيام اشتاق إليها فنبش قبرها وأخرجها وقد تغيرت جثتها وتشوهت ، فقيل له

- ألا ترى مافعل الموت بها ؟!..

قال فى جنون

ـ مارأيتها قط أجمل مما أراها الآن !..

فأخذوها منه قسرا وأعادوا دفنها .. ومضوا به إلى قصره ..

واليوم فارقنا يزيد بن عبد الملك !.. سمع الناس صوتي وأنا أنوح عليه .. ثم صحت : وا أمير المؤمنين !.. فعرف الناس أنه مات .. وجاء ولي عهده هشام بن عبد الملك الذى أصبح خليفة فسكّتني وأمرني بالاحتشام فامتثلت لأمره ..

وهشام لا يبالي بغنائي ولا يهمه أمر الغناء كله في شيء .. ولا أدرى ماتأتي به الأيام !..

## يوميات حبابة

# للحب وقت وللموت وقت



## ● اليـوم الأول

أول من مَلَكَنِي وأنا جارية صغيرة ناشئة فى صناعة الغناء ، يدعى « ابن مينا » على يديه كانت بداية تخرجي فى الغناء وتأدبى وتعلمى ، ثم اشترانى رجل يعرف بابن رمانة ، فمكثت عنده قليلا فسمعنى بعض المكيين من هواة الغناء فاشترانى

أخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك بن ابى السمح ومعبد، وعن جميلة وعزة الميلاء ، وهؤلاء سادة فن الغناء من الرجال والنساء فى مكة والمدينة ، لاينازعهم فيه أحد ..

زاملتنى فى طلب هذا الفن عند هؤلاء الأساتذة الكبار ، صديقتى وحبيبتى : « سلامة » التى سماها أهل المدينة : « سلامة القس » لما اشتهرت قصة حبها لعبد الرحمن القس ، وحبه لها ..

وعن استاذتنا الجميلة أخذنا أسرار صناعة الغناء ، فلها الفضل الأكبر علينا ، وكانت سلامة أحذق منى وأسرع فى فهم الالحان وغنائها على وجهها الصحيح ، فكانت جميلة تأمرها بمطارحتى الألحان حتى أتقنها ، فصار لسلامة عندى فضل التعليم ، فلولاها ما أتقنت الغناء !..

اشتهرت أنا وسلامة معا بإجادة الغناء ، واشتهرت أنا الى ذلك بحلاوة الوجه والظرف والرشاقة والجمال الفائق .. حتى سمانى الناس « العالية » !

زار المدينة يزيد بن عبد الملك ، نائبا عن أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة فى دمشق ، فحدثوه عنى وعن سلامة ، فجاء يسمعنا فأدخلت الى مجلسه وأنا فى إزار له ذنبان ، وبيدى دف أنقر عليه وأغنى .

ثم دخلت سلامة فغنته أيضا أجمل غناء ..

فبلغنا بعد انصرافه ، أنه قال : « ماتَقَرُّ عينى فى هذه الدنيا حتى أشترى حبابة وسلامة » ! .. فقيل له : « ولماذا لم تشترهما وفى يدك المال ؟ » . قال : « لو فعلت ذلك وبلغ أخى سليمان ، لأمر بالحجر علىّ ، لأنه يرى مثل هذا العمل سفها يستحق الحجر » ! ..

## ● اليوم الثانى :

مرت أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك القصيرة ، ثم مرت من بعده أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الخاطفة ، ونودى بيزيد بن عبد الملك خليفة فى دمشق ..

حضر رسل السيدة « أم الحجاج » وهى أم الطفل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأعلنوا أنهم يريدون شرائى وشراء سلامة ، وشاع فى المدينة انها تريد إهداءنا الى زوجها الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملك ، لعلمها بشغفه بنا فسبقته الى شرائنا لنكون هديتها اليه حتى تُوَطىءَ لابنها عنده فى ولاية العهد ..

دخلنا قصر الخليفة فى دمشق يوم جمعة وهو متأهب للصلاة ، فسمعناه يقول لأخيه مسلمة بن عبد الملك :

ـ بماذا كان عمر بن عبد العزيز معدودا عند الناس فى الخلفاء الصالحين ، وبماذا صار أرجى لربه عز وجل منى ؟!

قال مسلمة

ـ بعدله وتقواه وعفافه وزهده ونظره فى مصلحة الرعية !

قال يزيد

ـ فأنا أسير على جادته إن شاء الله ..

فلما فرغ من الصلاة ، عاد الى القصر ، وأمر فأحضرونى وسلامة بين يديه ، وتغنيت فى شعر الأحوص ولحن معبد

**إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى**
**فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا**
**فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى**
**وإن لام فيه ذو الشنان وفندا**

فطرب يزيد طربا شديدا ، وأمر لى بجائزة من جوهر ولؤلؤ ، وأرسل إلى الأحوص أربعين ألف درهم ..

وانشغل بى يزيد ليلا ونهارا ، فأيقنت أنه أحبنى حبا ملك شغاف قلبه ، فلا فكاك له منى ..

وجاءه أخوه مسلمة بن عبد الملك يقول له : ـ يا أمير المؤمنين .. إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وهو من تعلم عدلا وصلاحا ورعيا للناس ، وأنت مقيم على الغناء والشراب ، وقد تشاغلت بهذه الجارية عن النظر فى الأمور ... والوفود واقفة ببابك قادمة من أقصى خراسان وأقصى الأندلس ، وأصحاب الظلامات يصيحون فى طلب العدل وأنت غافل عنهم ! .

فوجم يزيد وتفكر مليا ثم قال لأخيه

ـ صدقت والله ، فلا جلست هذا المجلس بعد اليوم ، ولا انشغلت الا لما كان عمر بن عبد العزيز ينشغل به من العمل الصالح ! ..

● **اليوم الثالث** :

---

مكثت أياما لا أرى يزيد ولايدعونى ، فلما كانت صلاة الجمعة وأراد الخروج لها ، تصديت له والعود فى يدى ، وتغنيت : « وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى » !

فغطى وجهه وقال لى مه ! .. لاتفعلى هذا ! .. لاتغنى !

ولكنى لم أكف عن الغناء ، فتوقف ثم عدل إلى ناحيتى وجلس متحيرا ، فغنيته

**وعهدى بها صفراء رودا كأنما نضا غرقُ منها على اللون مجسدا**
**مهفهفة الأعلى وأسفل خلقها جرى لحمه مادون أن يتخددا**
**من المدمجات اللحم جدلا كأنها عنان صناع مدمج الفتل محصدا**
**كان ذكى المسك بادٍ وقد بدت وريح خزامى طلة تنفح الندى**

فطرب يزيد طربا شديدا ، وصاح

ـ لعن الله من لامنى فيك ! .. ياغلام .. قل لمسلمة أن يصلى بالناس ! ..

وأقام معى يسمع ، وعاود ما كان فيه !

ثم جاءه أخوه مسلمة ـ وهو رجل صالح حقا ـ فقال له

ـ ضيعت حوائج الناس ، واحتجبت عنهم .. أترى هذا مستقيما لك ، وقد تركت شهود الجمعة الجامعة ، وقعدت فى منزلك مع هذه الاماء المغنيات ؟!

فلما انصرف مسلمة قال لى يزيد

ـ هذا أخى الأكبر ، وهو رجل الحرب والسياسة فى دولة بنى أمية الآن ، ولو لم تكن أمه جارية رومية من جوارى أبى عبد الملك ، لكان مسلمة هذا أحق أبناء عبد الملك بالخلافة من بعده ! ..

فغضبت وقلت :

ـ أترى أبناء الجوارى أقل شأنا من أبناء الزوجات العربيات ؟! .. فما تصنع إذن لو جئت أنا منك بغلام ؟! .. أتعهد له بالخلافة أم لابن زوجة من زوجاتك العربيات ؟! ..

وخرجت من عنده مغضبة ، فلما طال غضبى عليه وهجرى إياه ، دعا خصيا من غلمان القصر وقال له : انطلق فانظر أى شىء تصنع حبابة الآن ! فوجدنى الخادم مؤتزرة بإزار أحمر أصفر مطيب بأنواع العطور الفاخرة ، وللثوب ذيلان طويلان ، وأنا ألهو وألعب بألعابى ، فوقف الغلام قبالتى لحظة ثم عاد إلى يزيد فأخبره ، فشق عليه انشغالى عنه ، وأراد أن يغيظنى ، فدعا بسلامة وأمرها أن تغنى بحيث أسمع غناءها :

**فقلت ألا ياليت أسماء أصقبت وهل قول ليت جامع ماتبددا**
**وإنى لأهواها وأهوى لقاءها كما يشتهى الصاوى الشراب المبردا**

فعلمت أن سلامة تخاطبنى بهذا الشعر ، وتناشدنى أن « أصاقب » أو أدنو بعد الابتعاد وتؤكد مايحمله يزيد لى من الهوى المبرح والظمأ إلى الصلح بعد الخصام ! ..

فحمدت لسلامة سعيها لوصل ما انقطع بينى وبين يزيد وقلت فى نفسى : « والله لاترى سلامة منى الا خيرا ماعشت ! .. وإنها لخليلتى حقا ، ولا أمسها بشىء تكرهه أبدا مهما حظيت أنا عند يزيد ، وتخلفت هى عنى فى الحظوة عنده » ! ..
فمشيت على مهل حتى بلغت مجلسهما فتوقفت سلامة عن الغناء ووثب يزيد فاعتنقنى فرحا بوصالى ، وجلست فغنيت فى شعر جرير :

**ألا حى الديار بسعد ، إنى ... أحب لحب فاطمة الديارا**
**أراد الظاعنون ليحزنونى ... فهاجوا صدع قلبى فاستطارا**

فطرب يزيد حتى أوشك أن يفقد صوابه وصاح : هل أطير ؟! .. فرددت عليه متفترة متدللة والى من تدع الناس بعدك ياسيدى ؟! .. قال : إليك ! ..
ثم قال لى مبهورا :
- هل رأيت أحدا أَطْرَبَ منى فى جميع الناس ؟! ..
قلت
- نعم معاوية بن عبد الله بن جعفر الهاشمى .

## ● اليوم الرابع

استدعى يزيد من المدينة ، معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قلت إنه أطرب الناس ، فأرسلت إلى معاوية قبل أن يدخل مجلسنا ألا يظهر امتعاضا مما يراه من أفعال يزيد حين يطرب .. فلما دخل مجلسنا غنيت فى شعر لابن قيس الرقيات ولحن لابن سريج :

**حلق من بنى كنانة حولى ... بفلسطين يسرعون الركوبا**
**هزئت أن رأت مشيبى عرسى ... لاتلومى ذوائبى أن تشيبا**

فطرب يزيد وطرب معاوية بن عبد الله ولكنى سمعته يقول همسا : « سوأة لى على كبر سنى أجالس هذا المائق » ! ..
ثم كأنما خشى معاوية أن تفوته الجائزة من يزيد حين يرى قلة نشاطه لغنائى ، فقام معاوية فأخذ وسادة فوضعها فوق رأسه وقام يدور وينادى هو ويزيد فى أبهاء القصر : « الدخن بالنوى » .. وهذا نداء الباعة فى سوق دمشق على « اللوبيا » ..
فأكبره يزيد لما رأى من مسايرته له فى طربه وطريقة تعبيره عن الطرب ، وأمر له بثمانية آلاف دينار ، وهى جائزة لم يأخذ منه مثلها أحد قط ! ..

لم يكد معاوية بن عبد الله ينصرف حتى دخل رجل كنت وصفته ليزيد بشدة الطرب ، فغنيت

**تشط غدا دار جيراننا وللدار بعد غد ابعد**

فوثب الرجل حتى القى نفسه على نار شمعة كبيرة فأمسكت النار بلحيته ، فجعل يقفز هنا وهناك فى القصر ويصيح : الحريق .. الحريق يا أيها الناس ! ..

وضحك يزيد حتى استلقى على قفاه ، وقال :

- لعمرى إن هذا لأطرب الناس ! ..

ووصله بألف دينار ! ..

ويبدو أن ضجة مجلسنا هذا بلغت شيخا خراسانى الأصل يعيش فى القصر ، وهو من شيوخ يزيد ، لكنه أعجمى النطق ، وإن كان عالما بالعربية ..

فجاء الشيخ فأقبل على يزيد يعظه وينهاه عما هو فيه من الغناء واللهو ، فقال له يزيد إجلس واسمع !

فغنيـــت :

**وقد كنت أتيكم بعلة غيركم فأفنيت علاتى فكيف أقول ؟**

فطرب الشيخ وقال بلكنته الأعجمية لا .. فيف ! .. جعلنى الله فداك ياهبابة ! .. يريد أن يقول : لاكيف ! .. جعلنى الله فداك ياحبابة ! .. وذلك ردا على السؤال الذى فى آخر البيت : « فكيف أقول ؟! . » ...

ثم قال الشيخ ليزيد :

- هذه جاريتك ملك يمينك ! .. ولا أقول لك : دعها ! ..

وانصرف الشيخ ، ودخل مسلمة بن عبد الملك ، كعادته يعظ أخاه ويحذره عاقبة أمره ، ويذكره بسيرة ابن عمه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ..

وسمع يزيد الموعظة مطرقا ، ونظرت الى دموعه تنحدر ! ..

وانصرف مسلمة ، وكأنه رأى أن موعظته هذه المرة أوجعت أخاه وأقنعته ! ..

يوميات أحمد بن أسامة :

# مخترع النصب



الناس يسموننى أحمد النصبى ، وإنما أنا أحمد بن أسامة الهمدانى ، من صميم قبيلة همدان العظيمة .. عشقت الغناء ، فقيل : هذا العاشق الغاوى ، وماغويت والله ولكنى وجدت فى الغناء لذة للنفس والقلب تكتمل بها لذة الشعر ، ولا تنتقص من المروءة شيئا ..

ولقبى الذى التزق باسمى ، مأخوذ من "النصب" ـ بسكون الصاد ـ وهو ضرب من الغناء الرقيق يشبه الحداء ، وماهو بالحداء ولا هو بالغناء الذى لا يصلح ألا بالضرب على العود ..

وأنا صاحب هذا اللون من الغناء .. اخترعته اختراعا ، وغنيته على الطنبور ، وأحدثت فيه ألحانا كثيرة بارعة يعجز عن مثلها جميع الطنبوريين ، وكثير من أصحاب الغناء المتقن الضاربين بالعيدان ..

فلما كثرت الأنصاب التى غنيتها على الطنبور ، واشتهرت فى العراق والشام والحجاز ، قلدنى الطنبوريون فى غناء "النصب" ولم أجد فيهم من جاء بصنعة حسنة ، لأنهم لا يعرفون سر الصناعة التى أنا وحدى صاحبها فى هذا اللون من الغناء ..

وبلغنى أن ابن مسجح وابن محرز وابن سريج ، سمعوا أنصابى من بعض الرواة ، فأعجبتهم ، وحسبك بإعجاب هؤلاء المغنين الفحول من شهادة لى ، مع أنهم يغنون على العود الغناء المتقن ، ويرون الغناء على الطنبور باطلا !..

وقد كسب هؤلاء وغيرهم من خدمة الكبراء والخلفاء ، أما أنا فلم أخدم بغنائى خليفة ولا واليا ، ولم أنظم الشعر ، وأكثر غنائى فى شعر أعشى همدان ، فإنى لم أزل مواخيا له منذ الصبا .. وهو همدانى مثلى ، وشاعر مُفْلِقٌ فى طليعة الشعراء ..

وكثيرا مايقول لى الأعشى :

ـ ما أراك زهدت فى خدمة الكبراء والوزراء بغنائك إلا اكتفاءً بما أفاء الله عليك من اليسار .. ولو كنت محتاجا إلى المال ، لدخلت فى خدمتهم كما دخل غيرك .. وقد تعلم ماأجتناه مغنو مكة والمدينة من الثمرات بغنائهم فى مجالس أولئك السادة الكرام .. وأنت مقيم بالكوفة لا تقصدهم ..

فأقول للأعشى :

ـ بلى والله ، فإنى لا أغنى إلا تلذذا بالغناء !..

مع ذلك يزعم أهل الكوفة أنى شديد البخل ، وأنى أقرض الناس بالربا !.. وهذا كله باطل ، فما أنا بالبخيل ولا بالمرابى ، ولكنى رجل لا أنفق المال فى غير موضعه ، ولا أعطى من يسألنى بغير حق .. وكل من يرمينى بنقيصة فليس يخلو

من أن يكون كاذبا أو حاقدا .. فأنا رجل كريم ، شجاع ، حاربت فى عسكر الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وأبليت أحسن البلاء ، ومازلت ألبى كل دعوة إلى القتال ، وإن الحجاج لكثير الحروب ، لكثرة الخارجين عليه وعلى بنى أمية ، وما أنا بالمحب للحجاج وسياسته ولكنى مقاتل لا أقعد مع القاعدين !..

## ● اليوم الثانى :

● عدت من غزوة فى بلاد العجم وكان أعشى همدان معى فى المقاتلة ، فلما فرغنا من الغزاة وأخذنا طريقنا عائدين إلى الكوفة ، نزلنا فى "ساباط المدائن" على رجل كريم لم يكن يعرفنا وهو سليم بن صالح بن سعد العنبرى ، فأحسن الرجل استقبالنا ، وأطعمنا وسقانا ، وأمر لدوابنا بالعلوفة .. ثم سامرنا ساعة واستأذن فى الانصراف ، ليبيت فى سطح منزله ، وكان مبيتنا نحن فى أحسن حجرات المنزل ..

فلما انصرف قلت لأعشى همدان :

ـ أما رأيت جميل صنع هذا الرجل بنا ؟!.. انه والله سخى ذو مروءة يستحق أن تمدحه بشعرك !..

قال الأعشى

ـ نعم وكرامة ، ولكنى اشترط أن تصنع لحنا فى هذا الشعر ، تغنيه فنتسلى به حتى ننام ، أو نسهر على سماعه إلى مطلع الفجر ..

ثم تحرك الأعشى فأخذ ينشد شبه مرتجل قصيدة طويلة فى مدح الرجل ، أخذت منها الأبيات الأولى وهى فى الغزل :

**يـا أيهـا القلب المطيـع الهـوى　　أنَّى اعتراك الطرب النازحُ**
**تـذكـر جُمْـلاً وَمِـن نَـأْيِـهَـا　　طـار شعاعـا قلبك الطـامـح**
**يـاجُمْـلُ مـاحـبـى لكـم زائـل　　عـنـى ولا عـن كبـدى نـازح**

فلحنت الأبيات ، وغنيتها وأنا أضرب بقضيب على دواة ، والأعشى ينعر طربا ويستعيدنى ، حتى ظننت أن أهل الحى كلهم قد استيقظوا من نومهم ، فقلت له مستنكرا أو معاتبا :

ـ أيقظت بصياحك الناس ، ولا أستطيع تسكيتك ، ولو سمعنا صاحب الدار لاستخف بنا ، واستقل مروءتنا ، واعتقد أنه أخطأ إذ أنزلنا فى بيته !..

قال لى الأعشى غير مبال بعتابى :

ـ ومن الذى يسمع أنصابك هذه ولا يصيح طربا ؟!.. فاسكت أنت عن

الغناء ، فإنما صياحى من أثر غنائك فى قلبى !.. كأنك أوقدت فى قلبى نارا !..

فبينما نحن كذلك دخل علينا صاحب المنزل ، فقال :

ـ سمعت شعرا ماسمعت أحسن منه ، وغناءً لا يقدر على مثله أحد من حذاق المغنين .. فهلا أخبرتمانى من أنتما .. أمتع الله بكما ، وزادكما فضلا ومروءة ؟!..

قلت له

ـ الشعر لهذا الرجل ، وهو الشاعر المشهور أعشى همدان ، والغناء لى ، وأنا أحمد النصبى الهمدانى !..

فانكب الرجل على رأس الأعشى فأشبعه تقبيلا ، وقال له وهو يكاد يبكى تأثرا وسرورا :

ـ ياسيدى .. مدحتنى بشعر تتمنى مثله الملوك ، وماصنعت لك شيئا أستحق به مدحك !..

ثم تحول ناحيتى فأشبع رأسى أنا أيضا تقبيلا ، وقال لى

ـ ياسيدى .. والله ماظننت أن زمانى يبلغنى هذا الأمل ، فأسمع غناءك فى شعر يمدحنى به أعشى همدان ..

فقمت فأقعدت الرجل وهدأت من روعه ، وقلت له :

ـ والله ماصدق الأعشى قط فى مدح أحد ، صدقه فى مدحك ، لأنه جاء من طبعه ومحبته ، لا من جائزة ينتظرها ..

قال الرجل :

ـ كتمتمانى أنفسكما ، وأوشكتما أن تفارقانى ولم أعرفكما ولم أعلم خبركما ، فوالله ماتطيب نفسى برحيلكما عنى أبدا !..

فأقمنا عند الرجل شهرا ، ثم حملنا على فرسين ، وقال :

ـ خلفا عندى دوابكما ، فإنى أظنكما راجعين إلى الغزو .. فإذا عدتما بالسلامة إن شاء الله ، نزلتما عندى !..

فانصرفنا ، وكان الرجل ذكيا إذ عرف أننا راجعان إلى الحرب التى كنا فيها منذ مدة يسيرة !.. والحجاج بن يوسف الثقفى لا تنتهى حروبه ، فالناس يخرجون عليه فى كل يوم لكثرة مظالمه وشدة بطشه وطغيانه ، ويفضلون الموت على الحياة .. ووالله مانذهب إلى الحرب امتثالا لأمره ، بل رغبة فى جمع كلمة المسلمين ورأب صدعهم !..

ينسى المرء فى الحرب كل مباهج السلام .. فلا يذكر الشعر ولا الغناء ولا الحب ، فإن ذكر شيئا من ذلك ، مر على خاطره مرور الغيمة السوداء ، كأنه يتذكر ماضيا أصبح رجوعه مستحيلا ..

وقد يهجم المقاتل على الأعداء وهو يرتجز ، ولكن الشعر الحقيقى لا يولد بين صليل السيوف !..

وكذلك الغناء !.. فإنى أنسى فى المعركة وقبل المعركة وبعدها أننى مغن وأن لى مذهبا خاصا فى الغناء ، وطنبورا أغنى عليه .. وأنسى أسماء المغنين والمغنيات الذين سمعتهم فى مكة والمدينة ، وامتلأت من غنائهم طربا حتى ظننت أن الدنيا هى الغناء ، والناس هم المغنون !..

جلست مع الأعشى عقب اشتباك دموى مع العدو ، وقد حجز الليل بين المتحاربين ، فقلت للأعشى :

- أتذكر يا أعشى قصيدتك فى سليم بن صالح العنبرى ؟!..

- نعم وكيف أنساها ، وقد غنيتنى فى أبياتها الأولى الغزلية ؟!

- إنى تذكرت الآن قولك فى هذه القصيدة :

**إنى لمن سالمت سلم ومن عاديت أمسى وله ناطح**
**فى الرأس منه وعلى أنفه من نقماتى ميسم لائح**
**والخيل تعلم يوم الوغى أنك من جمرتها ناضح**

فأنت فى هذه الأبيات تزعم أنك تسالم من يسالم سليم بن صالح ، وتنطح من يعاديه حتى يلوح على أنفه وفى رأسه ميسم من النطح الشديد !.. فماذا تقول لو دعاك الحجاج إلى هجاء سليم بن صالح ونطحه على رأسه وأنفه ؟!..

تفكر الأعشى ساعة مطرقا عابسا كأنه لا يحير جوابا ، ثم لجلج قائلا :

- لا أراه يدعونى .. وإنما يحتاج الحجاج إلى سيوفنا لا إلى ألسنتنا !.. وماذا بينه وبين سليم بن صالح مما يدعوه إلى طلب هجائه ؟!..

وتضاحك الأعشى قائلا :

ـ ما أظن أن الحجاج يخطر بباله أن مغنيا عظيما مثلك يحارب فى صفوف جيشه !.. ولو علم أنك تغنى لأعفاك من القتال مع أنه لا يعفى منه أحدا !..

## ● اليوم الرابع

انتهت هذه الموقعة ، ولا ندرى ونحن عائدان إلى ديارنا متى تنشب معركة أخرى ..

قلت للأعشى :

ـ نمر على ديار سليم بن صالح العنبرى ، كما وعدناه ، وأسألك إذا بلغنا منزله أن تمدحه بقصيدة جديدة ..

فلما شارفنا منزل سليم بن صالح رأيت على سطحه ثعلبا فدهشت ، لأن عهدى بالمنزل أنه معمور محروس ، فكيف طرقه الثعلب وصعد فوقه ؟!..

قلت للأعشى متوجسا شرا :

ـ إنى أرى عجبا !..

ـ ماهو ؟!..

ـ أرى فوق قصر سليم ثعلبا !..

فوجم الأعشى ووقف ، وقال :

ـ لئن كنت صادقا فما بقى فى القرية أحد !..

ـ وكيف يقع مثل هذا الحادث العجيب الرهيب ؟!..

ـ لعل الطاعون أصابهم !..

ـ فكيف ندخل قرية أصابها الطاعون ؟!..

ـ إن الطاعون لا يبقى فيها بعد أن قتل أهلها !..

وأمسك بيدى فمضينا صوب القرية وأنا خائف ، ولا أدرى أكان هو خائفا مثلى أم كان كعادته مغامرا لا يبالى شيئا ..

مشينا فى طرقات القرية فلم نجد أحدا من أهلها ، إلا شيخا حطمته الأيام والأحزان ، فسألناه عن خبر القرية وأهلها وسليم بن صالح سيد القرية ..

لم يسمع الرجل كلامنا ألا بصعوبة ، ولم يجب عنه إلا بصعوبة ، ولكنا فهمنا القصة ، فإن الحجاج الطاغية قبض على "سليم بن صالح" وطالبه بمال عظيم لا يقدر على جمع نصفه ولا ربعه ، فبيعت كل أملاكه ، وخربت القرية ، وتفرق أهلها ، بعد أن أهلك الحجاج أكثرهم !..

ـ وأين ذهب سليم بن صالح ؟!
قال الرجل وقد غلبه البكاء :

ـ باعه الحجاج عبدا فى سوق الرقيق !..
أذهلنا هذا النبأ ، وصاح الأعشى مستنكرا :

ـ وهل يحل له هذا البيع ، وسليم بن صالح رجل حر لم يمسه الرق ، ولم يأسره فى حرب ، وهو مسلم فى دار الاسلام ؟!

قلت للأعشى وقد انكسرت وخامرنى الكمد
ـ وأى شىء لم يستحله الحجاج ؟!

ومضينا إلى الكوفة ، نقصد منازلنا ومن فيها من الأهل والولد ، ولكنا كنا مثقلين بالأحزان

لم نكد ندخل الكوفة حتى فوجئنا بسليم بن صالح وقد خرج من بعض بيوت أشرافها ، ومعه بعض آله الأقربين ، فطرنا اليه نقبل رأسه ونبكى ونسأله عن قصته ..

قال سليم بن صالح :
ـ لا بأس علينا الآن أنا ومن بقى من قومى ، فإن صاحب هذا البيت الكريم من أشراف الكوفة "اشترانى" وأعتقنى لوجه الله !...

يوميات ابن عائشة :

# الوليد والساقى



## ● اليوم الأول :

اسمي محمد ، وأمي اسمها عائشة .. والناس يسمونني "ابن عائشة" .. وقد سألت أمي مرة عن اسم أبى فقالت : كان ـ رحمه الله ـ يسمى جعفرا !.. قلت لها : أَوَقَدْ مات ؟!.. قالت نعم .. مات منذ كنت رضيعا لا تعقل شيئا !..

نشأت أمي مملوكة لبعض القرشيين فى المدينة المنورة فلما ولدتنى نشأت مملوكا مثلها .. ثم صرت صبيا ، وصارت هى ماشطة تدخل بيوت السادة وأهل الثراء لتمشط نساءهم وجواريهم ، فكنت أدخل معها أمسك بذيلها وأنا أكاد أقع على الأرض لصغر سني وضعف بدني ، فإذا دخلت معها إلى البيوت قالت النسوة : هذا ابن عائشة !.. خذ هذه الحلوى يا ابن عائشة !.. هل تأكل أو تشرب شيئا يا ابن عائشة ؟!.. فغلب هذا الاسم على نسبى ، ولم يعد يذكر أبى أحد ، حتى كان بعض الناس يتغامزون على أمى ، ويتهامسون : من أى الرجال جاءت بهذا الغلام ؟!.. فلا سامحهم الله ، وسامح الله أبى الذى لم أره ولا أعرفه !..

عشقت فن الغناء صغيرا أخذته عن سيد مطربى المدينة "معبد" وتلميذه "مالك" .. وصار لى فيه شأن كبير حتى ساويتهما فى المكانة عند الخاصة والعامة !.. مع أني لست بالضارب الجيد على العود ، وأحسن مافى صناعتى الغنائية ، استهلال الألحان وبدايتها ، فأنا أحسن المطربين استهلالا فى الغناء ، بل أنا ـ والله ـ أحسنهم ابتداء وتوسطا وانتهاء ، بعد أستاذى معبد ، لا تتفوق صناعة أحد سواه على صناعتى .. على أننى ـ والله ـ أطيب منه صوتا بعد أن كبر وتغيرت نبرات صوته وتقاصرت أنفاسه !..

وأهل المدينة يحبوننى ويغمروننى برعايتهم وحمايتهم .. حدث منذ أيام أن رأى أحد أعيانهم خدشا فى جلد رقبتى فوق حنجرتى ، فسألنى مغضبا : من فعل هذا بك ؟! قلت : فلان !.. فمضى هذا الرجل الوقور العظيم المكانة فنزع ثيابه وجلس بقميص خفيف على باب بيت ذلك الرجل الذى خدش الجلد فوق حنجرتى !.. فلما خرج ـ وهو من أقربائه ـ أخذ بتلابيبه وضربه ضرباً شديدا ، والرجل يقول له : مَالَكَ تضربنى ؟!.. أى شيء صنعت ؟!.. وهو يضربه ولا يجيبه عن سؤاله حتى أدمى جلده ، ثم خلاه وأقبل على الناس الذين اجتمعوا يحجزون بينهما فقال :

ـ هذا الأحمق الجاهل خدش حلق ابن عائشة .. أراد أن يكسر مزامير داود عليه السلام !..

أما "أشعب" الظريف ملك الطفيليين وأبرع من يفهم الغناء ويقلد المغنين ، فإنه يقول دائما لأهل المدينة

- لا تتركوا ابن عائشة حتى تزوجوه من أجمل المغنيات صوتا ، حتى يخرج لهما ولد يحمل فى حلقه مزامير داود !..

ويقول لى أشعب :

- أنت والله أظرف مجلسا وأكثر طيبا من أن تجالس هؤلاء الناس ، وإنك لتصلح أن تكون نديم خليفة أو سمير ملك !..

أما "جميلة" أستاذة جميع المغنيات ، فقالت لى :

- .. وأنت يا أبا جعفر .. فمع الخلفاء تصلح أن تكون !..

ولكنى سيىء المعاشرة للناس ، فإذا قال لى أحدهم : غن لنا شيئا !.. صحت فيه : ألمثلى يقال هذا ؟! .. وإن غنيت فقال لى : أحسنت !.. قلت : ألمثلى يقال أحسنت ؟!..

وإننى لأتيه وأتدلل حتى على سيدى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فإنه سألنى مرة أن أغنيه فامتنعت ، فتوعدنى لئن لم أغنه مائة لحن ، ليأمرن بطرحى فى ماء البئر حتى أشرف على الغرق !.. واضطررت يومها أن أغنيه بدل الصوت الواحد ، مائة صوت !..

وقد سرنى يومئذ أن أهل المدينة جميعا اجتمعوا يسمعون هذه الأصوات المائة ، فما تشاغل أحد بشىء عن استماع غنائى ، ولا انصرف أحد إلى قضاء حاجة حتى أتممت الأصوات المائة ، ورفع الناس أصواتهم يقولون لى : أحسنت والله !.. أحسنت والله !.. ثم قاموا يزفوننى إلى منزلى بالمدينة كأننى عروس !..

## ● اليوم الثانى :

قصدت أمير المؤمنين الوليد بن يزيد فى دمشق .. أدخلنى الحاجب فوجدت عنده حمادا الراوية ومعبدا سيد المغنين وتلميذه مالك بن أبى السمح .. فقال لى الوليد :

- أراك فى مقتبل الشباب وكنت أظنك شيخا لاستفاضة شهرتك !..

ثم قال لى غننى

وهى إذ ذاك عليها مئزر
ولها بيت جوار من لعب

فغنيته ، فرمى إلىّ بثوبين فاخرين .. وقال : غننى :

طاف الخيال فمرحبا
ألفا برؤية زينبا

فغنيته ، فوقف يهتز طربا ، ونعر نعرة سمعها كل من فى القصر وأمر لى بألف دينار ، وغمرنى بالخلع السنية !..

فغضب معبد وقال

ـ يا أمير المؤمنين .. إننا مقبلون عليك ونحن شيوخ هذه الصناعة ، وإنك تركتنا بمزجر الكلب ، وجعلت همك كله فى غناء هذا الغلام !..

قال الخليفة

ـ والله يا أبا عباد ماجهلت قدرك ولا سنك ، ولكن هذا الغلام طرحنى فى مثل الطناجير من حرارة غنائه !..

ثم أمر الخليفة لمعبد ومالك بجوائز عظيمة فاقت جائزتى ، وأكثر لهما من الثياب الموشية وحقاق الطيب ، حتى رضيا ، وانصرفا ، وبقيت أنا في حضرته .. فقال لى

ـ أعد ذلك الصوت الذى أتقلب فيه على الطناجير المحمية فى النار !..

فلم أدر أى الصوتين يريد .. ففطن لذلك فقال لى :

ـ أردت صوتك فى شعر أمرىء القيس !..

فاندفعت أغنى الصوت من أوله :

عــهـدتنــى نــاشئــا ذاغــرة ... رجـل الجمـة ذا بطــن أقــب

اتبــع الــولــدان أرخى مئــزرى ... ابن عشــر ذا قريط من ذهب

وهــى إذ ذاك عليــهـا مــئــزر ... ولــهـا بيت جـوار مـن لــعـب

فأوشك أن يخرج من ثيابه طربا ، ونعر أشد من نعرته فى المرة الأولى ، فجاءت سلامة القس فجلست غير بعيد تسمع غنائى وتهز رأسها طربا ، وهى من هى براعةً فى الغناء ، وجمالا فى الصوت ، ومعرفةً بأصول الصناعة !..

وما أعجب تقلبات مزاج هذا الخليفة ، فإنه أمر فجأة بإسدال ستار يحجبه عنى ، فظننت أنه غضب من شىء ، وإذا به من وراء الستار يقول لى

ـ أتحفظ لحن ابن سريج « إنى رأيت صبيحة النفر » ؟!

قلت :

ـ نعمْ يا أمير المؤمنين ، فإنى سمعته منه ..

فأمرنى فغنيت :

إنــى رأيــت صبيحــة النفــر حــورا نفين عــزيمــة الصبــر
مثــل الكــواكب فى مطــالعهــا بعــد العشــاء أطفــن بــالبــدر
وخــرجت أبغى الأجر محتسبــا فــرجعت مــوفــورا من الــوزر

فرفع الوليد الستارة وصاح

- ياغلام اسقنا بالسماء الرابعة !..

فلم أفهم معنى قوله "السماء الرابعة" وقلت لعله اسم إناء كبير من أوانيهم الذهبية التى يطلقون عليها الأسماء العجيبة !..

ثم قال لى متوددا كأننى أنا السلطان لا هو :

- أحسنت والله يا أميرى !.. أعد بحق عبد شمس !..

فقلت فى نفسى أترى كان الشيخ الوقور عبد شمس بن عبد مناف يرتاح ويطيب نفسا لو شاهد حفيده هذا وقد طرح أمور الحكم كلها وراء ظهره وتفرغ لما هو فيه

ثم أعدت عليه اللحن ، فقال لى

- أحسنت أيها الأمير !.. أعد بحق أمية بن عبد شمس !..

فزاد عجبى منه ، وأعدت اللحن فقال

- أحسنت يا أميرى .. أعد بحياتى !..

فأعدت .. فوثب يدور فى القصر من الطرب ، ثم هجم علىّ فأكب يقبل رأسى ثم وجهى ثم صدرى ثم يدى ، فتراجعت وأنا لا أصدق ما أراه وقد ملأنى الذهول والخوف !..

ثم نزع ثيابه فألقاها لى كلها ، وبقى حتى أتوه بمثلها ، ووهب لى ألف دينار أخرى ، وحملنى على بغلة ، وقال لى متهدج الصوت

- أركبها - بأبى أنت - وانصرف ، فقد تركتنى على مثل المقلى من حرارة غنائك !..

وجاءوا بالبغلة حتى وطئت البساط فركبتها وهى واقفة على بساطه ثم انصرفت وقد أيقنت أنه لا يوجد فى الدنيا كلها أطرب من هذا الرجل ، ولا أكرم منه عند الطرب ..

### ● اليوم الثالث :

فى طريقى من دمشق عائدا إلى المدينة بعد ذلك اليوم الذى لا أنساه عند الوليد بن يزيد ، مررت بوادى القرى ، ويعجبنى حب أهله للغناء .. ولا عجب فهم بين

المدينة والشام ، وانما تتردد أصداء الألحان بين هذين الموضعين !..

لقيني في وادى القرى رجل يشتهى الغناء أكثر مما يشتهى الحياة والمال والبنين !..

دنا مني وقال :

ـ فديتك !.. أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟!..

فصرخت فيه :

ـ ويلك !.. أكافر أنت أم جاهل أم مجنون ؟! .. ألا تعلم أنني من موالى قريش ، وأمي اسمها عائشة ، وحسبك هذا فلا تكثر من السؤال !..

وأعرضت عن هذا الجاهل الأحمق ، فتمسح بى يسأل :

ـ ماهذا الذى بين يديك من المال والكسوة ؟!..

قلت وقد ضقت به أشد الضيق :

ـ غنيت رجلا كريما فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة !..

ـ جعلني الله فداك .. فهل تمن عليّ بأن تسمعني ما أسمعته ذلك الرجل الكريم ؟!..

ـ ويلك !.. أمثلي يقال له هذا في الطريق ؟!.. ثم تجعل نفسك نداً للعظماء فتطلب سماع ما أسمعتهم ؟!

وحركت بغلتي لأنصرف ، فعدا الرجل خلفي حتى لحقني عند بعض البيوت ، فدخلت البيت ـ ولى فيه صديق ـ ومكثت طويلا لا أدعو الرجل حتى يضجر فينصرف ، فلما أعياني طول صبره على الانتظار أمرت غلامي بإدخاله ..

قال متوسلا

ـ ياسيدى أنا رجل من وادى القرى اشتهى هذا الغناء !..

قلت :

ـ هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟!..

ـ وماذاك ؟!

ـ مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك فتطعمهم وتكسوهم وتسرهم !..

أطرق الرجل قليلا ثم قال :

ـ جعلت فداءك .. والله إن لى لبنية مافى أذنها ـ علم الله ـ حلقة من الصفيح

فضلا عن الذهب !.. وان لى زوجة ماعليها ـ يشهد الله ـ قميص !.. ولو أعطيتنى جميع ما تملك على حالتى هذه من الفقر ، ثم ضاعفت لى العطاء ، لكان غناؤك أحب إلىّ وأعجب !.

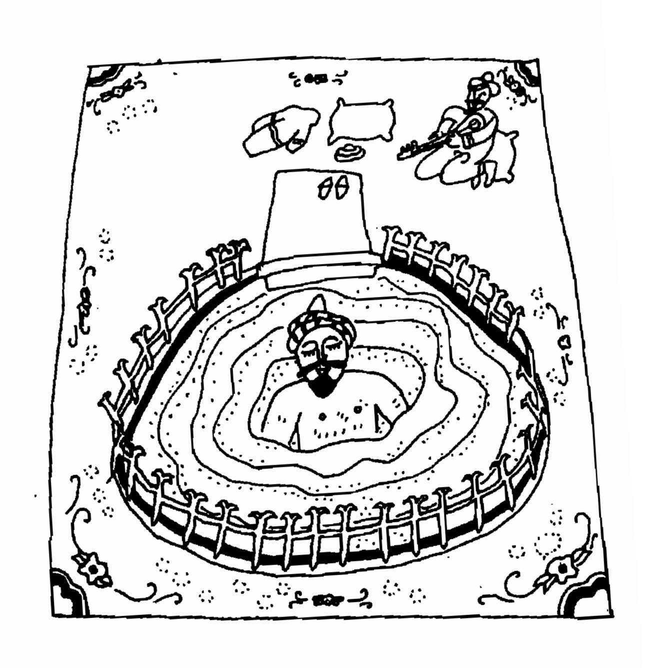
فتعجبت من الرجل أشد العجب ، ودخلتنى الرحمة به ولم يكن معى عود ، فدعوت بداوة أنقر عليها بقضيب وغنيته فطرب طربا شديدا ، وجعل يحرك جسده ورأسه بعنف شديد حتى أوشك رأسه أن يطير !..

ومازلت أغنيه متطوعا غير باخل عليه ـ وأنا الذى أتيه حتى على السلطان وأبخل على السادة ـ حتى هدأ وهمد من فرط الطرب وظننت أنه يهمد حتى يموت !..

ولا أدرى كيف بلغ خبر هذا الرجل معى إلى الوليد بن يزيد ، فأحضره مجلسه ، ووصله صلة سنية ، وجعله فى ندمائه ، وأقامه ساقيا يدور على الندامى !

علمت ذلك فقلت فى نفسى : « والله لأغنين فى زيارتى القادمة للوليد ، غناءً لم يسمع أحد مثله من قبل ، حتى أرى مايكون من شأنه ونديمه الساقى الطروب حين يستبد بهما الطرب ، فكلاهما أطرب من صاحبه ، ولو كان لهذا الساقى سلطان كسلطان الوليد بن يزيد مافعل أكثر مما يفعل بل لعله كان يفىء إلى شىء من العقل بعد نشوة الطرب !..

# سقـــوط الفســاد



## ● اليوم الأول

قال لى أحد أصدقائى : يا أبا هارون .. لماذا أختار لك أبوك اسم « عَطَرَّد » ؟ ! .. قلت : هو اسم من الأسماء لايقدم ولايؤخر ، وما أنا إلا رجل من الموالى نشأت فى المدينة المنورة ، مولى للأنصار .. لاحرفة لى إلا الغناء ، وإنها لحرفة كاسدة فى هذا الزمان إلا إذا اصطفانى الخليفة أو أحد الأمراء ، ومتى يجود علينا الدهر بتحقيق هذه الأمنية ؟ !

قال لى

ـ والله إنك لحسن السمت ، جيد الغناء ، طيب الصوت ، جميل المروءة .. فقيه ، قارىء للقرآن .. فمن يجتمع له مثلك كل هذا ثم لايجد فى الحياة مجالا ؟ ! .

فبينما نحن نتحدث فى هذا وفى غيره من الأمور ، دق بابى جماعة من أهل النعمة ، فخرجت إليهم ، فقال أحدهم

إنى قصدت إليك من أهلى .
فى حالة يأتى لها مثلى

قلت له :

ـ وماحاجتك أصلحك الله ؟ ! ..

قال :

لا طالبا شيئا إليك سوى
« حى الحمول بجانب العزل » .

فقلت :

ـ انزلوا على بركة الله !

فلما جلسوا ، قلت لصديقى الذى كنت أحدثه :

ـ إن سادتنا هؤلاء جاءوا ليسمعوا منى لحنى فى شعر امرىء القيس .

حى الحمول بجانب العزل .
إذ لايوافق شكلها شكلى

قال صاحبى :

ـ قد تخيروا والله لحنا من أحسن ألحانك ، وإنهم ما طلبوا إلا أجود الغناء فى أجود الشعر ..

فلم أزل أغنيهم هذا اللحن ويستعيدونه حتى امتلأوا طربا ، وانصرفوا وقد تركوا لى صرة كبيرة من الدراهم ! ..

● **اليوم الثانى :**

جاءنا فى المدينة خبر وفاة الخليفة هشام بن عبدالملك واستخلاف الوليد بن يزيد بن عبدالملك ! ..

قال الناس فى المدينة : انتهت خلافة بنى أمية ، فقد كان هشام أخر عقلائهم ، تمرس بالحكم عشرين عاما ، وبسط هيبته على دولة الخلافة من الأندلس إلى الهند ، أما وقد توفاه الله ، وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، فإن شمس بنى أمية قد أذنت بالمغيب ! ..

سألت أحد الثقات من أهل العلم بالمدينة :

ـ لماذا يرى الناس أن دولة بنى أمية قد أذنت بزوال ؟ ! ...

أجاب

ـ لأن الوليد بن يزيد سيهدم بجنونه وفساده كل ماتعب فى بنائه أسلافه من بنى أمية أو بنى مروان ..

ـ وكيف ؟ ! ...

سيتلهى بالشراب والنساء والغناء عن أمور الدولة حتى يضيع مصالح الناس ويثيرهم عليه ، وإن بنى هاشم ليتحينون هذه الفرصة منذ قتل هشام بن عبدالملك شهيدهم زيد بن زين العابدين وعرضه على الناس مصلوبا على خشبة ! ... وقد كان زيد رجلا صالحا لايطعن على أبى بكر وعمر كما يفعل كثير من شيعة الطالبيين ..

طرق بابى حاكم المدينة بنفسه ! ...

كنت من قبل لا أجرؤ أن أقف فى الطريق لأرى موكبه من بعيد ! ..

قال لى متوددا

ـ إن أمير المؤمنين أعزه الله كتب يأمرنى باشخاصك إليه فى دمشق !

ثم أخرج الحاكم كتابا مختوما فأقرأنى إياه .. وقال لى والعطف ملء نبراته :

ـ تجهز للسفر من الغد على بركة الله ! ..

زودنى الرجل بنفقة طيبة ، وأمر أتباعه أن يحملونى على ألين محمل فوق بعير فاره حسن المنظر ، ويسيروا فى خدمتى حتى أبلغ باب الخليفة فى عاصمته ! ..

فى الطريق من المدينة الى وادى القرى الى الشام ... كنت أقول لنفسى : كنا فى أيام هشام نخاف من السجن ، إذ كان عماله يأخذون المغنين فيحبسونهم ويعاقبونهم ، ويسمونهم بالمخنثين ، وهانحن هؤلاء نرفع رءوسنا ونقصد دار الخلافة معززين مكرمين ! ..

## ● اليوم الثالث :

دخلت على الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وفى ذهنى سيرة أبيه يزيد بن عبدالملك الذى مات حزنا لموت « حبابة » المغنية الجميلة التى كانت فى حوزته

لقد سمع « حبابة » عندما كانت جارية فى المدينة ، أناس كثيرون ، أدركت بعضهم فسألتهم كيف كان غناؤها ؟ ! ... فقالوا جميعا انها كانت متوسطة ، لاتعلو ولاتسفل ، وانها كانت لاتساوى شيئا بجانب زميلتها سلامة القس ، ولكن حبابة كانت فائقة الجمال ، فذهبت بعقل يزيد بن عبدالملك ، ومات كمدا عليها حين شرقت بحبة رمان أو حبة عنب ، وماتت ! ! ... ولم يستطع أن يتسلى عنها بسلامة التى كانت هى أيضا فى حوزته ، ولا بأية جارية أخرى ! ...

نظرت متوجسا الى حيث يجلس الوليد بن يزيد ، فرأيته شابا حسن المنظر ، قد طرح هموم السلطان وراء ظهره وجلس على حافة بركة ماء صغيرة !

قال لى ولم يتركنى أسلم عليه

ـ أنت عطرد المغنى ؟ ! ... إن سلامة جارية أبى سمعت عن إحسانك فى الغناء فحدثتنى عنك ! ...

قلت وأنا أدعو فى نفسى بالخير لسلامة التى لم أرها قط والتى قاربت الآن سن الخمسين

ـ إنى خادمك يا أمير المؤمنين ، وأسأل الله أن أبلغ محبتك فيما دعوتنى إليه ! ...

قال الوليد

ـ وحدثونى عن ظرفك وجودة صناعتك ! ... ولقد كنت مشتاقا إليك يا أبا هارون ! ...

هممت بالكلام ، فقاطعنى قائلا :

ـ غننى « حى الحمول بجانب العزل » ..

فغنيته إياه ، وملأ خياشيمى وأنا أغنى نفاح عجيب يجيء من ناحية بركة الماء ! ...

لمحنى الوليد وأنا أغنى ، أشرئب إلى « البركة » أستطلع حقيقة مافيها .. فلم يتكلم حتى أتممت غنائى ، فشق ثياب وشى فاخرة كانت عليه ، وألقاها نصفين ، ورمى بنفسه فى البركة الصغيرة ، فنهل منها ماشاء ، حتى كأنى تبينت النقصان فى مائها ، فلما أخرجوه منها كان أشبه بالميت .

وجاء الخدم بغطاء فوضعوه عليه ونام ، وأخذت أنا الحلة المشقوقة وقمت فانصرفت إلى المنزل الذى أنزلنى فيه ، متعجبا مما رأيت ، مستعيذا بالله من الشيطان ! ...

## ● اليوم الرابع :

جاءنى رسول الوليد فى بكرة الصباح فأخذنى إليه ، فدخلت وقد جلس كأمس على شفير البركة ، فقال لى :

ـ ياعطرد غننى

**أيذهب عمرى هكذا لم أنل بها**
**مجالس تشفى قرح قلبى من الوجد**

**وقالوا يُداوى .. إن فى الطب راحة .**
**فعللت نفسى بالدواء فهل يُجدى ؟ !**

فغنيته هذا اللحن ، فصاح طربا ، وشق حلة وشى كانت تلتمع عليه بالذهب التماعا ، أغلى بكثير من الحلة التى شقها أمس ...

ثم ألقى نفسه فى البركة فشرب منها حتى نقصت نقصا واضحا ، وأخرجه الخدم منها ، وألقوا عليه الأغطية فنام تحتها ، فأخذت حلة الوشى الفاخرة وانصرفت ! ...

جلست فى منزلى أفكر فى هذا الذى يحدث أمامى كل يوم ... طال تفكيرى حتى طرق الباب من يستدعينى إلى الوليد فدهشت لأنى تركته منذ ساعة شبه ميت ، فكيف صحا وعاد إلى الدنيا فى ساعة واحدة ؟ ! ...

أدخلونى إليه فى بهو قد ألقيت ستوره ، وإذا به يكلمنى من وراء هذه الستور

ـ ياعطرد ! ...

ـ لبيك يا أمير المؤمنين ! ...

ـ كأنى بك الآن وقد رجعت إلى المدينة فقمت بى فى مجالسها ومحافلها وقعدت تقول دعانى أمير المؤمنين فدخلت عليه فاقترح أن أغنيه فغنيته وأطربته فشق ثيابه وفعل كذا وكذا ..

وصمت لحظة ثم قال فى صوت كالرعد :

ـ والله لئن تحركت شفتاك بشىء مما جرى فبلغنى لأضربن عنقك ! ...

وصمت ثانية ثم صاح :

ـ ياغلام ... أعطه ألف دينار ! ...

ثم قال لى بصوت خفيض :

ـ ياعطرد .. خذ هذه الدنانير وانصرف إلى المدينة ! ...

قلت متملقا أحاول أن أستزيد من عطائه :

ـ إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى تقبيل يده ، ويزودنى نظرة منه ، وأغنيه لحنا جديدا ! ...

قال وقد نفد صبره

ـ لاحاجة بى ولا بك إلى ذلك ، فانصرف ! ...

خرجت من عنده ، وأنا أوصى لسانى ألا ينطق بحرف واحد عما جرى ! ...

## ● اليوم الخامس :

لسرعان ماتنقضى الأيام ! ...

سقطت دولة الوليد بن يزيد ، وقتله بعض أقاربه بعد أن اتهموه بكل الموبقات ! ... ثم سقطت الدولة الأموية ..

وانقضى من دولة العباسيين حتى الآن ، عهد عبدالله السفاح وعهد أبى جعفر المنصور ... وهانحن هؤلاء فى عهد الخليفة محمد المهدى ! ...

دخلت على المهدى فسألنى عن الغناء وعن علمى به ، فجاذبته من ذلك طرفا ، فقال لى : أتغنى النواقيس ؟ !

ـ نعم يا أمير المؤمنين ! ...

ـ فلماذا سموها النواقيس ؟ !

ـ لأن معبدا حين لحنها جعل فيها ضربا بالعود وترجيعا بالحلق كأنهما قرع النواقيس ، فسميت كذلك ! ...

ـ فغنها إذن وأسمعنا نواقيسك ! ...

فأخذت أغنى :

**سلا دار ليلى هل تبين فتنطق**
**وأنى ترد القول بيداء سملق**

فرأيت المهدى يتحرك طربا ، وهو يتماسك احتفاظا بهيبته ووقاره ، حتى أتممت الأغنية ، فأمر لى بمال وثياب ...

لم يشرب المهدى النبيذ على غنائى ، كما يفعله بعض أهل العراق عندما يسمعون الغناء ، فرأيهم أن القليل من نبيذ التمر لايدخل فى المحرمات ، ويتعاطونه ، متعللين بكلام لأبى حنيفة رحمه الله لا أظنهم فهموه على وجهه ...

أعجبنى وقار المهدى كما أعجبنى اجتنابه النبيذ ، وتذكرت الوليد بن يزيد فى خلاعته وتضييعه لمصالح الأمة ، فقلت فى نفسى : والله لو خرجت من عند المهدى صفر اليدين بلا جائزة ولا ثياب ، ماساءنى ذلك ... ولقد خرجت من عند الوليد بن يزيد من سنين وفى يدى ألف دينار وأنا أظن أن السماء سترمينى بالحجارة ! ...

وقفت كأنى لا أريد الخروج من عند المهدى فقال لى :

ـ هل من حاجة ؟ ! ..

ـ نعم يا أمير المؤمنين ... تأمر عاملك فى المدينة أن يرفق بى ، فإنه حبسنى مرة وزعم أنى من أصحاب الملاهى الفاسدين ! ...

فضحك المهدى وأمر بكتابة أمر إلى والى المدينة بألا يأخذنى مرة أخرى فى الحبس مع الفاسدين وأصحاب الملاهى وأدعياء الغناء الذين أفسدوا الغناء كما أفسدوا سمعة المغنين ! ...

## يوميات عمر الوادى :

# المهندس المغنى



## ● اليوم الأول

اسمى ... عمر ! ...

أما « الوادىّ » ـ بتشديد الياء ـ فهو لقبى ... وكل من سكن وادى القرى بين المدينة والشام ، فلقبه « الوادىّ » ... وقد كثر المغنون من أهل هذا الوادى ، وأشهرهم بعدى حكم الوادى صاحب الأهزاج الجميلة ، وهو تلميذى ؛ أخذ عنى الغناء كما أخذه عنى كثير من الواديين ...

أبى فارسى الأصل ، اسمه داود بن زاذان ، وكان جدى من جملة أرقاء اشتراهم أحد أبناء الخليفة عثمان بن عفان ...

فى بداية شبابى اشتغلت مهندسا ... أبنى القصور الفخمة على الطراز الفارسى لأثرياء الحجاز والشام ، ثم صبوت إلى الغناء حين سمعت ابن سريج والغريض وغيرهما فى مكة ، فأخذت الصنعة وأتقنتها ، وقال الناس إن عمر الوادىّ طيب الصوت شجيه ... ولم يسبقنى الى الغناء أحد من أهل وادى القرى ...

اتصلت بالوليد بن يزيد بن عبدالملك منذ كان وليا للعهد يتحرق شوقا إلى موت عمه هشام بن عبدالملك ليتولى الخلافة من بعده ، ويفرغ للقصف والغناء والشعر واللذات ...

كان المغنون يتجنبون الغناء فى مجالس الوليد حتى لايغضبوا الخليفة هشاما ، إلا أنا فإنى كنت أغنيه ولا أبالى غضب هشام ، فأحبنى الوليد ، وكان إذا طرب لغنائى صاح :

ـ ياعمر الوادىّ ... أنت جامع لذاتى ومحيى طربى ! ...

وزادنى إكبارا فمدحنى بهذه الأبيات

**إننى فكرت فى عمــــــر**
**حين قال القول فاختلجا**
**انه للمستنيـــــر بــــــــه**
**قمر قد طَمَّـسَ السُّـرُجَـا**
**ويغنـى الشعـر ينظمــــه**
**سيـــد القـوم الـذى فلجا**
**أكمل الوادىُّ صنعتـــــه**
**فى لباب الشعر فاندمجـا**

فقلت له :

ـ أيها الأمير ... أكرمتنى بهذا الشعر ، وانما يمدح الشعراء الأمراء ، ولايمدح الأمراء الشعراء ... فوالله ما أملك من شيء أجزى به الأمير ـ جزاه الله خيرا ـ إلا أن أغنى فى شعره هذا هزجا يطربه ! ...

وصنعت الهزج وغنيته فطرب طربا شديدا ... وقال لى :

ـ إن غناءك يجمع لى اللذات كلها وإن كنت تغنى مرتجلا لاتضرب بعود ولاتعزف بمعزفة ، وقد سمعت ابن سريج ومعبدا ومالكا ، فما أنت عندى بأقل منهم فى الغناء شأنا ... وإن فيك لفطرة المغنى المطبوع وحسن ذوقه فى الغناء ... إلى جمال صوتك ! ...

● **اليوم الثانى** :

خرجت أمس قبيل الغروب أتمشى فى الطريق بين المدينة ومكة على الجادة التى يسلكها الحاج ، حتى غربت الشمس وأنا ماش ، فسمعت إنسانا يغنى غناء لم أسمع قط أحسن منه ، فى شعر لكثير عزة :

**وكنت إذا ماجئت سُعدى بأرضها**
**أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدها**
**من الخفرات البيض ود جليسها**
**إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها**
**ألا ليت شعرى بَعدنا هل تغيرتْ**
**عن العهد أم أمست كعهدى عهودها**
**إذا ذكرتها النفس جنت بذكرها**
**وريعت وحنت واستخف جليدها**
**أبيت نجيا للهموم مسهدا**
**إذا أوقدت نحوى بليل وقودها**
**فأصبحت ذا نفسين : نفس مريضة**
**من اليأس ماينفك هَمٌّ يعودها**
**ونفس إذا ماكنت وحدى تقطعت**
**كما انسل من ذات النظام فريدها**

فوقفت أسمع مشدوها لروعة الصوت واللحن والشعر ، حتى سقطت على الأرض طربا ، ورضنى حجر فى إحدى ساقى رضا مؤلما ... فقلت فى نفسى : والله لألتمسن الوصول إلى صاحب هذا الصوت ولو بذهاب عضو من أعضائى ، ولو كان الحجر قد كسر ساقى الاثنتين لزحفت إلى الصوت لأرى صاحبه ! ... حتى هبطت من المكان المرتفع الذى كنت فيه ، ومضيت أبحث عن الرجل فإذا به راعى غنم يهش عليها عائدا بها إلى دار صاحبها الذى يعمل فى خدمته ...

قلت له

ـ والله ماسمعت أحسن من غنائك ، فهلا أكرمتنى باعادته على مسمعى ؟ !

قال :

ـ والله لو كان عندى طعام لأطعمتك ، ولكنى أجعل هذا الصوت بديلا للطعام والشراب إن شئت ! ...

وغنانى الصوت حتى حفظته ، فلم أزل كلما خلوت بنفسى تذكرته فغنيته متطربا متذكرا صاحبه ... وقد أكون ساعتئذ جائعا فأشبع ، أو مستوحشا فيؤنسنى ، ولكنى ـ مع ذلك ـ أستصغر شأنى فى غنائى هذا الصوت حين أتذكر ماطربت له من غناء ذلك الرجل ! ...

وحدثت بهذا الخبر أناسا فى المدينة وسألتهم

ـ أتعرفون هذا الرجل وأين ذهب ؟ ! .

قال بعضهم

ـ لانعرفه ، وما نظنه إلا عفريتا من الجن ! ...

## ● اليوم الثالث

تولى الخلافة الوليد بن يزيد فجاءنى رسله يطلبوننى إلى قصره فى دمشق ...

دخلت وسلمت فقال لى :

ـ ياجامع لذاتى ... أترى هذا الخاتم من الياقوت الأحمر الثمين فى إصبعى ! ... أتحب أن أهبه لك ؟ ! .

قلت :

ـ نعم والله ياسيدى ! ...

قال :

ـ غن فى هذه الأبيات ، فإن أطربتنى وهبته لك

**ألا يسليك عن سلمى**
**قتير الشيب والحلم**
**وأن الشك ملتبــس**
**فلا وصل ولاصـــرم**
**فلا والله رب الناس**
**مالك عندنا ظلــم**

وكيف بظلم جاريـــة
ومنها اللين والرُّحْمُ

فتفكرت فى هزج لهذه الأبيات حتى استوى لى ، فغنيته فصاح : أحسنت والله ! ...

واستدنانى حتى وضع يده اليسرى على كتفى فاتكأ عليها والقدح فى يده اليمنى ، وقال لى :

ـ أعد هذا اللحن بأبى أنت وأمى !

فأعدته عليه فشرب القدح ، ثم شرب أقداحا أخرى حتى تعب وجلس ونزع خاتم الياقوت والحلة الموشيه الفاخرة التى كان يلبسها ، فأعطانى الخاتم والحلة ... ثم مال على جنبه منتشيا ونام ! ...

جلست لا أدرى أأنصرف أم أبقى ... حتى دخل « أبوكامل » ... خادم الخليفة ومطربه الخاص ، وهو حسن الغناء ، كثير النوادر والأضاحيك ، فجلس معى ، وقال لى لاتبرح ، فإنه سرعان مايفيق !

فلم يكد الوليد يفتح عينيه ويرانى وأبا كامل حتى قال له

ـ غن .

نام من كان خليا من ألم .
وبدائى بت ليلى لم أنم

فغناه أبوكامل ، فطرب الوليد ، وأمر له بحلة وشى وقلنسوة مطرزة بالذهب ! فملت إليه أسأله :

ـ يا أبا كامل إن هذه القلنسوة الذهبية ليست من لبسك وإنما هى من لبس الملوك وأولادهم ! ...

قال ضاحكا

ـ سوف لا أضعها على رأسى إلا من عيد إلى عيد ، فإنى سأجد فيها ريح سيدى أمير المؤمنين ! ...

ثم قال له الوليد

ـ يا أبا كامل غن :

جنبانى أذاة كل لئيم
إنه ما علمت شر نديم

فغناه فطرب وقام ينشد مدحا فى أبى كامل ، وفى معبد المغنى المدينى العظيم ... قال :

**سقيـــت أبــا كامـــل**
**من الأصفر البابلى**
**وَسَقَّيْتُهَـا معبـــدا**
**وكـل فتـى فاضــــل**
**لى المحض من ودهم**
**ويغمرهـــم نائلـــى**
**ومالامنـــى فيهــــم**
**سوى حاسد جاهل**

ونحن كذلك ، استأذن الحاجب للمغنى اسماعيل بن الهربذ ، وهو مغن مجيد ، فأذن له الوليد ... ولم يتركه يجلس حتى قال له :

ـ يا اسماعيل ... غن

**امدح الكأس ومن أعملها**
**واهج قوما قتلونا بالعطش**
**انما الكأس ربيع باكـر**
**فاذا ماغاب عنا لم نعش**

وأصل هذا اللحن لأبى كامل ... وعنه أخذه ابن الهربذ ، ولا يجيد غناءه كأبى كامل ، ولكنه غناه مجتهدا فى أدائه فطرب الوليد ، وقال له :

ـ لولا أن أباكامل معنا هنا ، لقلت إنك أحسن من يغنى هذا اللحن ! ...

ثم ضحك الوليد ، فضحكنا ـ ثلاثتنا ـ مطايبة له . فى ضحكه وسروره ، وخرج كل منا بجائزة كبيرة ، عدا ماكسانا من الثياب ، فضلا عن قلنسوة الذهب التى اقتنصها منه أبو كامل ! ...

## ● اليوم الرابع

دخلت على الوليد فاذا ستارة حمراء قد مدت واحتجب وراءها ... فسلمت فرد من خلف الستارة ، ونظرت فإذا إلى جانبى حماد الراوية ... وسمعت الوليد يقول له :

ـ ياحماد « ثم ثاروا » ...

فرأيت حمادا قد اضطرب وهو لايدرى ماذا يريد الوليد منه أن يروى من الشعر ... فسكت حماد ، فصاح الوليد :

ـ ياحماد ... ويحك « ثم ثاروا » ...

واذا بحماد يندفع فينشد

**ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت**
**قينـــة فـــى يمنهـــا إبريــــــق**

**قدمته على عقار كعين الديك**
**صفـــى سلافهـــــا الـــــراووق**
**ثم فض الختام عن حاجب الدن**
**وقامـــت لـــدى اليهـــودى ســـوق**
**فسباهـــا منـــه أشـــم عزيـز**
**أريحـــى غـــذاه عيـــش رقيـــــق**

فإذا جارية قد أخرجت كفا لطيفة من وراء الستارة تحمل قدحا ، والله ما أدرى أيهما أجمل : الكف أم القدح ، فأخذ حماد القدح ، ثم مدت كفها بقدح أخرى فتناولتها وأوشكت أن أتناول معها تلك الكف اللطيفة

وحضر أبوكامل فأمر الوليد برفع الستارة ، وغنى أبوكامل :

**ادر الكأس يمينـا**
**لاتدرهـــا ليســــار**
**اسق هذا ثم هذا**
**صاحب العود النضار**
**من كميت عتقوهـا**
**منذ دهر فى جــــرار**
**ختموها بالأفاويـة**
**وكافـــور ... وقـــار**

ثم وصل هذا الشعر فى غنائه بثلاثة أبيات ماسمعت أشد منها بعدا عما يجمل أن يقال أو يغنى فى مثل هذا المجلس ، ثم دخل « أشعب » المضحك المغنى المهذار وقد لبس سراويل من جلد قرد وله ذيل ، فرقص وأنشد شعرا وأضحك الوليد فأمر له بجائزة ! ...

وخرجت من هذا المجلس مثقلا بالهم والحزن على الوليد الذى أحببته لكرمه وفطنته فى الغناء والشعر .

وكنت والله أرجو له أن يعقل ويعى مافيه خيره وخير الناس ، ولكن مشيئة الله نافذة ... ولا أراه يبقى فى سلطانه هذا وقد ضيع مصالح الناس ! ...

وأنشدت لنفسى قول الشاعر الأفوى الأودى :

**تهدى الأمور بأهل الرشد ماصلحت**
**وان تولـــت فبالأشـــرار تنقـــاد**

وانى لأعلم أن « أشعب » الذى يضحكه ، يعود إلى أهل المدينة فيضحكهم عليه ، ويسميه « الوليد بن يزيد الخاسر » ! ...

فمن ينصح الوليد بن يزيد ، ويحذره عاقبة أمره ، ويقول له : « أتق الله ؟ !

# المغنـى والقاضـى



● **اليوم الأول :**

من مفاخرى ـ والحمد لله ـ أن قاضى « المدينة » ـ أعزه الله ـ يقبل شهادتى ! ...

إذا دعيت إلى الشهادة فى قضية ينظرها لم يرفض شهادتى ولم يطردنى من ساحة القضاء ، فأنا عنده مقبول الشهادة ، بل أنا من الشهود الصلحاء العدول المعروفين لديه بالورع والتقوى ! ... ويقول أهل المدينة : ما رأينا رجلا صالحا كثير الصلاة والصيام ، مدمنا للحج ، معدل الشهادة مثل دحمان الأشقر ! ...

صناعتى ـ أكرمكم الله ـ هى الغناء ! ... نصف وقتى أغنى فيه للناس ، ونصفه الآخر أطارح فيه الجوارى الغناء حتى يحذقن ويبيعهن سادتهن بالأموال الجليلة ! ... ولى على ذلك أجر ليس بالقليل ولا بالكثير ! ...

قضاة المدينة المنورة لايقبلون شهادة من يحترف الغناء إذا كان غناؤه مصحوبا بسلوك لايحمدونه ! ... وكان معبد ـ وهو شيخ المغنين فى المدينة ـ مقبول الشهادة ... ثم عاشر الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك فى مباذله بالشام ، حتى بلغت أخباره قضاة المدينة فسقطت عندهم عدالته فى الشهادة ، مع أن معبدا لم يدخل مع ذلك الرجل فى محظور ، لكنه عاشره وغنى له وقبض جوائزه ، فلما عاد إلى المدينة قيل له بصراحة : يامعبد ... لم يبق فى المدينة قاض إلا ويراك الآن شاهد زور ، لمخالطتك الوليد بن يزيد ! ... فكاد معبد يفقد عقله ، وقال : يامعشر الناس ... ترفضون شهادتى لأنى غنيت لذلك الرجل ؟ ! ... فهل تقبلون شهادته هو ؟ ! ...

فالحمد لله الذى جعلنى أفضل حالا من عظيم المغنين « معبد » ... وقد كان والله رجلا صالحا طيبا ... لولا تلك الهنات الهينات التى أخذوها عليه ، وكان فيها مغلوبا على أمره .

أمس دعيت إلى الشهادة عند قاضى المدينة فى قضية أقامها رجل من أهل الكوفة على رجل من المدينة ، وكان الحق مع المدينى لا مع الكوفى ، ولايشك العراقى فى أنى أشهد بالحق الذى أعرفه فى هذه القضية ...

فلما وقف الخصمان بين يدى القاضى ، وترافعا إليه بالدعوى ، قمت فشهدت بالحق فيما علمت من أمر الرجلين فى دعواهما ، فوثب الكوفى ـ وهو يعلم أنى أشهد بالحق ـ فقال للقاضى :

ـ أصلحك الله أيها القاضى ... أتعرف من هذا ؟ ! ... إنه دحمان المغنى ! ...

قال القاضى :

ـ أعرفه      فما تقول عنه ؟ !

ـ إنه يغنى ويعلم الجوارى الغناء ! ..

قال القاضى للرجل

ـ يغفر الله لنا ولك ! ... وأينا لايتغنى ؟ ! ...

وتفكر القاضى لحظة ثم قال للرجل :

ـ قد علمت أنك لم تطعن فى شهادة دحمان لغنائه ، بل لكونك ظالما خصمك ، موقنا بأن دحمان لايمالئك ولايقف لك عندى شاهد زور ، فاخرج أيها الرجل عن حق خصمك وقم بتأديته الساعة إليه كاملا غير منقوص ! ...

فكنت ـ والحمد لله ـ سببا فى سقوط دعوى ذلك الظالم ، وعودة الحق إلى صاحبه ! ...

## ● اليوم الثانى

الغناء لايكفينى ومن أعول من أهلى الكثيرين ، وليس لى رحلات إلى دمشق كرحلات معبد وغيره من كبار المغنين إلا فى الندرة ، ومافزت من أحد هناك بشىء أغنانى ..

لهذا اهتممت بحرفتى التى نشأت فيها ... فأنا رجل أمتلك خمسة عشر جملا أكريها إلى المواضع والبلاد التى يقصدها الناس ، وأدخل فى التجارة على قدر طاقتى ، بائعا مشتريا متكسبا ، أتسبب وأطلب الرزق ، فيرزقنى الله من حيث لا أحتسب ، وأحمد الله على تمكينه أياى من فعل الخير والتحلى بالمروءة فى ثرائى وافتقارى ! ...

أمس كنت أمر بقافلتى الصغيرة على بلد ، فإذا جارية خرجت من بيت ، فقلت لها : أيبيعك سادتك لى ؟ ! ...

قالت

ـ أنا مملوكة لسيدة من قريش ! ...

ثم دخلت البيت فقالت لسيدتها : هذا انسان يشترينى ياسيدتى ! ..

قالت السيدة :

ـ أئذنى له ...

فلما دخلت عندها قالت لى بكبرياء :

ـ ياهذا ... أنت رجل تكرى الجمال فمن أين لك ثمن جارية كهذه وهى مغنية بارعة وقد سامنى فيها منذ أيام رجل من قريش ، حتى استقر ثمنها على مائة وخمسين دينارا فلم أقبل ورددته ، وهو وأنا من قريش ، لا من الموالى أمثالك !

قلت لها

ـ ياسيدتى أنا أبلغ بثمنها مائتى دينار ! ...

فقبلت وأخذت منى المال وانصرفت أنا والجارية ، فى طريقى إلى الشام ، فبينما كنا نستريح يوما فى الظل ، أخذت ألقى عليها لحنا لى حتى حفظته ، وطلع علينا راكب فقال : أتأذنون لى أن أنزل ساعة تحت ظلكم هذا ؟ !

فأنزلناه وأطعمناه وأسقيناه وغنيناه أنا والجارية حتى تملكه أشد الطرب ، فقال لى :

ـ أتبيعنى هذه الجارية ؟ !

قلت له كالعابث :

ـ ثمنها عشرة آلاف دينار ! ...

فأعطانى المال وأنا مشدوه يكاد الجنون يستلب عقلى ، فإنى ربحت تسعة آلاف وثمانمائة دينار فى هذه الجارية ولم أتعب فى تعليمها ولا نالنى منها غرم فى شىء ! ...

فلما انقضى زمن أقبل رسل من عند الخليفة الوليد بن يزيد فقالوا

ـ أجب أمير المؤمنين ! ...

فقلت فى نفسى

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ! .... لن يقبل قاضى المدينة شهادتى فى محكمته بعد اليوم ! ...

وعجبت أن يذكر الخليفة اسمى ويطلبنى وأنا لم أغنه من قبل !

فلما مثلت بين يديه ، رأيت عنده جاريتى التى بعتها بعشرة ألاف دينار ، فعلمت أنه صاحبها وأنها قد حدثته عنى ! ...

قال لى

ـ كنت أظن أنى لم أسمع غناءك حتى أخبرتنى الجارية أنك أنت الذى بعتنى إياها وغنيتنى فى ظل تلك الشجرة فى ذلك اليوم ! ...

أقمت عنده أياما قصارا ، غنيته فيها ، ثم شغلته الحوادث الجسام التى أودت بحياته ومملكته فعدت مسرعا إلى المدينة ، أحلف للناس أنى ماشاركته فاحشة قط ... فصدقونى والحمد لله ! ...

## ● اليوم الثالث

عشت حتى رأيت نهاية دولة الوليد بن يزيد ودولة الأمويين كلها من بعده كانت رذائله وحماقاته إرهاصا بزوالها ! ...

عشت بداية خلافة بنى العباس ، لم أغن للخليفة الأول منهم « عبدالله السفاح » ولا للخليفة الثانى « أبى جعفر المنصور » ... وكلاهما كان مشغولا بتدعيم الدولة فى نشأتها .

ثم مضت على ذلك خمس وعشرون سنة حتى شابت مفارقى ولحيتى فصبغتها بالحناء ، وانطويت على مهنتى القديمة أرتزق من الإبل ، ذاهبة جائية من المدينة وإلى المدينة ... وقال الناس : قد نسى دحمان الغناء ! ... وغرهم سكوتى ، ووالله لو نسيت اسمى مانسيت الغناء ، فإنه ليجرى مع دمى فى عروقى ! ...

مات الخليفة أبوجعفر المنصور ، وكان مشهورا بالبخل الشديد ، فاستدعانى ابنه الخليفة الجديد محمد المهدى ، فقلت فى نفسى : ان من أعظم البلاء أن أجد هذا الخليفة الجديد على أخلاق أبيه الذى كان لايعطى أحدا درهما إلا بعد تدقيق شديد ... وقد غناه أو حدا به مرة أحد المغنين فأعطاه درهما واحدا ثم استرده منه ! ...

حاولت أن أتخلف عن دعوة الخليفة ، فقلت لرجاله الذين جاءوا يستدعوننى إنى تركت الغناء من زمن وشغلتنى التجارة وهذه البعران التى أكريها وأرتزق منها ...

قالوا

ـ لابد من الإجابة ! ...

فلما دخلت على المهدى ... قال لى :

ـ أنت تلميذ معبد صاحب الألحان الرنانة التى يسمونها النواقيس ؟ ! ...

ـ نعم يا أمير المؤمنين ...

ـ فقد قيل لنا إنك من أحذق تلاميذه الباقين الآن فغننا من أحسن غنائك !

فتفكرت لحظة لطول انقطاعى عن الغناء ثم ضربت بالعود واستجمعت نبرات حنجرتى وغنيته فى شعر الأحوص :

**سرى ذا الهم بل طرقا**
**فبــت مسهــدا قلقـــا**
**كــــذاك الحــــب ممــا**
**يحدث التسهيد والأرقـا**
**قَطُوف المشى إذ تمشى**
**ترى فى مشيها خرقـــا**
**وتثقلهـــا عجيزتهــــا**
**إذا ولـــت لتنطلقــــا**

فاستخفه الطرب حتى قال لى :

ـ سلنى ماشئت ! ...

قلت وانا بين الطمع والخوف :

ـ ضيعتان بالمدينة يقال لهما « ريان » و« غالب » ! .

فأمر المهدى بإقطاعى إياهما وكتب توقيعا بذلك ، فلما خرجت الرقعة بالتوقيع إلى الوزير ، هاله الأمر ، فدخل فقال للخليفة :

ـ يا أمير المؤمنين ... إن هاتين الضيعتين لم يملكهما قط إلا خليفة ... وقد حاول بعض أبناء خلفاء بنى أمية أن يملكوهما فلم يستطيعوا ، فكيف تعطيهما جائزة لمغن ؟ ! » ...

قال المهدى متفكرا

ـ قد أمرت له بهما ولا أرجع فيهما إلا بعد أن يرضى ، فصالحوه عنهما بما يرضيه من المال ! ...

فصالحنى الوزير عن الضيعتين بخمسين ألف دينار ، وخرجت من الصفقة مغبونا ، فإن الضيعة الواحدة منهما تساوى مائة ألف ! ...

## ● اليوم الرابع

عشت طويلا ! ... عاصرت سبعة خلفاء من بنى أمية وها انذا فى آخر عهد المهدى الخليفة الثالث من بنى العباس ...

ضعف صوتى ، فمن يسمعنى الآن لايعرف كم كان جميلا صوتى وقويا فى شبابى ، وإلى سنوات قلائل مضت ! ...

سمعنى أمس ابراهيم الموصلى المغنى الشاب المشهور ، فسئل عن رأيه فيما سمع من غنائى فأجاب

ـ لو كان دحمان عبدا ما اشتريته على غنائه بأربعمائة درهم ! ...

فحزنت لهذا الرأى حزنا شديدا ، لأنه رأى صحيح ، لم يتحامل فيه الموصلى على غنائى ولا على نبرات صوتى التي ذهبت الأيام بأجمل وأقوى مافيها ... ولكن ابنى « الزبير ورث جمال صوتى القديم واظنه سيكون صاحب شأن فى هذه الصناعة ، وكذلك ابنى الآخر « عبدالله » . وقد علمت أن الموصلى يفضل « الزبير » على أخيه « عبدالله » تفضيلا شديدا ، ويقول :

ـ الزبير بن دحمان ، أفضل فى الغناء وحلاوة النبرات من أبيه وأخيه ! ...

ذكرت شبابى وحياتى فى الحجاز ، فتشوقت إلى تهامة وإلى البادية ، مع ثرائى وطيب ثوائى فى بغداد ، فرفعت صوتى أغنى فى شعر لحسان بن ثابت يذكر فيه إحدى حبائبه فى شبابه :

**أسكن البدو ما أقمت ببدو**

**فإذا ماحضرت طاب الحضور**

**أى عيش ألذه لست فيـــه**
**أو ترى نعمة به وســـــــرور**

فإذا ولدى الزبير وأخوه عبدالله يقفان على رأسى يسمعان الصوت ويأخذانه عنى .

فلما شعرت بهما قطعت الغناء ، وقلت لهما :

ـ انما أتسلى بمراجعة الماضى ! ... وقد حدثنى من سمع هذا اللحن من صاحبه ابن مسجح شيخ الغناء المتقن الأول ، أن الطير كانت تقف على شجرة قريبة منه إذا غناه ، لاتزقزق ولا تتحرك ، فإذا فرغ من غنائه عادت تتحرك وتزقزق وقد استطارها الحبور ! ...

## يوميات الزبير بن دحمان :

# الغناء في الصحراء



● **اليوم الأول** :

لما تلقينا الأمر من والى « المدينة » ـ أنا وأخى ـ بالسفر إلى بغداد ، تذكرت أبى ـ رحمه الله ـ وقلت فى نفسى : لولا أن أبى كان مشهورا بالغناء عند الخلفاء والكبراء فى بغداد ، لما أرسلوا يطلبوننى أنا وأخى لنملأ مكانه عندهم ، وقد علموا أننا نغنى ونضرب بالعود ونروى الغناء الذى كان يرويه أبى عن أستاذه الكبير « **معبد** » ! ...

كان أبى يلقب « دحمان » ... واسمه عبدالرحمن بن عمرو ، وأصلنا من الموالى ، وسكنانا فى « المدينة » ... وأبى ـ مع شهرته بالغناء ـ كان رجلا صالحا كثير الصلاة ، مقبول الشهادة عند القضاة ، مدمنا للحج ، وكثيرا ماكان يقول مارأيت باطلا أشبه بحق من الغناء ! ...

قال لى أخى ونحن فى طريقنا إلى بغداد

ـ يازبير ... أترانا نفوز بطائل من الخليفة والكبراء ، وعندهم إبراهيم الموصلى وابن جامع ويحيى المكى ، فضلا عن إبراهيم بن المهدى وهو أخو الخليفة ، وصوته أجمل الأصوات ؟ ! ...

قلت لأخى

ـ ياعبيد الله ... إن أبانا ـ رحمه الله ـ كان يجد مكانا عند الخليفة المهدى ، قبل أن يتولى الخلافة ابنه موسى الهادى ، ثم هارون الرشيد ، وقد أخبرنى الثقات أن الرشيد بصير بجيد الغناء ... وعندنا من الغناء الجيد مايعجب الخليفة إن شاء الله !

وقفنا على باب قصر الخليفة فى بغداد فقيل لنا :

ـ من أنتما ؟ ! ...

قلت

ـ هذا عبيد الله بن دحمان ، وأنا أخوه الزبير بن دحمان ، ابنا دحمان الأشقر المغنى الذى عرفتموه قديما ! ...

رحبوا بنا وأدخلونا من فورهم إلى القصر ، واستأذنوا لنا ، فوقفنا فى حضرة الرشيد ، ومجلس الغناء منعقد هناك ، وفيه ابن جامع وإبراهيم الموصلى وابنه اسحاق وإبراهيم بن المهدى وآخرون

فلما أمرنا الرشيد بالجلوس ، كان مجلسنا بجنب إبراهيم الموصلى وابنه ،

فسمعت اسحاق يهمس لأبيه :

ـ يا أبت ، إن الزبير أفضل من أخيه فى الغناء !

ـ وكيف تحكم بهذا وأنت لم تسمع شيئا منهما بعد ؟ !

ـ عرفت هذا بالظن والتخيل والفراسة ! ...

ـ ننظر فى فراستك يا اسحاق ! ...

ثم غنى أخى عبيد الله ، وغنيت بعده ، فسمعت اسحاق يقول لأبيه

ـ قد بان الآن فضل الزبير على أخيه وصحت فراستى ! ...

كان المغنون فى تلك الأيام حزبين : حزب إبراهيم الموصلى ، وحزب ابن جامع وإبراهيم بن المهدى ، فمال أخى إلى حزب ابن جامع وابن المهدى ، وملت أنا إلى حزب إبراهيم الموصلى لما رأيته من إعجابه بى ، وتقريظه لى ، ولما ثبت لى من فضله فى صناعة الغناء على جميع أهلها !

وكان ميل أخى إلى جنبة ابن جامع وابن المهدى ، ميلا شديدا فكرهه الموصلى وابنه اسحاق وأنكرا فضله فى الصناعة ، وحكما ـ بغير حق ـ أنه متخلف عنى ، حتى قال اسحاق بن إبراهيم الموصلى

ـ لو كان عبيد الله بن دحمان مملوكا يباع ويشترى ماطابت نفسى على أن أشتريه بأكثر من عشرين دينارا ... أما أخوه الزبير ، فلو كان مملوكا لاشتريته بعشرين ألف دينار ! ...

## ● اليوم الثانى :

لم أكد أحضر الليلة الأولى فى مجلس الرشيد ، حتى تجهز فى الصباح للخروج بالجيش إلى « الرى » فى بلاد فارس لمحاربة بندار هرمز ، فأقمنا فى منظرة لإبراهيم الموصلى على الطريق ، نظيفة الفرش ، طيبة الهواء واسعة ، فلما انقضت مدة الحرب ، وعاد الرشيد ظافرا ، قال الشعراء فى ذلك أشعارا كثيرة ، تخيرت منها هذا الشعر لأبى العتاهية ولحنته وغنيته فى أول مجلس للغناء فى القصر بعد عودة الرشيد

**ألا إن حزب الله ليس بمعجز**
**وأنصاره فى منعة المتحرز**
**أبى الله أن يعصى لهارون أمره**
**وذلت له طوعا يد المتعزز**
**أطاعت لهارون العداة لدى الوغى**
**وكبر للاسلام بندار هرمز**

فاستحسن الرشيد اللحن ، وأمر لى بألف دينار ... وغنى بعدى المغنون وأجازهم ، ثم تغنيت صوتا ثانيا :

وأحور كالغصن يشفى السقام
ويحكى الغزال إذا مارنا
شربت المدام على وجهه
وعاطيته الكأس حتى انثنى
وقلت مديحا أرجى به
من الأجر حظا ونيل الغنى
وأعنى بذاك الامام الذى
به الله أعطى العباد المنى

فما فرغت من الصوت حتى أمر لى بألف دينار ثانية ... واستظرفنى وصرت خفيفا على قلبه ! ...

فلما انتهت السهرة استبقانى الرشيد واستبقى إبراهيم الموصلى ، فغنيناه عدة ألحان ، فطرب وامتلأ سرورا ، ثم قال للموصلى وكأنه يتفكه

ـ يا إبراهيم ... ماتقول فى الزبير بن دحمان ، وفى أخيه ، وفى أبيه ؟ ! ...

قال الموصلى :

ـ أما الزبير فمن أحسن من عرفت عقلا ودينا ونبلا وأدبا وسكونا ووقارا ، وكان أبوه قبله كذلك ... ولكن أباه ماكان يساوى على الغناء أربعمائة درهم ، وكذلك ابنه عبيدالله ، أما الزبير فقد أجازه أمير المؤمنين فى ليلتنا هذه بألفى دينار ، وهو مستحق للجائزة ! ...

هممت أن أتكلم ذيادا عن أبى وأخى ، فضحك الرشيد وقال :

ـ يازبير ... إن إبراهيم صديقك ، وهو غير جاد فيما يقوله عن أبيك وأخيك ! ...

## ● اليوم الثالث :

أغنتنى جوائز الرشيد فى مدة يسيرة من الأيام ، فأقمت ببغداد ، وأرسلت إلى حرمى وأولادى فجاءوا من المدينة وأقاموا بالدار الواسعة الجميلة التى اشتريتها ، وصرت دائم الحضور لمجالس الغناء فى القصر ، واشتد احترام المغنين لى ، لاينادوننى إلا بكنيتى .. حتى إبراهيم الموصلى وابنه يقولان لى : يا أبا العوام ، ولا يقولان : يازبير ...

نحن الآن فى مدينة « الرقة » بالشام ، بصحبة أمير المؤمنين ، وهو يحب هذه المدينة ويستطيب هواءها ، ويخرج الى ظهرها للصيد ، ويقضى أيامه فيها هانئا سعيدا فيطول به وبنا المقام هناك حتى يهتاجنا الشوق إلى بغداد والعراق ..

طالت أيامنا بالرقة ، فتشوقت إلى بغداد ، وذكرت ذلك لاسحاق الموصلى ، فانبعث شوقه الى بغداد وطيبها وأهله بها وإخوانه وأولاده ، وعرض له الهم والفكر حتى بكى وأبكانى ، ونظم هذه الأبيات ، يخاطبنى فى مطلعها بكنيتى

**أسعد بدمعك يا أبا العوام**
**صبا صريع هوى ونضو سقام**
**لم يبد مافى الصدر إلا أنه**
**حيا العراق وأهله بســـــلام**
**ودعـــاه داع للهوى فأجابــه**
**شوقــا إليــه وقــاده بزمــام**

وصنع اسحاق فى أبياته هذه لحنا ، وغناه فى مجلس الرشيد ، فقال له :

ـ تشوقت والله يااسحاق ، وشوقت ، وبلغت ما أردت ! ...

وأمر له بثلاثين ألف درهم ! ...

وأمر لى بعشرين ألفا ! ...

ثم أمر بالرحيل إلى بغداد ! ....

وأرحنا فى الطريق ...

فخرجنا إلى صحراء الرقة ـ أنا واسحاق ـ وليس معنا أحد ، فتمشينا وتحدثنا وأكلنا ماحملناه معنا من طعام ، ثم جلسنا فغنى اسحاق لحن أبيه فى شعر أبى العتاهية :

**أشاقك من أرض العراق طلول**
**تحمــل منهــا جيــرة وحمول ؟ !**
**وكيف ألذ العيش بعد معاشـر**
**بهم كنــت عند النائبــات أصــول**

فقلت له :

ـ أنت الأستاذ وابن الأستاذ السيد ، وقد أخذت عن أبيك هذا اللحن كما أخذته أنت ، ولكنى أغنيه أحسن ، فقال :

ـ والله انى لا أحب أن يكون ذلك كذلك ! ...

فغضبت وقلت :

ـ فأنا والله أحسن غناء منك ! ...

وتلاحينا طويلا حتى كدنا نتشابك بالأيدى ، فقال لى اسحاق

ـ أترضى فى الحكم بأول من يطلع علينا فى هذا الطريق من الناس ؟ !

فطلع علينا رجل حبشى الخلقة يحمل فأسا ، وإذا هو أجير ممن يفلحون الحقول ، فحدثناه بالقصة ، واندفعت فغنيت اللحن ، فطرب الحبشى وحرك رأسه ، وأظهر فهما وتذوقا عجيبا للغناء ، وتكلم فإذا هو من أفصح الناس

ثم غنى اسحاق اللحن ، فصار الحبشى يتأمله وهو يغنى وتتسع عيناه دهشة حتى صاح فى وجه اسحاق

ـ أى شيطان أنت ؟ ! ...

فما أذكر أن اسحاق الموصلى ضحك مثل ضحكه يومئذ ، فضحكت أيضا ، ولكن ضحك اللامبالاة والتسليم لا ضحك الظفر والاعجاب بالنفس !

ثم قلت لاسحاق :

ـ جعلنى الله فداءك ... أين أنا منك ، وأنت أنت ... وإنما أنا وأمثالى أخذون هذه الصناعة من أبيك ومنك ! ...

قال لى

ـ فما عندك لهذا الرجل الطروب الصحيح التمييز فى الغناء ؟ !

أفرغت ماعندى من دراهم وأفرغ اسحاق ماعنده فى حجر الرجل ... فنهض فانتثر مافى حجره من المال ودخل فى الرمال ، ولم يلتفت إلى درهم ، ومضى يحمل فأسه ليفلح الأرض التى يزرعها ! ...

## ● اليوم الرابع

غضب الرشيد على زوجته زبيدة ، وغضبت هى منه ، لأمر من الأمور التى تعرض للسادة والسيدات فى القصور العالية ، فأرق الرشيد ليلته وأمر ففرشوا له سريرا فى شرفة بالقصر فوق نهر دجلة ، فقعد ينظر فى النهر يتلألأ بالأضواء المنبعثة من القصور القائمة على شاطئيه ، وقد زاد فيه الماء زيادة عجيبة

وكنت فى تلك الليلة مدعوا للغناء فى قصر لبعض الكبراء قريب من قصر الرشيد ، فرفعت صوتى فى سكون الليل أغنى فى شعر العباس بن الأحنف :

**جرى السيل فاستبكانى السيل اذ جرى**
**وفاضت له من مقلتى غروب**
**وماذاك الا حيـــن خبـــرت أنـــه**
**يمـــر بـــواد أنت منه قريـــب**
**يكون أجاجا ماؤه فإذا انتهـــى**
**إليكـــم تلقى طيبكم فيطيـــب**

فقال الرشيد لمن حوله

ـ هذا غناء الزبير بن دحمان ، وهذه نبرات صوته لايخطئها سمعى ، فابعثوا إليه ! ...

فلما وقفت بين يديه سألنى عن قائل الشعر ، فقلت : هو العباس بن الأحنف ، فأحضره واستنشده هذه القصيدة وغيرها ، فجعل العباس ينشد وأنا أغنى ، والرشيد يستعيدنا حتى طلع الصبح ، فأجازنا بمال عظيم ، وقام فدخل إلى زبيدة ، فرضى عنها ورضيت عنه ! ... وعرفت زبيدة أنني والعباس بن الأحنف كنا سبب رضا الرشيد عنها ، فأرسلت إلى كل منا ألف دينار ! ...

صحبنى العباس بن الأحنف هذا اليوم وقال لى

ـ والله لا أدعك حتى تغنى لى فى شعر الأحوص لحنا كان يغنيه أبوك ، وسمعته من بعض المغنين :

**وإني لآتى البيت ما إن أحبه**
**وأكثر هجر البيت وهو حبيب**
**واغضى على أشياء منكم تسوءنى**
**وأدعى إلى ماسركم فاجيب**
**وأحبس عنك النفس والنفس صبة**
**بقربك والممشى إليك قريب**

فغنيته اللحن على وجهه الصحيح ، وجودت فى أدائه ، فصاح العباس طربا ، ولطم خديه ، وبكى ، فسألته عما حرك فيه هذا الغناء من الوجد والشجن ، فقال

ـ أنا والله هذا المحب الذى يحبس نفسه عمن أحبه !

فبقيت عنده حتى سكنت نفسه ، وسليته بحكايات ، وغنيته أهزاجا خفيفة ... وعرفت منذئذ أن العباس بن الأحنف هو أعشق الناس ، وأشد الناس اكتواء بلهيب الحب والهجران ! ...

## يوميات ابن جامع :

# مطرب من قريش



● **اليوم الأول :**

صحوت قبل الفجر بساعة ... توضأت وخرجت من بيتى مسرعا إلى أقرب مسجد ، وما أكثر المساجد فى بغداد ... جلست فى ركن من المسجد أتلو لنفسى القرآن الكريم بصوت هامس حتى تحين الصلاة .. قمت إلى الصلاة وقد قرأت قرآنا كثيرا .

تلك عادتى كل يوم ، إلا يوم الجمعة ، فإنى لا أبرح المسجد بعد الفجر ولا بعد الشروق ولافى الضحى ، بل أجلس فى مكانى من الفجر إلى الظهر أتلو القرآن لنفسى حتى أختمه كله ، فإذا أديت صلاة الجمعة انصرفت قرير العين بما قرأت وبما صليت ..

أعود إلى بيتى فأنام إلى صلاة العصر ، فإذا قضيتها ، قمت أستجمع همتى ، وأجمع أدواتى وآلاتى لعملى كل ليلة فى قصر الخليفة هارون الرشيد ، أو فى قصر أحد عظماء الدولة ...

صوتى ـ والحمد لله على نعمائه ـ أجمل الأصوات ، وأحلاها جميعا ، يشبهون حلاوته بعسل النحل ... لاينافسنى مطرب آخر فى جمال الصوت وحلاوته ، أما براعة التلحين فينافسنى فيها إبراهيم الموصلى وابنه اسحاق ... كلاهما بارع فى الصنعة ، ولا أعرف أحدا يقاربهما فى العلم بالغناء ..

إن إبراهيم الموصلى هو صديقى وأخى فى الفن ، وليس صوته بمكتمل الجمال ، وإن عيوب حنجرته لكثيرة ، ولكنه يداريها بجودة ألحانه ، وحسن أدائه ، واكتمال معرفته بصناعة الغناء ، أما أنا فإن صوتى هو سلاحى الأول فى معركتى التى أخوضها كل ليلة ضد المغنين فى سهرات الرشيد وغيرها من سهرات صفوة بنى هاشم وأرباب السيوف والأقلام فى بغداد من عرب وعجم ! ..

اسمى اسماعيل بن جامع ... لست بفارسى ولا نبطى ولا رومى ، وهذا مايثير حسد أهل صناعتى الذين ينحدرون جميعا من أصول عجمية .

لم يكن أبى حائكا ولاحجاما ولا بيطارا ولا خزافا ولا صاحب حرفة من هذه الحرف التى يرتزق بها سوقة الأعاجم والموالى الذين تغص بهم بغداد ، فهم طبقتها الدنيا ، وهم الخدم والأرقاء والشطار وقاطعو الطرقات ليلا ونهارا ..

أنا ولافخر عربى قرشى الأب والأم .. مات أبى وأنا رضيع فلم أره ولا أعرف عنه شيئاً ، فلما كبرت قليلا تزوجت أمى برجل من اليمن وهى يومئذ أرملة جميلة

صغيرة ، أما زوجها الذى مازلت أتذكره ، فكان كهلا دميما ، من حشوة الناس ، فلم تصبر على الحياة معه فى بلده ، وتشوقت إلى أهلها فى مكة ، فذهبت إلى أمير اليمن حينذاك تطلب الطلاق من هذا الزوج الذى نكبتها به الأقدار ، فقال لها حاجب الأمير : تعالى غدا تجدى الأمير جالسا للمظالم فاعرضى عليه قصتك ! ...

عادت أمى إلى بيتها وأنا فى أثرها ممسك بذيلها ، وألقت على زوجها الراقد فى البيت نظرة ، ثم قالت له :

ـ موعدنا غدا فى مجلس الأمير لتطلقنى .

قال زوجها معاندا

ـ بل تقيمين فى بيتى ولا أطلقك أبدا .. لن تبرحى صنعاء ولن ترى مكة مادمت حيا ..

فلما جلس الأمير « معن بن زائدة » أمير اليمن لينظر فى المظالم ، رفعت إليه أمى قصتها وقالت له

ـ إن عمى فى مكة قد زوجنى هذا الرجل وليس بكفء لى ، فإنى من قريش رهط النبى صلى الله عليه وسلم .. ففرق أيها الأمير أصلحك الله بينى وبين هذا الزوج !

قال الأمير لزوجها :

ـ أيها الرجل ... خل سبيلها ... فلست لها بكفء ! ...

طلقها الرجل ، وأمر لها الأمير الكريم بمائتى دينار ، نفقة تتجهز بها إلى مكة ...

● **اليوم الثانى :**

المغنون الآن ـ وأنا الآن أكثرهم قبولا عند الخليفة وعند الوجهاء والكبراء ـ يستخفون بنسبى وحسبى ، ويقول لى السفهاء منهم :

ـ ما أنت إلا من شحاذى بنى سهم ، ولاينفعك أن يكون بنو سهم من صميم قريش ... ولئن صرت الآن غنيا تملك ألوف الألوف من الدراهم والدنانير ، إنك لعار على قريش ، لأنك إنما اكتسبت الثراء بالغناء وضرب العود ، فلا فرق بينك وبين المغنين والضاربين والزامرين من الموالى ! ..

فأقول لهم :

ـ وهل مس العار إبراهيم بن المهدى وقد اشتهر بالغناء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة ... وأخو خليفتنا هارون الرشيد ؟ ! ...

فيقولون :

ـ وهل هو إلا ابن جارية سوداء كانت تسمى « شكلة » اشتهاها الخليفة محمد المهدى فولدت منه إبراهيم هذا ، فجاءت به نصفه من قريش ونصفه من

الزنج ! ...

إن حسد المغنين بعضهم لبعض لاينتهى ، وقد تعلمت ألا أبالى مايقولون ! ...

ولقد صرت غنيا بفضل الغناء وضرب العود كما يقول أولئك السفهاء ، ولكنى لم أنس ماتعلمته فى مكة - قبل سكناى بغداد - من الفقه والحديث واللغة والشعر ... ولم أهجر مادرجت عليه من العبادات ، برغم ما أنغمست فيه من صناعة الغناء وما أخذت به من عادات جديدة فى بغداد ، بعضها من أسوأ العادات ! ...

● **اليوم الثالث** :

خرجت فى بكرة الصباح أتجول فى طرقات بغداد ، وأفكر فى كلب أشتريه ، أضمه إلى مجموعة كلابى النادرة ...

فى مكة لم أكن أتصور أنى أشترى الكلاب وأقتنيها يوما من الأيام ! ...

أما الآن ، وأنا مغنى بغداد الأشهر ، فالكلاب الفارهة النادرة هوايتى ... ولها عندى اعزاز شديد ! ..

الناس يعيبوننى بهذا ... ويعيبوننى أيضا بلعب القمار ، ويقولون لى مشفقين أو هازئين ! ...

- لقد أنفقت فى الكلاب والقمار أكثر مما أنفقت بنو سهم كلها فى الطعام والشراب ! ..

فى بعض الطريق ، وثياب الخز والوشى تلتمع فى الضحى على جسدى ، سمعت فقيها كبيرا يتحدث عنى إلى جلسائه ويتحدثون عنى إليه ...

توقفت ناحية أسمعهم كأننى أنتظر شيئا ، فسمعت الفقيه يقول للقوم الجلوس :

- بلغنى أن هذا القرشى قد أصاب ثروة كبيرة من أموال الخلفاء والكبراء ، فبأى شىء أصابها ؟ !

قالوا :

- بالغناء ! ....

قال :

- فمن منكم يذكر بعض مايغنى فيه من الشعر ؟ !

قال أحدهم :

- إنه يغنى

**وأصحب بالليل أهل الطواف**
**وأرفع من مئزرى المسبل**

قال الفقيه :

- هذا كلام حسن ! ... هيه ... ثم ماذا ؟ ! ...

قال الرجل : ويغنى أيضا :

**وأسجد بالليل حتى الصباح**
**واتلـــو من المحكـــم المنـــزل**

قال الفقيه :

ـ وهذا أحسن ! ... هيه ! ...

قال الرجل

**عسى فارج الكرب عن يوسف**
**يسخــــر لــــى ربــــه المحمــــل**

فأشاح الفقيه بوجهه مستنكرا وقال :

ـ أما هذا البيت الثالث ... فلا ! ...

تعجبت لهؤلاء القوم ، فلولا كثرة مايأخذه القمار وحب الكلاب منى ، لأذهلت ضخامة ثروتى هذا الفقيه والجالسين معه ! ... وإنه ليسأل من أين جاءتنى الثروة ، كأنه لايعيش فى بغداد ولايعرف شيئا عما يجرى فيها ، وكيف يعيش سادة بغداد لياليهم ، وكم من ألوف الجوارى والغلمان فى قصورهم ، وكم فى هذه القصور من بذخ يفوق الخيال ! ...

يتهامسون عنى فى غيظ : ألا يستحى هذا أن يغنى وهو رجل من قريش ؟ ! ... ثم لايتهامسون عن أبناء الخلفاء الذين يغنون ويفعلون مايشاءون

حتى الخليفة هارون الرشيد يريد أن ينتقصنى فيقول لى :

ـ أى بنى الانسان قومك يا اسماعيل ؟ !

فأكاد أموت غيظا ، فهو يعرف أنى من قريش أما وأبا ، وأنه هو من قريش أبا فقط ... وأمه الخيزران المجلوبة من سوق الرقيق ! ...

فأقول له :

ـ إن كنت تجهل نسبى فاسأل عنه إبراهيم الموصلى هذا الذى بجانبى ! ...

فيغضب الخليفة ويقول :

ـ قبحك الله شيخا من قريش ... كيف أسأل عن نسبك هذا الرجل وهو من العجم ؟ ! ...

● **اليوم الرابع :**

قاضى القضاة أبويوسف وقف معى اليوم على باب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وحدثنى وحدثته ! ... أليس هذا عجيبا ؟ ! ...

إن أبا يوسف صاحب الامام أبى حنيفة ، رجل دين مشهور بالورع والأمانة ،

ولكن أمره عجيب ، فهو يتجاهل أو يدعى الجهل بأن هارون الرشيد يجلس للمغنين كما يجلس للعلماء والفقراء ... والأدباء والشعراء ...

ـ هل يعلم القاضى أبو يوسف أو يجهل دقائق حياة أمير المؤمنين ؟ ! ...

سؤال صريح ، لو أجاب عنه بصراحة ، لقلت : هذا القاضى هو صاحب أبى حنيفة حقا ... مع أن أبا حنيفة رفض أن يتولى القضاء لأبى جعفر المنصور جد الرشيد ... وضربه المنصور لارغامه على القبول ، فلم يقبل ... ومات جريحا سجينا ! ...

وأبو يوسف ـ وهو التقى الورع ـ يجوس خلال قصور الخليفة ويعلم أنها تحوى ألفى جارية ، عدا الغلمان والخصيان وصنوف الخدم من كل لون وشكل ...

ولكن صناعة الغناء هى وحدها حرام عنده بين جميع « الصناعات » التى تدخل هذه القصور ...

وقفت على باب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ريثما يأذن لى وللناس بالدخول ، فجاءنى القاضى أبويوسف فقال لى ولم يكن يعرفنى :

ـ أمتع الله بك أيها الشيخ ... توسمت فيك الحجازية والقرشية ! ...

فقلت فى نفسى : « قد انخدع القاضى والله فى سمتى وحلاوة هيئتى وعمامتى السوداء على قلنسوتى الطويلة ، وما أخذ السجود الكثير من جبهتى ... فظننى من فقهاء الحجاز » !

ثم قلت للقاضى وأنا أتقمص وقار الفقيه :

ـ أصبت ... أنا حجازى قرشى ...

قال القاضى مبتهجا متلطفا

ـ فمن أى قريش أنت ؟ !

ـ من بنى سهم !

ـ فأى الحرمين الشريفين منزلك ؟

ـ مكة ...

ـ ومن لقيت من فقهائها ؟

ـ سل عمن أردت وعما شئت ...

ففاتحنى قاضى القضاة فى الفقه والحديث ، فوجد عندى مايحب فأعجب بى وارتاح إلى الوقوف بجانبى كأنه يستظل بحجازيتى وقرشيتى ، وهو الفقيه ذو الأصل العجمى ...

ونظر الناس إلينا فسمعت بعضهم يقول همسا : « أرأيتم القاضى قد أقبل يتحدث إلى المغنى ؟ ! » ..

فلما أذن لنا بالدخول إلى الوزير ، افترق عني وسمعت رجلا من أصحابه يقول له

ـ أتعرف هذا الذى واقفته وحادثته ؟ ! ..

قال القاضى :

ـ نعم ... رجل من قريش ... من أهل مكة ، من الفقهاء ! ...

قال الرجل :

ـ أصلح الله مولانا القاضى ... إنه ابن جامع المغنى ، وقد أنكر الناس ذلك من فعلك ! ...

قال القاضى آسفا نادما :

ـ إنا لله ! ...

وطفق يستغفر الله كأنه قارف أعظم الذنوب ! ...

● **اليوم الخامس :**

التقيت والقاضى مرة أخرى على باب الوزير البرمكى ، فلما بصر بى انحرف عنى ، فرفعت صوتى قائلا والناس يسمعون :

ـ يا أبا يوسف ... مالك تنحرف عني ؟ ! ... أى شىء أنكرت ؟ ! ... أتراهم قالوا لك إنى ابن جامع المغنى فكرهت أن تقف إلى جانبى ؟ ! ... إنى أسألك عن شىء ثم أصنع ماشئت ...

ثم قلت له :

ـ يا أبا يوسف ... لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة لسان :

يادار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأبد

أكنت ترى بذلك بأسا ، أو تحكم بأنه أنشدك كلاما حراما لايصح إنشاده ؟ ! ...

قال أبو يوسف :

ـ لا ... فقد سمع رسول الله الشعر من الشعراء وغيرهم .

قلت :

ـ فإن قلت أنا هكذا ! ... ثم اندفعت أغنى هذا البيت بأجمل صوت حتى رأيت الناس يتمايلون طربا إلا القاضى ، فقلت له :

ـ يا أبا يوسف ... أنت صاحب الفتيا ... وأنا مازدت هذا البيت على أن حسنته

بلحن جميل ، فوصل إلى القلوب .

قال لى أبو يوسف ضارعا يستعفينى من الكلام :

ـ عافاك الله ... أعفنا من ذلك ! ...

وفى سهرة الرشيد قصصت عليه القصة فضحك كثيرا ، وغنيته ومعه زوجته زبيدة التى قلما تجلس معه للسماع ، فأمرت لى زبيدة بأربعمائة ألف درهم ، فقال لها الرشيد :

ـ غلبتنا يابنت أبى الفضل ، وسبقتنا إلى بر ضيفنا وجليسنا ...

ثم جعل لها الرشيد مكان كل درهم أمرت لى به ، دينارا من الذهب ! ...

وفى تلك اللحظة خطر فى بالى مولانا قاضى القضاة ! ...

# ذكريات البرامكة



● **اليوم الأول :**

دعانى القائد الكبير على بن هشام وهو صديق لى يحبنى ويحب فن الغناء .. الى الصبوح فى قصره مع عدد من كبار المغنين والندماء .. فعاقنى عن البكور اليه عائق قاطع ، فلم أستطع أن أوافيه الا ظهرا ، وكان ينبغى أن أكون فى مجلسه قبل طلوع الشمس ، فقال لى :

ـ أين كنت حتى هذه الساعة ياأبا محمد ؟

قلت :

ـ عاقنى أمر لم أجد من القيام به بدا ..

فوثب علويه الأعسر ـ وهو تلميذ ابى وتلميذى ولكنه شديد الحسد لى ـ فقال لعلى بن هشام وكأنه يداعبنى :

ـ أيها الأمير .. إن اسحاق الموصلى الذى يعتذر اليك بالعوائق ، ولايجىء اليك الا ظهرا ، كان فى الماضى سريع التلبية لدعوات البرامكة ، ولو دعوه فى منتصف الليل ! ..

قلت لعلويه

ـ كذبت يا أعسر .. وما أردت مداعبتى ، ولكنك تريد التحريض والدسيسة ! ..

فأراد علويه أن يشغب ويصيح ، فأسكته الأمير ابن هشام وأمره بالجلوس ، ودعا لى بطعام وشراب ، ثم أشار الى علويه فغنى

إلهى منحت الود منى بخيلة
وأنت على تغيير ذاك قدير
شفاء الهوى بث الهوى واشتكاؤه
وإن امرأ أخفى الهوى لصبور

فأخطأ علويه فى بعض أقسام اللحن ، فقلت له بعد أن فرغ منه :

ـ أخطأت ياعلويه .. ويلك !

فما رد على قولى ، ووضع عوده وشرب شيئا ، ثم تناول العود فغنى

**ولقد أسمو الى غرف ... فى طريق موحش جدده**
**حوله الأحراس تحرسه ... ولديه جاثما أسده**

فأخطأ فى غناء هذا اللحن أيضا ، فقلت له :

ـ أخطأت ياأعسر ثانية .. ويلك !

فوضع العود من يده وأقبل بوجهه ناحيتى محنقا :

ـ يااسحاق !.. دعاك الأمير ـ أعزه الله ـ لتبكر اليه ، فجئته ظهرا ، وغنيت لحنين يشتهيهما الأمير ـ أعزه الله ـ فخطأتني فيهما ، وأنت تزعم أنك لاتغني الا بين يدي خليفة أو ولي عهد .. وقد كنت أراك تسرع الى البرامكة قديما فتغني منذ الصباح الى الليل !

قلت لعلويه :

ـ إني والله ما أردت إنتقاصا منك ولا أقول لغيرك ماقلته لك تقويما لصناعتك في الغناء وما أردت بذلك ازدراءك ، ولكني اردت تهذيبك لأنك منسوب الصواب والخطأ الى أبي الذي علمك الصناعة ، فإن كرهت مني ذلك تركته وقلت لك كلما سمعتك تغني أحسنت وأجملت ! ..

ثم أقبلت على الجلوس فقلت :

ـ أما البرامكة فقد ذهبوا ، ولكني لا أجحدهم حقهم ، فوالله لقد وجدني الوزير يحيى بن خالد البرمكي يوما لا أنشط للغناء ولاللمنادمة ، فقال لي : أراك مهموما ، كأنك مفتقر الى شيء .. ثم صاح :

ـ ياغلام .. دواة ورقعة وقلما ..

فوقع لي بمائتي الف درهم ! .. وكان في مجلسه أولاده الأربعة جعفر والفضل وموسى ومحمد ، فوقع لي جعفر بمائة وخمسين الف درهم ، ووقع لي الفضل بمثلها ، ووقع لي موسى ومحمد بمائة الف ، مائة الف ! .. فخرجت في ساعة واحدة من عندهم بسبعمائة الف درهم ، ووالله ماسألتهم أن يعطوني شيئا ، ولاغنيتهم لحنا ولافعلت شيئا الا الجلوس بين أيديهم صامتا في تلك الساعة .. ولا والله ما كان هذا بأكبر شيء فعلوه لي .. فهل يلومني منصف على شكر هؤلاء وقد ذهبوا ولم تبق الا ذكراهم ؟!

فبكى علي بن هشام وكل من حضر ، ومن بينهم علويه ، وقالوا

ـ لايرى الناس والله مثل البرامكة ابدا ...

وقام علويه فقبل رأسي وقال لي :

ـ أنت أستاذنا وابن أستاذنا ، وبنا الى تقويمك حاجة في كل وقت !

ثم جاءوني بعود ، فغنيت اللحنين اللذين أخطأ علويه في غنائهما ، وصححتهما له وبينتهما على وجههما حتى فهم علويه خطأه ، فقام يرقص ويصيح :

ـ والله لو غنى ابليس هذين اللحنين لعجز عن مثل اتقانك هذا يااسحاق ! .. ياأستاذي وابن أستاذي

فضحك علي بن هشام وقال :

ـ صدقت والله ياعلويه ! . هكذا يقول من يعقل لاكما كنت تقول وتشغب من قبل على أستاذك اسحاق !

● **اليوم الثاني :**

---

في مجلس أمير المؤمنين المعتصم ، غنيت لحنا جديدا فطرب طربا

شديدا ، ثم تأملنى لحظة وقال لى

- ياأبا محمد .. لقد ضحك الشيب فى عارضيك !

قلت وقد فاجأنى الحزن على ذهاب شبابى

- نعم ياسيدى .. فإن سبعين سنة ليست بالزمن القصير ، وقد تخطيتها

أسأل الله أن يمد فى عمر أمير المؤمنين !

ثم بكيت حتى اشتفيت ، وبكى المعتصم لبكائى ، وكان رقيقا على جبروته وكثرة حروبه !

ووجدتنى أمسك بالعود وأغنى

**تـولى شـــبابى الا قلـيلا**
**وحـل المشـيب فصـبرا جميـلا**
**كـفى حــزنـا بفـراق الصـبا**
**وأن أصبـح الشـيب منه بـديـلا**
**ســأندب عــهدا مضى للصبـــا**
**وأبكى الشـــباب بكـاء طـويـلا**

فطرب المعتصم ، وظهر التأثر الشديد على وجهه ، وقال لى

- والله لو قدرت على رد شبابك بشطر ملكى لفعلت !

فلم يكن لكلامه عندى من جواب الا تقبيل البساط بين يديه ! ..

## ● اليوم الثالث

اجتمعنا عند الواثق - ولى عهد المعتصم الآن - أنا ومخارق وعلويه وغيرنا ، فأراد الواثق أن يؤلب مخارقا وعلويه ويغريهما بى ، ليتسلى ويضحك ! .. ففعل ذلك حتى تهاترنا وتبادلنا قوارص الكلم ، ثم قال لى الواثق :

- ماتقول ياسحاق فى مخارق ؟!

قلت :

- هو مناد طيب الصوت ، ولكنه يخرج بالألحان عن أصولها فتكثر أخطاؤه ..

- فما تقول فى علويه .. أهو أفضل أم مخارق ؟!

قلت :

- أيها الأمير    قيل لأحد العرب : أى حماريك شر ؟!

فأجاب : هذا .. ثم هذا ! .. فعلويه هو خير الحمارين فى الغناء .. وهو على كل حال شيىء - أردت تصغيره - وخير منهما أبو حشيشة الطنبورى !

فوثب علويه مغضبا وقال للواثق :

- نسائى طوالق ، وجوارى حرائر ، لئن لم تستحلفه أن يصدق عما أسأله عنه ، لأتوبن عن الغناء ما عشت

فقال الواثق لعلويه

ـ لاتعربد ياعلويه .. نحن نفعل ماسألت

ثم حلفني الواثق أن أصدق عما يسألني عنه علويه ، فحلفت ، فسألني علويه

ـ من أحسن الناس اليوم صنعة في التلحين بعدك ؟!

ـ أنت ياعلويه .

ـ فمن أطيب الناس صوتا بعد مخارق ؟

ـ أنت !

ـ فمن أبرعهم ضربا على العود بعد زلزل قديما وبعد ثقيف الآن ؟!

ـ أنت !

فصاح علويه وكأنه أنتصر

ـ هذا قولك ، فانا الثاني في كل مجال من صناعة الغناء ، وأنا ثلاثة في واحد ، وكل منكم واحد فقط لايتعدى مجاله في الصناعة ، فمن يكون في الدنيا مثلي من نظرائي في صناعتي ؟!

ثم التفت علويه ناحيتي وقال معربدا

ـ وما أنت وصوتك هذا الذي ضعف حتى صار لاتسمعه الأذن انخفاضا ؟!

فأنتهره الواثق وقال له

ـ دع ذاعنك ، فلولا ماعلمك اسحاق وأبو اسحاق من هذه الصناعة أنت وغيرك ما كان في بغداد أحد من المغنين

وغاظني علويه ، فأخذت عودا فنقلت أوتاره من مواضعها حتى صارت مشوشة لاتصلح للضرب ، ثم قلت : ليغن من شاء منكم وأنا أضرب له على هذا العود الذي شوشت أوتاره ، فأدهشهم ذلك ، وغنى مخارق ، وضربت له ، فلم يظهر في الضرب اثر لتشويش الأوتار ، ولافقد الايقاع شيئا ، ولااختل من اللحن أدنى شيء .. فعظم عجب الواثق من فعلي ، وقام على رجليه فقال :

ـ هذا والله مالايفعله الا السحرة ! .. ومارأيت مثله قط ، ولاظننت أن مثله يكون ابدا ..

فوثبت فرقصت طربا حتى تعبت ، فضحك الواثق وقال لي

ـ أنت والله أرقص من كبيش وعبد السلام ، وهما أرقص الناس في بغداد الآن كما يقال !

ثم قال الواثق :

ـ لايكمل أحد في صناعته كمثل كمال اسحاق ..

ثم التفت الى الجلوس ، وبينهم مخارق وعلويه فوصفني وقرظني وامتدحني وقال

ـ والله ماذكرت من اسحاق شيئا يقارب وصفه ، فهو واحد في دهره علما وفقها وأدبا ووقارا ووفاء وجودة رأى وصحة مودة .. لايمل جليسه مجلسه إن حدثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك .. والغناء فرع من

دوحته ، وأما أمثال مخارق وعلويه فالغناء هو كل شىء عندهم ، وهم بغير الغناء لايكونون شيئا !

فرأيت عندئذ مخارقا وعلويه ينكمشان وقد أنكسرا وانهزما وأوشك أن يقتل الحسد علويه خاصة !

● **اليوم الرابع** :

تولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ..

الواثق يلحن ويغنى ويعتبر نفسه تلميذا لى فى هذه الصناعة ، وهو لطيف غير مغرور بجاهه وسلطانه العظيم ، واذا صنع لحنا عرضه علىّ ، لأصلحه له اذا كان فيه خطأ إلا أن ألحانه والله لاتقل جودة عن الحان مشاهير المغنين ، بل لعلها خير من الحانهم لأنه يصنعها هواية وتطربا ، لاصناعة وتكسبا ..

انحدرت مع الواثق وجمع من حاشيته الى مدينة « النجف »

قلت له : ياأمير المؤمنين .. قد قلت فى النجف قصيدة ، فقال : هاتها ، فأنشدته

**ياراكب العيس لاتعجل بنا وقف**
**نحى دارا لسعدى ثم ننصرف**

ثم أتيت على قولى

**لم ينزل الناس فى سهل ولاجبل**
**أصفى هواء ولا أعذى من النجف**
**حفت ببر وبحر من جوانبها**
**فالبر فى طرف والبحر فى طرف**
**ومـايزال نـسيم من يمانيـة**
**يأتيك منـها بريـا روضـة أنف**

فقال لى الواثق صدقت يااسحاق .. هى كذلك ! .. ثم مضيت أنشده حتى أتيت على قولى فى مدحه

**لايحسب الجود يفنى ماله أبدا**
**ولايرى بذل مايحوى من السرف**

ومضيت فى القصيدة حتى أتممتها فطرب ، وأمر لى بمائة ألف درهم ..

ثم انحدرنا الى « الصالحية » فمكثنا أياما فاشتقت الى أهلى فى بغداد ، فبكيت ، فبان التأثر فى وجهه ، واذن لى بالأنصراف الى بغداد وأمر لى بمائة ألف درهم .. فعدت من رحلتى هذه بمائتى الف درهم ! .. وماوصلنى أحد من الخلفاء قط بما يصلنى به الواثق فى كل حين ، على أن أباه المعتصم وعمه المأمون وجده الرشيد كانت الأموال تجرى بين أيديهم كالأنهار ، وأما هو فقد غيض بحر المال فى عهده الا قليلا ! ..

يوميات دنانير البرمكية :

# غيرة زبيدة



● **اليوم الأول :**

تعود بى ذاكرتي الى السنين الخالية .. أيام كنت جارية مغنية فى قصر الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وزير الخليفة هارون الرشيد

كان الرشيد مشغوفا بغنائى ، لايرى لى شبيهة بين الجوارى المغنيات البارعات اللاتى يملك منهن العشرات ، وما منهن الا من تميزت بصوت حسن ، أو اداء متقن ، أو جمعت بين حسن الصوت واتقان الأداء الا اننى أملك من جمال الصوت وصنعة الغناء والضرب على العود ، والعلم بالشعر وفنون التلحين ، مالا تعلمه الجوارى .

أرانى أتحدث عن هذا الماضى كأننى أعيش فيه والحق أنى أعيش فيه بأحلامى ، خلال يقظتي ومنامى ، ولكنه انقضى منذ عهد أراه بعيدا وهو قريب ، وأنا الآن امرأة تعيسة أدبرت ايامها السعيدة ولم تبق لها من تلك الأيام الا مرارة الذكرى !

وها أنذا أقلب طرفى فى « يومياتى » القديمة ، عائدة اليها بأحلامى ، وإن صارت الآن مجرد كلمات قديمة على اوراق صفراء عبثت بها الأرضة وابتلعت منها كلمة من هنا وكلمة من هناك .. وإنما ابتلعت فى هذه الكلمات قطعا حية منى .

وآه من تلك اليوميات التى أكل الزمن كلماتها كما أكل كلمات حياتى ! ..

**اليوم الثانى**

**اقرأ الآن حياتى من أولها ..**

كنت جارية ليحيى البرمكى .. لم ير جارية مغنية أحسن منى وجها ولا أظرف ولا أكمل أدبا

سمعنى يحيى ثم اشترانى ، فقال لى

- يادنانير .. إن لك صوتا بارعا جدا ، وطبعا فى الغناء لم أر له مثيلا ، على كثرة من سمعت من المغنيات المدربات الحاذقات .. ولكن تنقصك الدربة على أيدى فحول هذه الصناعة ، فإنك متى أخذت عنهم أسرارها ، وتخرجت على أيديهم ، صرت واحدة زمانك فى الغناء ..

ثم دعا الوزير الى قصره كبار الملحنين والمغنين ليطارحونى الألحان ، فأخذت عن فليح بن ابى العوراء وهو أكبرهم سنا ، ثم عن اسماعيل بن جامع وهو أحسنهم صوتا ، ثم عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وهما أعظم أهل الأرض علما بصناعة الغناء ..

قال لى ابراهيم الموصلى يوما

- والله ماأرى فى غنائك نقصا يحتاج الى زيادة ، ولافى طبعك الا السلاسة والقوة ، كأنك زهرة عطرة نابتة بقوة فى أصل بذرتها ، لابرعاية بستانى يتعهدها ويسقيها ، فكيف كانت نشأتك فى هذا الفن يابنيتى ؟!

قلت

- كنت لرجل من أهل المدينة وأنا صبية صغيرة ، فخرجنى وأدبنى ، وأسمعنى غناء مطربى المدينة ، وما أكثرهم ، فأستجاب طبعى للغناء ، ورويت ماسمعته ، فلما رأى سيدى ذلك منى ، علم أننى صرت غالية الثمن ، فعرضنى على الوزير يحيى البرمكى فاشترانى    فهذه والله نشأتى وقصتى !

قال لى الموصلى

- فإنى جئت اليوم أسمع لحنك الجديد

- وما هو ؟!

- هو الذى حدثنى عنه الوزير أعزه الله ، وقال لى إنك به معجبة ، وترين أنه لحن فائق لامطعن فيه ..

أدهشنى أن يهتم الوزير بألحانى حتى ليحدث عنها ابراهيم الموصلى ويدعوه الى سماعها منى ! ..

وأقبل الوزير فقال للموصلى

- ياابراهيم    أسمعت اللحن من دنانير ؟!

قال الموصلى

- إنها تجس عودها لتبدأ ، ولكنك - أعزك الله - معجب بهذا اللحن الجديد ، وإعجابك به شهادة له لايحتاج معها الى شهادتى ، فإنك والله ثاقب الفطنة ، صحيح التمييز فى هذا الفن ، ولم أر لك مثيلا فى ذلك الا أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وأعز نصره

أهتز الوزير يحيى لثناء الموصلى عليه وقال :

- يا أبا اسحاق لا أقول لك : أعجبنى هذا اللحن من دنانير ، ثم لايعجبك وأنت عندى رئيس صناعتك ، تعرف منها مالا أعرف ، بل مالايعرف الحذاق من أهلها .. وأنت تقف من دقائقها ولطائفها وأسرارها على ماخصصت به من بين الناس جميعا

وإنما يتم سرورى بلحن دنانير اذا صادف منك استجادة وتصويبا .

ثم غنيت لحنى هذا وتحفظت فى أدائه على أحسن وجه ، حتى كدت أفتتن بغناء نفسى ، وغرنى مابلغته فى صناعة الألحان ! .. وكأننى كنت أضع مع أنفاسى دقات قلبى ، تدور بدمى فى هذين البيتين

**نفسى أكنت عليك مدعيا**

**أم حين ارفع بَيْنُهُمْ خُنْتِ**

ان كنـت مـولعـة بـذكـرهم
فعلـى فراقـهم ألا مُتَّ ؟!

حتى فرغت من اللحن ، فكأنما اكتملت لى فيه جهة كانت ناقصة فى وجدانى ، فضلا عن فنى ..

ورأيت الوزير والموصلى قد استخفهما الطرب ، حتى صاح الوزير والموصلى معا ·

ـ أعيديه ! ..

فأعدته .. ولم يزالا يستعيدانه حتى قلت : قد جن الرجلان بما يسمعان منى !

فلما هدأ الوزير والملحن الكبير ، قال الوزير له :

ـ كيف رأيت صناعة هذا اللحن يا أبا أسحاق ؟! ..

قال الموصلى ولم تزايله بعد هزة طربه :

ـ انى طلبت أيها الوزير ـ أعزك الله ـ موضعا فى اللحن أصلحه وأغيره لتأخذه عنى دنانير ، فلا والله ما قدرت على ذلك ، وقد أعادته علينا ، فإذا هو كالذهب المصفى ، ليس فيه الا رونقه يزداد لمعانا ..

ثم خاطبنى الموصلى قائلا :

أحسنت والله يابنية وأصبت ، فأنت الآن سيدة المغنيات الضاربات الملحنات ، وإنك لتحسنين الاختيار ، وتجيدين الصنعة .. ووالله مايحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة وأنت تتعلمين على أيديهم !

فضحك الوزير يحيى وقال للموصلى

ـ تأبى إلا أن تغمز ابن جامع ونظراءه من المغنين الذين تأخذ عنهم دنانير ، ولاتنسى نقارك معهم ابدا !

قال الموصلى

ـ لا والله ، لقد أعادت اللحن مرات ، وأنا أريد اعناتها لأفتح لنفسى مدخلا الى تعديل أو تصحيح فيه ، فلا والله ما وجدت الى ذلك سبيلا !

قال الوزير

ـ قد والله سررتنى ، وسأسرك !..

ثم وجه الوزير الى الموصلى بمال عظيم ! ..

● **اليوم الثالث :**

جاء الرشيد الى قصرنا خلسة ، لأن زوجته زبيدة تغار عليه منى ، وتشكوه الى كبراء بنى هاشم ، تقول لهم

ـ أمير المؤمنين ينتقل الى قصر وزيره لسماع جارية مغنية ؟ ؟ ألا تنصحونه ؟!

فلما ألح عليه كبار عمومته بالعتاب ، وقالوا له : فى قصرك من المغنيات اللاتى هن ملك يمينك فلانة وفلانة .. وعشرات أخريات ، فما يحملك على الخروج الى بيت الوزير لسماع تلك الجارية ؟!

قال لهم

ـ ليس لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، ولكن مأربى فى غنائها ، فاسمعوها ان شئتم ، فإن لها من جمال الصوت وكمال الصنعة ماليس لغيرها ، وقد شهد لها ابراهيم الموصلى الذى لايشهد لأحد من مغن أو مغنية ، ولو عرضوه على السيف ، إلا أن يراه مجيدا

وقد سمعنى هؤلاء العاذلون ، فعذروا الرشيد ، وعادوا الى زوجته زبيدة فأشاروا عليها إلا تلح فى غيرتها حتى قبلت منهم ذلك ، وقالت

ـ والله ماهى الغيرة ، والا ففى القصر ماتعلمون من عدد الجوارى اللاتى يملكهن ، ولكنى خشيت عليه من استدراج البرامكة اياه إلى بيوتهم ! ..

وارادت زبيدة أن تنفى تهمة الغيرة عن نفسها فأهدت الى الرشيد عشر جوار جديدات ، منهن : ماردة ، ومراجل ، وفاردة ! .. وقد ولدن له أولاده المعتصم ، والمأمون ، وصالحا .. وهم ينافسون ابن زبيدة محمدا الأمين ، فى التطلع الى الخلافة ..

## ● اليوم الرابع

صحوت اليوم من نومى وأنا جائعة أشد الجوع ، فدعوت بالطعام فى بكرة الصباح ، فدهش الخدم ، فلست شرهة ، وأكلت من طلوع الشمس الى ارتفاع الضحى فما شبعت ، والخدم يتعجبون ويتغامزون حتى جاء الوزير ، فقلت له انى اكل ولا أشبع ، فأدهشه الأمر ، وقام فاستدعى الطبيب ابن بختيشوع ، فلما فحص عن علتى ، انتحى بالوزير ناحية ، وسمعته يقول له متوجعا لما أصابنى من سعار الجوع

ـ قد أصابتها العلة الكلبية ! ..

فذعر الوزير وسأله :

ـ وما العة الكلبية ؟! ..

ـ تأكل ولاتشبع ولاتصبر عن الأكل ساعة واحدة ! ..

ـ وما علاجها ؟!

ـ اختلف الأطباء فيه ، ولكنى سأشرع فى علاجها متحرزا من الخطأ .. والله المستعان ! ..

فرأيت الوزير كأنه يوشك ان يبكى حزنا ، وأنصرف الطبيب للبحث عن دواء !

● **اليوم الخامس**

تناقصت حدة الجوع الذى أشعر به ، ولعل ذلك من أثر دواء الطبيب الذى اتعاطاه كل يوم مرات ، قبل الأكل وبعده

ولعل ذلك من أثر الصدقات الكبيرة التى يتصدق بها الوزير ، فقد أظلنا شهر رمضان المبارك ، ولم استطع صومه ، فأخذ الوزير يتصدق عنى فى كل يوم من أيام الشهر المبارك بألف دينار ، وفى الصدقة بركة لاشك فيها !

زارنى الرشيد حين سمع بعلتى ، فرأيته مكتئبا من أجلى ، وأخرج من صندوق صغير يحمله بعض خدمه ، عقدا من الجوهر قيمته ثلاثون ألف دينار ، فأعطانيه ، وهو يبتسم لى مشجعا !

أنقضى شهر رمضان ، فشعرت كأننى شفيت من العلة الكلبية تماما . فأخذت أنفض الغبار عن عودى ، فقد شاقنى الغناء كثيرا

ولكنى لم أجد من الوزير اقبالا ، ورأيته اليوم مجتمعا وابنيه جعفرا والفضل . يتهامسون ، وقد ركبهم الهم والكرب فعجبت لذلك ، فلما انصرف جعفر والفضل قلت للوزير يحيى

ـ ياسيدى .. أى شىء أهمكم وطرأ على أحوالكم ؟!

لم يجب الوزير ..

والتفتنا فإذا بمسرور خادم الرشيد يدخل القصر ويدعو يحيى لمقابلة الرشيد مع ابنيه جعفر والفضل

انتظرت عودته ساعات طوالا ، حتى سمعت ضجة حول القصر ، واذا عسكر الرشيد يدخلون ويصادرون كل مافى القصر ، حتى العقد الذى وهبه لى الرشيد وقال العسكر : إن أمير المؤمنين قد نكب البرامكة جميعا وقتل جعفر بن يحيى وحبس اباه وأخاه !

● **اليوم السادس** :

دعانى الرشيد الى الغناء فى قصره ، فلما جلست بين يديه قلت له

ـ ياأمير المؤمنين .. إنى آليت الا أغنى بعد سيدى ابدا !

غضب الرشيد وأمر بصفعى ، فصفعنى الخدم ، وأقامونى على رجلى ، وأعطونى العود ، فأخذته وأنا أبكى أحر بكاء وغنيت مع ذلك متحفظة فى غنائى ، قائمة بأصول الصناعة :

**يادار سلمى بنازح السَّنَد**

**بين الثنايا ومسقط اللبد**

لمارأيتُ الديار قد دَرَستْ

أيقنت أن النعيم لم يَعُدِ

رق لى الرشيد وأمر باطلاقى !

انصرفت الى البيت الذى أسكن فيه ، فجاء ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد ، وهو من أجمل الناس صوتا ، فقال لى مواسيا يتحزن لمصابى

ـ قد والله أبكيتنى بما غنيت ، ولكن اضطرابك من الحزن لم يذهب بشىء من جمال صوتك وصناعتك ، فقد رأيتك تَخْتِلِينَ اللحن برفق ، وتقهرينه بحذق ! .. فلله أنت .. ما أكرمك وأنبلك !

وأراد أن يعطينى بعض المال فأبيت ، وانصرف والدمع فى عينيه !

زارنى المطرب « عقيد » وهو من موالى الأمير صالح بن الرشيد ، ويحبنى من قديم ، وكان ينتظر ان أتحرر من الرق ليتزوجنى ، فلما تحررت بعد نكبة البرامكة ، جاء يخطبنى ، فرددته برفق ، وأقمت على الوفاء لمولاى ! ..

وتعود بى ذاكرتى الآن الى السنين الخالية .. أيام يحيى وجعفر ، والرشيد ، وغيرة زوجته زبيدة .. ومطارحات الموصلى الألحان ! ..

يوميات دنانير الكناسية :

# جارية الرجل الصالح



سيدى الذى اشترانى اسمه محمد بن كناسة .. رجل عربى النسب ، كوفى المولد والمنشأ .. صالح السيرة ، ذو مروءة وأدب وعلم ، وله شعر جيد ، ولكنه لايقصد بشعره ذوى السلطان والثراء ليمدحهم كما يفعل غيره من أهل الأدب والعلم ! .. سمعت مرة أحد أصدقائه يقول له

ـ عجبت لك ياأبا يحيى فى قعودك عن باب السلطان ، ورفضك انتجاع الكبراء والعظماء بأدبك وعلمك وشعرك ، كما يفعل كل من له فضلة أدب أو علم أو شعر فى هذه الدولة العباسية التى راجت فيها سوق أناس هم دونك علما وأدبا ، وإنك لمن رواة الحديث الشريف ، وقد أخذت عن الثقات من المحدثين ، ورأيت الأعمش الفقية الكبير ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وسفيان الثورى ، وهم فى العلم جبال شامخة ! ..

فقال له محمد بن كناسة

ـ أصون عرضى عن الوقوف على أبواب السلطان ، ولا أطلب الرفعة بإغماض العينين ، ولا أجرح وجهى بالمطامع ! ..

ثم ارتجل :

**معاشى دوين القوت والعرض وافر**
**وَبَطْنِيَ عن جدوى اللئام خَمِيصُ**
**سألقى المنايا لم أخالط دنية**
**ولم تسر بِى فى المخزيات قلوص**

فلما خرج صاحبه هذا ، دخل شيخ الملحنين والمغنين اسحاق الموصلى ، فهش له سيدى ، وقال له :

ـ تغنيك جاريتنا أم تغنينا أنت متفضلا يا أبا محمد ؟! ..

قال اسحاق :

ـ لولا وجع فى حلقى من أثر البرد لغنيتك متشرفا بالغناء بين يديك ! .

فنادانى سيدى

ـ يادنانير .. هذا أبو محمد اسحاق الموصلى أعزه الله .. هاتى عودك فأسمعينا مما تحفظين من ألحانه ! ..

فلما غنيتهما طربا .. وقال له اسحاق :

ـ يأبا يحيى .. أراك تنقبض عن الناس ولاتمازحهم ولاتكثر من التحدث إليهم ، ولكنك تخصنى بالاقبال والمودة والمداعبة واللطف والتواضع ، فجزاك الله عنى خيرا ، ونفعنى بعلمك وأدبك وجعلنى فداءك ! ..

فصمت محمد بن كناسة قليلا ثم أجابه ببيتين ارتجلهما فرأيت اسحاق الموصلى يتمايل طربا للبيتين ، ومارأيته والله يطرب لغناء أحد طربه لهذين البيتين .

ثم قال سيدى لاسحاق الموصلى

ـ يأبا محمد .. إن فى علمك وأدبك وعفافك وظرفك مايجعلنا نرسل أنفسنا على سجيتنا معك ، فى حين ننقبض عن كثيرين من الناس ، وإن كان الفضل لك علينا فى كل حال ! ..

## ● اليوم الثانى :

سمعت بعضهم يقول لسيدى ابن كناسة :

ـ أنت امرؤ صالح ، يقصدك العلماء ، فما حظك من جاريتك دنانير المغنية هذه التى يسمعها عندك أصحابك ممن ترضى أخلاقهم وتثق بحسن ذوقهم فى السماع ؟! ..

قال له سيدى

ـ قد أجبت بنفسك عن سؤالك ! .. فإنما أسمع غناءها ويسمعونه معى ، على غير فاحشة ، وهى ملك يمينى ، أشتريتها بمالى ، ولى فيها غنى عن سماع غيرها فى بيوت الناس ، وهى بارعة فى صناعة الغناء ، وحسبك أن اسحاق الموصلى قد شهد بذلك ! .. ولها إلى ذلك أدب وذكاء وعفاف ..

ثمة سر يخفيه هذا الشيخ الطيب عن أصحابه ، فهو لايحب زوجته التى بنى بها منذ ثلاثين سنة ، فثقل عليه مكانها فى بيته ، لسوء عشرتها ، وحدة لسانها ، ثم جعلت لنفسها ركنا فى البيت ، وجعل لنفسه ركنا آخر .. وما أظنه اشترانى لغنائى فحسب ، بل لأكون أنيسة له أيضا فى هذا البيت الموحش ..

صحبته أمس فى زيارة بعض أقاربه فمررنا فى طريق ببغداد برجل مصلوب على جذع شجرة ، يقول الناس إنه من المفسدين فى الأرض .. فنظر إليه ابن كناسة لحظة ، وحوقل ، ولم يتذكر وهو يرى هذا المنظر المرعب إلا زوجته التى تركها فى البيت ولم يقل لها وهو خارج بى إلى أين نحن ذاهبان ! .. فقال مرتجلا وقد أنزل عينيه عن الرجل المصلوب وأغمضهما كأنه يستجمع صورة تلك المرأة :

**أيا جذع مصلوب أتى دون صلبه**
**ثلاثون حولا كاملا .. هل تبادل ؟**

**فما أنت بالحمل الذى قد حملته**
**بأضجر منى بالذى أنا حامل !**

فحزنت والله من أجل الشيخ ، لأنه يرى أن الرجل المصلوب أخف وزنا على الجذع الذى يحمله ، من وزن امرأته هو التى حملها على قلبه مكرها ثلاثين سنة !

مع ذلك فالشيخ من أبر النّاس بعياله ، وقد رأيته منذ أيام يحمل إليهم بيديه بطن شاة من عند الجزار ، فقلت له هات أحمله عنك ! .. قال

**لاينقص الكامل من كماله**
**ماجر من نفع إلى عياله**

## ● اليوم الثالث :

يعجبنى فى سيدى ابن كناسة ، فوق علمه وتقواه وطربه لغنائى ، أنه يثق بفهمى وعلمى وسرعة فطنتى ..

كنت أمس أجلس خلف ستارة فى بيته ، وهو جالس إلى أصدقاء له من الأدباء والعلماء .. فذكرنى أحدهم فأثنى على غنائى وضربى بالعود ، وهو لايعلم أننى جالسة وراء الستارة ..

فقال ابن كناسة لأصحابه :

ـ إن الغناء هو أقل فضائلها على براعتها فيه .. ولو شئتم لاختبرت لكم فهمها وعلمها الساعة ..

ثم أخذ قلما وكتب رقعة ، ونادى خادمة فأمرها بإيصالها لى ، فقرأت فيها « يادنانير .. إنك أَمَةٌ ضعيفة لكعاء فإذا جاءك كتابى هذا فعجلى بجوابى .. والسلام » ! ..

فلما تأملت كلامه علمت أنه لايريد أن يقول شيئا ، وأنه إنما يختبر فطنتى فى الوقوف على معانى الكلام وإدراك مراميه .. وكلامه هذا لامعنى له ولامرمى ! ..

فكتبت إليه : « ياسيدى ساءنى تهجينك إياى .. وإن من أعيا العى ، الجواب عما لاجواب له ! .. والسلام » ! ..

فلما بلغته رقعتى قرأها على صحبه وقال لهم :

ـ أرأيتم كيف فطنت الجارية إلى أننى إنما كتبت إليها ثرثرة لامعنى لها ؟! ..

قال القوم :

ـ والله .. إن دنانير جاريتك هذه لأعظم قدرا من دنانير جارية البرامكة ! ..

قال سيدى :

ـ صدقتم والله .. فإنى سمعت غناء دنانير البرمكية مرة ، فوالله ماأراها تعدل فى الغناء دنانير جاريتى .. أما الأدب والذكاء والكمال فليس لجاريتنا فيها مثيل فما رأينا ولاسمعنا أفضل منها ! ..

## ● اليوم الرابع :

زوارنا اليوم كثيرون .. جاءنا واحد من العلماء النبهاء فذاكره سيدى فى شىء من الأدب والعلم ، حتى قال له الرجل :

ـ ياأبا يحيى .. والله إنى لأستحسن أبياتك التى أولها : « ومن عجب الدنيا » .. وأريد أن أكتبها فلاتضيع منى فهلا أنشدتنيها ؟ .. فأنشده سيدى هذه الأبيات

**ومن عجب الدنيا تُبقِّيكَ لِلْبِلَى**
**وانـك فيهـا للبقـاء مُرِيدُ**
**وأى بـنى الأيام إلا وعنـده**
**من الدهر ذنب طارف وتليد**
**ومن يأمن الأيام .. أما انبياعها**
**فَخَطْـرٌ وأما فَجْعُهَـا فعتيد**
**إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى**
**فإن فطام النفس عنه شديد**

فلما كتب الرجل الأبيات وانصرف ، قلت لسيدى

ـ ماهو « الانبياع » ؟ .. وماهو « الخطر » ؟ .. بسكون الطاء ـ فى البيت الثالث من هذه الأبيات ؟!

أجاب

ـ الانبياع هو الوثوب بعد السكون ! .. تكون الدنيا ساكنة هادئة فينخدع بها المرء حتى تثب عليه وثبا فتقتله أو تسلبه عافيته أو تهتك ستره .. وأما الخطر ، فهو ضرب البعير الهائج بذيله يمينا وشمالا .. أردت تشبيه الدنيا حين تهيج على صاحبها بهذا البعير حين يهيج على صاحبه ! ..

ثم قال لى :

ـ يادنانير ! إياى تخدعين ؟! .. أترين أنى لا أدرى معرفتك بهذا الكلام كله ؟! .. وإنما أردت أن تسلينى وترفهى عنى ، وتعرفينى أنك معجبة بشعرى ! ..

قلت له :

ـ والله ياسيدى إنك لمن أشعر الناس ، وانى سمعت اسحاق الموصلى يوما يقول لك وقد سمع بيتين من شعرك فاهتز لهما إعجابا :

ـ ياأبا يحيى .. وددت أنه نقص من عمرى سنتان وأنى كنت سبقتك إلى هذين البيتين ! ..

فأطرق ابن كناسة لحظة ثم سألنى

ـ قد نسيت ذلك ، فما هما البيتان ؟!

قلت

ـ بيتاك ياسيدى اللذان تقول فى أول شطر منهما : « فيَّ انقباض وحشمة .. » !

فابتسم ابن كناسة سرورا وقال :

ـ لله درك يادنانير .. قد أذكرتنى من نسيان ، وشوقتنى والله إلى اسحاق الموصلى ! ..

واندفعت ، حين ذكر اسم الموصلى ، فغنيته البيتين :

**فيَّ انقباض وحشمة فإذا**
**صادفت أهل الوفاء والكرم**
**أرسلت نفسى على سجيتها**
**وقلت ماقلت غير محتشم**

فطرب لغنائى طربا ماعهدته من قبل ، ثم بكى وقال

ـ قد كبرت سنى ، وضعفت عن مواصلة إخوانى بالزيارة ، ولولا ذلك لقمت الساعة فركبت إلى الموصلى .. ثم أنشد

**ضعفت عن الاخوان حتى جفوتهم**
**على غير زهد فى الوفاء ولا الود**
**ولكن أيامى تَخَرَّمْنَ مُنَّتِى**
**فما أبلغ الحاجات إلا على جهد**

وسمعنا طرقا على الباب فإذا بصديق لابن كناسة جاء يزوره فرحب به ، وأخذا يتجاذبان الحديث ..

صديقه هذا رجل كثير المزاح ، لكنه تقى عفيف ، يدخل إلينا فيسمع غنائى ، ويلمح لى بهواه فلا أجيبه بشىء .. ولكنه اليوم أكثر من التلميح فى سياق مزاحه ، فغنيت :

**يا فؤادى فازدجر عنه ويا**
**عبث الحب به فاقعد وقم**
**صائد تأمنه غزلانه**
**مثلما تأمن غزلان الحرم**

ففهم الرجل ما أعنى ، وفهم ابن كناسة كذلك ، ومازالا يطربان على غنائى ولايشربان كما اعتاد جميع الناس أن يفعلوا حتى قام الرجل يستأذن فى الانصراف ..

لم يكد الرجل ينصرف حتى أقبل صديق آخر من أصدقاء ابن كناسة يتعاطى العلم ، وكان يكتب الحديث ويتفقه ويتتلمذ على « ابن كناسة » ويظهر فى حضرته أدبا ونسكا .. ثم اطلع منه ابن كناسة على باطن ردىء يخالف ظاهره الحسن ، فلم يعد يطيق مجالسته لتناقض ظاهره وباطنه ، وتكذيب أعماله لأقواله ..

فلما جلسا لم يفاتحه ابن كناسة فى شعر ولا أدب ولاحديث ولافقه ، واكتفى بإنشاده هذه الأبيات

**مامن روى أدبا فلم يعمل به**
**ويكف عن دفع الهوى .. بأديب**
**حـتى يكون بما تعلمً عامـلا**
**مـن صـالح فيكون غير معيب**
**ولقلما يغنى إصـابـة قائـل**
**أفعالـه أفعال غـير مصـيب**

ففهم الرجل ما يعنيه ابن كناسة ، وقام يعتذر إليه ويحلف أنه قد تاب وأناب .. ثم انصرف ! ..

## ● اليوم الخامس :

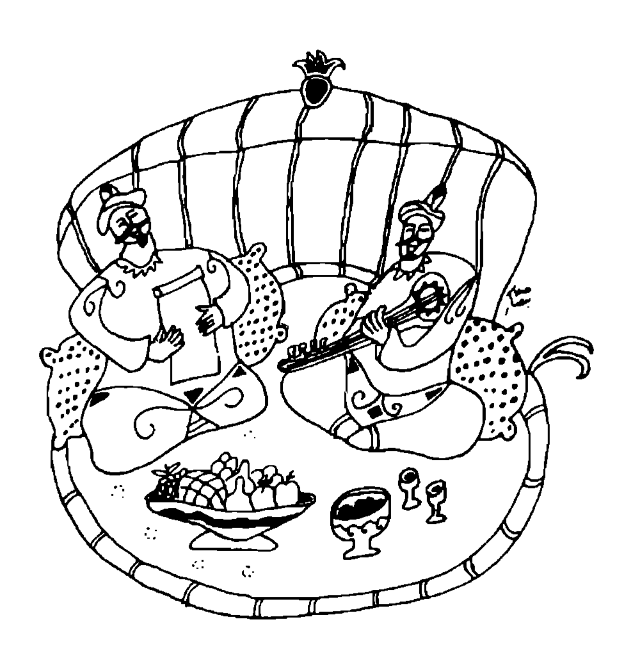
« هذا اليوم لم تكتبه دنانير ، وإنما كتبه سيدها محمد بن كناسة .. قال » :

ـ ماتت جاريتى دنانير المغنية الأديبة العفيفة التى كانت أنس حياتى ! .. يرحمها الله ! .. ويعجل بى بعدها إلى رحمته ! ..

أفحمنى موتها وجاء الناس يعزوننى ، إلا امرأتى فإنى أحسست حركتها فى البيت ، كأنها امتلأت مرحا ونشاطا .. فقلت أرثى دنانير :

**الحـمـد لله لاشـريـك لـه**
**ياليت ماكان منك لـم يكن**
**إن يكن القول قَلَّ فيك فما**
**أفحمنى غير شدة الحَزَنِ !**

# هدية الموصلى إلى البرامكة



## ● اليوم الأول :

نشأتى كانت متواضعة فقيرة ، لا أمل فى تغييرها وكيف يتسنى تغييرها وأبى جزار فقير ، من أفقر الجزارين بالكوفة ، لم يكن يملك محل جزارته ، ولا الذبائح التى فيه ، لأنه هو نفسه كان عبدا مملوكا ، اجتلبه سيده من سوق الرقيق وكلفه أن يذبح الخراف والثيران والجمال ويبيعها لأهل الكوفة ! ..

ومن لحظة ميلادى صرت مملوكا مثل أبى للرجل صاحب المال والجاه الذى يمت بالنسب إلى حاكم الكوفة ! ..

كبرت قليلا فصرت أساعد أبى المسكين فى عمله ، حتى بلغت بضع عشرة سنة من عمرى ، فاكتشفت كما اكتشف الناس أن لى صوتا فائق الجمال .. كان أبى يأمرنى أن أنادى على مايبيعه من اللحوم ، فأرفع صوتى وأنادى وأترنم وأتصرف فى المناداة حتى اعتاد الناس أن يجتمعوا كل يوم عند دكان اللحوم ليسمعوا صوتى ! بعضهم يشترى اللحم محبة فى سماعى ! .. وبعضهم يسمع ولايشترى ! ..

علم سيدى بجمال صوتى فأخذنى إلى مغنية بارعة فى الكوفة وطلب إليها أن تعلمنى الغناء وضرب العود ، فلما سمعت المرأة صوتى هالها جماله فاشترتنى من سيدى ، وثابرت على تعليمى حتى أخذت عنها كل ماتعرفه من صناعة الغناء وضرب العود ، ولم يكن كثيرا

ذات يوم ألبستنى المرأة ثيابا جديدة وسافرت بى إلى بغداد ، فعرضتنى على نخاس يبيع المغنين والمغنيات .. قال لها : اذهبى به إلى ابراهيم الموصلى ، فإن كان له صوت جميل حقا فسيشتريه منك ! ..

سمعنى ابراهيم الموصلى ، ثم قال للمرأة :

- كم درهما تأملين من بيع هذا الغلام ؟! ..

قالت مغالية فى الثمن :

- عشرة آلاف درهم !

قال الموصلى ضاحكا :

- قد أخذته بها ، وهو خير منها ! ..

ندمت المرأة ، واستعطفت الموصلى أن يعفيها من البيع بهذا الثمن « البخس » وقالت فى إصرار :

- لا أبيعه إلا بعشرين ألف درهم ! ..

قال الموصلى ساخرا

- قد أخذته بها وهو خير منها !

صرخت المرأة :

- أقلنى .. أقالك الله من كل عثرة خذه بثلاثين ألف درهم لا أمتنع بعدها من بيعه لك ! ..

غاظها الموصلى قائلا بلا مبالاة :

- قد اشتريته بثلاثين ألف درهم ، وهو خير منها !

ارتسم الغيظ فى وجه المرأة ولكنها صفقت على يد ابراهيم وبايعته ، وأعطاها ثلاثين ألفا ، ثم زادها ثلاثة آلاف درهم وقال لها : هذه تكون لهدية تهدينها ، أو كسوة تكتسينها ، ولاتثلمين المال ! .

فرحت المرأة بهذه الآلاف الثلاثة أكثر من فرحتها بالثلاثين ألفا .. وعرفت أنا منذئذ أن ابراهيم الموصلى إنسان طيب كريم ..

## ● اليوم الثانى :

تعلمت كثيرا من أمور الفن وأمور الدنيا منذ صرت مملوكا لابراهيم الموصلى وعرفت أن ماتعلمته عند سيدتى الكوفية من الغناء ، لايزيد على قطرة من بحر هذه الصناعة الكبرى .. ووجدت الموصلى بحرا فى هذه الصناعة لاساحل له ، فاغترفت منه ماشئت من لؤلؤ لامثيل له عند أحد غيره من عظماء هذه الصناعة ..

أخذنى سيدى إلى الوزير الفضل بن يحيى البرمكى فسمعنى ثم سأل سيدى أن يبيعنى إياه ، فقال سيدى بصدق وكبرياء :

- أبيعه بثلاثة وثلاثين ألف دينار ، وقد أشتريته بثلاثة وثلاثين ألف درهم ! ..

امتنع الفضل بن يحيى من شرائى بهذا المبلغ ، كأنه استكثره ، فغضب الموصلى وقال له :

- فأنا أهبه لك أيها الوزير ولا أقبل أقل من ثمنه ! ..

قال الوزير من فوره :

- قد قبلته ! ..

هكذا صرت غلاما للوزير ، وغاظنى أنه ساوم فى ثمنى ولم يعرف قيمتى ، مع أن الموصلى قال له وهو يحاوره :

- أيها الوزير .. هذا الغلام لم يكن لأحد فى الدنيا صوت كصوته ، ولايكون أبدا

## ● اليوم الثالث

في سهرة الرشيد ، كانت أخبارى قد وصلت .. قال الرشيد لابراهيم الموصلى

ـ يا ابراهيم .. ماغلام بلغنى أنك وهبته للفضل ؟! ..

قال الموصلى :

ـ غلام يا أمير المؤمنين ، لم تملك العرب ولا العجم مثله صوتا ، ولايكون مثله أبدا

سأله الرشيد

ـ كم يساوى ؟! ..

أجاب الموصلى فى حماسة وانفعال

ـ يساوى خراج مصر وضياعها ! ..

دهش الرشيد وقال للموصلى :

ـ ويلك ! .. أتدرى ماتقول ؟! .. مبلغ هذا المال جسيم جدا ! ..

فثبت الموصلى فى موقفه ، ولم يهدىء من حماسته ، وقال :

ـ ومايكون هذا المال فى صوت لم يملك أحد مثله قط ؟! ..

أخذنى الرشيد من الفضل بن يحيى ، ووقفت لأول مرة أغنى بين يديه ، كما يغنى الغلمان المبتدئون ، أما المطربون الكبار فيغنون جالسين ..

سمع غنائى فطرب حتى كاد يطير فرحا ، وقال لى :

ـ يا مخارق .. إجلس مع أصحابك ، فقد تجاوزت مرتبة من يغنى واقفا ! ..

ووصلنى بثلاثة آلاف دينار ، وهى صلة يطمع فى مثلها كبار المطربين الذين يغنون بين يديه منذ عشر سنوات أو أكثر !

## ● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد :

**ياربع سلمى لقد هيجت لى طربا**
**زدت الفؤاد على عـلاته وصبا**
**ربــع تبـدل ممن كـان يسكنه**
**عفر الظباء وظلمانا به عُصَبًا**

فبكى الرشيد ، وقال لى

- أحسنت يامخارق ، فسلنى حاجتك ! ..

فانطلقت أقول كأنى أخشى فوات الفرصة :

- حاجتى أن تعتقنى يا أمير المؤمنين أعتقك الله من النار ! ..

- أنت حر لوجه الله ! .. فأعد الصوت ..

فأعدته فبكى وشرب رطلا ثم قال :

- أحسنت يامخارق فسلنى حاجتك ! ..

قلت

- ضيعة أنتفع بغلتها .. ومنزل وفرش وخدم ! ..

فأمر لى بكل ذلك ! .. ثم استدعى قائد جيشه هرثمة بن أعين ، فدخل إليه وهو يجر سيفه الثقيل ، فقال له الرشيد :

- ياهرثمة .. أتتذكر مخارقا الخارجى الذى قتلناه بناحية الموصل ؟! .. ماكانت كنيته ؟! ..

قال هرثمة كأنه يقرأ من كتاب :

- كنيته « أبو المهنأ » ..

قال له الرشيد :

- انصرف ! ..

انصرف هرثمة ، لكونه من رجال الحرب ، فهو ممنوع من حضور مجالس الغناء فى حضرة الخليفة .. وقال لى الرشيد :

- قد كنيتك أبا المهنأ لاحسانك ، وأمرت لك بمائة ألف درهم ! ..

## ● اليوم الخامس :

طرق باب بيتى الشاعر أبو العتاهية الذى نسك وزهد فى الدنيا كما يزعم ، مع أن بيته مشحون بالأموال التى كسبها من العطايا ولم ينفق منها إلا دراهم معدودة ! ..

قال لى ابو العتاهية وهو يتربع جالسا :

- يا أحسن من غنى فى هذا الاقليم ! .. ياحكيم أرض بابل ! ..

أصبب فى أذنى شيئا من غنائك يفرح به قلبى ، وتنعم به نفسى ! ..

غنيته فجعل يبكى بحرقة ، ويكاد يمشى على وجهه طربا .. ثم قال لى :

- يادواء المجانين ، لقد رق صوتك حتى كدت أحسوه ، فلو كان غناؤك شرابا لكان

ماء الحياة ! ..

لم يكد أبو العتاهية ينصرف حتى خطر لى أنه سيموت وأنى لن أراه بعد هذه الساعة ، فصرت إلى داره فوجدته قد خلع ملابسه وجلس عاريا فى أناء اسطوانى من الفخار يظهر صدره من أعلاه ، ويظهر من أسفله ساقاه إلى ركبتيه ، وسائر جسده عار داخل الاسطوانة ..

أذهلنى منظره ، ثم انفجرت ضاحكا من هذا الرجل الملتاث ، وقلت له :

- ويحك يا أبا العتاهية ! .. ماهذا الذى صنعته بنفسك ؟!

بكى وقال :

- هذا والله مقدار حاجة الحى من الدنيا ، ولكن حاجة من عاش لاتنقضى ! ..

قلت

- أفتستغنى بهذا عن كل لباس على جسمك ؟! .. فإن الله لم يأمر بذلك ، وإنك لتعلم أن المتقين يلبسون الحرير فى الجنة ، فليس العرى من الدين فى الدنيا ولا فى الآخرة ! ..

خجل أبو العتاهية وسألنى أن أنتظره حتى يرتدى ملابسه فى إحدى الحجرات ..

فلما ارتداها جلسنا وأمر بطعام وشراب فطعمت قليلا ، وشربت أقل من القليل ، وتولى هو ابتلاع « المائدة » كلها طعاما وشرابا .. ثم قال لى :

**سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى**
**ويحدث بعدى للخليل خليل**
**إذا ماانقضت عنى من الدهر مدتى**
**فإن غَنَاء الباكيات قليل**

غنيته فى شعره هذا فبكى حتى اخضلت لحيته ، وقال لى :

- إذا حانت مدتى ودعاك أهلى إلى رؤيتى فلاتتأخر عنى ، واصبب فى أذنى هذين البيتين قبل أن أسلم الروح ! ..

تأثرت من حال هذا الرجل الذى صار فى شيخوخته خليطا من الضعف والعته وحب الدنيا وكراهية الناس والرغبة فى الموت والخوف منه ! ..

## ● اليوم السادس :

عشت حتى الآن سبعين عاما ومازال صوتى أجمل صوت سمعه الناس من عصر الرشيد إلى عصر حفيده المتوكل على الله .. وأنا صحيح معافى ، لكنى أشعر بأن دنياى قد انتهت ! .. لقد تغيرت دنياى ودنيا الناس من عهد الرشيد إلى عهد

المتوكل .. أكثر من خمسين عاما ، غنيت فيها لستة خلفاء ولمئات الأمراء والوزراء والكتاب وغيرهم ! .. وعشت كما يعيش أغنى أغنياء بغداد ، بعد أن بدأت حياتى فى الكوفة أنادى على اللحوم فى دكان جزارة سيدى وسيد والدى الذى باعنى ، فانتقلت منه إلى السيدة التى باعتنى .. إلى الموصلى .. إلى الوزير البرمكى .. إلى الخليفة الرشيد .. إلى أن صرت المطرب الأول فى بغداد ، وكسبت ما لو أردت أن أشترى به مائة ألف دكان للجزارة لفعلت ! ..

أنا لا أحب اللحم ، وبالأمس قال لى ضارب رمل إننى سأموت قريبا مسموما من أكل قنبيطية باردة ! .. وحذرنى الرجل من أكل كل طعام بارد ! ..

الحياة نفسها صارت باردة كالشتاء ، فلتجىء النهاية كما تشاء .. حارة ، أو باردة ! ..

# بين الغناء والتسلية



● اليوم الأول

● مازلت أذكر والدتي ـ رحمها الله ـ كانت من أحسن النساء وجها ، ولا مثيل لها في جودة الغناء .. حدثتني كثيرا عن جارية زميلة لها تسمى «بصبص» .. كانتا معا في «المدينة» .. ثم بيعت والدتي إلى والدي المهدي ـ رحمه الله ـ وبقيت «بصبص» في المدينة تغني لأهلها ..

كانت والدتي تسمى «مكنونة المروانية» .. وليست من آل مروان بن الحكم ، وقد غلبت بجمالها وغنائها على أبي ـ رحمه الله ـ حتى كانت زوجته الخيزران والدة هارون الرشيد وموسى الهادي تقول : ما ملك المهدي جارية أغلظ على قلبي من مكنونة المروانية ! ..

من والدتي تعلمت الغناء ، وكانت زميلتها «شكلة» جارية أبي ووالدة أخي ابراهيم ابن المهدي ، تألفها وتتودد «إليها .. ومن والدتي تعلم ابراهيم بن المهدي أول ما تعلمه من الغناء ، فكنت أنا وهو نتعلم منها معا .. وقال كل من سمعنا من أهلنا ومن المغنين المحترفين : ما سمعنا قط أخوين أحسن غناء من عُلَيَّة وأخيها ابراهيم ..

والناس يظلمون الآن أخي ابراهيم بعد أن كبر واشتهر بالغناء ، ويظنون الغناء تبذلاً منه ، وليس كذلك ، وانما أكتمل بالغناء ، وقد شهد له اسحاق الموصلي الذي لا يشهد بشيء حسن لأحد من الناس إلا نادرا ، فقال : «ما ولد العباس بن عبدالمطلب بعد عبدالله بن العباس ، رجلا كابراهيم بن المهدي» .. ذلك أن ابراهيم رجل عاقل ذكي متدين شاعر راوية للشعر وأيام العرب ، خطيب فصيح حسن العارضة .. لم ينتقص الغناء من فضله بل تم فضله به ، مع تصرف في الفقه وسائر العلوم الشريفة والآداب العالية ! ..

وهو يصنع الألحان وينسبها إلى جاريتيه «ريق» و«شارية» ترفعا عن الدخول في مضمار الملحنين .. وإذا قيل له في ذلك شيء ، قال : إنما أصنع الألحان تطربا لا تكسبا .. وأغني لنفسي لا للناس ! ..

فهذا هو شأن أخي ابراهيم في الغناء ، وإن أكثر القول فيه عائبوه من الخاصة والعامة

ولا أطيل الدفاع عن أخي ، فما هو عندي بمتهم ولا عند من يعرفه من أهل العلم وكبراء الدولة ، فضلا عن أخيه أمير المؤمنين الرشيد ..

أما أنا ، فوالله إني لحسنة الدين ، لا أغني ولا أقرب شرابا إلا إذا كنت معتزلة الصلاة لعذر شرعي ، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، ولا ألذ

بشيء غير قول الشعر أحيانا ، إلا أن يدعونى أخي الخليفة إلى شيء من الغناء فلا أقدر على مخالفته .. وإني لأقول لنفسي وللناس : ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضا .. فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته ؟! ..

وإنما يرميني بعض الناس بالتهم لما يقرأونه في بعض شعرى من العبث ، ووالله ما في شعرى إلا مجرد الكلام ، وإني لأقول فيه مالا أفعل ، ولا غفر الله لى فاحشة ارتكبتها إن كنت ارتكبت فاحشة قط ! ..

ومن هذا العبث الذى هو كلام لا غير ، ما نظمته في خادم اسمه «طل» .. من خدم أخي هارون الرشيد ، فحلف الرشيد ألا أكلم خادمه ولا أسميه باسمه أبدا ، فضمنت له ذلك .. فبينما أنا أقرأ سورة البقرة يوما بلغت إلى قوله عز وجل «فإن لم يصبها وابل فطل» .. وإذا بأمير المؤمنين قد جاء إلى مجلسي ، وقد سبق لى أن ضمنت له ألا أذكر اسم خادمه «طل» أبدا .. فقرأت وهو يسمع «فإن لم يصبها وابل ..» .. ثم قطعت ، وقلت : «فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» ..

فتنبه الرشيد إلى ذلك وقبل رأسي ، وعرف أنه قد اشتد في التضييق علىّ حتى في ذكر الأسماء ، وقال لى لا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه ! ..

ولما نظمت هذه الأبيات :

**أيا سروة البستان طـال تشوقي**
**فهل لى إلى ظل لديك سبيل**
**متى يلتقي من ليس يقضى خروجه**
**وليس لمن يهوى إليه دخول**
**عسى الله أن نرتاح من كربة لنا**
**فيلقى اغتباطا خلة وخليل**

زعم بعض من سمع هذا الشعر أنه غزل نظمته في «طل» وصحفت اسمه في أول بيت .. فغاظني قولهم ، فلحنت الشعر وغنيته ! ..

ولى خادم اسمه «رشأ» .. فلما نظمت الأبيات التى أولها :

**وجــد الفـؤاد بزينبـا**
**وجــدا شديــدا متعبــا**

قال أولئك الناس : علية بنت المهدى تنظم الشعر في خادمها «رشأ» .. وتكنى عنه بزينب ! ..

● **اليوم الثاني :**

سمعت أن أسحاق الموصلي عمل لحنا جميلا في هذين البيتين

سقيا لأرض إذا ما نمت نبهني
بعد الهُدُوِّ بها قرع النواقيس
كأن سوسنها في كل شارقة
على الميادين أذناب الطواويس

دعوت اسحاق ، وسمعت منه اللحن فأعجبني كل الإعجاب ، فقلت له
ـ يا اسحاق .. أنت أعددت هذا اللحن للخليفة ، ولكنه قد يسمعه فلا يأمر لك بشيء ، ولا يقع غناؤك منه بحث توخيت ، فيذهب سعيك باطلا ! .. وهذه عشرون ألف درهم وعشرون ثوبا ، تأخذها منى وتعطيني هذا اللحن فإني قد حفظته منك الساعة !

قال اسحاق متخابثا
ـ فلعل اللحن لم يستقم لك ، فأسمعيني إياه ، فإن كان فيه شيء لم يستقم لك بعد بصرتك به ! ..
إندفعت فغنيته اللحن وقلت له :
ـ كيف تراه يا اسحاق ؟!
ـ أراه أحسن ما يكون الغناء ! .. والله ما صافح سمعي غناء أجمل منه قط ! ..

فأحضرت له عشرين ألف درهم وعشرين ثوبا أخرى ، وقلت له بحزم :
ـ يا اسحاق .. هذه أربعون ألفا .. هي ثمن لحنك هذا ، وأنا الآن داخلة إلى أخي أمير المؤمنين الرشيد لأغنيه هذا اللحن وأدعيه لنفسي وأنه من صنعتي .. ووالله لئن نطقت أن لك فيه صنعة لأقتلنك ! ..

فأخذ اسحاق جائزته وانصرف واجما ، كأنه محزون على اللحن ، وإنه لضنين بألحانه ، وكان خليقا أن يكسب بلحنه هذا مائة ألف درهم وأكثر لو غناه للرشيد ! ..

● **اليوم الثالث** :

أهدى بعض حكام الأقاليم إلى أخي الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال ، فانقطع لها يوما ، ودعا كل جارية إلى مجلسه واصطبح ، فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخادمات في الطعام والشراب ، زهاء ألفي جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ، فكان أحسن منظر تراه العيون ! ..

ولم يدع إلى هذا المجلس زوجته زبيده والدة ولي عهده محمد الأمين ، فغلظ ذلك عليها ، وحزنت ولم تجد من تشكو إليه سواي ، فأرسلت لي رقعة تشرح فيها أمرها ، فكتبت إليها : «لا يهولنك هذا ، فوالله لأردنه إليك ، وقد عزمت أن أصنع شعرا وأصوغ فيه لحنا وأطرحه على جواريّ ، فلا تبقى جارية من جواريك إلا بعثت بها إلى داري ، وألبسيهن جميعا ألوان الثياب ليأخذن هذا اللحن مع جواريّ» ..

ففعلت زبيدة ما أمرتها به كله ، حتى جاء وقت صلاة العصر ، فلم يكد الرشيد

يفرغ من أدائها ، حتى خرجت إليه من حجرتى ، وخرجت زبيدة مع جواريها من حجراتهن ، فاجتمع فى حضرة الرشيد منهن زهاء ألفى جارية عليهن غرائب الثياب ، وغنين فى لحن واحد هزجا صنعته لهذا اللقاء خاصة :

**منفصل عنى وما قلبى عنه منفصل**

**يا قاطعى اليوم لمن نويت بعدى أن تصل**

فطرب الرشيد ، وقام على رجليه حتى استقبل زبيدة ، واستقبلنى وهو على غاية السرور ، وقال لنا

ـ لم أر كاليوم قط ! ..

ثم التفت إلى خادمه مسرور فقال له

ـ يا مسرور لا تبقين من المال درهما إلا نثرته على الجوارى ! ..

فكان مبلغ ما نثره عليهن ستة آلاف ألف درهم ! .. وما سمع أحد بمثل ذلك اليوم قط ! ..

● **اليوم الرابع :**

جاءت عندى الجارية المغنية الحاذقة «عريب» .. وهى مازالت صغيرة السن ، ولكنى أراها مطبوعة على التلحين ، جميلة الصوت .. وإن لها لشأنا عظيما فى المستقبل بين الجوارى المغنيات المبدعات فى الصناعة ..

قالت لى عريب :

ـ يا سيدتى كم لحنا لك حتى الآن ؟! ..

قلت :

ـ ستون لحنا .. وأظن أنى لن أخرج من هذه الدنيا حتى أجاوز سبعين لحنا

دعت لى عريب بطول العمر ، وقالت لى

ـ يا سيدتى إنى حفظت من ابراهيم الموصلى لحنا من ألحانك .. أفتحبين أن أغنيه ، حتى أكون قد أخذته عنك لا عن الموصلى ؟! ..

ضحكت لظرف عريب وأعجبنى ذكاؤها فأمرتها بغناء اللحن ، فغنت :

**يا مورى الزند قد أعيت قوادحه**
**اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس**
**ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم**
**إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس**

فسمعت من عريب أجمل صوت فى أحسن أداء ، وطربت أشد الطرب ، وبدا اللحن لى جديدا كأننى لم أصنعه ولا عرفته قط ..

فبينما نحن كذلك ، جاء أخواى : ابراهيم ويعقوب .. فأما ابراهيم بن المهدى فهو صاحب أجمل الأصوات الرجالية فى عصرنا ، لا أستثنى مخارقا ولا ابن جامع ولا

غيرهما من أصحاب الأصوات الجميلة التى سمعتها .. وأما يعقوب بن المهدى فهو أحذق الناس بالزمر ..

بدأت فغنيت لحنا لى ، وأخى يعقوب يزمر على غنائى بنغمة عجيبة

**تحبب فإن الحب داعية الحب**
**وكم من بعيد الدار مستوجب القرب**

فلما فرغت من غنائى ، غنى أخى ابراهيم فى صنعته وزمر عليه يعقوب :

**يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت**
**نفس بحبك إلا الهم وَالحَزَنُ**
**لم ينسنيك سرور لا ولا حزن**
**وكيف لا ! .. كيف ينسى وجهك الحسن**
**ولا خلا منك قلب لى ولا جسد**
**كلى بكلك مشغول ومرتهن**
**نور تَوَلَّدَ من شمس ومن قمر**
**حتى تكامل منه الروح والبدن**

ثم غنيت وابراهيم معا ، وزمر علينا يعقوب ، فوقعت الجارية عريب على الأرض طربا ، فلم نبال بها وظنناها تفيق بعد لحظة فما أفاقت ، فقطعنا غناءنا وجسسناها فإذا هى قد غشى عليها ! ..

جاء طبيب مسرعا ، فلم يزل يداويها حتى أفاقت ، فلما استردت وعيها وجلست واستراحت ، قلت لها مشفقة :

ـ يا عريب مادهاك يا بنيتى ؟! ..

قالت لى ودموعها على خديها :

ـ يا سيدتى .. والله ما سمعت مثل الذى سمعته منكم اليوم قط .. وإننى لأعلم يقينا أننى لن أسمع مثله أبدا ولو عشت أسمع الغناء ألف سنة ! ..

## ● اليوم الخامس

زارنى جعفر بن يحيى البرمكى ، فتجارينا فى الحديث ، وأنا خلف ستارة ، فقال لى : إنى محدثك بقصة أرجو أن تكتميها ثم قال :

ـ منذ عام وبعض عام ، أخذ أمير المؤمنين بيدى حتى انتهى بى إلى حجرة مغلقة ففتحت له ورجع من كان معنا من الخدم ، ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده ودخلت معه وأغلقها من داخل بيده ، ثم صرنا إلى رواق ففتحه وفى صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس فنقر الباب نقرات فسمعنا حسا ، ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود ، ثم أعاد النقر ثالثة فسمعنا صوتا لا مثيل له فى حسن الغناء مع جودة ضرب العود ، فقال أمير المؤمنين : غني صوتى ! .. فغنت من كانت وراء الستار

**ومخنث شهد الزفاف وقبله**
**غنى الجوارى حاسرا ومنقبا**
**لبس الدلال وقام ينقر دفه**
**نقرا أقر به العيون وأطربا**
**إن النساء رأينه فعشقنه**
**فشكون شدة ما بهن فأكذبا**

فطرب الرشيد ، وطربت أنا طربا هممت معه أن أنطح برأسى الحائط لولا توقيرى لأمير المؤمنين !

ثم غنت

**طـال تكذيبـى وتصديقـى**
**لـم أجـد عهـدا لمخلـوق**
**إن ناسا فى الهوى غدروا**
**أحدثـوا نقـض المواثيـق**
**لا ترانى بعـدهم أبـدا**
**أشـتكى عشقـا لمعشـوق**

فقمت أريد أن أرقص طربا ، لولا الاحتشام .. وقام الرشيد وأخذنى ، وقال لى : امض بنا فإنى أخاف أن يبدو منك ما هو أكثر من هذا

قلت لجعفر البرمكى :

ـ ومن كانت صاحبة هذا الغناء ؟! ..

قال

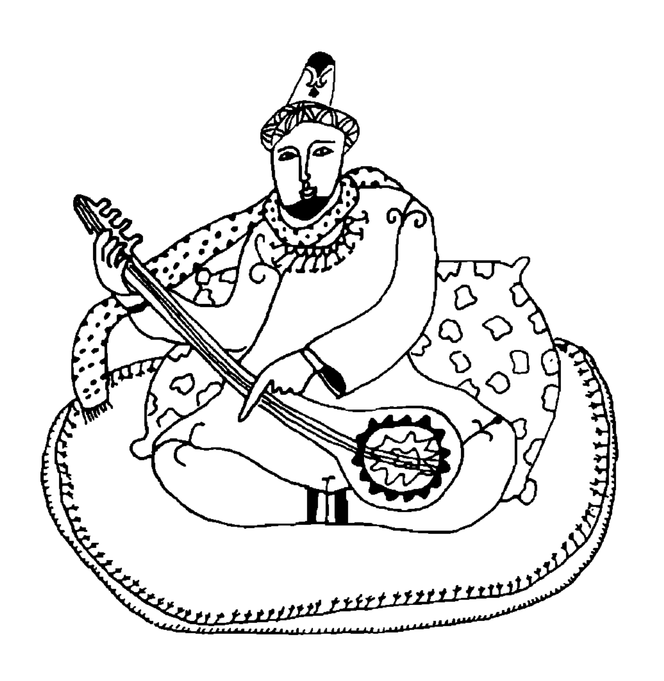
ـ لا أدرى ! ..

ولكنه فى الحقيقة يدرى أنه يحدثنى عن غناء سمعه منى فى تلك الساعة من ساعات صفو الرشيد ، ويبالغ فى وصف طربه إرضاء لى ، والتماسا لحسن ظنى ! ..

والرشيد لم يقل له إننى صاحبة ذلك الغناء ، فهل كان جعفر يحتاج إلى كلام فى ذلك اللقاء ليعرف صوتى من وراء حجاب ؟! ..

ما أشد دهاء جعفر البرمكى .. ويا له من ظريف أديب أريب ! .. ولكن أخى الرشيد ظريف أديب أريب داهية أكثر منه وأعجب .. وأطرب ! ..

# المغـــنى الراويــة



● اليوم الأول :

أول ما طرق سمعى حين ولدت ، رنين العود .. فقد كان أبى من أكابر المغنين المتفوقين فى الغناء وضرب العود ! .. وكان بيته لايخلو من رنين العود ليلا ولا نهارا

أبى هو يحيى بن مرزوق المكى ، كان شيخ المغنين والضاربين ورواة الغناء فى عصره نشأ بمكة ثم استوطن بغداد ، فكان أكبر المغنين فيها سنا ، وأعرفهم بالغناء وأوسعهم رواية لصناعة فحول المغنين القدماء الذين أدرك بعضهم فى مكة والمدينة أو أدرك تلاميذهم ورواتهم ..

فكان ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وغيرهما من أعاظم المغنين والملحنين فى عصر الرشيد ، يلجأون إلى أبى ليطارحهم ما يجهلونه من ألحان القدماء ، فلا يعطيهم شيئا إلا بثمن باهظ ، لأنه يعلم أنهم بما يعطيهم يكسبون أضعاف أضعاف ما يغرمونه من المال ...

وكان أبى حريصا واسع الحيلة ، يصنع ألحانا وينسبها للقدماء ، وليست لهم فتجوز هذه الحيلة على من لايعرفون أسرار صناعة الغناء ويتناقلون تلك الألحان ، فوقع التخبط والتخليط فى رواية الألحان ، حتى تتبع اسحاق الموصلى ـ وهو أعلم الناس بالغناء قديمه وجديده ـ ما اخترعه والدى ونسبه للقدماء ، فبين للناس زيفه ، وحذرهم منه ، ووقف بالمرصاد لوالدى فى هذا المجال ، حتى كف عن وضع الألحان ونسبتها إلى القدماء .

وقد رأيت أبى وهو لا يخشى أحدا من المغنين والملحنين إلا اسحاق الموصلى .. فإذا حضرا معا مجلس غناء ، لم يغن أبى الا الصحيح من الألحان ، ولم ينسب لحنا لغير صاحبه ..

وقال لى أبى يوما :

ـ يابنى .. إن كنت كذبت أحيانا على بعض الناس ، فخلطت ألحان القدماء بألحان من صنعتى ، فإنما فعلت ذلك حتى لا يأكلنى المغنون والملحنون ويهدموا مكانتى ويستأثروا بجوائز الخلفاء والكبراء ، وما تطيب نفسى أن أعطى هؤلاء المغنين شيئا بلا ثمن !

قلت :

ـ يا أبى .. طارحنى إذن ألحان القدماء على وجهها الصحيح ، وطارحنى ألحانك ، لأحفظها وأدونها فى كتاب يكون أصلا من الأصول المعمول بها فى صناعة الغناء ، وأكون أنا المكى الصغير وأنت المكى الكبير فى هذه الصناعة ..

فحفظت من أبى مالا أحصيه من ألحان القدماء والمعاصرين ومن ألحانه ،

وجعلتها في كتاب يتداوله الناس الآن ، ولا يكف الوراقون في أسواق بغداد عن نسخه وبيعه .

وتوثقت الصداقة بيني وبين اسحاق الموصلي ، فقال لي يوما :

ـ يا أبا جعفر .. إنك والله من المحْسنين المبرزين في صناعتنا ، ورواياتك كثيرة صحيحة ، وحسبك فخرا أنك أصلحت ما كان والدك ـ رحمه الله ـ قد أفسده بما وضعه من ألحان نسبها الى الأقدمين ، فأنت المكي الصغير ولكنك لا تقل قدرا عن المكي الكبير ..

قلت له

ـ نعم .. قد فعلت ، ولكن صناعة والدي التي نسبها للأقدمين ليست دون صناعتهم !

قال

ـ لو تأملتها لم تجدها كذلك ! .. وهبها كانت مثل صناعتهم في جودتها ، فإن ذلك لا يشفع له ولا لغيره من الوضاعين في هذه الصناعة .. وقد رأيت ما صنع الوضاعون في الشعر .. وحتى في الحديث النبوي الشريف ! ... وهل تقوم الرواية أو يوثق بها إلا بنفي الوضاعين عنها ، مهما خفي على الناس أمرهم ؟ ! ..

## ● اليوم الثاني :

كنت أغني الليلة في دار الحسن بن وهب ، من كبار رجال الدولة ، فدخل علينا اسحاق الموصلي ، فقال صاحب الدار :

ـ يا أبا محمد اشتقنا إليك ، وقد نسيتنا الليلة فأين كنت ؟ !

فاعتذر اليه اسحاق بأنه كان في قصر أمير المؤمنين ولم يفرغ إلا الساعة من نوبته في الغناء والمنادمة ، فخشع الحسن بن وهب حين ذكر اسحاق اسم الخليفة ، وبالغ في الترحيب بإسحاق ثم جلسنا واستأنفنا ماكنا فيه من المسامرة والغناء ..

فلما غنيتهم لحنا ، طرب اسحاق والحسن بن وهب ، ومال الحسن على أذن اسحاق فسمعته يقول له :

ـ يا أبا محمد .. كم يساوي أحمد بن يحيى المكي هذا لو كان مملوكا في سوق الرقيق ؟!

قال اسحاق

ـ يساوي عشرين ألف دينار ! ..

ثم أمرني الحسن بن وهب فغنيت هذا اللحن من ألحان « معبد » سيد القدماء من مطربي « المدينة » وملحنيها :

لولا الحياء وأن الستر من خلقي

إذن قعدت اليك الدهر لم أقم

فطرب الحسن وإسحاق طربا شديدا .. ومال الحسن على أذن اسحاق يسأله

ـ كم يساوى وقد سمعت منه هذا الصوت ، لو كان مغنيا مملوكا يباع فى السوق ؟! ..

ـ يساوى أربعين ألف دينار ! ..

ثم غنيت صوتا ثالثا ، وكرر الحسن سؤاله هذا ، فقال اسحاق : هو بهذا الصوت يساوى ثمانين ألف دينار !

ولم يزالا كذلك سائر الليلة حتى بلغ ثمنى مائتى ألف دينار ، وهما يتضاحكان ، وأنا أتظاهر بأنى لا أسمع مايتهامسان به .. حتى قمت للانصراف فقلت للحسن بن وهب

ـ ماهذا الذى أسمعكما تقولانه ، ولست أدرى معناه !

قال ضاحكا

ـ نحن نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى !

## ● اليوم الثالث :

سهرنا عند الخليفة .. غنى ابراهيم بن المهدى ومخارق وعلويه ، وكان اسحاق الموصلى حاضرا فلم يغن ، وقلما يغنى اسحاق ، ولكنه إذا حضر مجلس الغناء اجْتهد المغنون فى الأداء وجاءوا بأفضل ماعندهم ، وأكبر ما يتمنونه عندئذ أن يرضى عنهم ، فإذا قال لأحدهم أحسنت لم تسعه الدنيا سرورا وزهوا بهذه الشهادة من اسحاق الموصلى ، وقد يؤثرها على جائزة الخليفة ؟ ..

غنيت :

**أبعد الله من يلوم محبا ولحى الله من يحب فيابى**
**رب إلفين أضمرا الحب دهرا فعفا الله عنهما حين تابا**

فعارضنى ابراهيم بن المهدى وخطأنى فيما غنيت ، فاستشهدت باسحاق الموصلى ، وقلت له :

ـ أتراه صحيحا أم خطأ يا أبا محمد ؟ !

ـ بل أراه صحيحا ..

واتبعه علويه ومخارق وغيرهما فقالوا :

ـ صدق يا أمير المؤمنين اسحاق ..

فالتفت إلىّ ابراهيم بن المهدى فقلت

ـ أنا أغنى ثلاثين لحنا قديما ، لاتعرف منها لحنا واحدا ..

ثم اندفعت فغنيت عشرة ألحان كلها من الغناء القديم من صنعة الملحنين والمغنين المكيين الحذاق الخاملى الذكر الذين حفظت غناءهم عن أبى ، فاستحسن الخليفة ما غنيت ، وأمر لى بألفى دينار ، وأمر ألا يراجعنى أحد من المغنين ولايعارضنى أحد

ففزت وحدى فى هذه السهرة بالجائزة ، ولم يغن فيها أحد غيرى ، ولا نال جائزة ..

وسأل الخليفة اسحاق الموصلى :

ـ ما تقول يا اسحاق فى المغنى الذى يسمونه « وجه القرعة » ..

ـ قال اسحاق :

ـ مغن صالح الغناء لبق الأداء !

ـ فما تقول فى أحمد بن يحيى المكى

ـ بخ بخ .. ذاك المحسن المجمل الضارب المغنى القائم بمجلسه ، لايحوج أهل المجلس إلى غيره ! ... وقد رأيت يا أمير المؤمنين كيف انقطع المغنون بين يديه !

● **اليوم الرابع** :

توفى الخليفة الواثق منذ أسابيع ، ودخلت الليلة على الخليفة المتوكل ، فقال لى لا تغننى « عش عمر نوح » ! ..

فانكسرت وجلست محزونا ، ذلك أننى فى آخر ليلة بمجلس الواثق كنت قد غنيته :

**فعش عمر نوح فى سرور وغبطة وفى خفض عيش ليس فى طوله إثم**
**تساعدك الأقدار فيه وتنثنى اليك وترعى فضلك العرب والعجم**

فلم يعش الواثق إلا يوما واحدا بعد سماعه هذا الصوت ، وكذلك كانت قصة الخليفة محمد الأمين مع أبى حين غناه هذين البيتين ، فإنه لم يعش بعد سماعهما إلا مدة ثم خلع وقتل ودالت دولته ! ..

غنى المغنون فى حضرة المتوكل .. فكان منهم أبو حشيشة وزرزور الكبير وعثعث .. فقلت فى نفسى : أين هؤلاء ـ على جمال أصواتهم ـ من فحول المغنين الذين سمعناهم من عصر الرشيد الى الأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق ؟ .. فو الله ما فى هؤلاء المطربين الذين نراهم الآن من يساوى قلامة ظفر مخارق أو ابن جامع أو ابراهيم الموصلى .. أما ألحانهم ، فإنها إذا قيست إلى ألحان اسحاق الموصلى الشامخة الرائعة ، لم تكن إلا كغناء القرادين ! ..

جاء دورى فى الغناء ، فغنيت لحنا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة :

**عندما أبصرننى أثبتننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر**
**قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر**
**قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ !**

فطرب المتوكل طربا شديدا ، وعرف فرق ما بينى صناعتى فى الغناء وصناعة

مطربى هذا الزمن الأخير ، وأمر لى المتوكل بجائزة أكبر من جوائزهم

ثم سألنى المتوكل عن اسحاق الموصلى ، فأخبرته أنه قد ضعف وكف بصره بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتوجع له المتوكل ، وقال : لئن ذهب اسحاق من الدنيا ، ليذهبن صدر عظيم من بهاء الملك ! ..

ثم قال لى :

ـ إن رأيته قادرا على الانتقال من بغداد إلينا فى « سر من رأى » .. فادعه الينا ..

## ● اليوم الخامس

عدت فى حراقة صغيرة الى بغداد ، وقد صارت الحراقات تملأ سطح دجلة ليلا ونهارا ذاهبة إلى « سر من رأى » وجائية منها إلى بغداد

قصدت إلى دار اسحاق الموصلى ، فوجدته قعيدا هناك لايزوره أحد ، وكان بيته فى الماضى مزار الناس كبارا وصغارا ، خاصة وسوقة ..

قال لى اسحاق وقد نقلت اليه رغبة الخليفة

ـ إنى يا أبا جعفر كما ترانى ! .. وإن السفر على حراقة فى الماء يتعبنى ، وأما السفر برا على بغل أو جمل فيكاد يقتلنى ! .. وقد ذهبت أيامى يا أبا جعفر ، ورأيت من الدنيا ما لم يره أحد .. ولكنى لا أعصى للخليفة أمرا .. وأنا على الأهبة لتلبية رغبته ، فأى شىء يعجبه من الغناء ؟ ! ..

ـ الغناء الخفيف والأهزاج !

ـ كذلك ظننت ، فإن الغناء المتقن ينحدر ويضعف شأنه ، وحسبك أن أكثر من يرويه الآن ، الجوارى أمثال عريب وشارية ! ..

صحبت اسحاق الموصلى فى حراقته ، قاصدين « سر من رأى » ورأيت الموصلى يتسمع صوت الماء فى دجلة ، ثم يقول لى

ـ وودت يا أبا جعفر لو استطعت أن أرى ماء دجلة ! ..

لم أحر جوابا .. وصمت اسحاق ولم أنبس بحرف .. حتى انقضت ساعة ، فقال لى اسحاق :

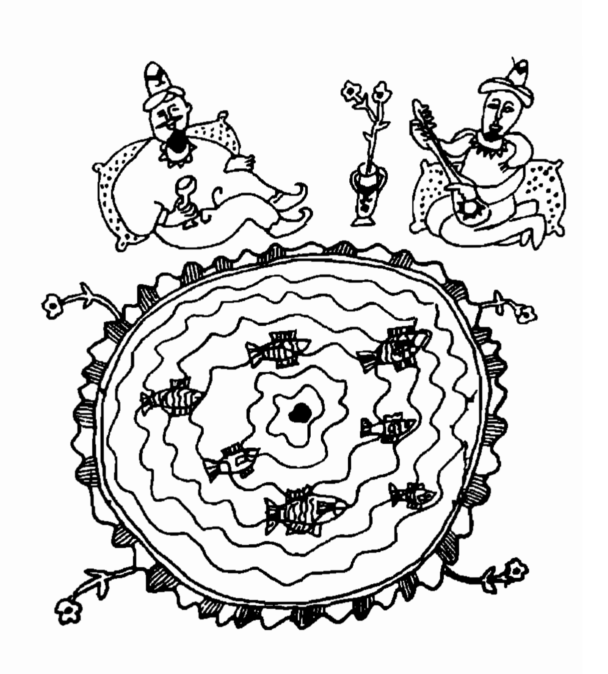
ـ هات العود .. اختبر يدى فيه ، وأختبر صوتى ، أو ما بقى من صوتى ! ..

وفى مجلس المتوكل فى قصره بسر من رأى ، جلس اسحاق على وسادة وأمسك بعوده وغنى هزجا راقصا بديع الصنعة ، وضرب بالعود ضربا لا يلحق به أحد من الضاربين ، حتى رأيت الخليفة يتحرك فى فراشه طربا ، والتفت حولى فإذا الغلمان الخدم ـ وهم واقفون فى أدبهم المعهود ـ قد نسوا أنفسهم فأخذوا يتمايلون يمنة ويسرة مع ألحان الهزج وضربات العود ! ..

وكان هذا آخر ما سمعت من اسحاق ، وآخر غناء حقيقى سمعته بعد أن دالت دولة الغناء ! ..

## يوميات عَلَّوَية :

# الضرب باليد اليسرى



## ● اليوم الأول :

أنا على بن عبدالله بن سيف ! ..

جدى ـ الذى لم أره ـ كان موطنه وراء بلاد العجم ، أو فوق بلاد العجم شمالا ، فى ناحية « الصغد » بين بخارى وسمرقند ..

جاء جدى من موطنه ضمن الأسرى الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفان عند فتح بلاد بخارى وسمرقند ، في عهد بنى أمية الذين كثرت الفتوح في عهدهم ..

عاش جدى إلى أواخر دولة بنى أمية ، وعاش أبى حتى أدرك عهد بنى العباس ، ولا أذكر كيف انتقلت اسرتى من دمشق إلى بغداد فقد كنت حينذاك فى عالم الغيب ! ..

يسموننى « عَلَّوَيْه » .. وهو اسم فارسى ، كأنهم لايرضون باسمى العربى « على » أو يستكثرونه على رجل مثلى من الموالى ..

وكنيتى « أبوالحسن » .. وكذلك كان يكنى الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، غير أننى لست شيعيا ، وإنما أنا رجل من أهل السنة كغالبية سكان بغداد ، وجميع المسلمين أهلى وعشيرتى ! ..

إن سألت عنى الناس ، قالوا لك : علويه ، مطرب حاذق ، ملحن متفنن ، أديب شاعر ، ضارب بالعود يندر مثيله ! ..

وأنا ـ على تفوقى فى ضرب العود ـ أعسر ، استعمل يدى اليسرى ، وعودى مقلوب الأوتار ، البم أسفل الأوتار كلها ، تليه الأوتار الثلاثة الأخرى : المثلث والمثنى والزير ..

أمسك عودى باليمنى ، وأضرب باليسرى ، والعود مقلوب فى حجرى ، ولكن انقلابه هذا هو عندى الاستواء الصحيح ! ..

ولما جلست أول مرة بين يدى استاذى ابراهيم الموصلى ليطارحنى الألحان ويثقفنى فى الصناعة ، فوجىء بأنى أعسر ، استخدم يسراى ، فحاول أن يعلمنى ضرب العود بيمناى فلم يستطع ، فقال لى ضاحكا :

ـ ياعلويه الأعسر .. أنت أحسن ضربا بيدك اليسرى من كثيرين يضربون باليمنى ! ..

صار لقبى « الأعسر » منذئذ ، واهتم بى إبراهيم الموصلى وعلمنى وطارحنى الغناء القديم حتى برعت فقال لى :

ـ أنت أجمل المطربين صوتا بعد مخارق ، وأحسن الضاربين بعد زلزل ، وسأحدث عنك الرشيد ، فإنه يحتاج فى مجلسه إلى مثلك من المطربين الضاربين البارعين ..

ولما التحقت بمجلس الغناء فى قصر الرشيد ، أيقنت أن الحظ ابتسم لى ، فإن مئات المغنين المحترفين من الأرقاء والأحرار ، لهم اصوات حسنة وصنعة طيبة ، ولكنهم لايحلمون بالوصول الى مجلس الرشيد .. والفضل فى وصولى أنا ومخارق والزبير بن دحمان وغيرنا ، يرجع إلى ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق اللذين يرعيان المواهب الحقيقية .. فضلا عمن تعلم على أيديهما من جوارى وغلمان الكبراء والسراة والعظماء ، فإن عدد تلاميذهم هؤلاء مئات كثيرة فى بغداد وسائر مدائن الإسلام ..

● **اليوم الثانى** :

---

الفضل بن الربيع صار وزيرا للخليفة الأمين الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد ، وهو أيضا حاجب الخليفة ، وقد اهمنى ذلك وملأنى غما وكمدا ، فإن ابن الربيع هذا كثير الطعن على غنائى وان كان دائما يقصد الطعن فى اخلاقى واعمالى ، أما غنائى فإن ابن الربيع يعلم اننى من اعظم المغنين ! ..

غنيت فى مجلس الخليفة محمد الأمين لحنا جديدا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة

ليت هندا أنجزتنا ماتعد　　　　وشفت أنفسنا مما تجد

فقال لى الفضل بن الربيع متصنعا الغضب :

ـ ومن هند هذه التى تستنجزها ماتعد ؟! ..

قلت متوجسا شرا :

ـ لا أعرفها ، فالشعر كما تعلم ياسيدى لعمر بن أبى ربيعة !

قال مكشرا عن أنيابه

ـ فى هذا تعريض ! .. كأنك تستبطىء المأمون فى الخروج على أمر المؤمنين ومحاربته ، وقد كنت قديما من حاشية المأمون ..

قلت وأنا بين اليأس والرجاء وقد أذهلتنى هذه التهمة التى رمانى بها :

ـ والله ما كنت عنده إلا مغنيا كسائر المغنين ! ..

ونظرت فرأيت الأمين مغضبا كالحا ، ثم صاح فى غلمانه :

ـ خذوا هذا فاضربوه خمسين سوطا واقذفوا به خارج القصر ! ..

● **اليوم الثالث** :

---

عدت إلى بيتى مثخنا من ضرب السياط ، فعالجنى أهلى بالمراهم وغيرها ، واعتكفت أفكر فى أمرى ! ..

الفضل بن الربيع يريد اقصائى عن مجلس الخليفة ، وفى ذلك بوارى ، فإن خاصة أهل بغداد إنما يطلبوننى لمكانى فى مجلس الخليفة مع أكابر المغنين .. فإذا علموا أنه غضب علىّ وأقصانى ، تجافونى وأغلقوا أبوابهم دونى .. وهذا هو الموت الذى يريده لى الفضل بن الربيع ، وان فى هذا الرجل لرغبة عارمة فى ايذاء

الناس ، وقديما أهلكت دسائسه البرامكة وهم سادة الناس ، فأين أذهب أنا مما يدبر لى هذا الرجل من الأذى ؟! ..

فكرت فى « كوثر » .. غلام الأمين ، الذى يؤثره على جميع غلمانه ، ولايرد له طلبا .. وكل الناس يقولون كوثر .. كوثر .. كوثر ! ..

تعرفت إلى كوثر فى مجلس الخليفة ، وخصصته بنوادر وحكايات وأضاحيك أقصها عليه فيضحك لها ضحك الأطفال ، وعرف كوثر خفة روحى وطيب مجالستى وملاحة نوادرى ، فكان إذا رآنى أقبل فجلس معى ! ..

قلت فى نفسى « لم يبق من حيلة أعود بها إلى مجلس الأمين ، وأقهر بها الوزير ابن الربيع إلا التوسل بكوثر ، فنهضت فطلبت عودى ، وركبت إلى القصر ، فدرت حوله حتى جئت إلى باب أعرف أن الغلمان يدخلون منه ويخرجون كثيرا ، فسألت بعضهم عن كوثر ، فقالوا انه الساعة يخرج للنزهة ! .. فترقبته حتى بصرت به خارجا وبصر بى ، فنادانى ، فطرت اليه ! ..

فلما دنوت منه ، ضحك حتى استغرب ، وقال لى :

ـ لو كنت حاضرا ذلك المجلس لما تركتهم يضربونك يا أبا الحسن ! .. وقد أبلغنى الغلمان نبأ ذلك المجلس ! ..

قلت له متوسلا :

ـ فما أصنع الآن ياسيدى ؟! ..

ـ لاتصنع شيئا .. ولكن تعال بعد ثلاث ليال إلى القصر فستجد الخليفة قد رضى عنك ، وتغنى كعادتك إذا جاء دورك فى الغناء ، وستلقى خيرا إن شاء الله ! ..

وقد كان ، فرددت إلى الخدمة فى القصر ، وأمر لى الأمين بخمسة آلاف دينار ، وعدت الى موضعى من رضاه ! ..

● **اليوم الرابع :**

---

تولى المأمون الخلافة بعد حربه مع أخيه الأمين ، فلما قدم من خراسان الى بغداد ، ذهبت الى مجلسه مدلا بما كان من جفاء الأمين لى ، وضربه اياى خمسين سوطا .. ولكن المأمون كان يعلم أنى رميت نفسى على « كوثر » ليترضى لى الأمين ، وأنه ترضاه لى ، فاسقطنى ذلك من عين المأمون لأنه كان يستنكر نفوذ كوثر وأمثاله فى قصر اخيه ..

أذهلنى ما صار اليه أمرى ! ..

كنت أتصور أنى سأكون المغنى الأول فى مجلس المأمون ، لأننى المغنى الوحيد الذى اتهمه الفضل بن الربيع بممالأة هذا الخليفة الجديد حين لم يكن إلا مجرد أمير على خراسان ! ..

فكرت .. ماذا أصنع ؟! ..

لا استطيع أن أرمى نفسى والقى بكرامتى عند قدمى كوثر ليصلنى بالمأمون .. فلا كوثر عنده ، وقد قتل كوثر مع الأمين فى الحرب ! ..

فبينما أنا أفكر ، طرق بابى طرقا شديدا ، وإذا بعض جند الخلافة ، يقولون آجب أمير المؤمنين ! ..

كدت أطير فرحا ، ودخلت مجلس المأمون وأنا أرقص من أقصى الايوان وأصفق واغنى

**عذيرى من الانسان لا إن جفوته**
**صفا لـى ولا إن صرت طوع يديه**
**وانى لمشـتاق إلـى ظل صاحـب**
**يـروق ويصفـو إن كـدرت عليه**

فسمع المأمون ومن فى مجلسه من المغنين لحنا بديعا ظريفا ، وقال لى المأمون

- ادن ياعلويه واعد هذا اللحن ..

فرددته عليه سبع مرات ، وهو لايشبع منه ، ثم قال لى :

- ياعلويه .. وأين هذا الصاحب الذى يصفو إن كدرت عليه .. خذ الف الف دينار واعطنى هذا الصاحب ! ..

عدت إلى مكانى عند المأمون !

بل صرت شفيعا عنده لاسحاق الموصلى ، فإن المأمون حين جلس لسماع الغناء بعد قدومه إلى بغداد بمدة ، أقبل عليه كبار المغنين جميعا ، ماعدا اسحاق الموصلى ، فقال المأمون لجلسائه مستنكرا

- ما يترك هذا الرجل الخيلاء والتيه أبدا ..

وتجافاه ، وأمر ألا يستدعى الى مجلسه

فقمت واسترضيت المأمون وقلت :

- اسحاق عبدك وابن عبدك ، وهو لايعلم أن أمير المؤمنين قد أمر باعادة مجالس الغناء بعد قطعها ، فأرسل اليه يا أمير المؤمنين ، فانه يجىء سعيا على الرأس لا على القدمين ! ..

وعاد اسحاق إلى مجلس المأمون ، وتصدره ، وصرنا كلنا « أقل من التراب » بالقياس اليه ! ..

● **اليوم الخامس** :

---

اجتمعت فى سهرة عند بعض سراة البغداديين مع اسحاق الموصلى .. غنيت :

**ألا ياحمامي قصر دوران هجتما بقلبـى الهوى لمـا تغنيتمـا ليـا**
**وأبكيتمانى وسط صحبى ولم أكن أبالى دموع العين لو كنت خاليا**

فطرب الناس طربا شديدا .. ولم يدهشنى ذلك ، فإن هذا من أجمل ألحانى وقد أديته باتقان وتحفظ لوجود اسحاق الموصلى فى المجلس ..

فوجئت باسحاق يصيح وقد تملكه الاعجاب بما غنيت :

- أحسنت والله يا أبا الحسن .. أحسنت والله كل الاحسان ! ..

فقمت من مكانى فقبلت رأس اسحاق وعينيه ، وجلست بين يديه ، وسررت بقوله سرورا شديدا ، ثم قلت له « أنت سيدى وابن سيدى ، واستاذى وابن استاذى ،

ولى اليك حاجة » !

قال اسحاق :

ـ قلْ فوالله انى أبلغ فيها ماتحب ان شاء الله ..

قلت

ـ ايما أفضل عندك أنا أو مخارق ؟! .. فإنى أحب أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يؤثر ، ويحكيه عنك من حضر مجلسنا هذا ، فتشرفنى به .. وقد سألتك بحقى عليك ، وبتربية ابيك لى ، وبكل حق تعظمه ، إلا حكمت ! ..

قال :

ـ ويحك ! .. والله لو كنت استجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب من هذا الأمر ، ولكنى لا استجيز إلا الحق ولا أقول غيره .. وهاك ماعندى : فلو خُيرت أنا من يطارح جوارى وغلمانى ، أو يغنينى لما اخترت غيرك ، لأنك اعلم بالصناعة والرواية ، ولكن مخارقا يغلبك عند الخلفاء والأمراء بطيب صوته وغزارة ألحانه ! ..

فلم أفز من اسحاق بشهادة كاملة يحكيها الناس وتكون حجة لى عندهم على مخارق ، فأتقدم عليه ! ..

واسحاق ـ مع ذلك ـ ليس بمحب ولا معجب بمخارق إلا مايخرج من نبرات حنجرته ، ولكنه يأبى إلا أن يشهد بما يراه حقا ..

وقد غضبت من كلامه وقمت فقلت له :

ـ أف من رضاك ومن غضبك ! ..

# الشاعر الخلنجى



## ● اليـــوم الأول :

أعود فأسجل يوميات أخرى من حياتي ..

ضقت ذرعا بابن أختي عبد الله بن محمد الخلنجي الذى يتولى القضاء فى محلة بالجانب الغربى من بغداد

إن ابن أختى هذا ، أنا ربيته وعلمته وأنفقت عليه حتى صار كاتبا شاعرا فقيها ، وسعيت له حتى نال وظيفة القاضى ، ولكنه بعد أن صار قاضيا عقنى وتنكر لى وأصبح تياها صلفا ، ولو لم يكن من حق لى عنده إلا حق الخئولة ، لكان خليقا أن يكون بارا بى ، ولكنه نسى ذلك كله ، فأقسمت لأكيدن له كيدا

علمت انه حين يحكم بين المتخاصمين يجلس الى اسطوانة من أساطين المسجد فيستند اليها بجميع جسده ولا يتحرك ، فإذا تقدم اليه الخصمان ليسمعا الحكم أقبل عليهما بجميع جسده وترك الاستناد حتى ينطق بالحكم ويفصل بينهما ثم يعود لحاله من الاستناد بجميع جسده الى اسطوانته ! ..

فأوعزت إلى بعض الخبثاء ، فعمد الى رقعة من الرقاع التى تكتب فيها الدعاوى فألصقها فى موضع ذنبة القاضى التى يغطى بها رأسه ، وأكثر من الغراء فى موضع اللصق حتى تمكن منها ، فلما تقدم اليه الخصوم وأقبل عليهم بجميع جسده كعادته انكشف رأسه وبقيت الذنبة فى موضعها مصلوبة ملتصقة بالأسطوانة ، فقام الخلنجى مغضبا ، وعلم أنها حيلة وقعت عليه ، فغطى رأسه بطيلسانه وانصرف وترك ذنبته فى مكانها حتى جاء بعض أعوانه فأخذها ..

تعالم الناس الخبر فضحكوا ، وضج الجانب الغربى من بغداد بالنكات على الخلنجى المتكبر التياه ، وقال أحد الشعراء ساخرا :

| | |
|---|---|
| إن الخلنجى من تتايهه | أثقـل باد لنـا بطلعتـه |
| ماإنْ لذى نخوة مناسبة | بيـن أخـاوينـه وقصعتـه |
| يصالح الخصمُ من يخاصمه | مخافة من الجور فى قضيته |
| لو لم تدبقه كف قانصه | لطـار تيهاً علـى رعيتـه |

شهرت الأبيات وطارت فى بغداد ، فعملت فيها لحنا سوقيا أعطيته للرقاصين والقرادين والمخنثين فطافوا المدينة يغنونه حتى أحرجوا الخلنجى وفضحوه ، فاستعفى من القضاء ببغداد ، وولاه السلطان القضاء

فى حمص بالشام ..

قلت فى نفسى : والله لأكيدن له شرا من هذا كله ، فعملت لحنا فى شعر له علمت انه لن يقع من الخليفة المأمون موقعا حسنا

**برئت من الاسلام إن كان ذا الذى أتاك به الواشون عني كما قالوا**
**ولكنهم لما رأوك غريّة بهجرى تواصوا بالنميمة واحتالوا**
**فقد صرت أذنا للوشاة سميعةً ينالون من عرضي وإن شئت مانالوا**

فلما سمع المأمون غنائى فى هذه الأبيات سألنى

ـ من يقول هذا الشعر ؟!

قلت بخبث

ـ قاضى حمص !

فسكت المأمون ، وأمرنى بالانصراف ولم يأمر لى بجائزة !

## ● اليوم الثانى

حضرت مجلس المأمون ، فاذا القاضى الخلنجى هناك .. سألت بعض الخدم فعلمت أن الخليفة حين سمعنى أغنى شعره امر باحضاره على خيل البريد ، فأحضر

قال المأمون للخلنجى :

ـ أنشدنى قولك فى الغزل :

**برئت من الاسلام ان كان ذا الذى أتاك به الواشون عنى كما قالوا**

فقام الرجل على رجليه ضارعا يقول

ـ ياأمير المؤمنين .. هذه أبيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبى ! .. والذى أكرمك بالخلافة ، وورثك ميراث النبوة ما قلت شعرا منذ اكثر من عشرين سنة إلا فى زهد أو عتاب صديق ! ..

قال له المأمون :

ـ إجلس ! ..

فجلس الرجل وكأنه ينتظر الموت ، فناوله المأمون قدح نبيذ التمر ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرف شيئا من هذا ! ..

فقال له المأمون

ـ أما والله لو شربت شيئا من هذا لضربت عنقك ، وانى لأظن أنك صادق فى قولك كله ، فأنت لاتشرب نبيذا ولا تتغزل فى النساء ، ولكن لايتولى لى القضاء رجل بدأ فى قوله

بالبراءة من الاسلام ، مهما كان صادقا فيما أقسم عليه من كذب الواشين به كما يقول !
فوثب الرجل يتوسل
ـ يا أمير المؤمنين .. إنما كان هذا فى زمن الحداثة ولم يكن لى بصر بالشعر ، ولا لباقة فى الكلام ، وقد أقسمت صادقا ، فلا إثم فى قولى ! ..
فنهره الخليفة :
ـ كأنك تحكم هنا فى قضية ! .. قم فانصرف الى منزلك ، فلا يصلح مثلك للقضاء ! ..
فلما انصرف ابن أختى هذا أحزننى أمره ، وقصصت على الخليفة قصتى معه ، وأنى كدت له وشنعت عليه لتيهه واعجابه بنفسه ، وإلا فهو قاض عادل فطن نزيه .. قال المأمون :
ـ ياعلويه .. ماتطيب نفسى باعادته الى عمله ، لقوله « برئت من الاسلام » .. فليس هذا من كلام القضاة ! ..
قلت
ـ يا أمير المؤمنين .. لقد كان حين قال هذا الشعر صبيا غريرا دون العشرين من عمره ، وما هو بشاعر يتصرف فى القول تصرف الشعراء الذين يعرفون غث الكلام من سمينه !
فما استطعت ان ازحزح المأمون عن رأيه .. وندمت على ما صنعت بابن أختى ، على شدة نفورى منه ! ..

## ● اليـوم الثـالـث :

قضيت ساعة عند ابراهيم بن المهدى ، الأمير الذى يتعاطى الغناء وهو جميل الصوت حقا ، ولكنه قليل العلم بأسرار الصناعة ، فقال لى :
ـ ما الذى أحدثت بعدى من الصنعة يا أبا الحسن ؟!
فغنيته لحنا ثم لحنا ، فرأيته قد كاد يموت من حسده لى ، ولم يدر مايقول ، حتى غنيته الصوت الثالث وهو :

**إذا كان لى شيئان يـاأم مالـك فـإن لجـارى منهمـا مـاتخيـرا**
**وفى واحد إن لم يكن غير واحد أراه لـه أهـلا إذا كـان مقتـرا**

فكاد ابراهيم بن المهدى يموت حسدا لعجزه عن صنعة مثل هذا اللحن ، فلم يجد مايقوله ، الا ان سألنى متهكما :
ـ فإن كانت لك امرأتان يا أبا الحسن ، حبوت جارك منهما واحدة ؟! ..
فغضبت وقمت عنه وانصرفت نادما على ماضيعت من وقت عنده ، وعذرت اسحاق الموصلى فى طعنه على هذا الرجل وتجهيله فى صناعة الغناء ! ..
نزلت فى زورق صغير بدجلة أتفرج وقد أوغلنا فى الليل ، فرأيت حراقة القائد على بن

هشام ، الضخمة الفاخرة المشعة بأنوار الشموع الكبار ، تتهادى على مياه دجلة ، فقلت للملاح صاحب الزورق : اطرح زورقك على هذه الحراقة العظيمة ، ففعل ، وصحت بالخدم أستأذن فى الصعود الى السفينة ، فجاءونى بالاذن من على بن هشام ، فدخلت وهو مع الجوارى يسمع ويشرب ، ولم تحتجب الجوارى عنى ، لأن على بن هشام لايحجب الجوارى ما لم يلدن ، فعندئذ يصرن أمهات اولاد ويعاملن كالزوجات فيحجبهن ، وليس كل الناس على هذه الطريقة فى أيامنا ..

كانت هناك أعظم مطربتين فى عصرنا كله : بذل ومتيم .. وقد أحب على بن هشام المطربتين ، وأظنه سيتزوج من متيم لأنه يهيم بها حبا ولايرضى لها بأقل من منزلة الزوجة ! ..

غنيت لحنى « إذا كان لى شيئان يا أم مالك » الذى كنت غنيته عند ابراهيم بن المهدى وتحفظت فى الأداء وجئت فيه بكل ماقدرت على من إجادة حتى زلزلت الحراقة وصاح على بن هشام وبذل ومتيم طربا ..

وحسبك بلحن يطرب له على بن هشام وبذل ومتيم وهم أصفى الناس ذوقا وأعظمهم علما بالغناء ..

قال لى ابن هشام

- لمن هذا اللحن يا أبا الحسن ؟!

- هذا لحن صنعته وأهديته لك ، ولم يسمعه أحد قبلك ! ..

أعجبه قولى هذا وأمرنى أن أطرح اللحن على بذل ومتيم لتأخذاه ، ففعلت ، وقضينا أحسن وقت فى هذه الليلة حتى قال لى ابن هشام :

- ماأجد لك مكافأة على هذه الهدية إلا أن أتحول عن هذه الحراقة بما فيها وأسلمها اليك ! .

فتسلمت الحراقة العظيمة ، وهى من أفخر سفن أمراء بغداد فى دجلة ، وتحول على بن هشام بجواريه وخدمه الى حراقة اخرى له ..

فى الصباح ، سارعت فبعت الحراقة ، لأن مثلى لايقتنى مثلها ولايقدر على صيانتها والانفاق على من يخدم فيها ويحفظها ، فكان ثمن بيعها مائة وخمسين الف درهم ، وقال لى العارفون اننى بعتها بثمن بخس ! ..

اعتزم ان شاء الله أن اشترى بهذا المال ضيعة تكون سندا فى تصاريف الزمان !

إن سفينة واحدة من السفن الفاخرة التى تمخر دجلة أو ترسو فى مراسى القصور المطلة عليه ، تساوى ضيعة كبيرة خصبة ، فكم ضيعة تمخر مياه دجلة أو ترسو عند قصورها ؟!

وإن رجلا كريما عظيما مثل على بن هشام يحبو فقيرا مثلى هذه الضيعة العائمة ، وكأنه لم يعطنى الا درهما واحدا ، فكم من الضياع العائمة وغير العائمة عند عشرات الألوف من أمراء وكبراء بغداد والعراق ودولة الخلافة العباسية العظيمة ؟ !

## ● اليوم الرابع

خرجت مع الخليفة المأمون الى الشام فدخلنا دمشق فطفنا فيها على قصور بنى أمية ، فدخل صحنا من صحونهم مفروشا بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء ، وفى البركة سمك ، وحولها أزهار ورياحين ، فأعجبه ذلك فجلس وقال لى : غننى ونشطنى ، فكأننى نسيت الغناء كله ولم أذكر الا هذا اللحن :.

**لو كان حولى بنو أمية لم تنطق رجال اراهم نطقوا**
**من كل قرم محض ضرائبه عن منكبيه القميص ينخرق**

فنظر إلىّ مغضبا وقال : عليك وعلى بنى أمية لعنة الله ! .. ويلك ! .. ألم تجد إلا هذا الكلام ؟! ..

فأفقت من غفلتى وقلت مع البديهة :

ـ ياأمير المؤمنين .. أتلومنى أن أذكر بنى أمية ؟ ! هذا عبدكم زرياب الذى أبق منكم إلى بنى أمية فى الأندلس ، صار يملك هناك ثلاثمائة الف دينار وهبوها له سوى الخيل والضياع والرقيق .. وأنا عندكم أموت جوعا ، وكان زرياب عندكم عبدا من العبيد لاتأبهون له !

قال :

ـ فكيف كان زرياب هذا الذى هرب إلى الأمويين ؟ !

ـ كان وسطا فى جمال الصوت وجودة الصناعة ، لايعلو ولايسفل ، ولم يجد مكانا بين فحول الصناعة فى بغداد ، ولكنه صار نجم قرطبة الأوحد ! ..

قال المأمون :

ـ إنما صيره الأمويون كذلك ، نكاية فينا ، لارغبة فيه ، ولو كانت لديه بضاعة تنفق عندنا لعرضها علينا .. فهو عند بنى أمية ، عبد بنى العباس الأبق ، فلهذا يظهرون له احتفاءهم وكرمهم ، فاذهب اليهم ، وانت خير منه ، لعلك أن تكون عندهم احظى وأوفر نصيبا من المال والخيل والضياع والرقيق ! ..

فأخجلنى المأمون ـ والله ـ فقلت :

ـ لاوالله ياأمير المؤمنين ! .. لو اعطانى بنو أمية قرطبة كلها ، ماعدلت بها حفنة تراب تطؤها نعلكم على أرض بغداد ! .

فانبسطت أسارير المأمون ، وأجزل جائزتى ! ..

# مسجل الأصوات



## ● اليـــوم الأول

يسميني المطربون « الزف » .. وقد نسى الناس أن اسمى محمد بن عمرو ، وأنني كوفى الأصل والمولد والمنشأ ، من موالى بنى تميم .. ولم يعد أحد يذكر الا هذا اللقب : « الزف » .. الذى أنساهم اسمى وأصلى وبلدى والقبيلة التى أنتمى بالولاء اليها ! ..

سبب ذلك أننى أسرع خلق الله جميعا الى حفظ أية أغنية أسمعها ولو مرة واحدة ... فإذا سمعتها أديتها أداء متقنا لايكون بينه وبين من أخذتها عنه أدنى فرق الا فى نبرات الصوت .

لهذا سميت « الزف » .. ومعنى الزف والزفيف الإسراع ، وأنا أسرع خلق الله أخذا للغناء ! ..

وأنا والله مغن ذو صناعة وبراعة ، صحيح الأداء ، ذكى الفؤاد ، مليح النادرة ، لكنى فى الحقيقة قليل الحظ من جمال النبرات ! .. فإذا سمعنى أحد قال : مغن بارع الأداء ، ولم يقل : جميل الصوت ! ..

وإلى ما ابتليت به من خشونة النبرات ، فإنى معربد سيىء العشرة إذا انتشيت بالنبيذ ، ولو فى مجلس الخليفة .. وقد عربدت فى حضرة أمير المؤمنين الرشيد ذات ليلة فأمر بإخراجى من مجلسه ، ثم أمر بمنعى من الوصول اليه ، وجفانى وتناسانى ، والزمنى بيتى ، لا أبرحه الا الى بعض السهرات المتواضعة التى لايكاد يفى ما أكسبه منها بعيش الكفاف ! ..

وأنا الآن متعطل عن العمل أو شبه متعطل ، فالسهرات الغنائية الحقة انما تقام فى بيوت العلية من الأمراء والوزراء والكتاب والقواد وسراة بنى هاشم والبرامكة وأمثالهم .. أما هذا الذى أنا فيه من طلب العيش بالغناء للسوقة وأشباه السوقة ، فهو الاملاق والشقاء ! ..

## ● اليـوم الثـانـى :

طرقات خفيفة مفاجئة على باب منزلى اخرجتنى من عزلتى وملأت قلبى أملا بعد اليأس الطويل ، فهذا خادم من خدم أمير المطربين والملحنين ابراهيم الموصلى يقول لى :

ـ سيدى يقرئك السلام ويقول لك إنه ينتظرك بمنزله فى هذه الساعة ، لأمر فيه خير لك إن شاء الله ! ..

همست لنفسي وأنا أحث الخطي الى دار صديقي الموصلي : فزت والله يازف إن كان ما تحدثك به نفسك صحيحا ! .. إنه ليبدو لي أن المحنة قد تقضت ، وأن رضا الخليفة يوشك أن يعود فيغمرني بنعمائه ! .. وكيف لايعفو عني الخليفة حفظه الله وهو الانسان الرقيق الغزير الدمع ، على جبروته ؟! .. وهل ينسى لحنى البارع الذي غنيته في حضرته ذات ليلة ، فسار في الآفاق وتناقلته الأسماع وتغنت به الحناجر :

**يا زائرينا من الخيام حياكما الله بالسلام**
**يحزنني أن أطعتماني ولم تنالا سوى الكلام**
**بورك هارون من إمام بطاعة الله ذي اعتصام**
**له إلى ذي الجلال قربي ليست لعدل ولا إمام**

ثم إنني كنت أضحكه كثيرا بنوادري ، وبما أدعيه من الحان المطرب والملحن الكبير اسماعيل بن جامع منافس ابراهيم الموصلي .. فإن ابن جامع ، برغم نسبه في قريش ، وانفراده دون المغنين جميعا بهذا النسب العربي الكريم ، يضن بدرهم واحد يمنحنيه ولهذا تعودت أن أضع عيني عليه حين يغني ، وأصغي اليه فأحفظ لحنه بعد أن يغنيه مرة واحدة ، ولم يكن يغنيه مرة واحدة ، لأن الرشيد لاعجابه بصوته الجميل كان يستعيده مرتين أو ثلاثا فيزداد لحنه تمكنا في رأسي وأحكيه كأنني أنا هو .. لافرق بيني وبينه الا جمال صوته ! ..

وقد غني مرة لحنا جميلا جدا أحسن فيه كل الاحسان ، فحفظته وخرجنا ساعة من مجلس الرشيد للراحة ، فأعدت اللحن على مسامع الموصلي حتى حفظه ، وحفظه أيضا المطربون الآخرون : مخارق وعلويه وعقيد ..

فلما عدنا الى مجلس الرشيد بادر الموصلي فغنى هذا اللحن ، وقال للرشيد : هذا لحن كنت أرويه قديما وقد أخذه عني مخارق وعقيد وعلويه ! .. فأمر الرشيد كلا منهم بأداء اللحن ، ففعلوا .. فوثب ابن جامع وهو يكاد ينشق غيظا يقول للرشيد :

- ياسيدي .. وحياتك ماصنع هذا اللحن أحد غيري ، وقد سرقه هؤلاء ليسقطوا منزلتي عندك ! ..

فقال الرشيد للموصلي .. بحياتي اصدقني عن القصة ياموصلي ! ..

فصدقه الموصلي عن القصة ، فجعل الرشيد يضحك ويصفق ويقول :

- لكل شيء آفة .. وآفة ابن جامع في غنائه محمد الزف ! ..

حدثت نفسي بذلك كله وانا مسرع الى منزل الموصلي ، وتلقاني الرجل مرحبا ، وأجلسني في رواق أنيق .. ومد الخدم لنا السفرة حافلة بالطعام

والشراب والرياحين ! ..
قال لى الموصلى :
ـ إننى اخترتك ياصديقى لأمر لاينهض به غيرك ، فانظر كيف تكون !
قلت متلهفا لمعرفة ماوراء كلامه :
ـ أبلغ فى ذلك محبتك إن شاء الله ! ..
ففكر الموصلى قليلا ، ثم قال لى متمهلا :
ـ ماتقول فى اسماعيل بن جامع ؟!
ـ بخيل شديد البخل ، أما أنت فبحر من الكرم لا ساحل له ! ..
ـ ماسألتك عن هذا .. إنما أسأل عن غنائه وألحانه ونبرات صوته ! ..
ـ هو والله محسن بارع فى التلحين ، وضىء نبرات الصوت ، وقد صدق من قال إن فى صوته مثل حلاوة العسل ! ..
ـ إنه والله لكذلك ، وما كنت أنتظر أن تقول عنه الا هذا .. ولكنه ـ ياصديقى ـ غلبنى البارحة فى مجلس الخليفة وفاز بجوائز عظيمة ، وانخذلت انا وانكسرت وخرجت بلا جائزة !
قلت متعجبا :
ـ وكيف يغلبك عند الخليفة وأنت من أنت ؟! ..
ـ غنى صوتا فأحسن فيه وطرب له الرشيد وسأله : أهذا الصوت من صنعتك يا اسماعيل ؟ ..
فأجابه لا .. ولكنه من صنعة ابن سريج رئيس القدماء من أهل صناعتنا ، وقد كذب ابن جامع فإن اللحن والله من صنعته هو ، ولكنه أراد ان يرى أمير المؤمنين اتساعه فى رواية الغناء القديم ، وتفوقه فى ذلك على جميع المطربين وأولهم أنا .. فلما سمع الرشيد منه ذلك أمرنى بغناء هذا اللحن فاعتذرت وانكسرت وانهزمت فى مجلسه وابن جامع ينتفش كالديك ولايبالى أن يكذب ويزعم تلك المزاعم ! .. حتى قال لى الرشيد ساخرا
ـ ألست تزعم أنك تحفظ الغناء القديم كله ، لايفوتك منه شىء ؟!
ومضى الموصلى يروى لى قصته :
ـ ثم غنى ابن جامع صوتا ثانيا أحسن من الأول من تلحينه وزعم أنه من صناعة القدماء ، فقال لى الرشيد :
ـ هات هذا اللحن يا ابراهيم لنرى فرق مابين أدائك وأداء ابن جامع ! ..
فاعتذرت وقلت : « ولا هذا أعرفه يا أمير المؤمنين أبقاك الله » !
ثم غنى ابن جامع صوتا ثالثا هز الخليفة طربا ، وزعم كذلك أنه صنعة قديمة ، وإنما هو من تلحينه ، فأمرنى الرشيد بغنائه فلم استطع .. وانصرف ابن جامع من مجلس الخليفة ظافرا ، وخرجت أنا مخذولا ! ..
ثم نظر الموصلى فى وجهى لحظة كأنه يستطلع أثر قصته فى نفسى فقلت له :
ـ وماتطلب منى الآن يا أبا اسحاق ؟! ..

قال

ـ تذهب الى ابن جامع فتهنئه على فوزه هذا وتنتقدنى وتشتمنى ثم تحتال على سماع الأصوات الثلاثة حتى تحفظها وتعود بها الى منزلى فتطارحنى إياها حتى أحفظها وأذهب الى الخليفة وأغنيها وأفسد على ابن جامع مكيدته ! .. ولك بعد ذلك ماتحبه من جهتى ، مع رضا الخليفة وعودتك الى مجلسه إن شاء الله ! ..

## ● اليـوم الثـالـث :

استأذنت على ابن جامع فى منزله وقلت له متهللا :

ـ جئتك مهنئا بما بلغنى من خبرك فى مجلس الخليفة أعزه الله ! .. فالحمد لله الذى أخزى على يديك الموصلى الدعى ، وكشف الفضل فى محلك من صناعتك وفنك ! ..

ضحك ابن جامع مسرورا وقال :

ـ ويحك ! لقد كان خبرا يجل عن الوصف ، وما علم به الا جلساء الخليفة ، فكيف بلغك ؟! ..

قلت متملقا متزلفا :

ـ هو أشهر من أن يخفى على مثلى ، وقد سرى فى بغداد كلها .. فهلا سررتنى أيها الأستاذ بأن تسمعنى الخبر كله حتى أرويه عنك ؟! ..

قال ابن جامع والنصر يملأ كلماته :

ـ أقم عندى ساعة حتى أروى لك كل شىء ! ..

وروى لى ابن جامع القصة ، وغنانى الأصوات الثلاثة مجتهدا فى أدائها على أحسن وجه ، وأنا أصفق وأصيح طربا وأشرب رطل النبيذ وأسجل الألحان فى دماغى بغاية الانتباه حتى آخذتها كلها بحذافيرها .. ثم ودعته وانصرفت أتعجل الوصول الى منزل الموصلى ! ..

## ● اليـوم الـرابـع :

فى سهرة أمير المؤمنين دعا بالمغنين فلما بصر بالموصلى بينهم قال له ساخرا : « أوقد حضرت ؟! .. أما كان ينبغى أن تجلس فى منزلك شهرا بسبب انكسارك من ابن جامع أمس ؟! ..

فقال الموصلى : « ولم ذلك يا امير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ؟! .. فوالله لئن أذنت لى ان اقول لأقولن ! » ..

قال الرشيد والسخرية لم تزل فى لهجته : « وما عساك أن تقول ؟! »

قال الموصلى : « انه ليس ينبغى لى ولا لغيرى أن يراك نشيطا لشىء فيعارضك ! .. والا فما فى الأرض صوت لا اعرفه » .. قال الرشيد : « دع ذاعنك ! .. قد أقررت أمس بالجهالة بما سمعت من ابن جامع ، فان كنت امسكت عنه عن معرفة ، فهات اليوم تلك الالحان ، فليس ها هنا عصبية ولا تمييز » ! ..

ضرب الموصلى بعوده فغنى عليه الالحان الثلاثة كما غناها ابن جامع تماما ، فاندفع ابن جامع يحلف للخليفة ان هذه الالحان من صنعته هو لايعرفها غيره ولايدرى كيف اخذها الموصلى منه ! ..

التفت الرشيد الى الموصلى وسأله متبسما :

ـ يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى ؟! .. بحياتى اصدقنى ! ..

قال الموصلى

ـ رميته بمثل سهمه يا امير المؤمنين .. بعثت اليه بمحمد الزف مغنيك وعبدك الذى غضبت عليه وأبعدته والزمته بيته ، وضمنت للزف ضمانات ، اولها ان ترضى عنه وتعيده الى مجلسك ، فمضى الزف فاحتال لى على ابن جامع حتى نقل الأصوات الثلاثة وطارحنيها حتى أحكمتها كما سمعت يا امير المؤمنين ! .. وقد سقط عنى الآن اللوم بإقرار ابن جامع أنها من صنعته هو لا من صنعة قدماء أهل الصناعة ، ولايلزمنى أن أعرف مايصنع ابن جامع ولاغيره من نظرائى ، وإنما يلزمنى ان يعرف هو شيئا من غناء الأوائل وأجهله انا .. وان ابن جامع ليشهد انى اكثر منه رواية للغناء القديم ، وماغنى القدماء لحنا الا وهو عندى ، لاينكر ذلك ابن جامع ولاغيره ! ..

ضحك الرشيد انبساطا وقال :

ـ صدقت يا ابراهيم ، وأبطلت كيد ابن جامع ، وقمت بحجتك ! ..

ثم التفت الى ابن جامع وقال له متفكها مواسيا :

ـ هيه يا اسماعيل .. الا ترى الموصلى كيف ابطل عليك مكيدتك وانتصف منك ؟ !

## ● اليـوم الـخامـس :

لما انتهت السهرة قال الخليفة للموصلى :

ـ قد رضينا عن الزف ، وأمرنا أن يؤذن له بالدخول مع المغنين فى مجالسنا ، على الا يعربد على احد من المغنين أو الندماء ! ..

أبلغنى الموصلى هذا الخبر السعيد فقلت له :

ـ سألتزم الصمت المطبق ، لاأصنع شيئا الا الإصغاء الى ابن جامع وتسجيل اغانيه فى دماغى ، لعلك تحتاج اليها يوما ! ..

ضحك الموصلى وضحكت ، ثم اخرج ثلاثة آلاف درهم فأعطانيها ، وقال لى :

ـ ولك عند الخليفة ماتحب إن شاء الله ! ..

يوميات عبد الله الربيعي :

# ابن الحاجب والوزير



● **اليوم الأول :**

اسمى عبدالله ، واسم أبى « العباس » أما جدى فهو الفضل بن الربيع حاجب أمير المؤمنين الرشيد ووزيره ، ورث الحجابة عن أبيه « الربيع » الذى نشأ فى كنف أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور جد الرشيد ، وارتفع من خادم يمسك للخليفة إبريق الوضوء ، حتى بلغ رتبة الحجابة الرفيعة الشأن !

يرانى جدى الفضل بن الربيع ـ حفظه الله ـ فيتذكر أبى الذى مات شابا صغيرا فتدمع عيناه ويضمنى الى صدره باكيا .. كان جدى شديد المحبة لابنه وقد سماه « العباس » تيمنا باسم الجد الأكبر لخلفاء الدولة العباسية ، وسمانى « عبدالله » تيمنا باسم عبدالله بن العباس ، بحر العلوم ، وإمام العلماء ، وجد الخلفاء ..

عمتى « رقية » فى حال لا نهاية وراءها من الرقة والمحبة لى .. كلما رأتنى بكت ، لما يساورها من الحزن الدائم على أخيها أبى رحمه الله !

أحببت جارية مغنية من جوارى عمتى ، حبا ملأ قلبى ، ولكنى لم أستطع ملازمة الجارية خوفا من أن ينكشف لعمتى ولجدى حبى لها فأمنع من لقائها

ادعيت لعمتى أننى أشتهى أن أتعلم الغناء من هذه الجارية ، فى ستر عن جدى الذى يرشحنى للحجابة أو الوزارة متى كبرت ، ويريدنى أن أطلب العلم الذى أبلغ به هذه الرتبة الرفيعة فى الدولة ، ولايخطر بباله أنى أطلب علم الغناء فأسقط به من عيون الناس كما سقط ابراهيم بن المهدى الذى يغنى ويلحن وهو ابن خليفة وحفيد خليفة وأخو خليفة ! ..

قالت لى عمتى :

ـ يابنى .. لاتجعل الشهوة للغناء تغلب عقلك .. إن جدك يعلق آماله عليك ويعدك لكرسى الوزارة ! ..

قلت

ـ ياعمتى إن منعتمونى من تعلم الغناء مت غما وكمدا !

قالت مشفقة غير متشددة :

ـ أكره يابنى أن تحذق الغناء وتشهر به فتسقط ويفضح بك أبوك ـ رحمه الله ـ وجدك أطال الله بقاءه ! ..

قلت أطمئنها :

ـ لا تخافى ياعمتى ، فإنما أنال منه مقدار ما ألهو به ، لا أزيد على ذلك شيئا إن شاء الله ..

قالت

إن كان قصدك أن تلهو بما تأخذ من الغناء ، ولا تظهره أبدا للناس ، فذلك إليك ، وأنت به أعلم

لازمت الجارية المغنية التى شغفتنى حبا ، فتعلمت منها ضرب العود وأخذت عنها وعن الجوارى الأخريات فى قصرنا ألحانا كثيرة ، وأنا سريع الأخذ والحفظ ، ولى فى الغناء طبع أصيل ..

ثابرت على حضور مجالس جدى التى يغنيه فيها اسحاق الموصلى ومخارق وعلويه وغيرهم ، فلم يبق لحن من ألحانهم إلا حفظته ، حتى أحسست من نفسى قوة فى صناعة الغناء ، فلحنت فى شعر للعرجى حفيد عثمان بن عفان

أماطت كساء الخز عن حر وجهها

وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

عرضت لحنى على حبيبتى الجارية المغنية فقالت لى

ـ والله ما يقدر اسحاق الموصلى على أحسن من هذا ..

وبعض الجوارى المغنيات يجئن إلى دارنا فيطرحن على جوارى عمتى وجوارى جدى ألحانا كثيرة ، ويأخذن منهن ألحانا أخرى ، وقد أسمعتهن لحنى فى شعر العرجى فأخذنه وغنينه ، ثم اشتهر اللحن حتى غناه بعض المغنين لأمير المؤمنين هارون الرشيد فاستحسنه ، وقيل له إنه من صناعتى ! ..

دعا الرشيد جدى وقال له :

ـ يا فضل .. يكون لك ابن يغنى ويصنع ألحانا جميلة ، ولا تخبرنى بذلك ؟ !

قال جدى :

ـ وحق ولائك يا أمير المؤمنين ، ونعمتك ، وإلا فأنا نفى منهما برىء من بيعتك ، وعلى العهد والميثاق ، والعتق والطلاق .. إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة ! .. فمن هذا من ولدى يا أمير المؤمنين ؟ ! ..

قال الرشيد :

ـ حفيدك عبدالله بن العباس .. فهلا أحضرته عندنا يوما فنسمع منه صنعته وقد سمعناها من غيره ؟ ! ..

عاد جدى الى قصرنا يكاد ينشق غيظا ، فشتمنى وقال لى : ياكلب ! .. بلغ من حمقك أن تتعلم الغناء بغير إذنى ، ثم زدت فصنعت ألحانا وألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزتهن الى جوارى المغنين ، حتى بلغت قصتك أمير المؤمنين ، ففضحت آباءك فى قبورهم ، وسقطت الى الأبد إلا عن رتبة المغنين .. وكنت أظنك تبلغ مرتبة الحجابة أو الوزارة من بعدى ! ..

فبكيت غما بما جرى ، فرحمنى وضمنى اليه وقال :

ـ قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين .. إحداهما بموته ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ! .. أما مصيبة العار فهى باقية علينا وعلى أهلنا من بعدنا ! .

ثم بكى جدى أحر بكاء ، حتى هان علىّ أن أموت وتوارينى الأرض فى جوفها ! ..

## ● اليوم الثالث :

● رأيت جدى اليوم هادئا مستسلما للأقدار ، وابتدرنى :

ـ يعز علىّ يابنى أن أراك على غير ما أحب لك .. كنت أرشحك حاجبا أو وزيرا ، فالآن سقطت عن هاتين الرتبتين الرفيعتين فى الدولة .. وقد خرج الأمر من يدى فليست لى فيه حيلة ! ..

ثم قال منكسرا محزونا

ـ يابنى .. جئنى بعود وأسمعنى صوتك وألحانك حتى أنظر كيف أنت فى صناعة الغناء ، فإن كنت تصلح للخدمة عند الخليفة فى هذه الفضيحة ، وإلا جئت أمير المؤمنين بك منفردا وعرفته خبرك وأنك تلهو ولا تحسن شيئا ، واستعفيته لك ، لتقصيرك فى هذه الصناعة .. وأمير المؤمنين خير من يستر عورتنا ! ..

فلما غنيته ، بكى وقال :

ـ الآن بطلت والله حجتى ، وخاب فيك أملى ، فإن صناعتك فى الغناء جيدة ، وصوتك حسن ، ووالله ما أراك إلا صائرا إلى احتراف الغناء طول حياتك ، فوا حزنى عليك وعلى أبيك ! ..

قلت ضارعا متألما :

ـ ياسيدى .. ليتنى مت قبل هذا الذى أنكرته من أمرى ! .. لكنى وحياتك ياسيدى لاغنيت أبدا إلا لخليفة ، أو لولى عهد مرشح للخلافة

قال وهو يمسح دموعه :

ـ قد أحسنت يابنى فيما نبهت عليه من هذا ، فلا تغن إلا للخليفة أو لولى عهده ! .. »

## ● اليوم الرابع :

أخذنى جدى إلى مجلس الرشيد فوقفت بين يديه أرتعد ، فاستدنانى حتى صرت قريبا منه ، ومازحنى وأقبل علىّ بوجه منبسط ، وهدأ من روعى ، وأمر جدى بالانصراف لكيلا أخجل من الغناء فى محضره ومن حولى المغنون المحترفون ! ..

ثم أمر المغنين فحدثونى وتفكهوا معى بالنوادر ، وسقونى أقداحا ، ثم غنوا واحدا بعد واحد .. فلما جاءت نوبتى فى الغناء أمسكت بالعود ووقفت أستأذن فى الغناء ، فضحك الرشيد وقال لى : غن جالسا .. فجلست وغنيت ، فطرب واستعادنى ثلاث مرات وشرب أقداحا ..

ثم دعا بمسرور الخادم فقال له :

ـ يا مسرور .. احمل الساعة مع عبدالله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وصندوقا مملوءا بالطيب ..

قال لى جدى وقد مضت أسابيع على غنائى فى قصر الرشيد :

ـ كأنك سررت بما أعطاك أمير المؤمنين من الدنانير .. ولوددت والله أنى أدفع ألف ألف دينار ولايكون لك أدنى علم بالغناء ، ولكن قضاء الله لا مرد له ، ولن تفلح أبدا ! ..

قلت

ـ ياسيدى هل جنيت جناية ؟ !

صاح مغتاظا :

ـ أخبرنى عنك أيها الغلام .. هل كنت منذ يوم أو يومين فى « قطربل » تشرب النبيذ بغير غناء فى حانة هناك مع بعض الفساق ؟ ! ..

لم أحر جوابا فمضى يقول :

ـ قد جاءنى من أخبرنى بذلك .. فهل هذا فعل من يفلح ، وهل هذا إلا من ضعة النفس وسقوط الهمة والتبذل والانخفاض عن مراتب أهلك ، والتدلى الى السوقة والشطار والراقصين فى الأفراح ؟! وقد بلغنى أنك تتفكه بغناء شعر مدحنى به اسحاق الموصلى منذ بضعة عشر عاما ، وكنت أنت وقتئذ فى نحو السنتين من عمرك ، فرآك اسحاق جالسا فى حجرى فقال ذلك الشعر يمدحنى ويبشرنى بمستقبلك العظيم ! ..

فاجأنى كلامه هذا فقلت متظلما :

ـ والله ياسيدى ما أعرف هذا الشعر الذى تتحدث عنه فكيف أغنيه وأتفكه به ؟ !

أشاح عنى

ـ كذبت ياغلام ! .. أما تروى الرجز الذى نظمه اسحاق يمدحنى ويذكرك بقوله :

**مد لك الله الحياة مدا**
**حتى يكون ابنك هذا جدا**
**مؤزرا بمجده مردى**
**ثم يفدى مثلما تفدى**
**اشبه منك جبهة وخدا**
**وشيما محمودة ومجدا**
**كأنه انت اذا تبدى**

ـ لا والله ياسيدى ما أروى هذا الرجز ولا سمعته إلا الساعة منك ! ..

زمجر متعجبا متحزنا على مصيرى :

ـ إن مصيبتى فيك لعظيمة ! صرت مغنيا وصارت حانات قطربل مكان صبوحك وغبوقك ! .. تتكلم فتكذب وتنكر ما ترتكب من الموبقات ، والناس يرونك هازئين متندرين بك وبى ويقولون شامتين :

ـ هذا حفيد حاجب الخلافة ووزيرها ! ..

مرت الأيام مر السحاب .. تسارعت السنون .. مات جدى رحمه الله حسران على أننى لم أسلك مثله الطريق إلى الحجابة والوزارة .. وقد مات الرشيد ثم لحق به الأمين والمأمون والمعتصم .. وها نحن أولاء فى عصر الخليفة الواثق بالله !

أراجع نفسى أحيانا : هل أخطأت ؟! .. هل كان طريق الوزارة والحجابة خيرا من طريق الغناء ؟ !

ركبتنى الهموم فصرت لا أفارق رطل النبيذ لا فى الصباح ولا فى المساء ، إلا يوم الجمعة ، أو فى شهر رمضان ، أو فى الحج ! ..

أثقلتنى الديون فاستترت من الغرماء الذين أقرضونى بالربا الفاحش ، فشكوت إلى الخليفة ، فأمر بقضاء دينى وألا يحتسب للدائنين إلا رؤوس أموالهم ويسقط الربا كله ، وينادى بذلك فى سامرا وبغداد ، فلا يدفع مدين إلى دائن إلا رأس ماله فقط فسقط عنى وعن الناس من أرباح الربا زهاء مائة ألف دينار

علمت أن أمير المؤمنين الواثق وجاريته « فريدة » المغنية البارعة الحسناء قد تغاضبا وتهاجرا ، ولزمت فريدة مقصورتها ..

حدثت نفسى بأن فريدة قد امتلكت قلب الواثق امتلاكا ، ولابد له من مراجعتها واسترضائها ، فنظمت أبياتا فى معنى خصام الأحبة ، وغنيتها فى سهرة الخليفة ، ففطن إلى معناها واستعادها مرارا وشرب عليها ، وأمر لى بألف دينار وثياب فاخرة ، وقام من وقته فاسترضى فريدة وعادا أحسن مما كانا ..

أقبلت فريدة بعد انصراف المغنين وليس عند الخليفة غيرى ، فأخذت عودا وتغنت فأتت بالسحر فى غنائها حتى كاد الخليفة يشق ثيابه طربا .. وتماسكت أنا حتى لا أسىء الأدب إذا أظهرت ما داخلنى من الطرب ! ..

فلما هدأ الواثق اقترح أن أغنيه هذا اللحن من صنعتى وشعرى :

**أفدى التى قلت لها**

**والبين منا قد دنا**

**هجرك قد انحل صبرى**

**وأذاب .... البدنا**

**قالت فماذا حيلتى**

**كذاك قد ذبت أنا**

غنيته وفريدة مرهفة السمع تحفظ اللحن ، وهى سريعة الحفظ ، تسمع اللحن مرة واحدة فتؤديه كأنه من صنعتها ! ..

فبينما نحن فى ذلك ، دخل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لأمر من أمور الدولة ، فقال للواثق بعد أن فرغت من الغناء منوها بى :

ـ هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بأقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك إياه ! ..

قال الواثق :

ـ أجل لاغرو .. إن عبدالله هو ابن موالى أبى وجدى ! ..

قال الوزير :

ـ ليس كل مولى يا أمير المؤمنين ولا كل خادم ، يجمع ما جمع عبدالله من ظرف وأدب وصحة فكر وجودة شعر وحسن غناء !

فلما كان من الغد قصدت الى الوزير شاكرا فقلت له : قد أفرط الوزير ـ أعزه الله ـ فى وصفى وتقريظى عند أمير المؤمنين حتى وصفنى بجودة الشعر ، وليس الشعر من شغلى ، وإنما أعبث بنظم البيتن والثلاثة ، وذلك يصغر عن أن يصفه الوزير ويثنى عليه ومحل الوزير فى الشعر هو المحل الرفيع المشهور .. فقال الوزير

ـ والله يا أخى لو عرفت مقدار إحسانك فى قولك :

**يا شادنا رام إذ مر**
**فى السعانيــن قتلى**
**يقول لى كيف أصبحت ؟ !**
**كيف يصبح مثلى !**

لما استهنت بما تنظم من الشعر ! .. فوالله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله إلا قولك « كيف يصبح مثلى » .. لكنت شاعرا مجيدا !

لم تدهشنى دقة ذوق الوزير وفهمه العميق للشعر ، فإن له وهو الكاتب العظيم ـ فرائد فى الشعر عجيبة ! ..

● **اليوم السابع** :

اشترت لى عمتى رقية من مالها جارية امتلأ قلبى بحبها فقالت لى المغنية الكبيرة ، بل أستاذة المغنيات « بذل »

ـ ياعبدالله .. بلغنى أنك عشقت جارية وعشقتك واشتريتها ، فاعرضها علىّ ، فإما عذرتك لعشقها ، وإما عذلتك وأنكرت عليك ..

فلما أحضرتها قلت لبذل :

ـ هذه هى ياستى ، فانظرى واسمعى ثم مرينى فيها بما شئت أطعك ! ..

فقالت له الجارية عاتبة

ـ ياعبدالله .. أتشاور الناس فى أمرى ؟ ! .. فوالله ما شاورت فيك أحدا لما أحببتك ! ..

فنعرت « بذل » وصاحت وقد هزها الاعجاب العظيم بالجارية :

ـ إيه ! .. أحسنت والله ياصبية جدا .. ولو لم تحسنى شيئا ولا كانت فيك خصلة محمودة ، لو جب أن يعشقك عبدالله لهذه الكلمة البارعة التى قلتها له ! .. أحسنت والله فى كلامك وجئت بأحلى المعانى !

ثم قالت لى « بذل » :

ـ ياعبدالله .. ما ضاع شيء من مالك فى هذه الجارية .. ولو أنفقت عليها ألف ألف دينار لكنت رابحا ! احتفظ يا عبدالله بصاحبتك ! ..

لقد طربت « بذل » لأربع كلمات فاهت بها جاريتى .. ولم أرها قط تطرب مثل هذا

الطرب لمغن أو مغنية !

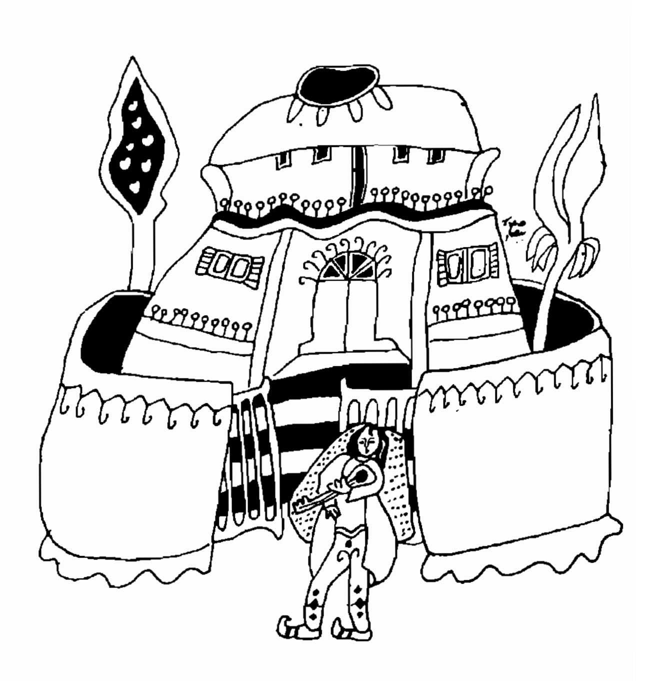
وهكذا أنا أمضى فى الحياة .. أغنى وأحب الجوارى وأنادم الملوك والأمراء والوزراء ، وأتذكر جدى - رحمه الله - إذ يقول لي في سالف الزمان « والله لن تفلح أبدا » !

كان يريدنى وزيرا أو حاجبا للخلافة العباسية الجليلة ، كما كان هو يرحمه الله !

ولكنا نريد ، والدنيا تذهب بنا حيث تريد ! ..

فهل ترانى أفلحت في شيء ؟ ! ..

# مائة ألف دينار .. وولايـــة مصـــر



● **اليوم الأول :**

أخذت فن الغناء وصنعة الضرب بالعود ، عن ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، وطارحت يحيى المكي المغنى العجوز ألحان الأقدمين حتى حفظتها وأحكمت حفظها ، وتفوقت على الجوارى المغنيات ، ونزلت سوق الرقيق فاشترانى سيدى صالح بن عبدالوهاب .. ولما قبض النخاس ثمنى همس فى أذنى :

- أبشرى .. فإن الله أراد بك خيرا ، فهذا السيد الذى اشتراك من أكبر بيوتات بغداد .. أخوه من حاشية أمير هاشمى قريب النسب من الخليفة المعتصم بالله !

ولما صرت فى بيت سيدى هذا عرفت أنه ليس من حاشية أمير عادى ، بل من حاشية أمير من أبناء الرشيد ، واسمه صالح أيضا .. صالح بن الرشيد ! ..

وفى أولى سهراتى فى بيت صالح بن عبدالوهاب ، جاء أخوه أحمد .. وجاء أيضا الأمير صالح بن الرشيد ! أخو الخليفة المعتصم ..

ولم أكد أمسك بالعود لأضرب وأغنى ، حتى دخل علينا اسحاق الموصلى ! .. جاء متأخرا ، لايبالى أن يجيء بعد الأمراء والكبراء ، فقد اعتادوا أن يتيه عليهم ، وأن يتلطفوا فى معاملته ، إكبارا لشأنه ، وانهم ليرون الخليفة المعتصم نفسه يعلى مكانه ويحبه ويجزل له العطاء ، وربما خصه بالحديث فيما لايتحدث فيه مع أكبرهم شأنا ، وكذلك كان يفعل الخليفة المأمون من قبل .. والخليفة هارون الرشيد أيضا ..

قال لى صالح بن الرشيد فى كبرياء ابن الخليفة وأخى الخليفة وعم ولى عهد الخليفة :

- ماذا تحسنين يا جارية من الغناء ؟ ! ..

فبادر اسحاق الموصلى فقال :

- إنها تحسن الغناء والضرب بالعود ، ولها فى التلحين صنعة تفضل صنعة بعض كبار المغنين ! ..

قال صالح بن الرشيد لاسحاق ضاحكا متأدبا :

- لم يزل دأبك يا أبا محمد انتقاص كبار المغنين ، ولا يلومك من يعرف قدرك فى الصناعة ، فأين هم منك ؟ ! ..

ضربت بالعود وغنيت لحنا لى فى شعر لمحمد بن كناسة كان اسحاق الموصلى معجبا به :

**فىَّ انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم**
**أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم**

فارتج الحاضرون طربا ، وعلى رأسهم صالح بن الرشيد ، ورأيته يحملق فى وجهى ، كأنه يقول فى نفسه ما أجمل هذه الجارية ! ..

● **اليوم الثانى** :

أقبل على سهرتنا بعض كبار المطربين وقد تسامعوا بجمال صوتى وإحسانى فى التلحين والضرب بالعود ..
رأيت المطربين الكبيرين مخارقا وعلويه لأول مرة ، وكنت أسمع بهما ويقول لى من يحدثنى عنهما مخارق أجمل المغنين المحترفين صوتا .. ثم علويه ! ..
وفى بغداد التى يبلغ عدد سكانها ألف ألف نسمة ، لايعرف الناس وجوه المغنين الكبار ، ولا يلتقون بهم ، لأن هؤلاء المغنين الكبار يتحركون فى دائرة القصور فقط .. قصور الخليفة والأمراء والوزراء والكبراء .. إلا أن أسماءهم الشهيرة تملأ أسماع بغداد ..
ويسكن هؤلاء المغنون فى الأحياء الفخمة القريبة من قصور العظماء ، وقد فرض عليهم قربهم من الطبقة العليا فى المدينة ، أن يحجبوا أنفسهم عن العامة ، فلا يعرف العامة إلا عبيدة الطنبورية وهى أحسن المغنيات الطنبوريات صوتا وصناعة ، ولكنها ابتذلت نفسها فى أعراس العامة وسهراتهم ، فصار أجرها لايتعدى دينارين فى الليلة ، فى حين يتقاضى المغنى الكبير ألوف الدنانير ! ..
وقد أوشكت أنا أن أصير مغنية مغمورة فى بيت من بيوت النخاسين الذين يجمعون فيها المغنيات ويدخلها الناس نظير أجر معين ، ويسمعون الغناء ـ وهم كثيرون ـ فى صخب وجهل بأصول السماع وآدابه ! ..
ولكن حظى الطيب عدل بى إلى بيت سيدى صالح ، فصرت كبيرة الأمل فى أن أصير يوما الى منزلة أكون فيها مساوية أو مقاربة للمغنيات المترفات اللاتى أسمع عما يتمتعن به من مال وجاه ومجد فى قصور الأمراء والكبراء ..
غنيت فى السهرة طويلا ، ومخارق وعلويه يسمعان ، وينظران إلى يدى على أوتار العود ، حتى فرغت من غنائى ، فقال لى مخارق :
ـ والله .. ما أنت ياجارية بأقل شأنا ممن سمعنا غناءهن فى قصر الخليفة وقصور الأمراء والوزراء .. وإنك فوق جودة غنائك لفائقة الحسن .. فما اسمك أيتها الحسناء ؟ !

قال سيدى
ـ اسمها قلم ! ..
قال علويه :
ـ فهى إذن قلم الحسناء ! ..

● **اليوم الثالث** :

مات الخليفة « المعتصم » .. وتولى الخلافة ولده « هارون الواثق » .. وهو يحب

الغناء .. وسمعت اسحاق الموصلى منذ قليل يقول : « الواثق أكثر معرفة بالغناء من المغنين الذين يسمعهم » ! ..

وحدثنى سيدى صالح بن عبدالوهاب أن الواثق لما جلس أخيرا بعد مبايعته بالخلافة ، دخل عليه الشاعر على بن الجهم ، فأنشده :

**قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الواثق هارون**
**وعم بالاحسان من فعله فالناس فى خفض وفى لين**
**ما أكثر الداعى له بالبقا وأكثر التالى بآمين**

ثم أنشده ابن الجهم أيضا :

**وثقت بالملك الواثق**
**بالله النفوس**
**مالك يشقى به المال**
**ولا يشقى الجليس**
**يابنى العباس يأبى الله**
**إلا أن تسوسوا**

فقلت لسيدى :

ـ ألم ينشده أبو تمام الطائى عظيم الشعراء شيئا ؟ !

قال :

ـ الواثق لايقرب إلى مجلسه إلا صغار الشعراء ، وأظن أن أبا تمام لن ينال منه شيئا مدة خلافته ، مع أن أبا تمام هو الذى أغرى « المعتصم » بجعله وليا للعهد ، بمدائح كثيرة مشهورة .. حسبك منها قوله :

**فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار**
**ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار**

صنعت لحنين جميلين فى الشعر الذى نظمه ابن الجهم ، وجاءت إحدى جوارى صالح بن الرشيد فحفظت اللحنين .. ثم بلغنى أن الواثق لما سمعهما أعجب بهما وسأل عن صاحبهما ، فذكروا له اسمى وحدثوه عنى ..

## ● اليوم الرابع

غنت إحدى جوارى الواثق لحنى فى شعر محمد بن كناسة : «فى انقباض وحشمة» .. فسأل عن صاحب اللحن فذكرونى له ، فقال :

ـ أهى «قلم» التى لحنت من قبل فى شعر ابن الجهم ؟

ثم أرسل إلى وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فأمره بأن يشخصنى إليه مع سيدى صالح بن عبد الوهاب ..

غنيت فى حضرة الواثق فطرب أشد الطرب ، وقال لسيدى

- بكم تبيعها ؟ !
- بمائه ألف دينار وولاية مصر ! ..
فغضب الواثق ، وظننت أنه سيأمر بقتل سيدى ، ولكنه هدأ .. وأعرض عنى وعن سيدى ، وأمر فغنى المطرب زرزور الكبير لحنا ، فلما أتمه سأله عن صاحب اللحن ، فقال : قلم ! ..
فرأيت الواثق قد تحير ، وتنازعته الرغبة فى شرائى ، والنقمة على سيدى الذى اشتط فى ثمنى حتى اشترط الولاية على مصر ! ..
ونظرت إلى سيدى صالح فوجدته قد فطن الى خطئه وخشى مغبة تطاوله على الخليفة ، فقام بين يديه مطأطئا
يقول :
- يا أمير المؤمنين .. أما وقد رغبتم فيها فما يجوز أن أملك شيئا لكم فيه رغبة ، وقد أهديتها إلى أمير المؤمنين ، فإن أكبر ما يتناهى إليه أمل هذه الجارية أن أصيرّها إليه ، فبارك الله لك يا أمير المؤمنين فيها ! ..
وتهدج صوت سيدى فى آخر كلماته هذه كأنه ينتزع روحه من بين جنبيه ، فلم يبال الواثق بحاله هذه التى تدعو للشفقة ، وقال له :
- قد قبلنا الهدية ! ..
ثم التفت إلى أبن الزيات الوزير وقال
- ادفع إليه خمسة آلاف دينار ! ..
فكادت الأرض تميد بى ، فقد أنحط ثمنى من مائه ألف دينار وولاية مصر ، إلى خمسة آلاف دينار ! ..

## ● اليوم الخامس :

تسللت إحدى الجوارى وأخبرتنى أن سيدى السابق صالح بن عبد الوهاب يستنجد بى ، لأن الوزير المتعسف ابن الزيات قد مطله بثمنى فلم يعطه دينارا واحدا ، فضاعت منه مائة الف دينار وولاية مصر .. ثم ضاعت الألوف الخمسة المتواضعة من الدنانير ! .. فكأنه أهدانى للخليفة بلا مقابل ، أو باعنى بلا ثمن ! ..
غنيت الخليفة لحنا جميلا فطرب وقال له :
- بارك الله فيك وفيمن رباك وعلمك ! ..
قلت :
- ياسيدى ... وما نفع من ربانى منى إلا التعب والغرم على تربيتى ثم الخروج منى صفر اليدين ؟ !
قال متعجبا :
- إنى أمرت له بخمسة آلاف دينار ! ..
قلت
- بلى .. ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئا ! ..

فغضب الواثق ودعا بخادم من خاصة خدمه ، وكتب إلى ابن الزيات بحمل الخمسة آلالاف الى سيدى ومعها خمسة آلاف دينار أخرى .

وأخذ الخادم بيد سيدى الى ابن الزيات ، فجزع الوزير وقال لسيدى :

ـ أما الخمسة الآلاف الأولى فخذها فقد حضرت وهذه هى فى متناول يديك ! .. وأما الأخرى فأنا أدفعها إليك بعد أسبوع ! ..

فأخذ الخمسة الأولى ومضى وانتظر الوزير فتناساه كأنه لم يعرفه ! ..

فبلغنى أن سيدى صالحا لما تجاهله الوزير ومطله بالخمسةالأخرى كتب إليه يقتضيه ، ثم خشى أن يلفق له الوزير تهمة ويدخله فى «التنور» الذى يرمى فيه من يغضب عليهم .. وكان ابن الزيات غليظ القلب ، يقول «الرحمة خور فى الطبيعة» .. وبحث الوزير عن سيدى فلم يجده فى أى مكان يعرفه فخاف أن يعود فيشكوه للخليفة ، فأرسل إليه المال المتأخر كله بعد أن عثر رجال الشرطة على سيدى ، واستكتبه الوزير كتابا بقبض المال ! ..

اهتم الواثق بقصة سيدى اهتماما كبيرا ، لأنه كان مغيظا من وزيره الذى كثرت منه شكاوى الناس ، وبخاصة من رماهم فى «التنور» وعذبهم فيه أشنع عذاب ! ..

وبعد مدة أرسل لى سيدى من يخبرنى أنه ابتاع بالمال ضيعه طيبة ، جعلها مورد رزقه ، وأقسم ألا يقترب مرة أخرى أبداً من عمل للخليفة أو الوزير أو لأحد من رجال السلطان جميعا .

وقال لى من أبلغنى رسالته إنه أقسم أيضا إلا يشترى جارية مغنية ولا غير مغنية أبداً بعد الآن ، لكيلا تقع عليها رغبة كبير من الكبراء أو عظيم من العظماء ، فإذا عارض رغبته هذه كان فى ذلك حتفه ! ..

ودعوت لسيدى الذى ربانى بطول البقاء !

# فهرس

صفحة

# يوميات المغنين والجوارى



الجزء الأول

يطلب من دار الهلال
والمكتبات الشهيرة

١٩١



رقم الايداع ٢٠٥١ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٧ - ٣٤٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

٣٠٠ قـرش